

لذلك لا يُدِيم الله سبحانه غنى أحدٍ أبد الدهر ، بل جعل الدنيا دُولاً^(١) بين الناس .

إذن : فلو عرف هذا المَلَأ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - معنى كلمة الفضل^(٢) لما قالوها ، لأن الفضل هو الزائد عن المطلوب للكائن ، في المحسوسات أو المعاني والفضل يقتضى وجود فاضل ومفضل .

ولننظر كل طاغية في حياته ليرى ما الفاضل فيها ؟

إنه بعض من المال أو الجاه ، وكل مَنْ يخدم هذا الطاغية هم أصحاب الفضل ، لأن سيادة الطاغية مبنية على عطائهم .

فهم أصحاب الفضل ، ما دام الفضل هو الأمر الزائد عن الضرورى .

إذن : فحقيقة ارتباط العالم بعضه ببعض ، هو ارتباط الحاجة لا ارتباط السيطرة ، ولذلك حين نرى مسيطراً يظغى ، فنحن نقول له : تعقل الأمر ؛ لأنك ما سيطرت إلا بأناس من الأراذل ، فأظهار قوته تكون بمن يجيدون تصويب السلاح ، أو بمن تدربوا على إيذاء البشر ، فهو يبنى سيادته ببعض الأراذل ، كوسائل لتحقيق سيطرته .

وقول الكافرين من ملا نوح - عليه السلام - :

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ..﴾ (٢٧) ﴿

[هرد]

يكشف أنهم قد فهموا الفضل على أنه الغنى ، والجاه والمناصب ، وهم قد أخطأوا الفهم .

(١) الدُّرَّة : اسم للشيء الذى يتداول ، والدُّرَّة : الفعل والانتقال من حال إلى حال ، [يتصرف من لسان العرب - مادة : دول]

(٢) فالفضل بمعنى الكثرة يخالف الفضل فى مفهوم المؤمن : فالفضل عند الكافر هو المال والسلطان ، وفى مفهوم المؤمن هو الاسطفاة والعطاءات والهيئات الإلهية التى يصطفى الله سبحانه بها الرسل والأنبياء والمخلصين من عباده .

وَيُنْهِى الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ :

[هود]

﴿.. بَلْ نَقْظُكُم كَآذِبِينَ (٢٧)﴾

والظن^(١) هو الراجح، والرجوح هو الوهم، وهذا يثبت أن في الإنسان فطرة تستيقظ في النفس كومضات، فالمتكبر يعضي في كبره إلى أن تأتي له ومضة من فطرته، فيعرف أن الحق حق، وأن الباطل باطل.

وحين جاءت هذه الومضة في نفوس هذا الملا الكافر، قالوا :

[هود]

﴿.. بَلْ نَقْظُكُم كَآذِبِينَ (٢٧)﴾

ولم يقولوا : «نعتقد أنكم كاذبون».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالَ يَفْقَهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَعٍ مِنْ رَبِّي وَءَالَيْهِ رَحْمَةُ

مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوَآءِجَ هَآكِرِهِمْ (٢٨)﴾

وقول نوح عليه السلام : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أى : أخبروني إن كنت على ينة موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية ، وآتاني الحق سبحانه : ﴿رَحْمَةً﴾ أى : رسالة ، بينما خفيت هذه المسألة عنكم ، فهل أجبركم على

(١) الظن : ما يحصل في النفس من أمارة ، فهو شك واجح ، وفعله من أفعال الرجحان . والظن : مصدر ، والظن : اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿.. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَكْفِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون . وقال تعالى : ﴿.. وَظَنُّوا بِاللَّهِ الظُّنُونَا (٢٨)﴾ [الأحزاب] الظنون بالفتح في الوصل ، وفي الوقف ، ويغير ألف فواحة : [القاسم من القويم] .

(٢) البينة : الحجة الواضحة الموضحة للحق . والبينة : الظاهرة الواضحة التي لا شك فيها ، أو هي مبينة للحق مقيدة له ، مظهرة لأمره . قال تعالى : ﴿كَمْ أَتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ (٢٨)﴾ [البقرة] . [القاسم من القويم] يتصرف .

ذلك ؟ لا ، لأن الإيمان لا بد أن يأتي طواعية بعد إقناع ملموس ، وانفعال مأنوس ، واختيار بيقين^(١) .

وحين ننظر في قوله :

﴿.. أَنْزَلْنَاهَا مَكُونًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)﴾ [هود]

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل «نزل» ثم كاف المخاطبة ، وهنا نكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مضمور في الفعل ، ومفعول أول هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة .

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب^(٢) ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزوع الإيمان في القلوب .

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخضع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم^(٣) كما أخضع الكون كله له ، فهو سبحانه القائل :

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ .. (٢٧)﴾ [التأوهات]

فالحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر^(٤) ، وكل الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿سَرَّيْنَاهُمْ أَنْفُسًا فِي الْأَفْئَالِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ .. (٥٢)﴾ [فصلت]

(٢) القلوب لها حكومة خاصة ، يقول الحق : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ لَمْ يَكُنْ قُلُوبُ أَفْئَالِهِمْ (٥٣)﴾ [محمد] ويقول : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٥٤)﴾ [الأنفال] فإيمان القلوب إيمان العاقلين ، وإيمان

القوالب إيمان المكرهين والمرائين والمتناقضين ، وهناك فرق بين قبول اليقين ومنطق المكرهين .

(٣) وروى العروة سبحانه يقول : ﴿وَقَدْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَتَمِّنَّ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا آنَاثَ نَكْرَهُ النَّاسُ حَتَّى يَكُونُوا مَوْتِينَ (٥٥)﴾ [يونس] ، ويقول أيضاً : ﴿.. وَقَدْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ لَا تَكُونُ مِنَ الْضَالِّينَ (٥٦)﴾ [الأنعام]

(٤) يقول الحق : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥٧) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٥٨) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٥٩)﴾ [الرحمن] ويقول الحق : ﴿تَبَٰرَكَ الَّذِي يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِذْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٦٠)﴾ [الإسراء]

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ..﴾ (٥٧) [خافوا]
والكون كله يخضع لشيئة الله سبحانه وتعالى .

وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال
سبحانه عنهم :

﴿ .. لَا يَقْضُونَ إِلَهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) [التحريم]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد نوالب لأخضع الخلق كلهم
 لعبادته ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخضع ؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :

﴿ تَعْلَمُ بَاطِنَ "نَفْسِكَ" أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) إِنْ نَشَأْ نُغَوِّرْ عَلَيْهِمْ مِنْ
السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٤) [الشعراء]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عَنْ رَغْبَةٍ إِخْضَاعِ الْقَوَالِبِ الْبَشَرِيَّةِ ،
بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ؛ ولذلك لا يُكْرِهُ اللهُ سبحانه
أحداً على الإيمان .

والذين لا يكون بالإكراه ، بل بالطوعية والرضا .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ "﴾ (٢٥٦) [البقرة]

وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على
العقل ، فالعقل بالإدراك يفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب يتزع
إلى اختياره بيقين المؤمن .

(١) ينسب نفسه ، بمنأى وبمفرجاً : فعلها هَمّاً وَهَيْئَةً وَحِزْناً . وقال تعالى : ﴿ تَعْلَمُ بَاطِنَ "نَفْسِكَ" أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الكهف].
ثم يؤمراً بهذا الحديث أمناً (١٧) [الكهف].

(٢) الغي : الضلال والانهمك في الجهل .

يقول الحق :

﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَالِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران]

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَّبِعٍ ، أما الدين فأمر يتَّبِعُ فيه الرشد ؛ لأن المنهج حين يطلب منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمي محارمك ، وحين يأمرك ألا تفتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففي هذا كله راحة للإنسان .

إذن : فما يطلب المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت في مطلوبات المنهج فلن تجد لها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً . وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاءً .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البينة واضحة فاصلة بينه وبين الغي .

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية في غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلّي تجده يقول لك :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢٥٦)﴾ [البقرة]

ولك أن تقول له : لا إكراه في الحمل على الدين والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدين فلإياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين ؛ لأن الحق سبحانه لم يكره أحداً على الدخول في الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويشير ؛ لأنه إن دخل في الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب ؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٠

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضى إقامة الحد على المرتد^(١) ومعاقبة العاصي على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة فى الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَيُكَفِّرُنَّ بَرَّكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٦١)

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففى مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ..﴾ (٦٢) [الأنعام]

لأن العوض فى التبادل قد لا يكون مالا ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر - كما نعلم - هو أعم من أن يكون مالا أو غير مال ، لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

(١) حد المرتد فى شريعة الإسلام هو القتل ، فقد روى البخارى فى صحيحه (١٢/٢٦٧ - فتح) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «من بدل دينه فاقتلوه» ، وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير نفس» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٧٦) .

ولكن يجب أن ينشأ إلى أنه لا يحكم بالردة أحد إلا بعد صدور ما يدل على كفره دلالة قطعية لا تحتمل التأويل ، حتى تُنسب إلى الإمام مالك أنه قال : «من صدر عنه ما يحتمل للكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه ، حُمل أمره على الإيمان» . ولا يطبق حد الردة إلا بعد الاستجابة لثلاثة ثلاثة أيام .

(٢) أى : لا أسألكم على تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله والإيمان به مالا أو غيره .

(٣) إن - منا - نافية ، بمعنى : تمام أو ليس ، أى : ما أجرى إلا على الله .

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ (٢٩) [هود]

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغلَى الأمر.

وقول الرسول :

﴿إِنْ أَجَرْتُ^(١) إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ (٢٩) [هود]

هو قول يدل على أن الأمر الذي جاء به الرسول هو أمر نافع ؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة .

ونحن نعلم أن مبادلة الشيء بعبث أو ما يساويه ؛ تُسمى شراء ، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين ، وتظل العين ملكاً لصاحبها ، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً ، فكأن نوحاً عليه السلام يقول : لقد كنت أستحق أجراً لأنني أقدم لكم منفعة ، لكنني لن أخذ منكم شيئاً ، لا زُهداً في الأجر ، ولكنني أطمع في الأجر من هو أفضل منكم وأعظم وأكبر .

ولأن هذا الملاك الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أراذل^(٢) ؛ لذلك يأتي الرد من نوح عليه السلام :

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٢٩) [هود]

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير ، فاليتقين الإيمان لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة .

(١) أجرة : يؤجره إيجاراً : أجر من فلان الدار وغيره ما : أكثرها منه ، وأجره يؤجره مؤجرة استأجره .
اتخذ أجيراً أو الإجارة : الأجر على العمل : عقد عليك نفع مقصود من العين بعرض ، والأجرة عرض العمل والانتفاع ، والأجر الذي يكنى العامل للعيش والأجر الحقيقي القوة الشرائية للنقد الذي يحصل عليه العامل والأجرة : الأجر . والأجير من يعمل بأجر وأعظم الأجر عطاء الله المعجم الوجيز بتصرف .

(٢) والأراذل جمع رذل ، وقيل : الواحد أرذل والجميع أراذل ، وقد غلبت عليه السمية وإن كان وصفاً (البيان في إعراب القرآن)

ولا يَخْلِي رسولٌ مكاناً من أتباعه الفقراء ليأتى الأغنياء ، بل الكل سواسية أمام الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ^(١) يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ^(٢)﴾ (٥٤)

[الأنعام]

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة «أراذل» فتنه ، فمن تكبر بسبب فقر وضعف اتباع الرسل ، فليغرق في كبره .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا^(٣) بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ^(٤) اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ^(٥)﴾ (٥٥)

[الأنعام]

وأيضا يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ، وألا ينصرف عنهم أو عن أى واحد منهم ، فيقول الحق سبحانه :

(١) أى : نهائياً وليلاً . والمراد أنهم دأبوا الدعاة للمذنب المألين .

(٢) نزلت هذه الآية في بضعة نفر من فقراء وضعفاء المسلمين منهم : ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال . فقد قلت فريض لرسول الله ﷺ : إننا لا نرضى أن نكون أنهاراً لهؤلاء فاطرهم ، فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فنزل الله تعالى الآية . أخرجه التيسيرى في أسباب النزول (ص ١٢٤) .

(٣) فتنا : اختبرنا . والفتنة : الاختبار بالنار ، واستميرت لكل اختبار شديد . وقال تعالى : ﴿وَمَا أُنْفِمْ عَلَيْهِ بَاقِينَ﴾ (١٢٢) [الصافات] .

(٤) من عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . وقال تعالى : ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٢٥٣) [آل عمران] [القاموس المفهرس] .

﴿وَأَمِيرٌ نَقَلَكْ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

جاء هذا القول حتى لا ينشأ فساد أو عباء بين المؤمنين برسول الله ﷺ ، ولا يقال : «فلان مُقَرَّبٌ منه» ؛ ولذلك كان ﷺ إذا جلس ، يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يظن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه .

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ .. (٢٩)﴾ [هود]

وفي هذا بيان أن نوحاً - عليه السلام - لن يطرد هؤلاء الضعاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلاقون الله تعالى ، أسمع نوح عليه السلام أن يقال عنه أمام الحق - تبارك وتعالى - إنه قد طرد قوماً آمنوا برسائله ؟ طبعاً لا .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه يحاسب رسله ، والمرسل إليهم ، فهو سبحانه القاتل :

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٣٠)﴾ [الأعراف]

(١) عدت عنه : تجاوزته وأهملت النظر إليه وامتنعت عنه ، كناية عن الإعراض وعدم الاهتمام . قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨)﴾ [الكهف] أي : لا تركهم ولا تهملهم . [القاموس المفيد] .
(٢) قوله تعالى : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٣٠)﴾ [الأعراف] كقول : ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٣١)﴾ [النقص] وكقوله : ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٣٢)﴾ [البلاغ] .
ومن النص القرآني نأخذ حديث رسول الله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [ابن كثير بتصرف ص ٢٠٦ ، ج ٢] .

إذن : فترح - عليه السلام - يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملا الكافر من قومه يجهلون ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٢٩)

[هرد]

أى : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُوهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٠)

وهنا يوضح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف ؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله - عز وجل - لحظة الحساب ، فهناك يوم لا ملك فيه لأحد إلا الله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد يقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى ؛ لأنه القاهر فوق كل خلقه .
والنصر - كما نعلم - يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهي بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع في طرد مؤمن من حظيرة الإيمان .
وفى هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣١)

[هرد]

أى : يجب ألا تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تذكروه .

وكما جاء الحق سبحانه بالتذكّر ، وهو الأمر الذى بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكير ، وهو التأمل لاستنباط شيء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكير ، الذى يجعل الإنسان فى تأمل يقوده إلى تقدس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق التى تكشف له معالم الطريق .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٥٦٤٤

وجاء الحق - سبحانه - أيضاً بالتدبر ، أى : ألا يأخذ الإنسان لأمور
بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر ^(١) ، بل لا بد من البحث فى حقائق
الأشياء .

لذلك يقول الحق جلّ وعلاً :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ^(٢) الْقُرْآنَ .. (٨٦) ﴾ [النساء]

أى : أفلا يبحثون عن الكنوز الموحدة فى المعطيات الخفية للقرآن .
والتدبر هو الذى يكشف لمعاني الخفية حجب ظواهر الآيات ، والباس
بتفاصيلها فى تعرضهم لأسرار كتب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعانى .
ولذلك لجحد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « تَوَرَّوا الْقُرْآنَ » ^(٣)
أى : قَلَّبُوا معاني الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات
بظواهرها ، فعجائب القرآن لا تنقضى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح .

(١) وقد قال هر رجل ، ﴿ وَحَدَّ اللَّهُ لَا يُخْفَى اللَّهُ وَغَدَاً وَلَكِنْ أَكْثَرُ أَشْيَاءٍ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) يعلمون ظاهراً من الحياة
الغيبية وهم عن الآخرة هم غافلون (٢) ﴿ [الروم] وقد كان هذا تعقيباً منه سبحانه لقصة الروم وأنهم
سيستصبرون على الضرر فى بضع سنين ، وقد استمرّب الناس يومئذ ذلك ، بسبب اعتمادهم بظواهر
الحياة الدنيوية دون النظر إلى عواقب الأمور وسير الأمم من قبل رَأْفَدَارِ اللَّهِ فى تصرفهم بشؤون خلقه .

(٢) تدبر تأمل فى أديار الأمور وعواقبها وبهاياتها ، أو تأمل لمعرفة حقائق الأمور - وقد تعالى
﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَهْلُهَا ﴾ (٣) ﴿ [محمد] أى : هل تنجزوا وعمو فلا يتأملون معاني
القرآن ويصبرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - ومن همرة الاستهزام وفاء العطف فمن محذوف
دائماً والنسى أحضروا فلا يصبرون [القاموس المقيوم]

(٣) ذكره ابن مطور فى اللسان (مائة ذرة) ، قال « وفى حديث عبد الله أنىرو القرآن فإن فيه حبر
الأولين والأخريين ، وفى دراية : علم الأولين والأخريين - قال شمر : تنوير القرآن قراءته ومفاتيحه
العلماء به من تيسيره ومجانيه ، وقيل : ليتفرع عنه ويذكر فى مجابهة وتفسيره وقراءته »

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ^(١)
وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ
لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)

وهكذا يَسُدُّ نوح عليه السلام - على هذا الملاك الكافر كل أسباب
إعراضهم عن الإيمان ، فإن طلبوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فتوح لا يملك
خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملاك ، وإن طلبوا أن يكشف لهم
الغيب ، فالغيب عنده عند الله تعالى وحده .

ولم يَدْعُ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ،
لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب .

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمَنَ مِنَ الضُّعَافِ الَّذِينَ تَزْدِرِيهِمْ
وتحتقرهم وتهكم عليهم غيبيون هذا الملاك الكافر ، لأن نوحاً يحشى سؤل
الله - عَزَّ وَجَلَّ - له إن سَدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ..﴾ (٣١) [هود]

(١) هاب الشيء بغيب غيباً وخبياً وعيلاً وغيوباً بعد دهر غائب ، والجمع غيب وغياب والغيب كل ما
غاب منك ، وجمعه غيوب وفي التبريل ﴿... علم الغيوب﴾ (٣٢) [المائدة] وقوله تعالى ﴿وحده
مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا خبء في ظلمات الأرض
ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ (٣٣) [الأنعام]

(٢) تزدري تحقر ، والازدراء ' الاحتقار والانتقاص والعب [لسان العرب]

ولم يحظ هنا أن الخطاب قد حُوّل إلى الغيبة^(١) ، قدم يحاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم : إن الله سيمنع عنكم الخير ، ذلك لأن الله سبحانه ، عليم بما في نفوسهم ، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من ضائعين .

لَمْ فِي كَلِمَةٍ ﴿لِّلَّذِينَ﴾ تعني الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف

ومعنى «اللام» بمعنى «عن» له نظائر^(٢) ، مثل قول الحق سبحانه : ﴿... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا سَمِعْنَا مَرْثِيًّا﴾ [سج] وهم هنا لا يقولون بلحق ، ولكنهم يقولون عن الحق ، وهكذا جاء «اللام» بمعنى «عن»^(٣) .

وهكذا أوضح نوح - عليه السلام - أنه لو طرد من يقال عنهم «أراذل» ، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح - عليه السلام - يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس ؛ لذلك لا يصع نوح نفسه في موضع الظلم لأنفسه ولا لغيره

(١) وهذا يعرف في أساليب البلاغة بالانزياحات ، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أي من المتكلم أو الخطاب أو السبب إلى آخر منها ، بعد التعبير بالأول . (انظر الإقناع في علوم القرآن - لسبوطي) (٢٥٣ / ٣)

(٢) من أمثلة اللام بمعنى «عن» أيضاً ، قوله تعالى ﴿وَقَالَ ثَلَاثِينَ كَفَرُوا وَلَٰذِينَ آمَنُوا وَكَانَ فَرَقًا مَّابَيْنَهُمَا﴾ [الأنعام] أي عنهم وعن عنهم ، لأنهم يحاطبوا به المزمعين ، وإلا لقل ، كما سبقتموه .

(٣) اللام ' حرف يجر الظاهر والمضمر ، ويؤدى عدة معان منها : انتهاء العاية ، والسلك ، وشبه المثلث ، والدلالة على التحليل ، والدلالة على شبه التمثيل ، والدلالة على السبب ، والتعدي المجردة ، والتسليم ، والتوكيد للحض ، والنفوية ، والدلالة على القسم والتعجب معاً ، والدلالة على التعجب بعير قسم ، والدلالة على الصاقية للتظفر ، والدلالة على التبليغ ، والدلالة على التيسر ، وأن تكون بمعنى «بعد» ، وأن تكون بمعنى «قبل» ، وأن تكون بمعنى «مع» ، وأن تكون بمعنى «عد» . . . انظر تفصيل ذلك في [النحو الوافي : (٢ / ٤٧٦ - ٤٨١)]

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : (١)

﴿ قَالُوا يَسُوءُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَإِنَّا بِمَا نَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٢)

والجدال هو قول كلام يقبل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف مسكلم أن يرضخ الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو شبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتعاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة «الجدال» مأخوذة من «الجدل» أى القتل ، وقتل الحبل إنما يأتي من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أى مادة مثل هذا أو ذاك ، ثم ضم شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بلف كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل

ويقال للرجل القوى «مفتول العضلات» ، أى أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أى : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلى فأنت تندهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذى خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتأزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهى تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتعت الحركة المقابلة لها .

(١) جدال : محاسم بالحق والباطل واستعمل فى قول تعالى ﴿وَمَا أَتَمَّ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ هِىَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (١٥) [الباء] واستعمل فى قول تعالى ﴿وَجَادَلْتُمْ بِالَّذِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (٦٢٥) [النحل] ، وقد نهى الله سبحانه حجاج بيته الحرام عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة بلحية بينهم ، قال تعالى ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ﴾ (٢٩) [الفرقة] [الشمس النور]

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٤٤٩

وهم قد قالوا نوح عليه السلام :

﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا ﴾ (٣٢) [هود]

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ، ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المراءاة^(١) ، لأن لجدال إنما يكون لحق ، والمراءاة يكون بعد ظهور الحق .

الجدال - إذن - مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَادَلْتُهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١٢٥) [التحل]

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْإِنْسِي^(٢) تَجَادَلْتُ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (١) [المجادل]

[المجادل]

إذن . فالجدال مطلوب لنصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ، لا احتكاك فيه ولا إيذاء^(٣) .

(١) المراءاة والجدال ، وأصل المراءاة من المراءاة أي يستخرج الرجز من منظره كلاماً ومبادئ المحسومة وغيرها

من مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها . [انظر اللسان] والمراءاة والمعاراة يحمل معاني الشك والريبة في الأمر مما يستدعي جدلاً أكثر وأعمق وطول ، وهذا معنى

(٢) هي امرأة يقال لها خيولة بنت ثعلبة ، اشكت زوجها ابن رسول الله ﷺ قائلة يا رسول الله ، أكل مالي ، وأغنى فسيبي ومشرت له بطي ، حتى إذا كبر سبي وانقطع وبدي ظاهر مني ، ألهم إني أشكر إليك ، قالت عائشة رضي الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية - ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْإِنْسِي تَجَادَلْتُ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ [المجادلة] وزوجها هو ابن ابن الصامت انظر تفسير ابن كثير (٣١٨ / ٤) وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٣٦)

(٣) يقول تعالى - ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَبِالرَّحْمَةِ فَخَيْرٌ مِنْ جِدَالٍ ﴾ (١٦٩) [النحل] أي : من احتجاج منهم إلى مناقرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن يربق ولين وحسن خطاب ، كقوله معني - ﴿ وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَاطِلِ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. ﴾ (١٥٩) [التكوير] انظر ابن كثير (٥٩١ / ٢)

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكك الآراء ، فالتحكك كالتلحك ، وهو الرغبة في عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذي يوصل إلى الحق ، مثلما يحك الرباد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكك ^(١) فهو يورى ويطمس الحقيقة

والمرء هو الخداع بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى ^(٢) الصرع ، فحين يقومون بإنزال الدين من صرع الناقة أو البقرة ، فالصرع يكون ملان ، وينزل منه اللبن بشلة وقوة ، وبعد أن ينتهي حَلَبُ الصرع ، يظل من يحلبها مُتَسَكِّاً بحلمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقي من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير : المرعى

ولذلك أخذوا من هذه العمية كلمة «المراء» ، وهو ما بعد ظهور الحق . وهناك بجانب الجدال والمراء ، والاحتكاك ، والتحكك ، الحجاج ، والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم .

وبعد أن مكثوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن يرسل بهم العذاب الذي أنذرهم به ، وقد استطأوا مجيء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ .. فَأَتَيْنَا بَعَا بَعْدًا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْهَادِينَ ﴾ ^(٣) [هود]

وكانهم بهذا القول - قد أخرجوا نوحاً مَخْرَجاً من يده أن يرسل بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هي ملك لله سبحانه وتعالى

(١) التحكك - التحرش والتعرض وإنه لينحكك بك ، أي يتعرض لشركه . [اللسان - مادة : حكك]
(٢) المرعى : مسح صرع الناقة لتدبر اللبن ، والمرعى الناقة تدبر على مس مسح ضرعها وتقبل هي الناقة الكثيرة اللبن . [اللسان - مادة : مرى] .

وجاء في المصباح السير مأوته أمارية عاراة ومراء : جادلته . وتقدم القول إذا لريد بالجدال الحق أو الباطل ويقال مأوته إذا جئت في قوله نزيهاً للقول ونصغيراً للقول ، ولا يكون (المراء) إلا اعتراضاً بجدال فإيه يكون ابتداءً واعتراضاً واعتري في أمر شك فيه . مصروف ص ٥٧٠

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٢٢)

لأن الحق سبحانه هو الذى يقدر للعذاب أوأناً ، ويقدر لكل تعذيب ميلاداً ، ولا يعجل الله بعجلة العباد حتى تلغ الأمور ما أراد .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفعلوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة فى الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تنأى " عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على سنان نوح عليه السلام :

﴿ وَلَا يَنْفَعُكَ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ

اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٤)

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فس تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم ؛ لأن الآية بها تعدد الشرطين .

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طاساً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : « إن جئتني عدأ أقبل اعتذارك إن كان معك والدك »

(١) نأى : تبسج وبرهض الانصياع والطاعة . وروى المرأة سبحانه يقول ﴿ إِنَّهُ كُلٌّ مِنْ لِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَنِّي الرَّحْمَنُ عَلِيمٌ ﴾ (٣٣) ﴿ [مريم] .

(٢) نصح له ونصحه نصيحاً ونصيحة : تحرى ما يصلح له وأراده الخير والنفع ودنه عليه . ونصح له الرد أخلفه . ونصح لله : أطاعه وأخلص لدينه . ونصح للرسول : صدقه وأخلص له ولم يخالف أمره سرأ ولا علناً . ومن النصيح بهى لإرشاد والدلالة على الخير ، بقول تعالى ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَبَكُنْ لَا تُغْوِيَنَّ النَّاصِيحِينَ ﴾ [الأعراف] ، ويقول ﴿ وَلَئِنْ كُنْتُمْ نَاصِحِينَ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ [الأعراف] [الناسوس القويم]

(٣) أغواء : أضله وأوقعه فى الغي والضلال . قال تعالى ﴿ فَالْمُؤْمِنُونَ كَمَا غَاوِينَ ﴾ (٣٧) [الصافات]

وقول الناظر : «إن كان معك والدك» هو شرط متأخر ، ولكنه كان يجب أن يتقدم

وفي الآية الكريمة - التي نحن بصددتها - جاء الشرط الأول متأخراً ، ولكن هل يعوى الله سبحانه حياته ؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والعواية هي الصلال ^(١) ولبعد عن الطريق المستقيم والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ :

﴿ مَا صَلَّيْنا صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ^(٢) ﴾ [التجم]

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

﴿ .. وَغَشَى آدَمُ رُبَّهُ فَغَوَى ^(٣) ﴾ [طه]

ونحن يجب ألا نقع في الافة التي يحظى بها البعض بها ، حين يستملون الصلح العفائد على أساس ما اشتهر به للفظ من معنى ؛ فالألفاظ لها معان متعددة لذلك لا بد أن نعرض كل معاني اللفظ لتأخذ اللفظ المناسب للسياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُرًا أَصْلَابةً وَأَتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ فيها ^(٤) ﴾ [مريم]

(١) صل ، غلب عنه بحجة وعدد من الحق والصلال النسيان والضياع وفصل الشيء حلق وغاب فهو يأنى لا رماً كما في المثال السابق

ويأتي متعدياً مثل ، صل للشيخ الطريق ، وقد نعى الله عن رسوله الصلال والعواية ، وأثبت أنه هو الناطق منه وبه وبه ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى ^(١) ﴾ (إن هو إلا رحي برحي ^(٢)) [التجم] القاموس القويم مع تفسير البرهان بالاحتصار

(٢) غري يصرى غياً ، وحوى يغوى عوابة انهماك في الجهل ، وهو ضد الرشيد وحوى بمعنى حجاب وقيل ، لأنه انهماك في الجهل

(٣) الغى سعى به رادى جهنم وقيل بذلك قوله ﴿ فسوف يلقون غياً ^(١) ﴾ (مريم) أى جراء الغى ، أو يدخلون وادى الغى في جهنم [القاموس القويم]

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٥٣

وقوله سبحانه هنا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

أى . سوف يلقون عذاباً ، لأنَّ فيهم كان سبباً فى تعذيبهم ، فسمى العذاب باسم مُسبِّهه

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۚ﴾ [الشورى]

واحق سبحانه لا يُسىء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمى ما يلقاهم من العذاب سيئة^(١) .

وكذلك «الغى» يرد بمعنى «الإغواء» ، ويرد بمعنى الأثر الذى يترتب عن العى من العذاب .

وقد عرهن الحق سبحانه وتعالى فى كتابه صبراً متعددة للإغواء ، فأدم عليه السلام حين تَكَبَّبَ^(٢) عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألا يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى فى هذا الموقف

﴿.. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١١١)﴾ [صه]

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا حالف المنهج فى «افعل» و«لا تفعل» ستظهر عورته وتبدو له سوءاته^(٣)

(١) وهذا يعرف بـ«تشابه» وهو ذكر الشيء بفظ غيره لوصفه فى صهيته ، ومثاله قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۚ﴾ [الشورى] : لأنَّ الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة . ومثله قوله تعالى ﴿وَمَكُرُوا وَكُورَ اللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران] مطلق لكفر فى جانب البارى تعالى (بما هو خفاؤه ما معه نظر الإتيان فى علوم القرآن ٢٨١/٣) .

(٢) تكبب عن الشيء . ومن الطريق حدث وتكبب ملائكة على مال عسا وتكبه لجهه [انظر لسان العرب] وقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّوْءِ لَأُكَفَّيُنَّ﴾ [المؤمنون] أى مائلون مشغولون عنه

(٣) السوءات جمع سوءة . وهى كل ما يتبع إضهاره ويسخى مشوهه ، قال تعالى ﴿لَعَنَ اللَّهُ ثَوْبًا بِيَعَتْ فِي الْأَرْضِ لَئِيَّهَ كَيْفَ يَرَىٰ سُوْرَهُ أَحِبَّهَ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَرَابِ فَأُرَوِّى سُوْرَهُ أَحِبَّي لَأَصْبَحَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة]

وهكذا أخذ آدم عليه السلام الشجرة ليكون مُستَعِدّاً لاستقبال المنهج والوحي .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوَيْتُ لِلْأَرْضِ لَأَرْسُلَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَخَوَيْتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢٦) [الحجر]

ولكن هل أغوى الله - سبحانه - الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِي ، ولكنه يترك الخيار للمكلف إن شاء أطاع ، وإن شاء عصى

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين ما كان لنا اختيار ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضل ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووجهه لغير المراد مع صلاحته للمراد .

ذن ، فالاختيار ليس مفصّوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، ولإنسان قدر على أن يهتدي ، وقادر على أن يضل .^(١)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَا فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً فَأَنَّا لَكُنَّا فَكْرُهُ فَلَيْسَ حَقٌّ بِكُونِ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس] ويضرب سبحانه ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ قَدْ تَجَنَّبَ الرَّشِدَ مِنَ الْعَمَى ﴾ [البقرة] فإن لإنسان محور في البذل ، أما القضايا التي لا يستطيع تبديلها فهي خصوصية الخلق ، فهم من كلام فضيلة الشيخ أن إبليس من الجن لإتيان حق الاختيار له .

(٢) قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا النَّفْسَ إِنَّا فَكَّرُوْا وَإِنَّا نَمُوتُ ﴾ [الإنسان] ، فإله قد جعل الإنسان مُهَيَّأً لأن يسلك أحد السبل : سبل الهدى ، وسبل الضلال ، ثم دلّه سبحانه على الطريق القصوب المستقيم ، وترك له حرية الاختيار ، ولما شاكراً نعمة الدلالة إلى الخير ، ليكون مؤمناً .
واما كافراً بها ليكون كافراً .

﴿١﴾
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي
وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرُونَ ﴿٢٥﴾

جاء هذا القول في صُلب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون بما أوحى به الله سبحانه لروح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام.

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمد الذي يناقض واقعاً.

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج يلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلزم للجميع ، وستكون الفائدة التي تعود عليك بالتزام الجميع بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرق ، فهذا أمان لك من أن يسرقك اناس .

ولذلك ساعة تسمع للمهيج ، لا تنظر إلى المأخوذ منك ، بل التفت إلى المأخوذ لك.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المهيج افتراء.

ونحن نعلم أن المنهج يؤسس في المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشرع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحد من حريتك ، ولكنه في الواقع يُحقق لك منافع متعددة ، ويحميك من أن يعتدي الآخرون عليك.

(١) انظر القول اختلقه واحترمه. وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَقُولُوا افْتَرَاهُ﴾ [هود] أي يقولون : اخترع القرد واحلقه من هذبه. وقال تعالى: ﴿قُلْ قَالُوا بِعَشْرِ سُوْرَةٍ يُفْتَرُونَ﴾ [هود] أي مكادوبات - كما تدعون [القاموس القويم]

وكان اردُّ على الاتهام بالافتراء يتحمَّل في أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وزرُّ إجماع الافتراء .

وإن لم يكن قد افسراه ، فعليهم يقع وزرُّ إجماعهم ^(١) باتِّهامه أنه قد افترى .

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتياك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعلى إجماعي وأنتم براء منه ، وإن لم أفتر فعليكم إجرامكم وأنا براء .

وجاء الحذف من شقِّ المقبيل من شقِّ آخر ، وهذا ما يسمى في اللغة «الاحتياك» ^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ . . (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

والفئة القليلة تكون قلَّتْها في الأفراد والعشائر وكلِّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرتها في العدة والعند وكلِّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تغلب بإذن الله تعالى

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاء الله تعالى .

(١) آدم اللسب فيما افتروه .

(٢) الاحتياك من أساليب البلاغة العربية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت بغيره في الثاني ، ومن الثاني أن يحذف نظيره في الأول كقوله تعالى ﴿ وَأَن تَحِلَّ فِيهِ بِطَعَتٍ تُعْرَجُ بِضَاءٌ . . (٦٥) ﴾ [النمل] والتقدير تحل غير بضاء ، وأخرجها تخرج بضاء ، محذوف من الأول «غير بضاء» ومن الثاني «وأخرجها» وقال الزركشي هو أن يجمع في الكلام متقابلاً ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى . ﴿ أَنَّهُمْ يَهْوَتُونَ الْفِتْرَةَ قُلْ إِنِ الْفِتْرَةُ فَعَلِيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا فَجَرْتُمُونَ (٢٥) ﴾ [هود] والتقدير «إن الفتريته فعلى إجرامي وأنتم براء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا براء» .

مما فجرتمون [الافتقار في علوم القرآن . ١٨٢ / ٣ ، ١٨٣]

لذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى .

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ النَّفْسِ الْفِتْنَى تَقَاتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ...﴾ (١٣) [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت^(١) والشيطان ، وهذا يسمى «الاحتيال»

وهو في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها قال الحق سبحانه .

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتُوا بِإِخْرَاقِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (٢٥) [عرد]
ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد ﷺ حين مخاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿... قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَفْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) [سبأ]
علم يقل : « عَمَّا نَجْرِمُونَ » فلم يقابل إيتاءهم القولى والمادى له بإيتاء قولى .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد ﷺ .

﴿وَأَنَا أَوْفَىٰ بِوَعْدِي مُهِينٌ﴾ (٢٤) [سبأ]

وهذا ارتقاء في الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التي أنزلها الله على العالم كله .

(١) الطاغوت : معبر يدل على المباشرة ، ويسمى به الشيطان العجيب ، وكل ما عد من دون الله ، وكل ما يعزى بالنشر والداعي للضلال والفتنة

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

ومجىء «إلا» هنا ليس للاستثناء ، ولكنها مسم بمعنى «غير» أى : لن يؤمن من قومك غير الذى آمن

ولهذا نطير فى قصة العفائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانِ بِهِمُ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴾ (٤٢) [الأنبياء]

«إلا» هنا أيضاً بمعنى «غير» ، ولو كانت «إلا» بمعنى لاستثناء لعنى ذلك أن لله سبحانه - معذ الله - سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون «إلا» للاستثناء ، بل هى بمعنى «غير» ، وتفيد معنى الرحمانية لله عَزَّ وَجَلَّ وتفرقه بالالوهية .

والآية التى نتناولها بخواطرننا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة

وهذا يعطينا تبريراً لاجترء نوح - عليه السلام - على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله ،

(١) من ابن عباس كانوا ثمانين نفساً منهم سائرهم وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً وقيل : أكثر عشرة ، وقيل : إنما كان مروح ويره الثلاثة سام وحام وهاث ، وكانت الأربع ، ناه هؤلاء الثلاثة وامرأة يلم انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) .

(٢) لبأس الرجل . اكتلب وحزن ولا تبشش . لا يحزن يقال لبأس الرجل إنا بقله شئء يكرهه والابتشش . الحزن فى استكانة . [لسان العرب - مادة : بأس]

سُورَةُ الْهُجُرَاتِ

٥٩٤٥٩

﴿.. رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ
يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم
يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، وقال له سبحانه :

﴿.. فَلَا تَيْئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝﴾ (٢٨)﴾ [هود]

والابتئاس هو الحزن المحيط ، وهم قد كفروا وبيس بعد كفر ذب

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَحْطِثْ فِي الَّذِينَ
ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ۝﴾ (٢٩)﴾

(١) يدره يتركه ويدهه وهذا الفعل لم يستعمل منه في القرآن الكريم إلا المضارع والأمر ، فمن المصارع
قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَوْسَىٰ وَهَرَمَ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢٩) ﴿[الأعراف] وقوله تعالى ﴿وَلَا تَلْوُا لَا تُلَوِّنَ
الْحَقَّ﴾ [نوح] أي ، لا تتركى ألحظكم ومن الأمور قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّمَنِ هُلِّلَتْ وَحِيدًا﴾ (٣٠) ﴿[المذثر] أي تتركى أنضم منه وأحاط به على جرأه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد
[القاسوس القويم]

(٢) الديار من سكن الدار ، ومن يترك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديارة أي : ما فيها
أحد وقوله تعالى عن لسان نوح عليه السلام ﴿.. رَبِّ لَا تَلْوَ طَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) ﴿[نوح] ، أي لا تترك أحدا منهم حياً [القاسوس القويم] بصرف

(٣) الصبح ، معناه الإحياء والإنشاء ، ويكون مقصوداً للإعادة والتدبير ، وبذلك لا يقال : صبح حيوان كـ
وقال تعالى ﴿إِنَّمَا مَتَّعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ ۝﴾ (٣٠) ﴿[طه] أي أب الذي استمعه وأحدثه كيد وسحر
وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام ﴿.. وَاصْنَعِ عَلِيَّ عَمِي ۝﴾ (٣١) ﴿[طه] أي : تربيته محروساً
يعانيه . وقوله تعالى ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۝﴾ (٢٩) ﴿[هود] أي : تحت عنايتنا ورعايتنا [القاسوس
القويم] بصرف

(٤) الفلك السميعة للذكر والمؤنث ، والمؤنث راجع بقول الحق ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ ۝﴾ (٣٢) ﴿[النحل] والفلك : بلدان تسبح مع تنجوم السماوية ، يقول الحق ﴿.. كُلُّ فِي فَلْكَ يَسْمُكُونَ﴾ (٣٣) ﴿[الأنبياء] (القاسوس القويم - باحتمار)

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحي له بصنع السفينة ومعنى «اصنع» أى . اصمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ، فالصنعة أن توجد معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ، أو صانع الجف ، أو صانع الكراسى ، أما الذى يقوم على صيانة الصنعة فهو الحرفى .

وهناك عملية أخرى للاستباطات مثل مهنة الزارع الذى يحث الأرض وينثر فيها الحب ويرويها ليستبعد عنها النباتات ، ويسمى صاحب هذه المهنة «زارع» أو «علاخ» ، لأن اقتيات الحياة المباشر يأتى من الزراعة .

أما الصانع فيأتى بشيء من متطلبات الحياة ، فى تطويرها ويوجد آلة أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً ، والحرفى هو الذى يصدر تلك الآلة ، أما التاجر فهو الذى يقوم بعملية تجميع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج الشيء واستهلكه ، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بعبء البيع والشراء .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ .. (٢٧)﴾

[هود]

أى : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشيء سيصنع من شيء آخر موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل هذه المدة لطويلة ، وتضخمت فى الخلع والفروع .

وبدأ نوح عليه السلام فى عملية شق شجرة ليصنع منها السفينة التى بلغ طولها - كما قبل^(١) - ثلاثمائة ذراع^(٢) وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ

(١) ذكره قتادة وفيه أقوال أخرى واجتمع الرأى على أن ارتفاعها فى السماء كان ثلاثين ذراعاً ، ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفل للذباب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعلى للطير . وكان يابها من عرضها ، ولها فطاء من فوقها مطبق عليها . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٤)

(٢) الذراع - مقياس للأطوال يقدر بـ ٧٥ سنتيمتراً أو أقل . والذراع من الإنسان . من الحرفى إلى أطراف الأصابع

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٤٦١

ارتفعها ثلاثين فراساً ومكوّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التي زرعها نوح عليه السلام قد نضجت جداً لوصول المدة التي قصاها نوح في دعوته لقومه ؛ وبعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائرياً بمقدار دائرة كل عام . وحين يقطع جذع الشجرة لمحد أن قطر الجذع مكوّن من دوائر ، وكل دائرة تمثّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة

وقد علّمه الخن سبحانه بالوحى وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألم يُلهم الله سبحانه نبيّه داود عليه السلام في مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه - جلّ وعلا - قد أمر الجبال أن تؤوّب^(١) معه ، وكذلك الطير ، فالآن له الحديد^(٢) دون نار :

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَطُيُورُ أَلَّيْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١) أَنْ اغْمَلْ سَابِغَاتٍ.. (٢)﴾

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليّناً دون نار - بإذنه سبحانه - ليصنع منه داود دروعاً كبيرة مستوفية للظهور والصدر ، لتحمي معطّب^(٣) الإنسان .

(١) تؤوّب : تبيّح معه وترجع التسبيح . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥٢٧) : «النأويب في اللغة هو التراجع فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها»

(٢) قال الحسن البصري وقتادة والأعشى وغيرهم : كان داود لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضره بحرقة ، بل كانه يشله يده مثل الخيوط . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٥٢٧) .

(٣) المعطّب : المبالك . واحداً معطّب . والمعطّب : الهلاك يكرن في الناس وغيرهم . عطّب (بكسر الطاء) عطّل وأعطبه : أهلكه [اللسان . مادة (ع ط ب)] والراد . الأماكن التي إذا طعن فيها القتال قد تؤدي إلى هلاكه

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه اسلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سائحات ^(١) .

والسايغة هي المسروبة ، مثل الخصير ، حيث يوضع العود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من فرد الخصير أو لفته .

وفي نفس الآية يبين لنا الحق سبحانه كيفية الوحي لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَدَرْنَا لِي السَّرَدَ ^(٢) . ﴾ [سبأ]

أي : أنك يا داود حين تنسج ^(٣) الحديد اللين - بإذن الله تعالى - لتجعله دروعاً عليك أو تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كي لا تكون الدرع ضيقة على صدر المقاتل فتضييق حركته ، وتقلل من قدرته على التنفس ، فيلهث سرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال .

وكذلك يجب ألا تكون الدرع واسعة على صدر المقاتل ؛ حتى لا تسبب سعة الدرع سيف الخصم ، فيضرب الدرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن حين تكون الدرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبّل الحركة ، فهذه هي الدرع المناسبة للقتال .

(١) الدرع السايغة . الواسعة التي تطول إلى الأرض فتغطي الكعبين . [اللسان - مادة سيج]

(٢) السرد : نسج حلقات الدرع واحكام سبمها . وسرد الأديم والجلد يسره سرداً . بحرره وثقبه بالمخزر في تناوب واتساع ؛ ولهذا سمي نسج الدروع سرداً ؛ لما فيه من دقة وتناوب واتساع . وقدر في السرد أي احكم العمل في سرد الدروع ، أي من أثناء نسجها أي احكم لسرد ، وأنقى النسج [القاموس التوحيدي]

(٣) النسج هم الشيء إلى الشيء . ونسج الشيء نسجاً فانتسج ، ونسجت الريح التراب . نسجت بمعنى إلى بمعنى . والريح نسج الماء ؛ إذا غمرت مقلته وانتسجت له طرائق كالحبك . ونسجت الريح الورق المهشيم . جمعت بمعه إلى بعض . ومن معاني النسج حياكة الثوب . وربما سمي الدروع (صانع الدروع) نسجاً . [اللسان - مادة (ن س ج) بتصرف] .

وفد أقر داود عليه السلام صناعة تلك الدُّرُوع بتلك الهندسة الدقيقة التي أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له : ﴿ وَقَدِّرْ .. ﴾ (١١) وكلمة قدر تعطي معنى التقدير والإتقان .

فعلى الدين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجه إلى الإتقان في الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان في العمل والإبداع فيه ، لنتخذ من هذا التوجيه نهجاً^(١) سبر عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتفنن صنعته وهو يقول «الله» ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يهب الإنسان طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً في تعليمه لداود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ نَارٍ^(٢) .. ﴾ (٨٠) [لأبياء]

وهكذا يلتقي الله تعالى المخاطر في قلب الرسول أو النبي أن «افعل كذا» ، فيقبل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كل علومها وفنونها في التحنيط والألوان والسُّحُت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يُمَثِّلُون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر في أصوله ؛ مصدره السماء .

وفي قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول :

(١) التبراس : للمصباح ، أو الشيء الخبير . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الألبوس : ما يلبس والمراد بها هنا : الدروع التي تلبس في الحرب [القاموس المفهرج] .

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبَنَّ فِي الَّذِينَ
ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ﴾ (٣٧)

ومعنى «بأعيننا» هو بحفظنا وبرعايتنا ، وكلمة «بأعيننا» تفيد شمول
الحفظ وكمال الرعاية

ألم يقل الحق سبحانه في مسألة تحصى رسول الله محمد ﷺ ؟

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .. (٤٨) [الطور]

وكذلك قال سبحانه في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿.. وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (٣٩) [طه]

وأنشد الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذي كان يقتل
أطفال بني إسرائيل ، وألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب روجة
الفرعون ، وقال سبحانه :

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ..﴾ (٣٩) [طه]

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً وضعياً قد ألقى في اليم^(١) ،

(١) المذنب السقيفة ، ونقطة الملك تقع بسدكر والموت والمفرد والجمع قال تعالى ﴿فَأَنجَيْنَاهُ مِن يَمِّهِ﴾ [الشعراء] جعله معرباً مذكراً ، وقال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا الْفُلَّكَ مَوَاجِدَهِ﴾ (٤١) [الشعراء] جعل الملك جمعاً ووضع بقوله «مواجِدَ» أي السفن .

(٢) أي أصبر من أذنهم ، ولا تباليهم ، فإنك مجرأى ما ولحت كلامنا ، والله يحصيك من الناس حبيب
ابن كثير (٢/٤٠٥) .

(٣) اليم ، مجتمع الماء الكثير سواء أكان ماء حلياً أو ملحاً ، وقد ورد هذا المعنى في القرآن .

- قال تعالى ﴿وَإِذْ نَوَّحْنَا إِلَى الْمَلِكِ مَا يَؤْمِنُ﴾ [٤٨] أن ألقه في القابوت فألقه في اليم فلقه اليم بالساحل ..

(٤٩) [طه] لهر هنا الماء العذب والقصد نيل مصر

وقال تعالى ﴿وَنَاقَمْنَا مِنْهُمُ طَافِرًا فِي الْيَمِّ﴾ (٤٩) [الأعراف] نهر ها بلاد الناح والمقصود
خليج السويس امتداد البحر الأحمر

والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة افرعون قالت لزوجها طالبة لموسى الحياة :

﴿ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ ^(١) .. ﴾ [القمر]

ونحن نجد أن عدو موسى وقومه ، يتقط موسى ليعيش فى كنفه ورعايته ، وكان الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تربيون مَنْ يتولى قهركم .
وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ لِّلْعَذَابِ بِأَعْيُنِنَا .. ﴾ [الزمر]

أى : إنك إن توقفت لأية عفة ، فسوف نلهمك بما تواجبه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام المثلث احتاج للأواح خشبية ، ولا بد أن تتصمسك تلك الأواح ، ولم تكن المسير قد اخترعت بعد ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الأواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفى أمريكا فى العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البردي وربطها بالحبال لمجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه فى طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ^(٢) ﴾ [القمر]

(١) مرة عين لى ولك : أى : حيث سرور لى ولك . [القمر من القويم]
(٢) دسر الدسار فى الشئ : دفعه فيه بقوة . والدسار : المسار أو حبل من يمس تشد به أواح السفينة وجميعه (دُسْر)

قال تعالى . ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴾ [القمر] كناية عن موصوف هو السفينة وكان مجاهد الدسر أضلاع السفينة وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذى يضرب به الموج وقال الضحاك الدسر طرفها وأصلها ذكره ابن كثير فى التفسير (٢/٢٦٤) .

نُي : أن يوحاً عليه السلام قد أحضر أراحاً من الخشب وربطها بحبال
مجدولة ، وأحكم الربط بقدر مقتدر بما لا يسمع يتسرب الماء إلى داخل السفينة .

مثلاً يصنع البراميل الخشبية في عصرنا ، حيث يصنعها الصانع من قطع
خشبية مستطيلة ، ويرتبها ثم يحكم ربطها بإطار قوي ، وعين يوضع فيها
أى سائل ، فالحشب يتشرب من هذا السائل ويتمدّد ليسد المسام ،
فلا يصح السائل من البرميل ؛ لأن الخشب هو المادة لوحدها التي تتمدّد
بالبرودة على العكس من كل المواد التي تتمدّد بالحرارة

ولذلك نجد النجار لحاذق ^(١) في صنعه هو من يصنع لأثاث أو الأبواب
أو الشببيك في الفصول الرتيبة ^(٢) ؛ لأنه إن صنعها في الصيف ، سجد
الخشب وهو منكماش ، فإذا ما جاء الشتاء تمدّد ذلك الخشب وسبب عدم
إحكام إغلاق الأبواب والسواقيذ ، وكذلك إن صنعها في الشتاء والخشب
منمدّد سيأتي الصيف وتنكماش الأبواب وتكون لها متاعبها ، فلا يسهل
ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أى صندوق أو شباك بإحكام

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ ^(٣) [هود]

أى : لا تحدثنى في أمر المظفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم من
ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر في القصة العنقدية ، وهى الإيحاء بالله
تعالى واحداً أحداً لا شريك له ؛ لذلك استحقوا لعقاب ، وهو الاغراق .

(١) الحاذق : الماهر في عمله . خلق القى . مبره . [انظر اللسان] .

(٢) الرتبة : القابضة التي لا توصف ببرد أو حر .

(٣) الفرق هو أن يضر الما . الشخص حتى يموت ، يقول الحق . ﴿ حتى إذا أدركه الفرق . ﴾ ^(٤) [يونس] أن
تكون منه . وشرق كلفح فهو شرقي وهادي . وشرق . وجمع الأخير شرقي . واسم المفعول منه مخرق .

قال تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [هود] (الأموس القوم حسد ١٩ - ٢٠) .

سُورَةُ هُودٍ

٥٠٦٤٦٧

ومكنا علم نوح عليه السلام أن صنَّع السفينة مرتبط بلون العقاب الذي
سيقع على مَنْ كفروا برسالته ، فهو وَمَنْ آمَنُوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ
كفر فسوف يغرق .

ويبين الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول .

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨)

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح بسرون عليه وهو يصنع السفينة
يسخرون منه ، بما يعنى . ها هو بعد أن ادعى السوة يتحول إلى ثُجَّار ، ثم
يتساءلون : كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى
سوف يأتى ليحمل السفينة .

ونحن نلاحظ فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَّ .. ﴾ (٣٨) [هود]

تفيد الأمر الذى صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين
قال سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَّ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَحَاطَبْ فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
مُغْرَقُونَ ﴾ (٣٧) [هود]

(١) ملأ جماعه منهم

(٢) سخر منه وبه من باب لرح سخر وسخرأ وسخرأ وسخرية وسخرية هزى به قال تعالى . ﴿ . لَنْ
إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨) [هود] [القموس القويم]

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقْتَصِرٌ ۝٣٩ ﴾

ونلاحظ في قول الحق سبحانه: ﴿ فَسَوْفَ ﴾ ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ أن الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً ؛ لأن أي حدث - كما نعلم - له أكثر من صورة ، وإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه ؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت وقوع الحدث كان الفعل مضارعاً .

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمته فالأمر يقتضي أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف «السين» كأن نقول : «سيعلمون» وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتي كلمة «سوف» .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة ^(١) ؛ ولذلك جاء به «سوف» لتدل على أوسع مدى رمتي^(٢) ، وما الذي سوف يعلمونه؟ إنه العذاب ، أيأتي لنوح ومن معه أم يأتي للذين كفروا من ملائكة نوح ؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ .. ۝٣٩ ﴾ [هود]

(١) خزي يخرى هـ ذ واقتصح ويحجل وأخزاه فلان ويخزيه أهله وفصحته قال تعالى ﴿ وَبَيْنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَهَذَا أَخْزَيْتَ ۝١٩١ ﴾ [آل عمران]

(٢) يحل : يتزل عليهم وقال تعالى ﴿ .. وَلَا تَطْفُرُ لَهُ فَيُحِلُّ عَلَيْكُمْ غَشًى وَمِنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَشًى فَلَدُ هُوَ ۝٥٨ ﴾ [طه] [القاموس القويم]

(٣) قال ريد بن أسيم مكث نوح عليه السلام مائة سنة يفر من الشجر ويقطعها ويبيسها ، ومائة سنة يعصها ذكره القرطبي في تفسيره (١/٢٣٤٩)

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿أَمْرًا﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وَمَنْ مِّنْهُمْ وَكَانُوا قَلِيلًا قَلِيلًا .

إذن: ففي قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله .

﴿وَاصْبِرْ لِّلْفُلْكِ .. (٣٧)﴾ [هود]

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذي يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿وَفَارَ التَّوْرُ . (٤٠)﴾ [هود]

ومعنى كلمة ﴿فَارَ﴾ أى . أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوى على هواء بلليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين تغلى الماء يرى فقاعات الهواء وهى تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد مسحبته الغليان ، فيفور الماء متوراً خارج إناء الغليان .

والثور هو المكان الذى تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من الثور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن مناع الدنيا كله .

وكانت العلامة هى خروج الماء من غير مَظْلَئِهِ وهو الثور .

واختلف العلماء^(١) فى تفسير كلمة «التور» فذهب من قال : إن الثور هو

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره هذه الاختلافات على سبعة أقوال ، فالترجيع هناك (١/ ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢) ، ثم قال : ادعى النحاس . هذه الأقوال ليست متناقضة ، وهى مجتمعة فى أن ذلك كان علامة أو بصرف أما ابن كثير فقد رجح قول ابن عباس أن الثور هو وجه الأرض ، أى : مصدر الأرض عيونا تنور حتى فار الماء من التأثير التى هى مكان النار ، صارت تشرق ماء . قال ابن كثير : وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف وذكر باقى الأقوال ولكنه وضعها بالمرابة . (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٥) .

المكان الذي كان آدم عليه السلام يخبر فيه ، أو هو المكان الذي كانت تعمل فيه حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت السيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضر ، اللهم أن فوران الثور كان علامة بين نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما قار الثور فعلى نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين .

وقوله: **لِيُحْيِيَ الْحَيَوَانَاتِ** :

﴿ اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ الشَّيْءِ ۚ ﴾ (٤١) [هود]

تعنى أن يحمل من كل الكائنات ، وقدل على ذلك كلمة ﴿كل﴾ المنونة - وفيد التعميم - أى : اعمل فى السفينة من كل شىء ، تطبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ، حتى التحزير كان ضمن ما حملة نرح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله معه ، لم يفتنوا إلى أهمية التحذير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

﴿ زُوجِيْنِ اَنْثٰی .. ﴾ (۴۷)

[مرد]

تدل على أن كلمة "زَوْج" هي مفرد ؛ بلتين قول الحق سبحانه :

(١٦) الزوج. كل واحد مع الآخر من جنسه مع اختلاف النعمة لأن في اختلاف النعمة تكامل كماله ، يفتق على الذكر والأنثى ، قادر على زوج لأمراة ، والمرأة زوج لرجل ، والزوج في الحساب خلاف الفرد ، وهو كل ما ينقسم قسمين متساويين

والروح: الشكل أو العصف يكون له نظير أو تقىض كالرطب واليابس والذكر والأنثى. قال تعالى ﴿فَمَا أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُرٍّ وَرُوحٍ تَجَنَّبُ عَنْهُ﴾ [هود: ٢٥] أي أحمل في السفينة ذكر وأنثى من كل روح. وقال تعالى ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ [ص: ٢٥] أي أصناف متزاوجة ذكورة وأنثوية، أو متناظرة كل شيء وعنده [القاموس القويم]. يتصرف

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧٣

﴿.. حملَ بها من كُلِّ زوجٍ اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾ (٤٠)

[هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة ببجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال : إنهم عاشوا في تلك السفينة عامين^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١)

هذه هي امرحلة الأخيرة في قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم قل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة .

﴿وَقَالَ نُوحٌ..﴾ (٤٠)

[هود]

وحملَ نوح عليه السلام في الفلك - بأمر من الله تعالى - من كل شيء زوجين اثنين ، وأهله ومن آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا..﴾ (٤١)

[هود]

(١) قال حكيمه ، ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلود من رجب ، واستوت على الجودي لعشر خلود من المحرم . فذلك ستة أشهر . وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة . قاله القرطبي في تفسيره (٣٢٥٤/٤) وذكر ابن كثير في تفسيره (٤٤٧/٢) عن ابن عباس أنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، أي : حوالي خمسة أشهر . قاله أحلم

(٢) للجرى (بفتح الراء وتشديد الجيم) مصدر ميمي بمعنى الجرى . قال تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (٤١) [هود] أي : جريها وإرساؤها ببركة اسم الله وعنايته ورعايته . [القاموس القويم]

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿... إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) [هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعمل عليه .
والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعمل عليه فى خدمة
المُستعمل ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليعمل لمستعمل .
ولكن الله تعالى يقول ها .

﴿ارْكَبُوا فِيهَا...﴾ (٤١) [هود]

ولم يقل : «اركبوا عليها» .
قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا نقطة عن طريقة صنع السفينة ،
فقد صنعها^(١) نوح عليه السلام بوحي من الله تعالى على أفضل نظام فى
البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إدن - لم يركبوها على
سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك
السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد
من بنائها على هيئة طبقات وأدوار

وقول الحق سبحانه :

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمرْسَاهَا...﴾ (٤١) [هود]

يُبين لنا أنها قد صُنعت لتُشجى من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين
فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ ليُتبع

(١) الصنع : معناه الإحداث والإشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتغيير ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله
تعالى ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ مَاجِرٍ﴾ (٥٥) [طه] وقال تعالى ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٥٦) [عاملر] ، وتأتى حطب التربة والتميم يمراسى وعتابتى كما فى قوله تعالى ﴿... وَنَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي﴾
(٥٧) [طه] ونظن على الآية العالية والقصور الثينة ، كما فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا مَعْصِيَ لَكُمْ﴾
تعالى (٥٨) [الشعراء] [القاموس القويم بتصرف] .

الرُّسُوْءُ ، كما أُنَاحَ الْفِيضَانَ عَمَلِيَّةَ الْجُرْيَانِ .

وهكذا كَانَ جُرْيَانَهَا بِاسْمِ اللَّهِ ، وَرُسُوْهَا بِإِذْنِهِ سَبْحَانَهُ .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَرُسَاهَا .. ﴾ (٤١)

يعلمُ أَنَّ جُرْيَانَهَا إِنَّمَا يَتَسَمَّى بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُمْ يَرْكَبُونَ فِيهَا ، لَا لِمَكَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ ، وَلَكِنْ لِإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى .

ومثال ذلك من حبتنا - والله المثل لأعشى - . نجد القاضي يقول مفتتحاً بالحكم : « باسم الدستور والقانون » أى : أنه لا يحكم بداته كقاصٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون .

ونوح عليه السلام يقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَرُسَاهَا .. ﴾ (٤١)

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صاعداً .

ولذلك يقال : « كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر » (١) .

لأنك حين تقبل على فعل شيء ، قلاً أفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضلياً ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر وروية وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الحياء فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصمية نفوس فهو يحتاج إلى الحلم .

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن نحصل على القوة فقد تقول : « باسم القوى القادر » ولكي نحصل على علم ؛ تقول « باسم العليم » ، وتريد الغنى ؛ فتقول : « باسم الغنى » وحين تحتاج إلى الحلم نقول « باسم الحليم » ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول : « باسم القهار » .

(١) أبتر . أى مقطوع البركة ، لا خير فيه

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، ولذى يُغنى عن كل ذلك أن تنادى ربك وتبهرك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كل صفات الكمال والحلال .

وليك أن تنهيت أو تستحي ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام .

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ٤١ ﴾ [هود]

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبفوا كغالبية البشر - كل التكليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك تُدَر الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعما عن بعض الذنوب التي ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هي المرة في قول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يصف السفينة وركابها .

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْرِبٍ يَئِينٍ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّا مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٢ ﴾

(١) الجرى السير السريع جرى الماء يجري سار وجرت السفينة سارت وأسرعت ، قال تعالى ﴿ فِيهَا مِائَتَانِ ثَمَرَاتٍ ٥٢ ﴾ [الرحمن] وقال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .. ٥٢ ﴾ [هود] وهي سفينة نوح عليه السلام وقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ الْمَاءُ حَلِيقُكُمْ فِي الْبَارَةِ ٥٢ ﴾ [الحاقة] أى في السفينة المعهودة وجمع الجارية الجوارى ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ لَآئِهِ الْفُجَارُ فِي الْفُجَارِ كَالْأَعْلَامِ ٥٣ ﴾ [الشورى] وحملت المياه تخفيفاً من الجوارى في رسم المصحف وقوله تعالى ﴿ فَالْفُجَارَاتُ يُسْرَأُ ٥٤ ﴾ [الذاريات] قيل ، هي السفن وقيل ، هي الرياح وقيل : هي الحجوم والكرائب ، وقال تعالى ﴿ وَافْلُكْ لَبِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَفْخُ الْفَسْ . ٥٥ ﴾ [البقرة] [الفاوس القويم]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٤٧٧﴾

وحررت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان الموح كالجبال ، وهذا يدل على أنها مسيرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادى نوح ابنه :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ^(١) يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ^(٢) ﴾

[هود]

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحمله

وفي هذا بقول الحق سبحانه مبيناً مراد الابن في مخالفة مراد أبيه

﴿ قَالَ مَتَاوَيْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ^(٣) ﴾

هكذا ظن ابن نوح أنه سيسبحو إن أوى ^(١) إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا سحاة لكافر ، بل السحاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرق الموج بين نوح وابنه ، وغرق الابن .

(١) المعلن اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ^(١) ﴾ [هود] أي من موضع عرف نفسه فيه جانباً ، ولم ينضم إلى ركاب السفينة مع أبيه نوح عليه السلام . [القاموس القويم] .

(٢) يعصمني ، يحميني ويصممني من الماء فلا أغرق . والمصمة : المنع والحفظ .

(٣) حال بينهما يحون حولاً حبر ولعل . قال تعالى : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ^(٣) ﴾ [هود] أي حبر للموج وفصل بين نوح عليه السلام ، وابنه ، فكان من المغرقين [القاموس القويم] بتصرف

(١) أوى : لما إلى جبل ولاذ به ؛ طلباً للحماية من الماء الشرير . وأرى إلى المكان ، وأوى إليه يلوى أوى . برله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ لَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. ^(١) ﴾ [الكهف] أي ملأوه والتجأوا إليه [القاموس القويم] .

وأراد الحق سبحانه أن ينهي الكلام عن نوح عليه السلام ، فحاء بلقطة استواء السفينة على الجودي .

ويقال : إن جبل الجودي يوجد في الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر .
ويقول الحق سبحانه :

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ^(١) وَنَسَسَا^(٢) أَقْلِي^(٣) وَغِيضَ الْمَاءِ^(٤)
وَوُضِعَ الْأَمْرُ عَلَى الْجُودِيِّ^(٥) وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

والبلع هو مرور الشيء من الخلق ليسقط في الجوف ، وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ .. ﴾ [١١]

[هود]

هافهم أن القاتل هو من تنصاع له الأرض .

ولم يقل الله سبحانه : « قال الله يا أرض ابلعي مائك » ؛ لأن هناك أصلاً متعيناً وإن لم يقله ، والحق سبحانه يريد أن ينمى لبنا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء

(١) أَقْلِي (انتهى) من إنزال المطر [كلمات القرآن] والإغلاج عن الأمر . الكف عنه وألق عن الشيء . كفاه . وأقلعت السماء . كفت عن المطر [القاموس القويم] .

(٢) غِيضَ الْمَاءِ : نقص ردهب في الأرض [كلمات القرآن]

وخاص الماء يعين غيضاً . ذهب وابتلعته الأرض [القاموس القويم]

(٣) وَوُضِعَ الْأَمْرُ عَلَى الْجُودِيِّ : استقرت على جبل يقرئ الموصل [كلمات القرآن]

وقيل : إن ذلك كان يوم هاشوراء ، فصاحبه روح ومن كان معه من الوحش والخلق شكراً لله عز وجل [مختصر تيسير الطبري]

(٤) بَعْدًا : أي هلاكاً وصحفاً . [كلمات القرآن]

ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلَبِي﴾ أى أن توقف المطر.
وهكذا ينهى الحق سبحانه الطوفان الذى أغرق الدنيا بأن أوقف المصب،
وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

ومحذ بل لاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحى تطفح إن كان
هناك ما يسد تصرف الماء ؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت لدى
لا يمتص المياه ؛ ولذلك لجهد الجهات المختصة تجنّد طاقاتها لإصلاح مواسير
الصرف الصحى لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة

وأقول هنا: إن حُسن استخدام الماء من حُسن الإيمان ؛ لأننى ألاحظ أن الناس
حين يتوضأون فهم يفتحون صابير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للتوضوء
الشرعى ، فيجب ألا ترتكب إثم ترك الماء النقى ليضيع دون جدوى^(١).

وعلى الناس أن يدّخروا الماء ، ولا يُسبّثوا استغلاله ؛ لأن الماء حين يتوَقَّر
فهو يُحصى المرات ، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحارى ، ونحتاج لتخفيف
العيب على شبكات الصرف لصحى.

باختصار ؛ نحن نحتاج إلى حُسن استقبال نِعَمِ الله تعالى وحُسن التصرف
فيها ؛ لنعم بها ، ونسعد بخيرها.

وقول الحق سبحانه

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلَبِي .. (٤٤)﴾

[عود]

أى: اتركى المطر ومن ذلك أخذنا كلمة «قلع» الذى يوضع فوق السفن
الشراعية الصغيرة ، وهو الشراع.

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن أسى ﷺ مر بسعد وعويصهما . فقال . ما هذا السرق ؟ فقال
أبى الرضوء إسرائف ؟ قال « نعم وإن كنت على نهر مجرى » أخرجه أحمد فى مسنده (٢ / ٢٢٦)
وابن ماجه فى سننه (٤٧٥) قال البوصيرى فى الرواة . « إسناده ضعيف » لصحاح حتى بن عبد الله وابن
لهيعة .

وَيُقَالُ : «أَقْلَعْتُ الْمَرْكَبَ» أَي : تَرَكْتُ السَّكُونُ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ وَاقِفَةٌ عَلَى الشَّاطِئِ .

ويقول الحق سبحانه :

[هود] ﴿وَنُفِثَ الْهَاءُ .. (١٤)﴾

ونشأها الحق سبحانه هنا للمجهول ؛ لتعلم أن الله تعالى هو الذي أمر الماء بأن يفيض .

ومادة «غاض» تستعمل لازمة ، وتستعمل متعدية^(١)

ثم يقول سبحانه

[هود] ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى .. (١٥)﴾

أى : استقرت السفينة على جبل الجودي .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

[هود] ﴿.. وَقِيلَ بُعْدًا لِلظَّالِمِينَ (١٦)﴾

وهو بعدٌ نهائى^{*} إلى يوم القيامة .

وتتحرك عاطفة الأبوة في تروح عليه السلام ، ويظهرها قول الحق سبحانه :

﴿وَقَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ

الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (١٧)﴾

(١) تستعمل «غاض» لازمة ، وهي أن تكفى بها عمل فلا تحتاج لمعول به ، وذلك مثل غاض الماء - أى : غطس ، وقد تستعمل متعدية أى تعدى فعلها إلى المنعول به . تقول أغاض الله ماله (للبر) أو - غاضه وقضىه

(٢) أحكم : اسم تفضيل بعيد المبالغة فى الصفة أى : أنه سبحانه وتعالى هو أفضل الحاكمين وأحكم الأمور : انتهى . قال تعالى : ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَمْرَهُ﴾ (١٦) ﴿(احج) أى : يثبتها ويجمعها مُتَّكِنَةً مُتَّكِنَةً مُحْكَمَةً . (القاموس القريم) .

وعاطفة الأيوة عاطفة محمودة ، وحق سبحانه يشحن بها قلب الأب
على قدر حاجة البنية ، ولو لم تكن تلك لعاطفة موجودة ، لما تحمل أي
أب أو أي أم مناعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بقوة لهم إلا بقوة لاتباع نجد المثل في إبراهيم
خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق
سبحانه :

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ (١١)﴾ [البقرة]

أى • أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، مرفعها فوق قامته بالاحتياط ، فأحضر حجراً ووقف عليه ليُعلى جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ .. ﴿١٧٤﴾ [البقرة]

لأنك مأمون على متعج الله وقادر على أن تصدّه بدعة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي .. ﴾ (١٧٤) ﴿

فَقَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَكَ :

(١) ابتلى. خُتِبَ واسمى بكلمات، بأوامر ربه، فأتهم^٢، أذعن^٣ لله تعالى على الكمال. [كلمات القرآن].

وتد اختصم في تعيين الكلمات التي يختير الله بها إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس: ابتلاه الله بالثلاث: وجهه أيضاً ابتلاه بالطهارة: عجمي في الرأس وحوس في الجسد، في الرأس قميص الثوب، والضمضة، والاستنشاق، والسواك، وغوى للرأس وفي الجسد، نظيم الأظفار.

﴿ .. لَا يَقَالُ عَهْدِي ^(١٦٦) الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة]

من هذا نعلم أن النبوة ليس لها بنة ، بل النبوة لها اتباع .
ويتضح ذلك أيضاً في قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقر في ذممه
قول الحق سبحانه :

﴿ .. لَا يَقَالُ عَهْدِي ^(١٦٧) الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة]

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق ملكة وأهلها :
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَقْلاً آمِناً وَلَرِّزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ
آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾ (١٦٨) [البقرة]

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه
بيّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن
والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هي للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق
سبحانه .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ .. ﴾ (١٦٩) [البقرة]

أي : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .
ونريد أن نقول إن عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن
تناسباً عكسياً ، فإن كان الابن قوياً فعاطفة الأبوة والأمومة تقل .
ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غني قائم بأمر الأبوين ويتكفل
بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

(١٦) العهد : الزمان والوصية والقرائن واللمعة والأمان . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ .. ﴾ (١٧٥) [البقرة]

وعهد إليه بالأمر بعهد عهداً . أو صاده وجعله في ذمته وعياله . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ عَهْدَ رَبِّكُمْ أَنْ لَا تُعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (١٧٦) [البقرة]

ومستلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغنى ، فعاطفة الأبرة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والعائب ، وكلما كان الابن في حاجة ؛ كانت العاطفة معه .

وفي نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه بلحظ أن نوحاً كان يصكك الممر طلباً لنجاة الابن ؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه لأنه من أهله ، فقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَنسِي مِنَ الْهَدْيِ وَإِنِّي عُذِّدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾
[هود]

إذن فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء ؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطئ ؛ لأن الابن قد عرق ، بل لا بد أن ذلك العرق كان للحكمة .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَسُوءُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُخَافُكُنَّ ۖ مَا لَيْسَ لَكَ بِمَعْلُومٍ إِيَّيَّ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَاطِلِينَ ﴾^(١)

(١) ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴾ (١٦) : أى ليس من أهل ولايتك ودينك ، ولا من وعظمتك أن تنجيه منك .
﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴾ (١٧) : قيل معناه ، أن سألت إياي ما سأله في ابنك لمخالف بك عمل خير صالح . ﴿ إِيَّيَّ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَاطِلِينَ ﴾ (١٨) : من سألت إياي عن ذلك [بمستمر نصير العبرى] .

ووعظه بلفظه وعظماً وعظه نصحه بالعامة وبالعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . والموعظة : ما يوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ .. وَمَوْجُةً لَمُتَيْنِ ﴾ (١٩) [الفرقة] [القاموس القويم] .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يلفت بيبه نوحاً إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتباع ، وإذا قاسم نوح - عليه السلام - ابنه علي هذا لقائرون ، فلن يجده ابناً له .

الم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسي : «سلمان منا آل البيت»^(١) .

إذن فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتباع ، لا بنوة نسب .

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى .

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ..﴾ (٤٦)

[هود]

ثم يأتي سبحانه بالعلة والحشية لذلك بقوله :

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ..﴾ (٤٧)

[هود]

فكان البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالثبات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح عمله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتباع بذليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه

ويقول الحق سبحانه :

﴿.. فَلَا تَسْأَلْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الجاهِلِينَ﴾ (٤٨)

[هود]

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن حوف الزني . قال الذهبي والخليلي
سنده ضعيف

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكر جيداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يرثيهم ربه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ ،
عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤٧)

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يعمره ما قاله ، وهو هنا يقر بأنه لما أحب أن يسأل نوحاً ابنه لم يستطع أن يكتسب سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يجمع من قلبه مش هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ .. ﴾ (٤٧) [هود]

يوضح لنا أن الإنسان لا يعمود من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه .

ولذلك يستعبد نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) عاد يعمود عموداً لادولجاً وقال تعالى ﴿فَلَا أَعُوذُ بِكَ النَّاسِ﴾ [الناس] ، أي الخاسرين ،
والرغبة ، وأحمى بحمايته [القاموس الموعود]

﴿قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمُورٍ مِّن مَّعَلَكٍ وَأَمَّا سَنَنَاهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

وقول الحق سبحانه :

﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا .. ﴾ (٤٨) [هود]

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تنقّى الأمر بالتزول من السفينة ليباشر مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة ، على حمل في تلك السفينة من كل زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين اثنين ألبسهم الله تعالى ، وأغرق من قالوا عليهم إنهم أراذل^(١)

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّا مِمَّن مَّعَكَ .. ﴾ (٤٨) [هود]

تفصّل أهل^(٢) نوح عليه السلام ومن آمن به ، وكذلك أم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب .

(١) البركة زيادة الخير والبراء والسعادة . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفُصِّلْنَا عَلَيْهِمْ بِرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/ ٦٥] .

(٢) يمسهم العذاب يصيبهم ويؤذيهم . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَاءَ الشُّرَكَاءُ يَهْمُكَ ﴾ [الإبراهيم] وقال تعالى ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنُمْسِكُم بِأَفْئُتِهِمْ ﴾ [هود] [القاموس القويم]

(٣) الأراذل جمع أراذل وهو الدون من الناس ، وقيل هو الدون في منظره وحالاته . وقيل : هو الرديء من كل شيء . وهم قد اعتبروهم أراذل لأنهم سبواهم إلى مهنتهم كالحياكة والحجامة . قاله الزجاج . [انظر لسان العرب - مادة : رذل]

(٤) ولد أمشئ لله عز وجل منهم امرأة نوح التي قال عنها رب للعرة ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فجاءتاهما فلم يعفيا عنهما من الله شيئا فقيلا فخلتا فقتلا مع الفاخلين ﴾ [التحریم] وخيانتها لزوج كانت من الإيمانية . قال ابن عباس : ما روت امرأة نوح ، إذ كانت خيانتها أنها كانت تخبر أنه مجنون ، وكانت تطلع على سره فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبيرة من قوم نوح . [انظر . تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٣] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٨٧

أى: أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهى أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية فى الأرض

وقول الحق سبحانه:

﴿ اَعْطِ^(١) بِسَلَامٍ مَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

والمقصود بالسّلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يعد هناك من الكافرين ما ينقص عنى نوح - عليه السلام - أمره ، ولن يجد من يكدر عليه بالقول:

﴿ جَادَلْتَنَا فَكُتِرَتْ جُدَالَنَا .. (٢٢) ﴾ [هود]

ولن يجد من يتهمه بالافتراء .

ومن بقى مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق بدعت بفضل المنهج الذى بلّغهم به نوح عن الله تعالى .

وقول الحق سبحانه .

﴿ وَبَرَكَاتٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

يعنى أن الحق سبحانه يبارك لى القليل ليجعله كثيراً .

ويقال: «إن هذا الشيء مبارك» كالطعام الذى يأتى به الإنسان ليكفى اثنين ، ولكنه فوجئ بخمسة من الضيوف ، فيكفى هذا الطعام الجميع .

إذن . فالشيء المبارك هو القليل الذى يؤدى ما يؤدّيه الكثير ، مع مظنة أنه لا يبنى .

(١) غيظ يهبط سيطاً ، من باب هرب : نزل من علو إلى سفلى ، أو انحدرو من علو ، رأى لغة قليلة هبط بهبط من باب لعد هربطاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ فَنُفِخْ مِنْهُ نَفَاثًا وَلَئِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. (٧٧) ﴾ [البقرة] كما ذكر الجبل حينما تحمل الله عليه (القاموس القويم بتصرف)

وكان يجب أن تأتي ما كسمة ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح - عليه السلام - من كل زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفي .

وقول الحق سبحانه :

﴿... وَ عَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ نَعْلَمُ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ فِينا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)﴾ [هود]

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية ، فقد كان المؤمنون مع نوح - عليه السلام - هم الصّافون ، وبعضُ الزمن طرأت الغفلة على بعض منهم ، ويأتي حيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة ، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج .

وفي هذا يقول الرسول ﷺ : «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكّت^(١) ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المجل^(٢) ، كحجر دحرجته على رجلث فتفط ، فتراه مثبّراً^(٣) ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يشايعون ، لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلفه ! ما أظرفه ! ما أعقله ! وما في قلبه

(١) الوكّت الأثر اليسير قاله الهروي وقال غيره : هو سواد يسير ، وقيل : هو لون يحدث محالب للون الذي كان قبله [شرح النووي لصحيح مسلم - ٥٢٨/٣] .

(٢) المجل أن يكون بين الجلد والدماء واللحم قشرة رقيقة يجمع فيها ماء من أثر العمل مجلت اليد : نغطت من العمل فمريت وعليت وتلّحّ جلدنا وتعلّج وظهر فيها ما يشبه البشر من العمل بالأشياء العنيفة الخشنة [لسان العرب - مادة : مجل] .

(٣) مثبّراً ، مرتفعاً . وكل ما رفعت فقد سيرته . راتب المرح . يرتفع ويردم [لسان العرب - مادة : نبر] قال النووي في شرحه لمسلم (٥٢٨/٣) : لقته بلنبر لأرتفاحه وأرتفاع الخطيب عليه

مقال حبة من خردل^(١) من إيمان^(٢).

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب النهج ، ويقول تَجَلَّ : أتعرض الفتن على القلوب كالخسيف عوداً عوداً ، فأيا قلب أشربها^(٣) نُكْت^(٤) فيه نُكْتة سوداء ، وأيا قلب أكرها نُكْتت فيه نُكْتة بيضاء ، حتى نصبر على قبيح ، على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت لسموات والأرض ، والآخر أسود مُرباداً^(٥) كالكور مُجْحِياً^(٦) لا يعرف معروفاً ، ولا يكر منكراً إلا ما أشرب من هواه^(٧).

وأعوذ بالله تعالى من طرود فتنة الغفلة على القلوب.

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الدين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من استعرا عليه الغفلة ، وسيمتتهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمئات الدنيا ، ولن يصح عليهم ، ولكن سبيلهم العذاب.

(١) الخردل نوع من أنواع الحبوب الثوابل يصرب مثلاً في الصغرة قال تعالى ﴿وَمَا مَنَعُهَا أَنْ تَكُونَ مِثْلَ حَبِّ خَرْدَلٍ كَانَ فِي صُغْرَةِ آدَمَ فِي السَّمَوَاتِ نَوْءٌ الْأَرْضُ قَالَ بَلْ يَأْتِيهَا اللَّهُ تَكْفِيفًا خَيْرٌ﴾ [القصص] (٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠٨٦) ومسلم في صحيحه (١٤٢٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

(٣) أي عاظم قلبه حب الفتن وكأنه أسماها وصه قوله تعالى عن اليهود ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْقَبْلَ يَكْفُرُونَ﴾ [البقرة] أي عاظم قلوبهم حب عبادة العجل من دواب الله. [وراجع لسان العرب - مادة شرب]

(٤) نُكْتت أي مضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها أي أن الفتنة تترك أثرها في القلب [راجع مختار القاموس مادة نُكْتت]

(٥) مُرباداً أسود عليه غبرة واقصود من حيث المعنى لا الصورة. ذكره ابن منظور في لسان العرب والتريد التلون يقال لما رأى ثوباً لونه أي تراء أحمر مرة ، ومرة أخضر ، ومرة أصفر [اللسان]

(٦) الكور للجسم أي لسان الذي يكتب ويصحب ما فيه. فلجني هذا هو المقام عن الاستقلال والاعتدال، فشب القلب الذي لا يعي عمراً بالكور المائل الذي لا يثبت في شيء لأن الكور إذا سال انصب ما فيه. [اللسان - مادة كج خ ي]

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) ، ومسلم في صحيحه (١٠٠٠) من حديث حذيفة بن اليمان

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثرين اثنين:

المؤثر الأول: عفته هو.

المؤثر الثاني: أسوة الغافلين من السابقين عيه .

ونحن نعلم أن من ذرية نوح عليه السلام «قوم عاد» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك «قوم ثمود» الذين أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام ، وقوم لوط ، وهؤلاء جميعاً رأيت^(١) الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٦)

وكلمة «تلك» إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه

وأنت يا رسول الله لم يُعلم عنك أنك جلست إلى معلم^(٢) ، ولم يذكر عنك أنك قرأت في كتاب ؛ ولذلك يأتي في القرآن :

(١) وإن الشيء ريباً: حذراً ، ماخوذاً من الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ، ويستعار للحشاشة تغطي على القلب بسبب الذنوب ، وإن الصدأ عليه : غلب عليه وغطاه كله . قال تعالى ﴿ كُلُّ بَلَدٍ لَنَا أَهْلٌ بِهِمْ ﴾ ما كانوا يكفون (٥٥) [الطه] أي : شغلت حشاشة الذنوب على قلوبهم [القاموس الموعود] .
(٢) حاول مشركو قريش أن يظنوا في أن القرآن وحى من عند الله ، فقال عنهم سبحانه ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل] فاتهموه بالتعلم من غلام مصري أعجمي ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا . يقول ابن كثير في تفسيره (٥٨٦/٢) : وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يحرف الشيء اليسير قلدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٤٩﴾

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ^(١)﴾ [النصير]

وجاء .

﴿.. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ^(٢) أَنَّهُمْ يَكْفُلُ^(٣) مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ

لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ^(٤)﴾ [آل عمران]

إذن : فما دمت يا محمد لم تقرأ ولم تتعلم عن معلم فمن علمك ؟

إِنَّمَا عَلَّمَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ .

وكان الله سبحانه وتعالى علّم رسوله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية الملهجية بعين من الله ، وأنه سبحانه لن يسلمه إلى خصومه ولا أعدائه .

ولذلك يأتي القول الكريم : ﴿فَاصْبِرْ﴾ ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذي استمر ألف سنة إلا خمسين ، ويأتي بعدها قوله سبحانه

(١) ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ : خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ «بجانب الغربي» أي بجانب الجبل أو الوادي أو المكان الغربي من موسى حين المناجاة . ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ^(١)﴾ [النصير] أي أوحينا إلى موسى عليه السلام - الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه . [تفسير الجلالين] ومختصر تفسير الطبري [ينصرف] .

(٢) الأفلام - هنا - جمع فلم بمعنى السهم أو خنجر تشبهه ، يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج بسهمه . وكانوا يستعملونه في القمار - وغدهي الإسلام من ذلك - وكانوا يستعملونه أيضاً في القرعة . ومن استعماله في القرعة قوله سبحانه : ﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران] فالأفلام هنا سهام الاقتراع ، وقد أجزيت القرعة فلز سهم ركباً - عليه السلام - فكفل مريم [القاسم القويم] .

(٣) كفل يكفل كفلاً وكفالة : قام بالتربية والرعاية لمن يكمله وقوته سبحانه «يكفل مريم» أي يرعاه ويربها . وقال تعالى ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران] أي جعله كافلاً لها [القاسم القويم] .

[هرد]

﴿ .. إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٩)

تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يرسل رسولا إلا إذا عم الفساد .

إذن فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمت لها أسوة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعز على الموجودين أن يقيموا .

والله سبحانه وتعالى لا يبعث يرسل جُدد إلا إذا لم يوجد في الأمة من يرفع كلمة الله ؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانية هي النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدثه نفسه بالاحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوامة تردعه وترثه إلى الإيمان

أما إذا تصلبت دأته ، ولم توجد لديه نفس لوامة ، فالمناعة الذاتية تحضى ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بلكومه

ولكن إذا اختصت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث رب العزة سبحانه برسول جديد ، وبينة جديدة ، وبرهان جديد .

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ

مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنَّمَا أَنْتُمْ لِأَمْثَلُوتَ ﴿١٠﴾

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٤) . «هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم كانت مساكنهم باليمن بالأخفاف ، وهي جبال الرمل» وقد قال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٣٦٩) . «قيل هم عاد بن عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ، وأما الأخرى فهو شدد ولقمان المذكوران في قوله تعالى : ﴿ إرم ذات الجناد ﴾ [النجر]

(٢) ﴿ .. إِنَّ نَعْمَ الْأَمْثَلُونَ ﴾ [هرد] كلمة (إن) هنا نافية بمعنى (ما) النافية أى : ما أنتم إلا أمثرون

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٣

يفتح الحق سبحانه الآية بتحنيهم وموائمتهم بالمرسل إليهم ، فيخبرهم أنه أنحوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العنت ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به .

وحين يقول لهم :

﴿ يَا قَوْمِ . (٥٠) ﴾

[هود]

فهذا ناليناس أيضاً .

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده : لأنهم اتحدوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء .

والله سبحانه لم يقل :

﴿ .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥١) ﴾

[هود]

إلا لأن الفساد قد طم^(١) .

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود^(٢) :

﴿ يَنْقُورُونَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾

(١) يقال لنشء الذي يكتر حتى يملأ قد طم^(١) ويقال طم^(٢) لاء إذا كثر طم^(٣) شمره ، ولذلك قيل ليوم القيامة ﴿ إِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٥١) ﴾ [النازعات] ، [راجع لسان العرب ، والقاموس المبرور] .
(٢) كلمة (إن) في هذه الآية التكرية ، نافية بمعنى (ب) السالبة ؛ أي ما أجرى إلا على الذي فطرني ، أو ليس أجرى إلا على الذي فطرني ، وهو الله سبحانه وتعالى أجر فلان فلاناً - من بابي فطر وبصر - أجرأ أثابه على عمل ، أو حذر أجبرأله ويقال وجهين فسر قوله تعالى ﴿ عَنِّي إِنْ تَأْجِرُونِي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْلَكِينَ (٥٢) ﴾ [القصص] ويسمى المهر أجرأ مجازاً - قال تعالى : ﴿ فَاتَّوَفَّيْنَاهُمْ مِنْهُمْ (٥٣) ﴾ [الطلاق] أي مهورهم - وقوله تعالى ﴿ فَلَهُ أَجْرٌ عَدِيدٌ (٥٤) ﴾ [البقرة] أي ثوبه (القصص) القوم بصرفه .

(٣) فطر الله الخلق خلقهم وبنأهم ، فهو فاطر قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٥٥) ﴾ [الأنعام] أي خالقهم . وقوله سبحانه ﴿ فَطَرْنَاهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٥٦) ﴾ [الاسراء] أي خلقكم أول مرة في الدنيا [القاموس المبرور]

وكان هوداً عليه السلام يقول لهم ما الذى يشق عليكم فيما أمركم به وأدعوكم إليه ، إنى أؤدّم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم مما ألقتم ، ثم آخذ منكم ما لا مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة ترك ما تعودتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة .

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن : فلا مشقة أكلّفكم بها ، كما أننى فى عنى عن ذلك لأجر ؛ لأن أجرى على من أرسلنى .

﴿ .. إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ^(١) أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود]
 أى : أن أجرى على من خلّقنى مُعدّاً لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعنى التكوين الأساسى للإنسان .

والحق سبحانه قد أعدّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم -
 أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة

وسبق أن خبرنا مثل من يشتري بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسمى هذه العملية بيعاً وشراءً .

أما إذا استأجر لإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انضاعه بالسكن فيه .

وقول هود عليه السلام :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .. ﴾ [هود]

يميد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه ؛ لأن الأجر الذى تدفعونه فى المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة !

(١) فطر الله الخلق ، كنصر - خلقهم وبداهم ، فهو فاطر ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [١١٠] .
 [الأنعام] خالدها - وطار الشيء شقه فطراً والجمع فطور ، والاسم الفطرة قال تعالى : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهَ الْخَلْقَ ﴾ [الزمر] [القاسوس] [التغوى] [التيسار]

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه
وبعالي . فهو القادر على كل شيء .

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة ^(١) :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴾ (٥١)

[هود]

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام . لسيدنا إبراهيم لم يُلْهِمْ بسبب أبيه ،
وسيدنا موسى لم يُلْهِمْ ^(٢) : لأن فرعون قال له .

﴿ أَلَمْ نَرْبِّكْ بِهَا وَلِيدًا .. ﴾ (١٨)

[الشعرا]

إذن - كان يجب على قوم هود أن يعاملوا الفائدة الجسمة . وهي المنهج
الرُسالي الذي جاء به هود عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَتَقْوِمُوا أَسْتَعِينُوا وَارْبُكُم ثُمَّ تَتُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُم بِرُسُلِ السَّمَاءِ
عَلَيْكُمْ مَذَرًّا رَّا وَبَزْدًا كُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

(١) قالها نوح عليه السلام : (سورة يونس ، آية ٧٢) . (سورة هود ، آية ٧٩) ، (الشعرا ، آية ١٠٩) .

وقالها هود عليه السلام : (هود ، ٥١) ، (الشعرا : ١٢٧) . وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود :

[الشعرا - ١٤٥] وقالها هود عليه السلام : [الشعرا - ١٦٤] . وقالها شعيب [الشعرا - ١٨٠] .

(٢) وذلك أن فرعون من على موسى عليه السلام بهذا عند خروجه بشي إسرائيل معه . فقال
فرعون : ﴿ أَلَمْ نَرْبِّكْ بِهَا وَلِيدًا وَبَنَيْتُ بِهَا مِنْ خَيْرِ مَجِينٍ ﴾ (١٨) فقلت فقلت لكى فقلت رأيت من الكافرين

(٥٢) [الشعرا] فلا يتأتى موسى بعد هذا أن يقول ما قاله إفراتة من الرسل .

(٣) مذكورا : صيغة مبالغة ، أى : تكلم غزير متتابع . وقال الله سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا

﴿ (الأنعام) أى تنزل عليهم مطرا هزيرا ﴾ (القاسوس القوم) . وقد وردت كلمة (مطرارا) في

القرآن الكريم ثلاث مرات ، في الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفي الآية الثانية والخمسين من سورة
هود ، وفي الآية الحادية عشرة من سورة نوح .

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول :
يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واحتراف
بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذي فات من ذنوب ،
فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب
المعاصي .

وعلى الإنسان أن يتذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة
هي مسخرة بأمر الله تعالى ، فلا تسيك رثابة ^(١) الحياة عن مسيها الوهاب لكل
النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا ، فأول ما ينزل به الرسول إلى
الامة هو أن يصحح العقيدة في نعمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بآله واحد
يتلقون عنه «افعل» و«لا تفعل»

وهو يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه «قوم عاد» ، والدعوة إلى
الإيمان بآله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الصقوس
فقط من الشهادة برحمانية الله تعالى ، والصلاة ، والصيم ، والزكاة ، والحج .
ولكن عبادة الله تعالى هي أن تؤدي اشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل في
ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام في حركة الحياة ، يريدون منا أن نقصر
الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل في حركة الحياة
غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين : حضارة الفرس في الشرق ،
وحضارة الرومان في الغرب .

(١) رتبة الحياة أي سيرها على نظام واحد ، لا يتخلط ، فيبدو لك أنه يسير بنفسه وبذاته وتسمى مسيره
ومنه قال في اللسان (مادة رتب) «الرتب» الثابت الدائم ، والرتب «الشيء» للقيم الثابت»

وهؤلاء كانوا أعماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البشر الأميين ؛ يقود عقيلتهم رجلٌ أُمِّيٌّ^(١) أرسنه الله سبحانه وتعالى ؛ فيطبع بكل هؤلاء ؛ نظاماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول .

يريد هؤلاء - إذن - أن يقوقعوا الإسلام في الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

وتقول لهم : لا ، لا يمكنكم أن تنصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوحد عابد لمعبود حق ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثل أوامر المعبود في « افعل » و « لا تفعل » ؛ وما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ ويفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون .

إذن : فالعبادة هي كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها في انطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هي التي بنى عليها الإسلام ؛ وليست هي كل الإسلام^(٢)

إذن . فالإسلام بناء يعوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام في أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة في الحياة ، ولا بد أن

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكده عليه رب العزة في القرآن ، فقال : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْغَوَاةِ وَالْإِنجِلِ ﴾ (١٥٧) [الأعراف]

الأمي نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حاله التي وكدها عليها معطوفاً بعبارة الله بالتلقى عنه إلهاماً روحياً ، فما خلق من موسى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم] وهذا الوصف من خصوصيات النبي ، وهي تشريف به ، لأنه إذا كان أنبياء أنزل الله عليه الكتاب المسجل ، فلا شك أنه من عند الله والامية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لقبل أنه قرأ ونقل عن غيره . من أقوال الشيخ الضعراوى م س

(٢) من ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : بني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ومسلم في صحيحه (٦٦) .

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حول :
 فالعبادة تستوعب كل حركة في الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العباد ،
 تنحصر في باب العبادات في تقسيم الفقهاء ، وأعملوا أن باب المعاملات هو
 من العبادة أيضاً ، واستقامة الناس في المعاملات تؤدي إلى انتظام حياة الناس
 وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ۖ ۝ (٥٢) ﴾ [هود]

والاستغفار " لا يكون إلا عن ذنوب سقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله
 هود عليه السلام لقومه ؛ إذن ، فالاستغفار هنا عن الذنوب التي ارتكبوها
 محاولة لمنهج الرسول الذي جاء من قبله ، أو هي الذنوب التي ارتكبوها
 بالمطردة .

ثم يدعوهم بقوله ﴿ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۖ ۝ (٥٣) ﴾ [هود]
 والتوبة تقتضي العزم على ألا تُنشئوا ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :
 ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُرْدِكُمْ قُوَّةً إِلَى قُرُونِكُمْ ۖ ۝ (٥٤) ﴾ [هود]
 ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن لتكون مائلاً لكن ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه
 قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن
 طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة ونحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه
 فلا تمطر .

(١) غفر الذنب يخففه - كضرب - عمر وعمران ومخمره - ستره وعما به ولم يعاقب فاعله ، قال تعالى
 ﴿ نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۖ ۝ (٥٤) ﴾ [البقرة] والفاقر ، اسم فاعل وغفور وعفار - صيقتان للمبالغة وكلها من
 أسماء الله الحسنى ، وعمران مصدر ، والمخفرة مصدر ميمي ، واستغفر طلب الثمران لعنه - قال
 تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرُّسُولُ ۖ ۝ (٥٥) ﴾ [نساء] طلب من الله أن يهملهم [القاموس القويم
 باختصار]

مثلما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ^(١) عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا مِنْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ^(٢) رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٣) ﴾ [الأعراف]

[إذن: فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وبما رب الأسباب يصنعها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدت الله تعالى العبادة التي تتضمن بها كل حركة في الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفر لنفسك القوت^(٤) باستنباطه من الأسباب التي طمرها^(٥) الله سبحانه وتعالى في الأرض

والقوت كما نعلم - من جنس لأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ ونمدُّ البذور جذورها الضاربة المسبحة الساجدة لله تعالى ؛ فتمطر الحق سبحانه السماء ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المنسرب إليها عبر الأرض ؛ وتأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

(١) أى لما رأوا العذاب مستقبلاً اعتقدوا أنه عارض لمطر فرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا يحسبون محتاجين إلى المطر (تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٠)

(٢) وذلك أنهم نادوا لرسولهم عود عليه السلام ﴿ فأتينا بما نعدنا إن كُنت من الصادقين ﴾ (٣٢) [الأعراف]

(٣) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه أقوات . قال تعالى : ﴿ وَفَرَّغْنَا الْقُوَاتِ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ ﴾ (٣٢) [الأعراف] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شيء من إلى آخر الدهر وأقات النبات أو الخيرات - أمده بقوته الذى يحفظ حياته . وأقات عليه : حفظه وحفظ بقائه . قال تعالى ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٣٢) [الأنعام] أى : غالباً مقدره ، أو حافظاً وأقياً حياته [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) طمرها : دفنها وأودعها وخبأها في باطن الأرض . والمطمورة : حميرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد خُيئَ لطمورها الطعام والمال أى : خياً ، لسان العرب - مادة : طمر .

والسماء هي كل ما علاك فأطْلُكَ^(١) ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها .
وانظروا قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لِي بِنَصْرَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَكْبِتُ ۝ (٦٥) ﴾ [الحج]

أى : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أى شيء ويربطه فيما علاه ويعلق نفسه فيه ؛ ولنسوف يموت ، ويغيطه لن يرحل عنه

﴿ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ (٥٢) ﴾ [هود]

والمدرار - هو الذى يُدرُ يتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد بهطل مطعبان ضاراً ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر .

إذن : المدرار هو المطر الذى يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً
ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر : « اللهم حوالينا ولا علينا »^(٢) .
ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مُصلحاً ؛ فالأرض تحضر^٣ ؛ ونعمر الدنيا ؛ ونزداد قوة إلى قوتنا .

(١) قال الزجاج السماء في اللغة يقال لكل ما ارتفع وعلا . قد صما يسمو وكل سقف فهو سماء والسماء كل ما علاك فأطْلُكَ ، ومنه قيل لسقف البيت سماء . [اللسان . مادة سمو]

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٩٧) ، وفيبخارى في صحيحه (٩٣٣) ، وعن أنس بن مالك قال أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ عيباً التى ﷺ يخطب لى يوم جمعه نام أعرابى فقال - يا رسول الله هلك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا ليرفع يديه . وبما سرى في السماء قزعة - هو الذى تسمى يده ما وضعها حتى نار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم يزل عن منبره حتى رأيت المطر يشحاذر على خيئه ﷺ ، فمطرنا يومذاك ، ومن الغد وبعد الغد ، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقدم ذلك الأعرابى فقال يا رسول الله نهضم البساء ، وعرق المال ؛ فادع الله لنا ، ليرفع يديه فقال « اللهم حوالينا ولا علينا » .

أما مَنْ يتولَّى ^(١) ؛ فهو يُجرِّم في حقِّ نفسه ؛ لأنَّ إجرام العبد إنما يعود على نفسه ؛ فلا تظنَّ أنَّ إجرام أيِّ عبدٍ بالمعصية يؤذِي غيره ^(٢) .
والحقُّ سبحانه يقول :

﴿ .. وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٤٤]

[يونس ٢]

ويأتى الحقُّ سبحانه من بعد ذلك بالردِّ الذي قاله قوم عاد :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي
الْهَمَزِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥٢]

وهم هنا ينكرون أنَّ هوداً قد أتاهم ببيِّنة أو معجزة .

والبيِّنة - كما نعلم - هي الأمانة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أنَّ هوداً هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أنَّ جوهر أيِّ معجزة هو التحدى ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هي الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أنَّ النار صارت برداً ^(٣) وسلاماً عليه حين ألْقَوْه فيها .

ونحن نلاحظ أنَّ المعجزة العامة لكلِّ رسولٍ يمثِّلها قول نوح عليه السلام :

(١) يتولَّى يعرض ويتولَّى الإعراض والإدير ومنه قوله تعالى - ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ مِمَّ الْقَاسِفِينَ ﴾ [آل عمران]

(٢) والحقُّ سبحانه يقول - ﴿ وَتَنْ يَكْتَسِبُ إِنَّمَا لِنَاسٍ يَكْتَسِبُ عَلَى نَفْسِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء] والائتم ، اللصيق ، وعاقبته إذا تعود على نفسه

(٣) بيِّنة أي دليل وبرهان وحجة واضحة لا شك فيها . وقال تعالى ﴿ كَمْ أَتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ [البقرة] وقال تعالى ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [البيِّنة] [القاموس القويم] بصيغة

(٤) البرد : ضد الحار قال بعض العلماء . جعل الله في النار برداً يرفع حرها ، وحرراً يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه . قال أبو الماتية - ولو لم يزل يبرد أو سلاماً لكان بردها أهد عليه من حرها ، ولو لم يزل على إبراهيم لكان بردها يلقياً على الأيد . انظر تفسير القرطبي (٦/٤٤٨٢)

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٣

فمثلاً شفى عيسى عليه السلام - الأكمة^(١) والأبرص^(٢) - بإذن ربه - فمن رآه آمن به ، ومن لم يره قد لا يؤمن ، وكذلك موسى - عليه السلام - ضرب البحر بالعصا فانشق أمامه ؛ ومن رآه آمن به ، وانتهت تلك المعجزات ؛ لكن القرآن الكريم باق إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أى واحد من أمة محمد ﷺ قبل قيام الساعة أن يقول : محمد رسول الله ومعجزته القرآن ؛ لأن محمداً ﷺ جاء رسولاً عاماً ؛ ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الحسن الباقى ؛ ومع ذلك قالوا له :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(٣) (١٥) أَوْ تُنْزِلَ لَنَا جَنَّةً مِّنْ ثَجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُجَرُّ الْأَنْهَارُ حِلَالَهَا تَفْجِيرًا ^(٤) (١٦) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُغَمَتْ عَلَيْهَا كِسْفًا ^(٥) (١٧) أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ^(٦) (١٨) ﴾ [الإسراء]

وكن ما ظنوه مسائل حسية ؛ لذلك يأتى الرد

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . ^(٧) (١٩) ﴾ [المنكوت]

(١) كمة يكمة كميها ، مهر أكمة ، وكذا أمسى ، أو عند بصرة مهر أكمة . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِيَ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ . ^(١٥) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم] .

(٢) الأبرص هو من أصابه داء البرص ، وهو مرض جلدى يحدث بقعا بيضاء فى الجلد تشوّهه ، وهو من أمراض مرض الجلد . قال تعالى ﴿ وَثُمَّ رَأَى الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ^(١٦) ﴾ [المائدة] [القاموس القويم] .

(٣) ينبع الماء : يخرج من العين والينبوع العين يخرج منها الماء عرياً سهلاً والجمع ينابيع قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَفَتْ يَنَاسِعُ فِي الْأَرْضِ . ^(١٥) ﴾ [الرعد] [القاموس القويم] .

(٤) كسفا قطعاً والكسفة القطعة وقال تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْوَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا . ^(١٦) ﴾ [الطور] وقال تعالى ﴿ إِنْ شَاءَ مَوْلَانَا يَهْدِ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطْ عَلَيْهَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ^(١٧) ﴾ [سجدة] [القاموس القويم] .

(٥) القليل الجماعة أو العشيرة أو الأعراب المتناصرون . قال تعالى ﴿ أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ^(١٨) ﴾ [الإسراء] معث ليويدوك [القاموس القويم]

ومع ذلك كذبوا.

وأضاف قوم عاد :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود]

هم إذن - قد خلدوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة» ؛ لأن الإله هو مَنْ يُنزل مهبجاً يحدّد من خلاله كيف يُعبد ؛ ولم تُقل الأصنام لهم شيئاً ؛ ولم تُبلغهم منهجاً.

إذن ، فالقياس المنطقي يُلغى تصور تلك الأصنام كآلهة ؛ فلماذا عبدوها ؟

لقد عبدوها ؛ لأن المطر تنادي كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها ؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدّد من شهوات النفس ، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو بواهي فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر .

وهذه هي حُجّة كل ادّعاء نبوة أو ادّعاء مهديّة ^(١) في هذا العصر ، فيدّعي النبي الكاذب النبوة ، ويدعو لاحتلاض مع النساء ، وشرب الخمر ، وارتكاب الموبقات ^(٢) ، ويسمّي ذلك ديناً.

وتجد مثل هذه الدّعاري في البهائية ^(٣) والقاديانية ^(٤) ؛ وغيرها من

المعتقدات الرافقة

(١) للمفسر هؤلاء الذين يدّعون أنهم المهدي المنتظر الذي جاء ذكره في أحاديث رواها البخاري في صحيحه ، أنه يأتي في آخر الزمان ، ويكون مبعراً لنزول عيسى بن مريم

(٢) الموبقات المهلكات ، أوقفه أهلكه وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ تَوَارِقًا ﴾ [الكهف] أي :

جمعنا تراصلهم في الدنيا موبقاً ، أي مهلكاً لهم في الآخرة [لسان العرب مادة ريق]

(٣) البهائية طائفة ذات عقائد فاسدة ، تسبب لمرزا حسين علي المازندراني ترقى بظهوره ، ولد عام

١٢٣٣ هـ ، أنكره حبيب من اليهودية والزرادكية واليهودية والإسلام والمسيحية انظر حقيقة البهية

والبهائية - د. محسن عبد الحميد ١٩٨٥ م

(٤) القاديانية ، تُسبب لمرزا غلام أحمد من قاديان بلاهور من إققيم البنجاب بين الباكستان والهند ، ولد

١٢٥٢ هـ ، ويدّعي النبوة (القاديانية ، نشأتها وتطورها ، د. حسن عيسى - دار القلم / الكويت

(١٩٨١ م)

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ .. ﴾ (٥٣)

[هود]

يعنى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم . . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٤)

[هود]

أى : وما نحن لك بمصدقين ، لأن (أمن) تأتى بمعانى متعددة ^(١) .

فلأن عديتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤)

[فريش]

وإن عديتها بحرف «الباء» مثل قول الحق سبحانه

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ (٦٢)

[البقرة]

فالمعنى يتعلق باعتقاد الألوهية .

وإن عديتها بحرف « اللام » : مثل قول الحق سبحانه :

(١) أمن يأمن اطمان ولم يخف وأمن به . سلم وأمن على كذا . اطمأن إليه وقت به . كقولك
سألى ﴿ قَالَ مَنْ آمَنَكُمْ عَلَيْهِ إِذْ كُنَّا أَسَافَةً مِنْ قَبْلُ ﴾ (٤٥) [يوسف]

وأمن اسم فاعل قال تعالى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ (٢٥) [زبريميم] أى يأمن من يعمل به
وأمنه من خوف جعله آمناً غير خائف ومعانى اماد، كذا ترجع إلى الثقة والاطمئنان قال تعالى
﴿ .. وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) [فريش] أى جمعهم آمين لا يحاذرون لأنهم جيران الحرم الأمن أى البلد
الأمن

والمؤمن من أسماء الله الحسنى ، أى : وهب الأمن وباعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين : فلا خوف على
بلدنا إليه سبحانه . قال تعالى ﴿ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنَةُ ﴾ (٢٢) [الحشر]

وأمن له . أذعن وخضع عن قوة وحب وتقدير قال تعالى ﴿ قَامَنَ لَهُ لُوطٌ .. ﴾ (١٢٣) [العنكبوت]
وأمن به صدق به ووثق به عن انتفاع قال تعالى ﴿ إِنْ آمَنَتْ بِكُمْ فَأَمْسُكُون ﴾ (٦٢) [يس]

والإيمان الإيعان والتصديق . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْصَعُونَ لَهَا لَمْ تُكَنَّ آمَنَتْ مِنْ
قَبْلُ لَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .. ﴾ (١٥٨) [الأنعام] [الفردوس القويم] يتصرف

﴿لَمَّا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَشِهِمْ أَن يَفْتَهُهُمْ ..﴾ (٨٣)

[يوس]

تكون بمعنى التصديق .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بِعُضِّ آلِهَتِنَا يُسْوِقَ أَلَّا نَشِيدُ أَفَلَا تُشْهِدُونَ أَنِّي أَنشِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٨٤)

و«إن» التي تفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية ، وأداة «إن» الشرطية يأتي بعدها جملة شرط ، وجواب شرط ، فإن لم تكن كذلك فهي تكون بمعنى النفي ؛ مثل قول الحق سبحانه :

[المجادلة]

﴿إِن أَنهَاتُهُمْ إِلَّا اللّٰهُ وَلَدَنَّهُمْ ..﴾ (٤)

وهنا يقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ..﴾ (٥٤)

أي : «ما نقول إلا اعتراك» .

وممكن نعلم أن كلمة «إن» هنا جاءت بمعنى النفي .

و«إلا» هي أداة استثناء ، وقبلها فعل هو «نقول» ، وإذا وجدت أداة استثناء ، ولم يذكر المستثنى منه صراحة ، فاعلم أنه واحد من ثلاثة : إما أن يكون مصدر الفعل ، وإما أن يكون ظرف الفعل ، وإما أن يكون حال الفعل^(١) .

(١) هود هود . ألم به بو فيه رأسه . قال تعالى ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْرٰاكَ بِعُضِّ آلِهَتِنَا يُسْوِقَ ..﴾ (٥٤) [هود] أي أصابت قاذ الحراء كانوا كذّوباً - بمعنى : هوذا عليه السلام - تم جعلوه مختلطاً ، ولدهوا أن آلهتهم هي التي خيلته ليه إياه ، قال الفرزدق : معناه : ما نقول إلا نيك بمعنى أمثامنا يجرّون لبيك إياه [لسان العرب ، والقاموس النور]

(٢) بمعنى الحاة هذا النوع من أساليب الاستثناء الاستثناء المقيّد وهو ما حذّب به المسيحي منه ، والكلام غير موجب (أي - مني) مثل ما تكلم إلا واحد وقول تعالى ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا حَقٌّ﴾ [الباقية] أي : ما نقول إلا حقا عظيماً . انظر تفصيل ذلك في البحر الرافعي [٢/٣١٧ - ٢٣٧] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٧

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أن آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سقتهتهم وأبطلت ألوهيتهم ، وجئت بإله جديد من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء - يراد به الجنون - فأحدثت تخطيطاً في الكلام الذي ليس له معنى .

ويرد عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية :

﴿ ... قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا ﴾^(١) "أَتَى بَرِيءٌ نَعْمًا تُشْرِكُونَ" ﴿٥١﴾ [هود]

وهو يُشهد الله الذي يثق أنه أرسه ، ويحمي داته ، ويحمي عقله ؛ لأن عقل الرسول هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ من الله

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولا ولا يحميه .

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد ﷺ أنه مجنون ؛ فأرسل الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿ مَا أَنْتَ بِمَعْنٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۖ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾^(٢) [٣] وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [المعالم]

ونحن نعلم أن المجنون لا خلق له ، وفي هذا بيان أن رسول الله ﷺ في قمة العقل ؛ لأنه في قمة الخلق الطيب .

وهما يُشهد هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة ، ويحكموا . أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه برىء من تلك الآلهة التي يُشركون بعبادتها من دون الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام :

(١) طلبه للشهادة هنا ليس لأنهم أهل للشهادة ، ولكن المصنف وأشهدكم بهادة للقرير ، أي تعرفو أنى برىء من عبادة الأصنام التي تعبدونها . انظر تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٧٠) .

(٢) غير ممنون . أي ، غير مقنوع ، بل هو دائم ، ويحصل أنه غير مكتر بهلن والتفريع والتفريخ . والميمان لا يتعد طاب [المعالم من القويم ٢/ ٢٤٠] .

﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ (٥٨)

وقوله : ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أى : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلّبوه ، وهو - عليه السلام - هنا يتحداهم وبطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم ، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدى .

والتحدى هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو - عليه السلام - متأكد من قوله :

﴿أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ (٥٩) [هود]

الذى قاله فى الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمى مثل هذا التحدى جزافاً ؛ لأن الإنسان لا يجارف بحياته فى كلمة .

وهو لم يقل : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ (٥٥) إلا إذا كان قد أوى إلى ركن شديد ، وأنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة .

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (١٨) [آل عمران]

(١) كان فلاناً يكيد كيداً خدعه ومكره واحتمل لإحراق الضرورية ، والكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكافرين ، ومعانيبتهم على ما دبروه من كيد ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٨) وأكد كيدا (١٩) [المدثر] ، والكيد مصدر وينطق على العمل أو الوسيلة التى يتلوع بها الكائد يقول الحق : ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوَا صَلَاتِي﴾ (٢٠) [طه] (المأموس القوم يتصرف)

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٩

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم^(١)، والله سبحانه وتعالى حين شهد
لعه فإنما يطمئت أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة.

وقد أشهد هود عليه السلام ربه سبحانه، وهو واثق من حبيبته له وما
كان الحق سبحانه ليرسل رسولا ليمكن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَائِيَةٍ إِلَّا هُوَ
عَاصِدٌ بِمَا صَيَّرْنَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم فلما بالقسط ..﴾ (١٠٠) ﴿آل عمران﴾

(٢) الدابة اسم فاعل، وغلب على غير الفاعل، ويستوى في الذكر والمؤنث وقد يشمل العائل وغيره،
كقوله تعالى ﴿ومن فيها من كل دابة﴾ (٢٤٠) ﴿البقرة﴾ تشمل الإنسان وغيره وقوله تعالى ﴿وكلين
من دابة لا تحمل رقبها لله ربها وإنها من عذابنا ما عاد الإنسان مدليل
كسبة﴾ (٢٤١) ﴿البقرة﴾ فالخطف يمتص البعير، وقوله تعالى ﴿إن شر الفروج عند الله الضم الضم الذي لا
يقولون﴾ (٢٤٢) ﴿البقرة﴾ تشمل الحيوان والإنسان الكافر

وقوله تعالى ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بينهما من دابة﴾ (٢٤٣) ﴿الشورى﴾ والسماء
هنا تشمل الكائنات الخفية في الأرض والسماء، وفيها دليل على أنه في السماء كائنات حية وعاقبة
[القاموس القويم] بصرف

(٣) ناصية ما يروى لشعر في مقدم الرأس لون الخيفة، ويسمى مكانه أيها ناصية، وأحد ناصية
فلان لخص عليه وسيطر عليه متكئاً

وقوله تعالى ﴿وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ (٢٤٤) ﴿هود﴾ أي مسطر عليها مالك أمرها
مصرف فيها وقوله تعالى ﴿فأخذ بالنواصي والأقدام﴾ (٢٤٥) ﴿الرحمن﴾ أي يُجر المحرمين من
نواصيهم وأقدامهم. فخرط ناصية للجرم مع قدمه، ويؤخذ على من التارح جراً مهاناً وقوله تعالى
﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ (٢٤٦) ﴿الحق﴾ معجر مرسل علاقته بغيره، أي صاحبها كاذب خاطئ.
[القاموس القويم]

(٤) الصراط منه في السراط، وبهما يرى - بالهواء - والسي - وهو السيل والطريق للخير والشر فمن
الخير منه تعالى ﴿هَذَا الصَّراطُ الْمُسْتَقِيمُ﴾ (٢٤٧) ﴿الأنعام﴾ وجوبه تعالى ﴿إن ربي على صراط مُسْتَقِيمٍ﴾
(٢٤٨) ﴿هود﴾ ومن شر والهلاك، قوله تعالى ﴿لَا تُهِنُّهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢٤٩) ﴿الصافات﴾
والتعبير بقوله تعالى ﴿فَأَعَدُّهُمْ﴾ على سبيل تهكم والسخرية [القاموس القويم]

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يشوكل على الله تعالى الذي لا يعلمهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو لأخذ بناصية كل دابة تدب في الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هي مقدم الرأس ، وبها خصلة من الشعر

وحين يريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشدّه منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَرْفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيَمَاهُمْ ^(١) فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ ^(٢) ﴾ [الرحمن]

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا ^(٣) بِالنَّاصِيَةِ ^(٤) ﴾ [العلق]

إذن ، فكيف لم يجز قومه عاد على أن يسלטوا مجموعة نعاين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة - مثلاً - على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإصرار به حين قال لهم :

﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَأَىٰ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٥) ﴾ [هود]

ونحن نلاحظ أنه عليه السلام قال في صدر ^(٦) الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ . ^(٧) ﴾ ، وفي عجز ^(٨) الآية قال : ﴿ إِنْ رَبِّي ^(٩) ﴾ ،

والسبب في قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ . ^(٧) ﴾ أنهم كانوا قادحين ^(١٠) في مسألة ربوبية الحق سبحانه .

(١) السيماء والسيما والية العلامة ، وسوم الشيء أصله يسومه أي بعلامة [القاموس القريم]

(٢) سمع بناصيته ، قبض صبيها فجعلها أي سجله من ناصيته لإلأله ، وذلك كتأني من الإدلال

والنهر والإهالة [القاموس القريم ٣١٦/١]

(٣) انصبر ، مقدم كل شيء وأوله والمراد بداية الآية الكريمة

(٤) عجز كل شيء مؤخره والمراد نهاية الآية الكريمة .

(٥) القديح في الشيء العيب فيه وانتقاصه ، [راجع اللسان مادة طحج] .

لذلك قال عليه السلام في مجال السيطرة: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أما في عجز الآية فقال:

﴿... إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٦﴾ [مود]

أي، أن الإله لو اُحد سبحانه له مطلق العدالة ، ولم يأت بها بشيء يخص أربابهم ؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه .
والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم في منتهى قدرته ، وقهره وسيطرته ، ولا شيء يقبل منه ، ومع كل قدرة الله تعالى الامتناعية فهو لا يستعمل قهره في الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَىٰ الْكَافِرِينَ وَمَنْ خَلِيفَ رَبِّي فَمَا غَيْرَ كُفْرٍ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ٥٧﴾

الفعل «تَوَلَّوْا» أصله «تَوَلَّوْا» ، وفي اللغة: إذا ابتدأ فعل بناءً ينحصر على تاء واحدة .

وهكذا يكون المعنى :

إن تَوَلَّوْا فقد أبليتكم المنهج الذي أرسلت به إليكم ، ولا علم لكم عدي ؛ لأن الحق سبحانه لا يعدب قوماً وهم غافلون ؛ لذلك أرسلني إليكم .

(١) ولي عن الشيء: انصرف عنه، أو أعرض عنه. وقال تعالى ﴿... وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَفُتُوا ٥٦﴾ [الأنعام] أي أعرضوا وقال تعالى ﴿... فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ هَدَاكُمْ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ ٥٧﴾ [الأنعام] [القاموس القويم]

(٢) حفيظ من أسماء الله الحسنى والحفيظ الحافظ لأمير الذي يحفظ عباده ويحميهم قال تعالى ﴿... وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ٥٧﴾ [سبا] [القاموس القويم - بصرف].

أو أن الخطاب من الله سبحانه ليهود عليه السلام ليبيّن به . فإن تولّوا فقل لهم ﴿أَبَيْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ . . (٥٧)﴾ [هود]

والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء^(١) لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ، فلا يقموا من المنهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه .

﴿لَخَلَفَ مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ . . (٥٩)﴾ [مريم]

والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيباً .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . (٥٥)﴾ [النور]

إذن فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه .

﴿هَٰئِئَا نَتَّبِعُ هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَا لِنُتِمِقِرَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَكُنْ مِنْ يَخْلُ وَمن يَخْلُ
لِأَنَّا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَسْتَبَدُّوا فَوَمَا غَيْرُكُمْ
ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٦٨)﴾ [محمد]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَصْرُوفُ شَيْئًا . . (٥٧)﴾ [هود]

(١) خلفه يخلفه من باب نصر جاء بعده مصار مكانه . والخلف القرون من الناس أي الجيل بعد الجيل . والخلف الولد قال تعالى ﴿لَخَلَفَ مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ . . (٥٩)﴾ [مريم] والخليفة من يخدم غيره وجمعها خلفاء وخلفاء ، يقول الحق ﴿وَاتَّبَعُوا . . (٦٨)﴾ [محمد] إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح . [الأمم] وقال . ﴿مَنْ لَدَيْ جَعَلَكُمْ خُلَافًا فِي الْأَرْضِ . . (٦٨)﴾ [فاطر] القاموس المتون ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ج ١

لأن المنهج الذي تزل على الخلق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لمصالح العباد ، وهو سبحانه خلق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف^(١)

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية :

أنتم أنتم التمرد ؛ إما التمرد في القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بحالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : لن أمرض ؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت ؟

إذن ، ما دُمت قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بإصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم بالتوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ .. وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا إِنْ رَأَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفًا ﴾ (٥٧) [هود]

فألله سبحانه رقيب ؛ لأنه فيوم قائم على كل أمور كونه

وبعض لفلاسمة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق الزمان والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

(١) يقول رب العزة في الحديث القدسي : يا عبادي إنكم س تعلمون ضري فتصرون . ولن تعلموا بعمى فتصمون . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد في مسنده (١٥٤ / ٥) وابن ماجه في مسنده (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) الزمان والقوانين الإلهية التي يخضع بها الكون

سُورَةُ هُودٍ

١٥١٤

ولهؤلاء نقول : لا ؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر ، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو سبحانه القائل لعبده عن نفسه :

﴿ لَا تَأْخُذْهُ مِنَّةٌ ^(١) وَلَا نَوْمٌ ^(٢) ۚ ﴾ (٧٥٥)

[البقرة]

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد ؛ ليناموا ويرتاحوا ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن الغفلة أو النوم ، بل هو سبحانه قيوم ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ هُودًا ^(١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ^(٢) ۖ ﴾ (٥٨)

وساعة تسمع ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ فأنت تعرف أن هناك أمراً وأمرأً مُطاعاً ، وبمجرد صدور الأمر من الأمر سبحانه يكون التنفيذ ؛ لأنه يأمر من له قدرة على التنفيذ .

ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأُدْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ^(٢) ۖ ﴾ (٧)

[الانشقاق]

إذن - فهي بمجرد السمع نُضْذت أمر الحق سبحانه

(١) انشأ النعاس وهو أول النوم والنعاس ما كان من العين ، فإذا صار من نقلب صار موماً وقد عرفت الفضل الضبي بينهما يقال انشأ من الرأس والنعاس من العين ، والنوم في الضب [راجع تفسير القرطبي ١١٩٦/٢]

(٢) عذاب غليظ أى : كبير كثير شديد صعب [القاموس المقيوم]

(٣) حق له (بالياء للمجهول) . أثبت له . قال تعالى ﴿ وَأَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ^(٢) ۖ ﴾ [الانشقاق] أى كان حقاً ثابتاً عنده ، أن تخضع لأمر الله ، [القاموس المقيوم]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٥١٥﴾

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنَجِّي موسى عليه السلام من الدبح الذي أمر به فرعون ؛ أوحى الله سبحانه لأم موسى قائلاً :

﴿ .. فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ۚ وَلَا تَعْلَى وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧)

[التقصير]

وكيف تفعل أم ذلك؟

إن كل أم إذا تحرص على ابنها ؛ والتبجح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء في البحر موت محقق^(١) ، لكن أم موسى استقبلت الوحي ؛ ولم تتردد ؛ بما يدل على أنها لم تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهام وارد إليها من الله سبحانه ؛ إلهام لا ينازعه شك أو شيطان .

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :

﴿ فَلْيَلْقِهْ يَوْمَ الْبَاسِ ۖ ﴾ (٢٩)

[طه]

وقد استقبل البحر الأمر الإلهي ؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ القصد .

في قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

- (١) اليوم البحر أو النهر المذهب وقد ورد للمبتدئين القرآن ، قال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ لَهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ (٢٩)
- [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماءه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر
- وقال تعالى لموسى ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٢٩) أَنْ اقْنَطِي عَنَّا فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهْ يَوْمَ الْبَاسِ ۖ ﴾ (٢٩) [طه] قاليم بها هو نهر النيل العذب [القاموس القويم]
- (٢) أم موسى عاشت في بحروف مطروقة مصحوبة بقلب ، فقد يحدث وقد لا يحدث ، كما عاشت في بحروف محقق وهو إلقاء ابنها في البحر ، فالبحر يسمى العرق ولكن جانب الإلهام جعلها تستقبل بحروف المحقق بالإيمان التقى ، فالبحر استقبله ، والمرج بداجه ، والشاطئ يقبله ، والحدوي يريه ، وغير الله تعالى .

- (٣) الساحل - شاطئ النهر ؛ لأن الموج يأكل منه ويحتمه ويسحقه قال تعالى : ﴿ فَلْيَلْقِهْ يَوْمَ الْبَاسِ ۖ ﴾ (٢٩) [طه] أي : شاطئ النهر [القاموس القويم]

سُورَةُ هُودٍ

٦٥١٦

[هود]

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۖ ۝٤١﴾

وحدث الطوفان ، ليغرق الكافرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ۖ ۝٥٨﴾

يعنى : مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تتناسب في دقتها مع عظمة الأمر بها سبحانه وتعالى .

فحين تأتي ريحٌ مَرَصْرَ " أو صَبْحَةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دم العذاب من الخارج ، ويقو من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يعمُّ الكذَّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدقون به ورسائله ، فكيف ينأتى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذَّبين فقط ، وتغرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟

إنه قدرة التقدير لا قوة التدمير .

إن مُوَحَّةَ الصَّحَّة قد حُدَّ لها مَنْ تُصِيبُ ومن تترك ، وهى صيحة موجَّهة ، مثلها مثل حجارة سجَّيل " التى رمتها طير أباييل " عنى أبرهة الجمشى وجنوده ؛ مع نجاة جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادعى بعض من المتكلمين .

(١) الصَّرُّ البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ كَمِثْلَ رِيحٍ فُجَاءَ صَرًّا ۖ ۝٥٨﴾ [آل عمران] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا عَادَ

فَأَعْلَوْا بِرِيحٍ مَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ ۝٥٩﴾ [الحاقة] [القاموس القويم]

(٢) السجَّيل الطين المتحجر . قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجَلٍ مَطْهُودٍ ۖ ۝٦٠﴾ [هم ذ] وقال

تعالى : ﴿ فَرَمَاهُمْ بِحِجَابٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۖ ۝٦١﴾ [الغزل] [القاموس القويم]

(٣) أباييل جماعة متفرقة لا واحد لها من لفظها ، وهى نميد الكثرة . قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَايِيلَ ۖ ۝٦٢﴾ [الغزل] [القاموس القويم] .

وهذه من أسرار عظيمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد ؛ ولكنه يُجِى المؤمنين ؛ ويعذب الكافر ؛ فلا يوجد مومن يحكم الكون بدون قدرة مهيمنة عليه .

يقول المتنبي^(١) :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِمَّا يَبْصُرُ أَوْجُهَنَا وَمَا تُسَوِّدُ يَبْصُرُ الْعَيْنَ وَاللَّمَمَ
وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً لَوْ احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ^(٢)

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد مما فى الشمس ؛ يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السمره ولا تسود بياض الشعر ، لكنك إن تركت شيئاً أسود فى الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض ؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد ؛ لكن القابل مختلف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا . (٥٨)﴾

[هود]

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام ؛ لأن هذه هى الرحمة .
والرحمة - كما نعلم - هى ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر ؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَنُفِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . (٨٦)﴾ [الإسراء]

(١) هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة فى سنة تسمى «كنة» عام ٣٠٣ هـ ، شأ بالشام ، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ونزلت سبى بالمتنبي ، ثم رجع عن دعواه بعد أسره ، توفى عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً (الأعلام لخير الدين الزركلى)

(٢) المتنبي رغم أنه أديب به قدرة على إدارة المعانى ، فقد تعرض لحقيقة علمية يؤخذ منها الأسرار الخفية ، التى تجعل العقل مختاراً بتوحيد القدرة لله سبحانه

ونحن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمه نجاتين :

النجاة الأولى : من العذاب الجامع ؛ الربيع الصرصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاعية ، يقول سبحانه :

﴿ .. نَجَّيْنَا هُودًا وَآلَهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨ ﴾ [هود]

والنجاة الثانية : هي نجاة من عذاب الآخرة العليظ ، فعذاب الدنيا رعم فسوته ، إلا أنه موقوف بعمر الدنيا

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية ، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة وغلظ الشيء يعطى له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم

ولذلك حينما يملك الحق سبحانه رجلاً بضغ ' امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق العليظ ، والنسبة هنا متصلة بالعفة والعرض ، ولم يملك الرجل الفعية المطلقة من المرأة ' التي يتزوجها ؛ فالزواج يمكن من عودة زوجته بعقد الزواج .

يقول الحق سبحانه .

﴿ .. وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا عَلِيًّا ٥٩ ﴾ [النساء]

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب لأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ .

(١) البضع : الكاح والجماع ، والمباذعة : للجامعة ومباشرة الرجل للمرأة [لسان العرب - مادة بضع]
(٢) للمرأة - مثلاً - ذمة مالية خاصة بها ، يس من حق زوجها الاستيلاء على ماله ، أو التدخل في كيفية استثماره إلا بعد موافقتها بإرادتها الحرة

(٣) ميثاقاً غليظاً أى عطيماً كعبر الشاة ، عر ميثاق الزواج [القاموس الغويوم]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩)

«تلك» إشارة إلى المكان الذي عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا
لموت ، ولتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال
سبحانه ﴿جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ (٥٩) فهم قد ذهبوا ونقيت آثارهم ،

و«عاد» إما أن تطلق على المكان واسحل ، وإما أن تطلق على الموت
التي عاشت في المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ ﴿تلك﴾ فهي إشارة إلى
الديار ، والديار لم تحجد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ (٥٩)

[عبر]

والجحد هو الكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهي الأمور العجيبة الملقطة بلظر
الثقات يوحى بإيمان بما تنص عليه .

(١) جحد الحق يجعله جمود أنكره ، وهو يعلمه وجحد النعمة أنكره ولم يشكرها وجحد الآية
كفر بها قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام] [التقاسوس القويم]
(٢) جددت (رسنه) هنا بصيغة الجمع ، لا المفرد قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٧٣) يعني هوذا
وحينه ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، وبظهير قوله تعالى ﴿يَسْأَلُهَا الرُّسُلُ كُلُّ مِنَ الْعَالَمِينَ
(٥٩)﴾ [الأنعام] يعني ، المبي نكته ، لأنه لم يكن في عصره رسول سواه ، وإذا جمع هذا لأن من
كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل ولين عصوا هوذا والرسول قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل
إليهم ألف رسول لجحدوا لكل

(٣) الجبار : الكبير ، والعبيد : الظاهري الذي لا يقبل الحق ولا يلصق له ، [تفسير القرطبي ١/ ٣٣٧٣]

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الرجود ؛ بالله
الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس
والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التي في القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتي مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولا من عند
الله تعالى ، وهي المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التي يريد بها الله سبحانه بمنهج بصمان صحة
حركة الحياة في خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا
تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا مهج الله جحدوا بإعراض^(١)

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ...﴾ (٥٩) [هود]

وهود عليه السلام هو الذي أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو
المعنى بالعصيان ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ^(٢) النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مُتَصِدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ تَتُومِنُونَ بِهِ وَتَنصُرُونَهُ...﴾ (٨١) [آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل
رسول يُرسل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) الجحد لا يتأني ، لا عند إغلاق القلب وغرور الفكر وضعف النفس
(٢) الميثاق والمرثى - العهد المؤكد - قال تعالى ﴿وَذُكِّرُوا لِعَمَةِ اللَّهِ طَبِيعَتِهِ وَمِثَاقِهِ الْإِلَهِيِّ وَالْفَكْمِ بِهِ﴾ (٤٦) [أنفال] أي عهد الذي عاهدكم عليه وألزمكم الوفاء به [القاموس القويم ٢ / ٣١٩]

سُورَةُ هُودٍ

○ ٦٥٢١ ○

﴿ كُلُّ آمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ

... (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

فهم قد انقسموا إلى قسمين : لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَعَصُوا رُسُلَهُ وَتَبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَبِيدٍ (٥٩) ﴾ [هود]

أى : أن هناك مُتَّبِعاً ، وَتُتَّبِعاً .

والمقصود بالجبار العتيد هم قسم المجتمع ، مودة الطغيان والصنف الثاسي هم من اتبعوا الحبيرة .

ومن رحمه سبحانه أنه حين يحكم عن الفرق الصالحة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق الخسنة ، فهناك حال في ذاته ، وهناك مُصِلٌ لغيره

والمُضِلُّ لغيره عليه وروان^(١) : وورر صلاته في ذاته ، وورر إصلا لغيره^(٢) .

أما انذس اتبعوا فلهم بعض العذر ، لأنهم اتبعوا بالجهروت والنهر ، لا بالإفناع والهيئة ،

(١) العتيد صيغة مبالغة ، قال تعالى ﴿ وَاسْتَطَعُوا وَغَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عِيدٍ (٥٩) ﴾ [إبراهيم] القاموس القويم ص ٢٩٠ ج ٢

(٢) الوزر الحمل الثقيل والذنب ، وجزاء الذنب وعقوبته ، والهم والكرب قال تعالى ﴿ .. إِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (٥٩) ﴾ [آل عمران] أى حملاً ثقيلاً هو ثبته أو جزاء لثبته . وقوله تعالى ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٥٩) ﴾ [الشرح] أى عمنك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق ، فلما جاءت الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يعمل (لا هم أمته) . أو يكون الوزر هو الذنب الذى كانت تراه ذنباً لشدة حبه لله وخوفه إياه ، وقد وضعه عنه وعفوه لك . قال تعالى ﴿ وَلِيُفْرِغَ اللَّهُ مَا هُمُّ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَا تُأْمُرُ... (٥٩) ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى القلوب الصغيرة تنوباً كبيرة فوضع الله عنه بالمغفرة . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٢] .

(٣) قال تعالى عن الذين يشكون غيرهم ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَرَ الَّذِينَ يَمْشُرُونَ بِالنَّارِ يَمْشُرُونَ بِالنَّارِ وَمَا هُمْ بِأَعْيُنٍ (٥٩) ﴾ [الأنفال] . وقال تعالى عن الكافرين ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَعْيُنُ الْمُسْلِمِينَ (٥٩) ﴾ [التكوير] والآنقال من الخلوب ، ويحملون لثقل من أثقلهم فأنهمهم فى ضلالهم [رجع القاموس القويم ، ماذا ثقل] .

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القصبة ، فيتحدث عن الفئة التي ضلت في ذاتها ويقول:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ^(١) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَهْتُونَ^(٢)﴾

[البقرة]

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلة فيقول:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَنُشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ..^(٣)﴾

[البقرة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ^(٤)﴾

والرمان بالنسبة لسُخلت ثلاثة أقسام: حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ^(٥) ، وساعة يعيشون هي الزمن الثالث.

(١) الأماني: جمع أمية، وهي ما يرغب الإنسان فيه من الخير، فعلمهم من الكتاب ليس أماني كلابية في دخول الجنة دون أن يصدقها عملهم، ولذلك قال تعالى: ﴿يُسِرُّ بِعَالِيهِمْ وَلَا أَمَانِيٌّ لَهُلَّ الْكِتَابِ^(١)﴾ [النساء] [القاموس القويم ٢/ ٢٤٦] بريادة بتنقيتها المقام.

(٢) اللعنة: اسم مرة، وتستعمل بمعنى المصدر، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ^(٢)﴾ [مروء] أي: سخطه وخطبه وطرده من منصب على الظالمين. [القاموس القويم]

(٣) البرزخ: الحاجر بين المشيئين. قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْفَجْرَيْنَ بِلَهْيَانِ^(٣) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ^(٤)﴾ [الرحمن] أي: بين البحرين حاجر من الأرض يحجز كلا منهما في مجراه؛ فلا يبحى ولا يطفى على الآخر. وقال تعالى: ﴿... وَمَنْ وَرِثَهُمُ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُخْرَجُونَ^(٥)﴾ [المؤمنون] أي: حاجر يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا حتى يوم القيامة وتسمى فترة القبور فترة البرزخ. من مات فقد دخل البرزخ إلى يوم القيامة [القاموس القويم]

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض اجزاء ^(١) ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة إما إلى الجنة وما إلى النار يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨)

[البقرة]

هذه هي الأزمنة الثلاثة - حياة ، وبرزخ ، وبعد - وكل وقت منها له طرف ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه في البحر :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ^(٢) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦)

[غافر]

وفي هذا دليل على عرض الجراء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «القبير إم روضة من ريص الجنة ، وإما حفرة من حفرة النار» ^(٣)

ذن : فهنا زمان زمن عرضهم على النار غدواً وعشيّاً ، وزمن دخولهم النار .

(١) قال تعالى عن عذاب آل فرعون ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦) [غافر] فهذا عرض للجزاء عليهم ، وهو من حد ذاته عذاب

(٢) العدو الدخول في الغداة ، أو السير أول النهار قال تعالى ﴿ غَدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ (٤٦) [سبا] أي مدة سير الرياح في وقت الغداة تقطعها القوافل من شهر

ويقبل الغدو بالمشي وبالأصالة ، قال تعالى ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ (٤٦) [غافر] وقال تعالى ﴿ .. يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٥٦) [النور] [الغداة من الغدو]

(٣) أخرجه الترمذي والطبراني في الكبير عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن أبي هريرة وسندهما ضعيف ، وانظر مجمع الزوائد (٤٦ / ٣) وسند الفردوس لديلمي (٢٣١ / ٣)

وهذا يشبه عذاب السوزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .
وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب في الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود]

وكلمة «ألا»^(١) هي أداة تنبيه كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يليه المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذي يفقد زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتي كلمة «ألا» كجسر من ينسج إلى ما بعدها من كلام

والكلام من قوم عاد الذين نالوا عذاباً في الدنيا بالريح العقيم^(٢) ، ثم أتبعوا لعنة في البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحديثه هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فيُنْ كَلِمَةُ «ألا» أي : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالدفعة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يمشك الله يوم القيامة» أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٧٩) ومسلم في صحيحه (٢٨٦٦) .

(٢) ألا - أداة استفتاح وهي مركبة من همزة الاستفهام ومن لا السالبة ، وتكون بثنائية فتدل على تحقن ما بعدها وتقريره كقول : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّاهُونَ ﴾ [البقرة] وتكون للعرض والتخصيص والحث ، كقوله تعالى ﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا بِلَهِ اللَّهِ لَكُمْ ﴾ [الزمر] [القاموس القويم ٢٧/١]

(٣) ذلك كان عذاب قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الدَّارِيَات] والريح العقيم هي التي لا خير فيها - بل هي تهلك وتدمر . وذلك وصف على المجاز بالاختصار [القاموس القويم ص ٣١ ج ٢]

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عيبها زمن ، وكفرهم بربهم حدث في الدنيا ، وهو كفر في القمة ؛ لذلك بالوا عقاباً في الدنيا .

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم في البرخ ، ثم تأتي لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم ، بل كفروا بربهم

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف ، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التي لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهي الجراء العادل .

وقد أوضح لهم هود عليه السلام .

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [٥١]
 رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

[هود]

أي : أن الحق سبحانه عادل

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛ ولذلك يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [٦٠]

[هود]

فأنت لا تكتفي بعصيتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى .

ولسائل أن يقول : ولماذا يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [٦٠]

[هود]

(١) الناصية ما يبرر من الشر من قسم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً ناصية ، وأخذ بـ ناصية ملائكة قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه ، قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [٥١]

[هود] سيطر عليها ومالك أمرها مصروف فيها . [القاموس المفروق بتصرف] ص ٢٧٠ ح ٢

ونقول: لقد قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم]

وهذا يوضح لنا أن «عاداً» كانت اثنتين: عاداً لأولى، وهم قوم عاشوا وضلوا فأهلكهم الله، وهناك عاد الثانية^(١)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنِّي تُسَوِّدُ أَسْجَادَهُمْ مَّسْلَحًا قَالَ يَنْفِرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ عِزٍّ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبي في تفسيره (٤، ١٦٩) أنها عادتان، عاد الأولى، وعاد الأخرى، مهولاء. أي: قوم هود - هم الأولى، وأما الأخرى فهي أقوام عاشت في جزيرة العرب - وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿لَهُ ذَاتُ الْعَدَاةِ﴾ [العنكبوت]، ويقول (٣/ ٢٧٥٢) كان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة أده، وكانت عاد مبدؤى ثلاث عشرة قبيلة، يتربون رمال صالح، وكانوا أهل بساتين وريوع وعمارة، وكانت فيها روى يوحنا حضر موت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام، وحق هود - حين أهلك قومه - من آمن معه بمكة، فلم يرأوا بها حتى ماتوا.

(٢) ثمود قبيلة من العرب الأول. ويقال: إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح. [راجع: لسان العرب - مادة تمدا].

(٣) أنشأ الشيء، أوجده وأحدثه وخلقه. وأنشأ الله السحاب كونه وأظهره في اسمه تعالى تعالى ﴿وَنُفِثَ السَّحَابُ فَنُقِلَ﴾ [الرعد] أي: يكون السحب بمختلفة بالماء وأنشأكم من الأرض، خلقكم منها [الفهم من القويم] بتصرف.

(٤) عمر فلان الدار ببناء، وعمر القوم المكان سكناه، فهو معمور. وعمرت الدار بأهلها، فهي عامرة. قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَحْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْرِ بِاللَّهِ﴾ [التوبة] أي: يقيم فيها الصلاة ويجلس فيها للعلم ويمكث للاعتكاف، ويبنيها ويحافظ عليها؛ لكن ذلك من عمرتها.

وقوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ مَسَاجِدَ الْحَرَامِ وَمَسَاجِدَ الْأَعْمَالِ﴾ [التوبة] أي: إن عمارة المسجد خير إيمان لا وزن لها، فالإيمان هو أساس لقبول الأعمال واستعماره في المكان جعله يعمره فإن تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود] [الفهم من القويم ٢/ ٣٥]

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه يبين لنا هنا أنه أرسل إلى نمرود واحداً منهم مو صالح عليه السلام

وجاء الحق سبحانه بلفظ «أَخَاهُمْ» لبيان العلاقة التي بين صالح - عليه السلام - وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فإذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه - فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج .

وبإدراك صالح عليه السلام «يا قوم» ، وهي من القيام ، يعنى : يا من تقومون للأمور ، والذي يقوم على الأمر عادة هم الرجال ؛ لأن أمر النساء مستور - دائماً - في ظل الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتى فيه ذكر للمرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، وأنساء مصريات على الشرى ظل الرجال ، ولرحل يشى ويكدهج ، وبرة تدير حياة السكنى وتربية الأولاد .

وبحق نجد من النساء ومن الرجال من يتراصون عند الرواج على ألا تخرج المرأة للعمل

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم يجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلقت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجل ، وهو رعاية الأسرة ؟

وكذلك نجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقول نحن بعمل ذلك : إذا كتب لم تتسقد التهنيتك في الملابس ، ووَصَفَتْهُ بأنه «حرية» ، فلماذا تتدخل في أمر الحجاب ، ولا تعتبره «حرية» أيضاً .

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصدد خراطرتها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (٦١) والعبداء تقتضي تلقى أوامر الإله المعبود «افعل» و «لا تفعل»^(١) في كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شيء طلبه صالح من قومه نمرود ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأمر عبادة الله وحده، مطلوب من كل أحد ، ولا يسمح أحداً مخالفته

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (٦١) [هود]

تقرير واقع لا يستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر خير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (٦١) [هود]

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شيء ، ويقال : أنشأ ، أي : أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر .

لذلك لا نقول لمن اخترع . إنه «أنشأ» لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه ، فقد يكون مستعيناً بمادة أحدها من الجبال ، ويخسرة تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي ينشئ من عدم

والوجود من العدم فسمان . قسم أوجدته باستعانة بوجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

(١) إن ملأ التكليف في حياة الناس لا يخرج عن الأمر والنهي ، فمن الأمر ما أخذ العرض والسنة والمستحب والمندوب والمطوع والواجب والخلال ، وكل ما يرضي الله لسعادة البشرية . والنهي يكون من المحرم والمنكروه . وحركة الحياة موطئة بالفعل كالأمر ، ولا تفعل كشيء ، وهي النهي عند الاستجابة معادة ، وعند المخالفة شقاء

والحق سبحانه جلّت مشيئته في الإنشاء ، فهو ينشئ الإنسان من
الثقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى في
آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة
الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمضى الروح وبوضحة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذي هو خلاصة
الأغذية وهي تأتي من الأرض ، فسواء رمزت لأدم بإنشائه من الأرض ،
أو أبقيتها في ذريته ، فكل شيء مودّه إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾^(١) فيها . (٦١) [هود]

يُجد فيه كلمة ﴿ اسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها
للتطلب^(٢) ، وهكذا يكون معنى كلمة «استعمار» هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل بلاداً أخرى : «دول
الاستعمار» .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعني أنهم
يرعبون في عمارة الأرض ، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يحربون في
الأرض ؛ ولذلك كان يجب أن تسمى «دول الاستخراب»

(١) استعمركم فيها . أذن لكم في عمارتها واستخراج ثمراتها وجعلكم عمارها . [راجع اللسان - مادة
عمار] .

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي . بأن كلمة استعمل في لسان العرب على معان
- منها - استعمل ، بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أي : طلبت منه حملته .
وبعض اعتدته كقولهم استعملت هذا الأمر أي : اعتدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً واستعملته
أي اعتدته عظيماً ووجدته

وبعض : أصبت ، كقولهم استجدته أي : أصبته جيداً .
- ومنها بمعنى : فعل ، كقوله : فر في المكان واستقر . قال الفرطبي في تفسيره (١/ ٣٣٧٥)

﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين : أن يبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً .

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأواني المستطرفة^(١) ، فقد كن الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيبسة تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأواني المستطرفة ، فاستغلها الناس فى بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت .

وهكذا تصل المياه النعمة لكل منزل ، وهكذا يزداد فى الأمر الصالح صلاحاً .

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رفعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة فى عدد السكان .

وما دام عدد السكان فى زيادة فلا بد من زيادة رفعة الأرض بالاستصلاح ، لأن الأزمة التى نعانى منها الآن ، هى نتيجة للغفلة التى مرت علينا ، فزاد لتكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضى أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة فى السكان .

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض ،

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلّى على الخلق بصفات من صفاته ، فالقوى بعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويهب الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنى ، ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وهوية منه لنا .

(١) الأواني المستطرفة : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع حائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أعلى (احد) [المعجم الوسيط]

والدليل على ذلك أن القوى فينا يصير إلى ضعف ، والعنى منا قد يصيبه الفقر ، حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل .

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل ، عليه أن يلاحظ أنه انتمتع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً على سبيل المثال فعليه أن يتذكر أن الذى روع له النخلة^(١) هو من سبقه ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين - وهو الرمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً- وليستفيد بها من يأتي من بعده .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه ائمود: في الآية التى نحن بصدده خراطرن عنها

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (١١) [هود]

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة^(٢) .

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم

(١) النخل شجر الرطب والتمر والبلح ، وحده نخلة . وجمع النخلة نخيل قال تعالى ﴿ وَهَؤُلَاءِ إِلَهُكَ يَجْعَلُ الْغُلَّةَ تَبْعًا لِّمَلَائِكَةِ رُؤُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [مريم] وقال تعالى ﴿ وَمِنَ الشَّجَرِ مِنْ تَحْتِهَا لُجُجٌ تَنَادَوْنَ نَادِيَةً ﴾ (١٢) [الأنعام] وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَنْتَ أَبْرَأُ ﴾ [البقرة] .

(٢) عن أنس رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله ﷻ يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالي ، يا بن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا يشرك بيني شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة . أخرجه الترمذى في سننه (٢٥٤٠) وقال . حديث غريب لا يعرفه إلا من هذا الوجه . وقد أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤ / ٥) والدارمى في مسنده (٣٢٢ / ٢) من حديث أبي هريرة القعقري .

﴿قَالُوا بَصِلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَنَّا أَنْ
تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا قَدَّعُونَا إِلَيْهِ مُّرِيبٌ﴾ (٦٤)

كانوا ينظرون إلى صالح عليه السلام - بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم
لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره

والمرجوة هو الإنسان المؤمن فيه الخير ، ذكاء ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية
خصلة من الخصال التي تبشر بأن له مستقبلاً حسناً

ولكن ما إن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله سبحانه وتعالى
أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

وقد أوضح لهم صالح - عليه السلام - ما أوضحه الرسل من قبله ومن
بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس آلهة تُعبد هو أمر
خاطيء ، لأن العبادة تقتضي أوامر ونواهي يزل بها مهج ، يتبعه من
يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود :

﴿.. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا قَدَّعُونَا إِلَيْهِ مُّرِيبٌ﴾ (٦٥) [هود]

(٦١) الرجاء - الأمل المتوقع قريباً - وقوله تعالى - ﴿قَدْ كُنْتَ لَنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا..﴾ (٦٤) [هود] أي: كنا
نرجو أن تكون لنا سيئاً [مختصر تفسير الطبري] ولا أقاموس القويم.

بيل . كان صالح يصيب آلهتهم ويشوهه وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا
انقطع رجائنا منك . انظر القرطبي (١/ ٣٣٧٧)

(٦٢) أراه - أوصله إلى الشك وأدخل الشك في نفسه ، واسم الفاعل مريب وقوله تعالى ﴿.. وَإِنَّمَا لَفِي
شَكٍّ مِمَّا يَدْعُونَهُ﴾ [هود] أي في شك موصل إلى شك وكذلك قوله تعالى
على لسان قوم ثمود ﴿.. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا قَدَّعُونَا إِلَيْهِ مُّرِيبٌ﴾ [هود] ولرب الرجل ليهرب
مريب - مازع مريض وشك لا يطمئن إليه الناس قال تعالى ﴿مَتَاعٌ لِلْفَحْمِ يُغْمَرُ بِهِ﴾ (٦٥) [ف] .
[القاموس القويم]

والشك هو استواء الطرفين . النفي والإنبات .

إذن . فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لنا عبد أباؤهم هي عبادة صادقة ، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون في أمر تلك العبادة ، وهذا يظهر أن خصال الخير في صالح عليه السلام جعلتهم يترددون في أمر عبادتهم ^(١) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لشعوبه :

﴿ قَالَ يَبْقَوِيْرَ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَهَیْ مِنْ رَبِّیْ وَءَاتَتْهُ مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ یَنْصُرُنِیْ مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْهُ فَاَتْرِیْذُرُنِیْ غَیْرَ مُخْسِرٍ ۝۱۲﴾

(١) وأيضاً فإنهم في شك من دعوة صالح عليه السلام إلى عبادة إله واحد . فخطبهم من أوجه لصالح (ما يدعوننا) أي بأصالح . كانت تتردد بعد عاد ، وصاكنهم مشهورة بعبادتي الأصنام والشتم . أرسل إليها أكرمهم صالح يدعهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فسألوا صالحاً أن يأتيهم بيته وأن يحررهم عليه أن يخرج لهم من صحره صيدا حيوا بأنفسهم ، وهي صحرة مبردة في ناحية الحجر يقال لها الككاه فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ثلثة عسرة ففعل ، فأخذ عليهم صالح النجوة والمواتين ثم أجابهم الله إلى سؤالهم ليردس به ولينهم ، فقاد إلى صلاته ودعا الله عز وجل تتحرك الصخرة وتشتت من ثلثة يتحرك جنبها بين جنبها وكانت البالة تشرف من ثلث يوماً وتركه بهم يوماً وكثروا يشربون من حليها ويلاذون ، يشاعون من قومهم . ولكن تسعة عز انقضوا على قديها ، فطردوا ، فقول بهم عقاب الله بعد ثلثة أيام [تفسير ابن كثير ١/ ٢٢٧ - ٢٢٩] باختصار شديد

(٢) [أراهم] أي : أخبروني . [كلمات القرآن]

(٣) منه يقين ويرحان وصيرة [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] وهي الحجة الواضحة الموضحة للناس التي تجعل الحق ظاهرة للناس

(٤) رحمة أي بركة [تفسير الجلالين] وقد سبق قول روح عليه السلام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَأُقِيمَنَّ ثَمْتَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتْلَىٰ رَحْمَةً مِنْ رَبِّي ۝١١﴾ [هود] قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٤٣) أي بركة ورسالة من ابن حاس . وهي رحمة على الحق وقيل الهداية إلى الله بطريقه . وقيل الإيمان والإسلام

(٥) عسره جمع عسر ، وعسره بصراً أبعد عن الخير ، وأبعدك وقوله تعالى ﴿ . فَمَنْ يَنْصُرُنِیْ مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْهُ فَاَتْرِیْذُرُنِیْ غَیْرَ مُخْسِرٍ ۝١٢﴾ [هود] أي غير إساءة من الخير ، أو غير إهلاك بطلب لطف [القاموس القويم] وجاء في تفسير الجلالين (غير تفسير) أي غير تضليل . وجاء في معنصر تفسير الطبري ﴿ . فَمَنْ يَنْصُرُنِیْ غَیْرَ مُخْسِرٍ ۝١٢﴾ يقول ما يردون أنتم إلا خساراً يضرهم يحقر ظنكم من رحمة الله عز وجل

وكان صالحاً قد ارتصاهم حكماً فقال: أحبروني إذا كنت أنا على
بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأيدني ، وأنا إن خدعت اناس
جميعاً فلن أخدع نفسي ، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إلي
مهبجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لسكلامكم؟ هل أترك
يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة ﴿ وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ ۖ ﴾ (٦٣) وهي
النبوة ؟

﴿ مِمَّنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ ۝ ﴾ (٦٣) [هود]

وساعة يستنهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم
إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام

﴿ .. فَمَا تَرِيدُونَ ۚ عَنِ تَحْسِيرٍ ﴾ (٦٣) [هود]

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس
المال . فهل التحسير واقع من عليهم أم وقع منهم عليه ؟

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لك هذه المعاني كلها ، فإن أطاعهم
صالح - عليه السلام - وعصى ربه ، فهو قد أزد في خسارته ، أو أنه
ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهذبين ، ويريدون له أن يصل ويتبع
ما يعينون من دون الله تعالى .

إذن . فالتحسير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح عليه السلام -
ولما أن يكون واقعاً منهم على صالح .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام:

وَيَقْوِمُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَأْخُذُ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبياً فأخرج لنا ناقة
من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة ^(١) م ، وهم قوم كانوا تابعين في
سحت بيوتهم في الجبال ومن يَرُزُ المنطقة الواقعة بين الشام والدينة ، يمكنه
أن يشاهد مدائن صالح ، وهي منحوتة في الجبال .

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ ^(٢) ﴿٦٤﴾ [الشعراء]

(١) الناقة ، أنثى الجمال ، وسبب ناقة صالح هذه ، لأنها ناقة لقراء الله تسقيهم لبنها ، أو لأنها منبورة بله وإن
لقد حاميتها وراعيها ، أو لأنها ناقة رسول الله ، ونسبته لله تشرعاً لها ، [القاموس القويم] .

(٢) آية معجزة دالة على صدق نبيه صالح عليه السلام [كلمات القرآن]

(٣) ذروها دعوها أو اتركوها وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا المصارع والأمر ، فس المصارع قوله تعالى
﴿ فَذَرُوهَا وَعُودُهَا لِيَسْذُرَ فِي الْأَرْضِ ۖ ۞ ﴾ [الأعراف] وفوه تعالى ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ۖ ۞ ﴾

(٤) [ترح] أي : لا تترك آلِهَتَكُمْ ومن الأمر قوله تعالى ﴿ ذَرُونِي وَمِنْ غَلْفَتِي وَحِيدًا ۖ ۞ ﴾ [الشعراء]
أي اتركني أنتهم من وأهلي على جرائمهم ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد روعيد وموله
تعالى ﴿ فَوَلَا يَكُنْ فِى الْقَاعَيْنِ لَئِي ۖ ۞ ﴾ [التوبة] أي اتركنا [القاموس القويم] بتصرف

وجاء في مختصر تفسير الطبري ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ ۖ ۞ ﴾ [هود] أي اتركوها تأكل من
أرض الله ، ليس عليكم رزقها ولا مؤنتها

(٥) ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَأْخُذُ ۖ ۞ ﴾ أي لا تقتربوا ولا تمالوا بهن [مختصر تفسير الطبري]

(٦) قال القرطبي في تفسيره (٣٣٧٨/٤) قيل أخرجها من صعره سماء متفرقة في ناحية الحجر يقال
لها الكاكية

(٧) قرة أشرويطر فهو قرة ، وقره فرامة وفروحة ، حقيق ومهر وشط وخطف فهو قارة ، وقريه بهما قول
تعالى ﴿ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ لَئِن ۖ ۞ ﴾ [الشعراء] أي . حادقين شطين ، وعريه (فرهين)
أي بغيرين أشرين [القاموس القويم]

هم - إدن - قد حددوا الآية ، وهي حروح ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهي حامل .

وبعد أن وجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطبقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [هود]

وساعة تسمع شيئاً مضالماً إلى الله تعالى ، فاعلم أن به عظمة بعظمة المضاف إليه .

مثلاً بقول : «بيت الله» ، وهذا القول إن أطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه : «بيت الله» فنحن نبني عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكِرَتْ لتكون مُصَلًى ، ولا يُزَاوَلُ فيها أى عمل آخر .

هكذا تكون الكعبة هي بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هي بيوت لله باختيار خلق الله .

ولذلك فبيت الله - باختيار الله - هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن : فإن أضيف شيء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ وهي ليست ناقة ريد أو ناقة عمرو .

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشيء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه

ومثال ذلك : ابن أبي لهب^(١) ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله ﷺ وحين اشتد عناد أبي لهب برسول الله ﷺ ، قال أبو لهب لانه : طلق بنت

(١) قيل في اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتيبة . ذكرها البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٢٨) وقال أيضاً كانت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عتيبة بن أبي لهب ، وكانت رقية بنت أبي لهب عتيبة بن أبي لهب .

محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الادرء^(١) ، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال : «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه^(٢)» .

فقال أبو لهب إني لأتوجس شراً من دعوة محمد

ثم سافر ابن أبي لهب مع بعض قومه في رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً في وسط رحال الركاب كله خوفاً على أنه من دعوة رسول الله ﷺ ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد ، فهنا سب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله فقال «أكلت كلب من كلاب الله» فكان كلب لله أسداً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد حراطين عنها يوضح لهم صالحي عليه السلام : هذه الناقة هي لآية التي طلبتموها وقد جاءت من الصخر

وكان يقدر أن يأتي لهم بالجنس الأرضي من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التي طلبوها وهي من جنس الحيوان ،

ومحزن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والمكر فيصير إنساناً .

(١) وذلك أنه لما أتى له عز وجل (تت يداي لهب) قال أبو لهب لآية عتية وحقة رأسي ورؤسكما حرام إن لم يطلق النبي محمد ، وسأل النبي ﷺ عنه طلاق رقية ، وسأته رقية ذلك وقال له أم كلثوم بنت حرب بن أبي وهى حيلة الخطب طلقها يا نبي فإنها قد حبست فطلقها وطلق عتية أم كلثوم ، وجاء النبي ﷺ حين عرفت أم كلثوم فقال كبرت منك ، وفارقتك ، لا تحس ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ مشق قميصه ، فقال ﷺ - «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه» دلالة النبوة للبهيم (٢/ ٣٢٨ ، ٣٢٩) ، وأوردته الهنسي في مجمع الزوائد (١٩/ ١) وعراه الطبراني مسنداً وقال فيه رهبر بن العلاء وهو ضعيف ، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبي عمار ومصححه وحسنه ابن حجر في النسخ (٢٩/ ١)

(٢) الكلب ، كل سبع مفروق ، ومنه الأسد قال ابن سيده غلب الكلب على هذا النوع المبع وقد يكون التكليب واقماً على العهد وساع الطير ، وفي التنزيل العزيز ﴿وما علمهم من الجوارح مكلياً﴾ (D) ، [الأنعام] ، فقد دخل في هذا العهد والباري ، والصفر ، والشاهين ، وجميع أنواع الجوارح [انظر : اللسان مادة كلب] وانظر فتح الباري (٤/ ٣٩) .

وكان من الممكن أن يأتي بهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل في الوقت نفسه .

وطلبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها . وقال لهم :

﴿ .. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (٦٤)

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وإن مسوها " بسوء " ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر .

إذن : فلا بد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسوها

وهم قد مسوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية .

﴿ فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ﴾

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾

(٦٤) ليس الجود على تخيل أن الجن مسه كقوله تعالى ﴿ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ (٣٧٥) ﴿ البقرة ﴾ أي المصروع الذي لا يحس به وماسه بحاسة أو ماساً من كل منها الآخر مفاعلة من اجتماعين لغاص الروح من تلاقب بشراتهما ومن جملة كل منهما خلد الآخر ، ومسّه من باب مرح مثلاً أجرى يده عليه من غير حائل ومسّه النار أصابعه ومسّه المرض أصله على عجلو ، وقوله تعالى : ﴿ لا يمسك إلا الظهرون ﴾ (٦٥) ﴿ الواقعة ﴾ أي لا يمسك إلا الظهرون من أحدث الأكبر [القاموس الموزن بصرف ص ٢٢٦ ج ٢] .

(٦٥) المقمر أصل كل شيء ، وعقرته أصبت عقره ، كقوله تعالى ﴿ فمقروها .. ﴾ (٦٥) ﴿ هود ﴾ أي أصابوها إصابة قاتلة ، أي بحروها . [القاموس القويم]

(٦٥) تمتع واستمتع بمعنى وجد وتمتع بالشيء - استمتع به . والمتاع - مغير يسمى به الشيء المتع به ، والمتاع كل ما تمتع به من طعام وأثاث ودفء ومال . وقال تعالى ﴿ ذرهم يأكلوا ويعتقروا ولهمهم الأمل فسرف يظنون ﴾ (٦٥) ﴿ الحجر ﴾ وقال تعالى ﴿ .. واللهن كفروا يظنون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار تلقى لهم ﴾ (٦٥) [محسن] [القاموس القويم] بصرف

(٦٥) وعد غير مكذوب أي وعد صادق واقع لا محالة وهو من دليل تأكيد الشيء بمعنى قبحه

وجلسوا في منازلهم ثلاثة أيام^(١) ثم جاءهم العذاب .

ولقائل أن يقول . ولم الإمهال ثلاثة أيام ؟

ونقول : إن العذاب إذا جاء فالألم الحسى ينقطع من المعضب ، وبشاء الله تعالى أن يعيشوا في ذلك لألم طوال تلك المدة حتى يتألموا حسياً ، وكن يوم يمر عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذي قال فيه الله تعالى :

﴿ .. وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (١٥)

[هود]

الحق سبحانه هو الذي يعد ، وهو القادر على إنعاده الوعد ، ولا تقوم قوة أمامه ، لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب .

على عكس الإنسان منا حين يعد بشيء ، فمن الممكن أن يأتي وقت تنفيذه الوعد ولا يستطيع .

لذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولْنِىْ بِشَيْءٍ إِنِّىْ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴿

[الكهف]

لأنك إن قلت : « أفعل ذلك غداً » ، وتعد إنساناً بلاقائه لكذا وكذا ؛ فقل : « إن شاء الله » ؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزوم يأتى ، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور « بمشيئة القوى القادر » حتى إذا لم ينجز ما وعد به ؛ يكون قد حرج عن الكذب ، لأن الله تعالى لم يشأ ، لأن الإنسان إذا وعد ، فهو لا يعتمد على إرادته ، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شيء .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٣٧٩/٤) أن عقرباً كان يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد وبقى قمو ثلاثة أيام ، لأن الفصيل خائلاً ، فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول ، ثم احمرت في الثانى ، ثم اسودت في الثالث . وهكذا في الرابع وانظر تفسير ابن كثير (٢٢٩/٣)

والفعل - كما نعلم - يقتضى فاعلاً ، ومفعولاً ، ورمناً ، وسبباً
دافعاً ، وقدرة تمكن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحدٌ شيئاً من
كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من بعده أن
يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للقاء ، وربما انتهى
السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على
إنقاذ السبب .

إذن : فإذا قال : « أفعل ذلك غداً مع فلان » ؛ يكون قد جارف وتكلم في
شيء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل : « إن شاء الله » ، أى :
أنك تستعين بعشيرة من يملك كل هذه العناصر .

ويعطى الحق سبحانه في كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على
تخلقه فهو سبحانه القائل :

﴿ نَعْرِضُهَا ^(١) فَسَلِّمْ تَعَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
مَكْتُوبٍ ۝ (٦٥) ﴾

[أعرج]

وقوله : ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً في مكان يختلف
عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد
من سفر ، فتبعضهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما
نزل على المكين منهم في أى مكان .

(١) العقر - أصل كل شيء . وعقرته - من باب نصر أمهم عقره فقوله تعالى ﴿ نَعْرِضُهَا ^(١) ﴾ [الأعراف] أصلها إصابة بآفة ، أى : نعروها وعقرت امرأة : أصيبت بالعقم ، المعنى لا تلد فهي
عقر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ امْرَأَتِي عَاقراً .. ۝ (٦٥) ﴾ [أعرج] .

ولم يَنْحُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبو غَال»^(١) ، وكان يرجع إلى بيت الله ، فلم يتبعه عذابه في بيت الله ؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمن من دخل بيته ، فهو سبحانه وتعالى أولي بأن يؤمن من دخل البيت الحرام^(٢) ، وظل الحجر الذي سُبُرت به ، أو الصيحة التي كان عليها أن تأخذه ، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه . . وعمّ العذاب الكافرين من قوم صالح ، وتنبع من في الديار ، لا هذا الرجل ، وما إن خرج من الست الحرام حتى وقع عليه العذاب^(٣)

ولمَّا كان قاتل الأب أو الإنسان الذي عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل ، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يؤمَّن إلى أن يحرج ، وكانوا يُصَيِّفون عليه ، فلا يطعمه أحد ، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج ، ويتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام ، وتُتَلَّح حرمة البيت الحرام مُصَانَة .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم لقتال في البيت الحرام ،
 صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية .

(١) هي جابر بن عبد الله قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألكم قوم صالح فكانت - يعني - الساعة - ترد من هذا الفج وتصل من هذا الفج، فاعترا عن أمر ربهم فعضروها وكانت شرب ما معهم يوماً وشربوا لبها يوماً فعضروها فأنزلتهم صبيحة أحمد الله بها من تحت لهم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله، فقالوا، من هو يا رسول الله؟ قال أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابه فرمته أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) والحاكم في مستدركه (٢/٣٢٠، ٥٦٧) وصحيح إسناده قال الهيثمي (٨٠/٧) رجال أحمد رجال الصحيح، غلب هم أيضاً رجال الإصباح الأول

(٢) يقول رب العزة سبحانه ﴿إِنْ أُولَئِكَ وَجِيعَتُهُمْ لَتَكُونُ نَارًا وَقُودًا لِغُلَامِكُمْ﴾ فيه آيات هبات فظلم إرهابهم ومن دخله كان نصيباً ﴿إِنْ عَصَى إِيَّايَ يَكُونُ أَمْسًا مُعَذَّبًا لَا يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، وَلَئِنَّكَ إِذَا تَعَالَى ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا جَافٍ حَرَمًا أَمَّا وَيَعْظِفُ النَّاسُ مِنْ حُرُوبِهِمْ﴾﴾ (٢٩٧)

[المنكوت]

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/٤٦٣) أن جارية كانت مقعدة، واسمها كلبية بنت السلي، ويقال لها الدبعة. وكانت كاذبة شديدة العبادة لمصالح عبدة السلام، فلما رأته ما رأته من الطلاب أظلمت رجلاها، فصارت تسمى كالمسوخ من شيء، فأثب حياء من الإحياء فأخبرتهم بما رأته وما حل بها، ثم استأمنهم من بلادها فلما أئمنيت ماتت.

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضى زماناً ، ويقتضى مكاناً .
 وكان العرب دائمى الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه
 أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخصّ البيت الحرام بذلك ، وأراد
 سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لأن
 الحرب قد تكون سجالاً^(٦) بين الناس وتوقف فيهم الحمية والألفة^(٧) والعزة .
 وكل واحد منهم يحب فى ذاته أن ينتهى من الحرب ، ولكنه لا يحب أن
 يجبر أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من
 الزمان ومن المكان ، فعزم القتال فى الأشهر الحرم .
 وما إن تأتى الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر
 الحرم لكنت قد أنزلت بخصمى الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليدارى
 كبرياءه ؛ لأنه فى أعماقه يشعر أنه ينتهى من الحرب .
 وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول من كان يحاربه :
 لو لم يدخل الحرم ؛ لأذنته عذب الهزيمة .
 ويمضى الزمان وبالمكث فى المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما
 عشقوه فانتبهوا من الحرب .
 ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا بِهِ مَقَامًا ذِي إِيمَانٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا
 مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن بَيْنِ يَدَيْهِ يَوْمَئِذٍ إِن رَّكَبَ
 هُوَ الْقَوَى الْعِزِّيرُ ۝١١﴾

(٦) الحرب بينهم سجال : أى نصرتها بينهم متعادلة ، مرة لهم ، وأخرى عليهم [المعجم الوسيط] .
 يتصرف .

(٧) الألفة : المودة والحمية والكرامة [المعجم الوسيط] . يتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٤٣

حينئذ نزل العذاب بشمود ، بعد مضي المدة التي أنذروا بنزول العذاب بعدها ، فحسب الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ، لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعَانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الدل والمضيحة .

هذا الدل وتلك المضيحة التي حاقت ^(١) بـثمود

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزومه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كفر ، ولا يغلِبُه أحد ولا يعجزه شيء ، وفي هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ وَأَحْذَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ (٦٧) ﴾

ويسمى الحق سبحانه هنا العذاب الذي نزل على ثمود «الصيحة» وسماء في موضع آخر «لطاغية» :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْنَكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة]

وسمى في موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه :

(١) حاق به الشيء أو العذاب يحق حيقاً برل به وأصابه وأصابه به قال تعالى ﴿ولا يحسن المكر السيئ إلا بأهله﴾ (٤٣) [فاطر]

(٢) جثم جثوماً بوم مكانه لاصقاً بالأرض ، قال تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثَامِينَ﴾ (٤٤) [هود] كناية من موتهم بحالتهم ، فهم حاسرون لاصقون بالأرض [القاموس النوي]

سورة الأعراف

٦٥٤٤

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٦٤)

[فصلت]

وفي سورة الأعراف سماء «الرجفة» ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة^(١) تؤدي معنى الحدث الذي يذهب^(٢) ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولفائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه ها . وأخذت الذين ظلموا الصيحة ؟ لماذا اختصت تاء التانيث من الفعل ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٧)

[هود]

ونقول . إن الذي يتكلم ها هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن يفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فثاء التانيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عريضة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين ، فقال : «أخذ» ولم يقل : «أخذت» .

ثم قال سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (٦٧)

[هود]

أي : ملقون على رءسهم وعلى جباههم بلا حركة

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) رجف يرجف رجاً ورجحاناً . تحرك واضطرب بشدة . قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ (الزلزال) . والرجفة اسم مرة من الرجف . قال تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ (الأعراف) [القاموس القويم]

(٢) ذهب أمر دعماً فجاء ، وذهب القوم . جاءوه مجتمعين مرة واحدة . وذهب . ساء وأرغمه . وذهب العدد الكثير وجيش دهم كثير . [المعجم الوسيط]

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا^(١) إِلَّا إِنْ تَشَاءُ أَكْفَرُوا بِرَبِّهِمْ فَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَاحِقَ لَهُمُ الْعَذَابُ

لُتُوءٍ﴾

ومادة «غنى»^(١) .. «غنى» ، أو «غناء» كلها متساوية ؛ لأن الغناء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغنى عن شيء ، فالعس هو وجود مال يغيث عن عيوك ، والغناء هو ما سمعه من المعين ، والأغنية التي يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقسم معها إقلمة تطرد ما سواها عما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو نرا ، والغناء هو للإقامة .

والحق سبحانه يقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْبَتْهُ وَعَلَىٰ أَعْلَاهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا^(٢) كَأَن لَّمْ تَكُن^(٣) إِلَّا تَرَسًا^(٤)﴾

[يونس]

أى : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا^(١)﴾

[هود]

(١) غنى القوم هي ديارهم طال مقامهم فيها قال تعالى ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ دِيَارِهِمْ جَانِبِينَ﴾ (٢٧) كان لم يَغْنَوْا فيها (٢٨) [هود] [القاموس القويم]

(٢) غنى بهى غناه وغنى : كثر ماله ، فهو غان وغنى والعس : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى ﴿وَوَلَدَ اللَّهُ نُوْرًا رَّحْمَةً﴾ (٢٣٩) [الأنعام] . [القاموس القويم]

(٣) حصيد الزرع يحصده حصداً وحصيداً : نطعه عند نضجه ويستعمل الحصيد مجازاً بمعنى الإهلاك والإبادة قال تعالى ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلَافَتَيْنِ﴾ (٤٩) [الأنبياء] أى جعلناهم كالزراع المحصود ، أى . أهلكتهم وقال تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْهَاءِ الْفَرْقِ نَقِصَةُ عَيْتِكَ مِنْهَا لَأَنَّهُمْ وَحَصِيدُ﴾ [هود] أى : منها باق ، ومنها هلك [القاموس القويم] .

(٤) غيت الدار بأهلها همرت بهم ، قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَكُن إِلَّا تَرَسًا﴾ (٤٩) [يونس] أى : كأنها لم تضر . [القاموس القويم ٢ / ٦١] .

أى: لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيلاً.

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ .. (١٨) ، وهذه هي حشية العذاب الذى نزل بهم

وعادة ما تتعدى كلمة «كفروا بالله» ، ويقال: كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ .. (١٨) [هود]

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى «كفروا ربهم» أى: ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به.

وقول الحق سبحانه: «كفروا ربهم» يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن دنف إنكار وجود الله ليس بعده ديب ، ولا يوجد ما هو أكبر منه فى الذنوب.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. أَلَا بَعْدَ الْثَمُودَ﴾ (١٨) [هود]

أى: أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرده من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لصحابة ذنبهم.

ويأتى الحق سبحانه فى الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهى جزء من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ^(١) قَالُوا
سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ ^(٢) أَنْ جَاءَ بِمِجَلِّ حَزِيلٍ ^(٣) ﴾

وكلمة «رسل» جمع «رسول» ، والرسول هو المرسل من جهة إلى جهة ، وأى إنسان تبعه إلى جهة ما ، اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعى للرسول ، أن يكون مُرسلاً من الله .

ويقول الحق سبحانه:

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي ^(١) مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. ﴾ (٧٥) [الحج]

واصطفاه الملائكة كرسول لتيسير التقى عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التى تتلقى عن الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان ما لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه .

لذلك يأتى لما الله جلَّ علاه بالرسول ، فبصطفى من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقى ليتولوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة .

(١) البُشْرَى والبشارة ما يعطى للمبشر بالخير السار والبشر مصدر بمعنى البشارة والبشرى ، ويطلق كمنحتها على الخير السار وبشره أحبه بما يسره قال تعالى ﴿ قَالَ ابْشِرْ تَوْبَى عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ تَبْشِرُونَ ﴾ (٤٥) [الحجر]

(٢) لبث . أقام واستقر وبالث أن فعل كف ما بعد وما توبى . أى أسرع إلى فعله بغير أى تولى وقوله تعالى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِمِجَلِّ حَزِيلٍ ﴾ [هود] أى . أسرع فأتى به ، وهو دليل الصبغة والحسنة بالصف [القاموس القويم]

(٣) حَزِيلٌ اللحم يحمله حِمْلًا . شبهه على الحجارة ، فهو حديد أى . مشوى قال تعالى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِمِجَلِّ حَزِيلٍ ﴾ [هود] ، ولحمه يكون أحيب من لسلوى والمطبوخ فى الماء [القاموس القويم]

(١) اصطفاه اختاره وأثره ولمضله قال تعالى ﴿ يَا عِزَّةُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران] أى - اختارك وقصصك . وقال تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (٧٥) [الحج] أى يختار الأفضل منهم كرسالته [القاموس القويم] تصرف

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقى من الله تعالى ،
ولا كل البشر يقادرون على التلقى عن الله أو عن الملائكة .

وهذه الحقائق في الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتزهد للضعيف أن
يأخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك في حياتهم .

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نظميء نور المنزل ، لكننا نترك
صهراً خافئاً يوصح لنا ملامح البيت ، فبأن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم
بمناج البيت ، فيتخطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نصاب نحن إن
اصطدنا بما هو أقوى منا .

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوي .

وكذلك يعمل الله سبحانه وتعالى ، فيأني بمصطفى من الملائكة ، يتلقى
عن الحق سبحانه ويبلغ الملك من هؤلاء الرسول المصطفى من البشر .
والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا^(١) أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ^(٢) أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا^(٣) فَيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ . (٥١)﴾ [الشورى]

وهنا يقول الحق سبحانه

(١) الوحي : يطلق على الأمر الموحى به من إطلاق المصدر على المفعول به
قال تعالى : ﴿فَلْيُؤْمَرُوا بَالْوَحْيِ . (٤٥)﴾ [الأنبياء] أي : بالقرآن فليأمر الله إلى ويطلق
الوحي على الملك الذي أرسله الله إلى الرسول ليبلغ ما أمر الله به ، وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ
يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا (٥١)﴾ [الشورى] أي : إلهاماً من الله ، وقد فاء وإلقاء في قلب الرسول في سرعة
وحظاء . [القاموس القويم ٣٢٥ / ٢]

(٢) ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (٤٦)﴾ [الشورى] أي : فاصل بين الألهة والبشرية ، وبطريقه لا يعلمها إلا الله
تعالى . [القاموس القويم ٣٢٥ / ٢]

(٣) ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا (٤٦)﴾ [الشورى] مثل جبريل عليه السلام ، فيوحى إلى الرسول بإذن من الله
ما أمر الله به . [القاموس القويم ٣٢٥ / ٢]

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٤٩

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رَسُولًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى .. ﴾ (٦٦)

[هود]

والبشرى هى الأخبار بشىء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهى عكس الإنذار
الذى يعنى الأخبار بشىء محزون قبل أوانه .

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم - عليه السلام - البشارة التى جاءوا من
أجلها ، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن ، لمن أدب
الدخول إلى أى مكان أن نسلم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل :

﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ^(١)
وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا .. ﴾ (٦٧)

[النور]

ولذلك بأتى الحق سبحانه هنا بما قالت الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

﴿ قَالُوا سَلَامًا .. ﴾ (٦٨)

[هود]

وجاء سبحانه برّد إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ سَلَامٌ .. ﴾ (٦٩)

[هود]

ونحن نلاحظ أن السلام جاء على المستهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء
بالرفع ، وقولهم . ﴿ سلاماً ﴾ دل على فعل بوضع التجدد ، والرد جاء
بكلمة ﴿ سلام ﴾ بالرفع ، ليدل على الثبات والإصرار

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها .. ﴾ (٨٦)

[النساء]

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه

ثم يقول الحق سبحانه .

(١) استأنس : ذهب ترجمته ، واستأنس به وإليه ، والهجرة والسن والتألف للطلب من الغالب فقول
تعالى : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ، وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا .. ﴾ (٦٧) [النور] أى : حتى تطلبوا الأئس والألما والرفسا ،
أو حتى تستشعروا الأئس وتعلموه [القاموس المبره] (٢٧/١)

[هود]

﴿ .. فَلَمَّا لَبِثَ ^(٦٦) أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولعجل هو ولد البقر.

وهناك يات كثيرة في القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن ، لا يقصد التكرار ، ولكن لأن كل لقطة في أى موضع هي لقطة مقصودة لها دلالتها وأسرارها ، فإذا جُمِعَت اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام في شمول متكامل

وعلى سبيل المثال: يقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَكْتُومًا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام]

وفي موضع آخر ينحرض الحق سبحانه للتربية الیقينية التي أرادها لإبراهيم ، فيقول سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ ^(٦٦) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ^(٦٧) قَالَ لَا أُحِبُّ الْآلِينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا ^(٦٩) قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٠﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ^(٧٢) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ^(٧٣) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام]

(٦٦) ما لبث أن جاء . أى: أسرع بإعداد العمام وإحضاره لضيوفه ، وهذا فيه دلالة قوية على الجود والكرم الذي اتصف به إبراهيم عليه السلام [القاموس القويم] تصريف

(٦٧) جَنَّ الشيء ، بجهته جنًّا ، مشره ، وينضم الفعل معنى كلمة «أفَلَ» لأن الصلَام يستركن شيء وجَنَّ النبل . الظلم [القاموس القويم]

(٦٨) أفَلَ . غاب وغرب تحت الأفق . كلمات القرآن]

(٦٩) بازعًا ، طالما من الأفق متشر الضوء [كلمات القرآن]

(٧٠) فطر الشيء ، شقه وفطر الله الخلق: خلقهم وبندهم فهو فطر أى ابتداء خلق السموات والأرض .

[القاموس القويم ٨٤ / ٢]

(٧١) حنيفًا ، مائلًا إلى الباطل ، مستقيمًا على الحق [لسان العرب]

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٥١

إن هذه الآيات تبين وظيفة الحراس إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ،
وظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه في موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام
فحاطب عمه باحترم ملكاته التي تساوى منزلة الأب .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ
إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرُّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُمَسِّكَ عَذَابٌ مِّنَ
الرُّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾ [مريم]

فهذه الآية تبين رفق لداعي مع جمال العرض .

فأصر العَمُّ على الشرك ، فقل إبراهيم عليه السلام :

﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي .. ٤٧﴾ [مريم]

وبعد ذلك يصرأ منه لإصراره على الكفر .

ثم هبك لفظة من يُحاجج إبراهيم في ربه .

﴿وَأَلِّمْنَا ثَمَرًا إِلَى الَّذِي حَاجَّ ١١﴾ إِبْرَاهِيمَ فِي ربه أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحِبُّ وَيُعِيتُ قَالَ أَنْ أَحْيَى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وكانت تلك مسطرة^(١) في القول نذجة عن عجز في التعبير ، فليس

(١) حاجه . لازمه الحجج ، فهي معادلة من الجاهليين ، أى قسم كل منهما حجته ، يثبت بها الآخر قال تعالى ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ قَالَ لَمَّا جِئْتَنِي فِي اللَّهِ (٢٥٨)﴾ [الأنعام] [القاموس القويم ١/ ١٢٢]

(٢) المسطرة . المغالطة والتضليل بعرض [الحام] الخصم وإسكاته [بمعجم الوسيط] بتصرف .

إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإمارة ، فأحده إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجزى عليها أحد ، وقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ۚ ۝٢٥٨ ﴾

[الغرة]

وهذه الآية تبين مطلق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتي في موضع آخر من القرآن ليس المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، يقول سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ ٥٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ (٦٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۖ (٦١) قَالَ هَلْ بِكُمْ مِنْ آلِهَةٍ تُدْعُونَ ۖ (٦٢) أَوْ يَصْغُرُكُمْ أَوْ يَنْظُرُونَ ۖ (٦٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ (٦٤) ﴾

[الشعراء]

ولى هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ (٨٢) ﴾

[الشعراء]

يقول رب العزة سبحانه في سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۖ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۖ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَابِدِينَ ۖ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ (٥٤) قَالُوا أَحْمَسْنَا بِالْحَقِّ أَمْ آتَتْ مِنَ الْأَلْعِينِ ۖ (٥٥) قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ (٥٦) ﴾

[الأنبياء]

هذه هي التربية اليفيقية^(١) التي أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام
ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصّل
إلى عبادة مَنْ خَلَقَهُ وَخَلَقَ الْكَوْنُ ، وهو الصانع الذي يضع قسانون صيانة
ما يصنع سبحانه وتعالى .
ولذلك نلاحظ قوله .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٢٨)

[الشعراء]

للم يقص . «الذي خلّصني يهديني» لأن هذه دعوى ؛ ستُدعى ، وسيضع
الناس قوانين لأنفسهم ، فبين الحق سبحانه أن الذي خلّق هو الذي يَهْدِي .
وجاء الحق سبحانه بكلمة «هو» لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق
خالقهم فيه ، لكن الأمر الذي لم يُدْعَ ، لم يأت فيه بكلمة «هو» كقوله :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُ ثُمَّ يُحْيِي ﴾ (٨١)

[الشعراء]

فما لا شركة فيه عند الخلق يأتي به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن
في الأمر الآخر يأتي بتأكيد الضمير كقوله :

﴿ وَإِذَا مَرَجْتَ فَهُوَ يَنْفِقِينَ ﴾ (٨٠)

[الشعراء]

فقد يقال . «إن الطسب هو الذي يشيئ» ، ولكن ذلك غير حقيقي ؛ لأن
الله سبحانه هو الذي يضع العلم ، وهو الذي خلق الداء وخلق الدواء^(٢)

(١) البقي . العلم الثابت الواضح الذي لا شك به ، ويقال غير يقين لا شك فيه ، ويقال به عن الموت ؛
لأنه لا شك فيه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَكُونَ الْبَقَى ﴾ [الحجر] أي الموت وقال
تعالى : ﴿ فَسَكَتَ أَبُو نَعْمٍ فَلَمَّا أُعْطِيَ بَيِّنَاتٍ لَمْ تَحْطُ بِهِ وَجَعَلَكَ مِنْ سَاءِ بَيِّنَاتٍ ﴾ [التعل] وأيقن الأمر
وأيقن به . علمه علماً ثباتاً واضحاً لا شك فيه [القلموس القرم ٢ / ٣٧١ ، ٣٧٢] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» أخرجه
البخاري في صحيحه (٥٦٧٨) وابن ماجه في مسنده (٣٤٣١)

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ^(١) مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

إذن: فكل مناسبة تأتي لتأكيد معنى من معاني الإيمان تأتي معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام ، وإذا جُمِعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص علىبيه محمد ﷺ القصص ، فذلك لتثبيت قواده ﷺ .

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٨)﴾ [هود]

لأن النبي ﷺ يتعرض لكثير من الأحداث ، فيذكره الله سبحانه بما حدث للرسول عليهم السلام ويأتي باللقطات الإيمانية ليثبت قواد الرسول ﷺ .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿.. قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِثْرٍ حَنِيذٍ (١٢٩)﴾ [هود]

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّ مِنْكُمْ وَجُلُونَ^(٢) (١٣٠)﴾ [الحجر]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن هذا الموقف:

﴿فَأَوْجَسَ^(٣) مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَقَلَامٍ عَلِيمٍ (١٣١)﴾

[الذاريات]

(١) القواعد ، جميع قاعده ، وقاعدة البيت أساسه الذي يقوم عليه [القاسوس القويم ١٢٧/٢]

(٢) وجل يوجل فرع وجف ، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوَجَلْ (١٣٠)﴾ [الحجر] أى: لا تسرع ولا تخف ، وهو وجل ، أى: يخاف وقال تعالى: ﴿لَنْ إِنَّا مَعَكُمْ وَجُلُونَ (١٣٠)﴾ [الحجر] ، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (١٣٠)﴾ [الأنفال]

(٣) أوجس عن نفسه أضر الخوف في نفسه قال تعالى عن موسى عليه السلام ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (١٣١)﴾ [طه] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (١٣٠)﴾ [الذاريات] أى: أحس الخوف والخوف [القاسوس القويم]

أى . أحس في نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجهيد^(١) ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل ، فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام .

والشرع لا يتدخل في الإدراك أو الموجد ، ولكنه يتدخل في النزوع ، إلا في أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال في المرأة .

لذلك أمر الشرع بخفض البصر^(٢) ، حتى لا يدرك الإنسان ذلك فيتزعج إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسْنِ امرأة قد يدفع اغترار إلى السوك الفوري ؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك .

وهما بين الحق مواجهيد إبراهيم عليه السلام حين قال :

﴿ وَأَوْجِسُ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ .. ﴾ (١٧)

[هود]

وجاء بالمعنى النزوع حين قال :

﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ .. ﴾ (١٨)

[هود]

وهو حين لتأكيد والتثبيت .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَمَا بَثَّ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (١٩)

[هود]

وهو : العجل لسمين المشوى على الحجارة ؛ لأن الشواء - كما نعلم - قد يكون على الذهب أو على الفحم ، أو على الحجارة .

(١) المواجهيد : جمع مواجهة ، وهو ما يحس به القلب ويجده الإنسان في نفسه من مشاعر الفرح والحزن والرضا والغضب وغيرها

(٢) ودليل هذا قوله عز وجل ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور]

(٣) أن بمعنى حتى . قلته كبرياء المحويين . حكاه القاسم بن العريبي والهمس أى : بالبطا من مجيئه بعجل ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٨٢) .

ومثل ذلك يحدث في السلاذ العربية حين يأتون بحجر رقيق جداً ، ويحمونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والخبر ، لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم ، ولذلك فهذه أظف طريقة للشواء .

أو إن كلمة : ﴿ .. يَعْمَلْ حَتِيذٍ ﴾ (٦٥) [هود]

أى : ينزل منه الدهن بعد الشواء .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (٦٦) [هود]

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم ، ومن عادة الكرام أن يُعَجَّلُوا بإكرام الضيف ^(١) ، وتقديم الطعام له ، والكريم هو من يفعل ذلك ؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام ، فإن كان الضيف جائعاً أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك . ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوى :

﴿ فَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ سَكَرَ لَهُمْ وَاتَّخَذَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَنْخَفِ إِنَّآ أَنزَلْنآ إِلَيْكَ قُوَّةً وَآتَيْنَاكَ الْوَحْيَ ﴾ (٦٧)

(١) وقد حدث رسول الله ﷺ على إكرام الضيف ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما كان يوم من باله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، متفق عليه أخرجه البخارى في صحيحه (٦٠١٨) وكذا مسلم في صحيحه (٤٧) .

(٢) نكره : استوحش منه ونهرمه ولم يأمن به [القاموس القويم] تقول : نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدت . راجع القرطبي (٤/٢٣٨٤) .

(٣) وجس وأوجس فرج - وأوجس لى نفسه أصغر الخوف فى نفسه وقوله تعالى ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود] أى أوجس المنزع والخوف وقال تعالى ﴿فَلَوْجِسْ لى نفسه خِيفَةً مَرْسًى﴾ (٦٧) [ملء] أى أصغر الخوف لى نفسه حين رأى أعمال البحرة [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٥٧

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شراً ونكرهم ، أى : استكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدّمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم ، وقد بين ذلك قول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِمْ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ (٥٨)

[الحجر]

إذن : مهم لم يقولوا به مثلما قالوا للوط عليه السلام .

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ .. ﴾ (٨١)

[هود]

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام

﴿ .. لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ (٧٠)

[هود]

أى : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ؛ لأن الملك قد يتشكل فى هيئة إنسان ، مثلما تشكل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد ﷺ .

وكذلك اجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل لحكمه الصورة ، فإن تشكل فى صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

(١) القاطنون: الذين انقطع أملهم في الخير أو بسوامته . والقنوط: صيغة مبالغة ، أى : شديد اليأس معلوم الأمان [القاموس المفهرم] .

أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إِنْ عَصَيْنَا مِنَ الْجِنِّ تَقَلَّتْ ^(١) الْبَارِحَةُ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي ، فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْهُ ، فَأَخَذَنِي ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلَّكُمْ ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِلَّا أَنْتَ أَوْفَاهُ ﴾ (٢٥) [ص]
فَرَدَدْتَهُ خَاسِتًا ^(٢) .

[د] : إِذَا تَشَكَّلَ الْجِنُّ حِكْمَتَهُ الصُّورَةَ ، وَبِمَكْنٍ أَنْ يَصْرِبَهُ مِثْلًا ،
أَمَّا الْمَلَائِكَةُ إِذَا تَشَكَّلَ فَالصُّورَةُ لَا تَحْكُمُهُ

وَحُكْمُ الصُّورَةِ عِنْدَ تَشَكُّلِ الْجِنِّي هِيَ الَّتِي تَحْمِيهِ مِنْ مَخَافَتِهِ ، وَهُوَ أَيْضًا يَخَافُ مِنْهَا مِثْلَمَا يَخَافُ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ لَا يَظْهَرُ الْجِنِّي مُتَشَكِّلًا فِي صُورَةٍ إِلَّا لِحِظَةٍ قَصِيرَةٍ لِيَخْتَفِيَ عَلَى الْفُورِ ؛ لِأَنَّهُ يَحْذَرُ أَنْ تُكُونَ قَدْ صَبَّغَتْ أَنْ الصُّورَةَ الَّتِي تَشَكَّلُ عَلَيْهَا بِحُكْمِهِ وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَمُتَّكَ بِهِ ؛ لِذَلِكَ فَالْجِنُّ يَخَافُونَ مِنَ الْبَشَرِ .

وَمِنْهُ الْحَقُّ سَبِّحَانَهُ ذَلِكَ الْأَمْرُ حَتَّى لَا يَهْزَعَ الْجِنُّ النَّاسَ .

وَهَذَا يَقُولُ الْحَقُّ سَبِّحَانَهُ

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا فَصْلَ إِلَيْهِ ذَكَرَهُمْ .. ﴾ (٧٠) [هود]

(١) تَقَلَّتْ ، أَيْ ، عَرَضَ لِي قِلَّةُ أَيْ ، بَعْدَ

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٣٤٢٣) وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٥٤١١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ

وكلمة ﴿مَكْرَهُمْ﴾ تقتضى أن نطرح فى مادة «استول والكاف والراء» وكلمة «نكر» وكلمة «أنكر» كلتاها مستعملة فى القرن^(١).

والشاعر يقول:

وَأَكْرَهْتُ وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ^(٢) مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا النَّيْبَ وَالضَّلَاةَ
والاستعمال اللغوى يدل على أن المقامع من ألوان لسلوك تسمى
مكرات ، أى : يكرها الإنسان بفطرتة .

وهما حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل لحيد
نكرهم ، وأوجس فى نفسه خيفة ، فلا حظوا ذلك ، وقالوا .

﴿.. لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧)﴾ [هود]

وهكذا صرف لمن جاءوا ، وأطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه
العذاب ، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول : إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت
له : ألا تصم ابن أخيك إلى كفك^(٣) هنا ؛ لأن قومه يوشك أن يعذبهم الله بالعذاب .

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سررت من
فراستها^(٤) ، وتسمت لأنها انتهت إلى هذه المسألة .

(١) كلمة «نكر» وردت فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ (٧)﴾ [هود] وقال تعالى عن
سليمان ﴿لَمَّا نَكَرُوا بِهَا عَصْفَهَا (١١)﴾ [النمل] أى أنكروا ، فقد قال تعالى ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتُتِمَّاتِ
اللَّهُ لِنُكْرُونَهُ (١٥)﴾ [عنبر] وقال تعالى ﴿وَمِنَ الْأَشْرَافِ مَن يُكْرِهُهُمْ (٢١)﴾ [الرعد] ، وقوله
تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا (٨٥)﴾ [النحل]

(٢) جمع الشاخر بين اللعين . ويقال - نكرت لما نراه بعينيك وأنكرت لما مر به بقلبك - قاله القرطبي فى تفسيره
(٣٣٨٤ / ٤)

(٣) الكف والكفه . ناحية الشيء . وكف فرجل الرجل جعله فى كفه أى فى حيطه وعذابه . وكعب
الرجل : حيطه وحته [راجع لسان العرب]

(٤) الفراسة : الفطنة فى النظر ولتنب والتأمل للشيء . والبصر به . والتعسس أن تتوسم لمرأى من شخص ما
فيكون كما توسمت ، وهذا يكون بأحد أمرين :

١- ما يودعه الله فى قلوب أوليائه بنوع من المكاشفات

٢- ما يتعلم بالدلالات والتجارب فتعرف بها أحوال الناس .

راجع لسان العرب مع زيادة من عندنا

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُجُومٍ (٢٢) لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٢٣) مُسَوَّمَةً ^(٢١) عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٢٤) ﴾

[الطاريات]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَمْرًا تَقَابُحَةً فَفَشَّرْتَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ^(٢١) ﴾

فعندما كانت امرأته قاتمة على خدمة الصوف ^(٢١) ، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قريتهم ، وتحققت فراستها فصحكت فإزادها الله سروراً ، وبشرتها الملائكة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب

فسعد دفع العذاب ، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين ، تأتي البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان ^(٢٢) إليه ، وإن كان أوانها قد فات ، لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسمين من

(١) ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ .. ﴾ [الطاريات] أي : عليها خواتيم بأسماء المطهرين ومسوم على القوم أعار عليهم فبأمرهم بالانفساد والهلاك . قال تعالى : ﴿ ... يُعَذِّبُكُمْ بِكُمْ بِغَضَبٍ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَوِّينَ ﴾ [آل عمران] أي : معلنى أنفسهم وخیلهم بعلامات ، أو مغيرين على الكفار . وقوله تعالى ﴿ وَالْغُلَامَ الْمُسَوَّمَةَ . ﴾ [آل عمران] أي : للرسلة للرحمى ، أو للمعدة بعلامات وقوله تعالى : ﴿ سَمِيعًا فِي وَجْهِهِمْ . ﴾ [الفتح] أي : علامة إيمانهم بورى وجرهم [القلموس القويم]

(٢) هى سارة امرأة إبراهيم عليه السلام من قومه ، وهى أم إسحاق عليه السلام جاءها الولد وهى فى سن كبيرة ، بعد أن ولدت هاجر لإبراهيم . إسماعيل عليه السلام .

(٣) من سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدى أتى رسول الله ﷺ فدهاه فى عرصه فكانت امرأته تحامهم يومئذ وهى العروس . قال : تدرون ما صفت رسول الله ﷺ ؟ فقصت حجاب من اللبلة فى تور ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٧٦) ، وأحمد فى مسنده (٤٩٨/٣) وابن ماجه فى سننه (١٩١٢) .

(٤) صبا يصبو هبوا وصبوا ، مال وأحب . قال تعالى : ﴿ وَالْأَعْرَابُ عَنِ كَيْفٍ أَصْبَأَ أَتَيْنَ وَأَكْنِ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف] . أصبو : أميل وصبا إلى الشيء ، حن واشتاق إليه . [القاموس القويم]

سورة هود

﴿٦٥٦﴾

عمرها ، وبلغ هر المائة والعشرين عاماً^(١) . ومى هذا امتنان على إبراهيم
بجىء ابن الابن أبصاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ
وَخَفَدَةً^(٢) ۖ ۞ (٧٢)﴾ [النحل]

ولذلك قال الحق سبحانه

﴿.. فَهَشَرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧٦)﴾ [هود]

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه ، لأن
هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا توالى الشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم
لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام ، لما جاءوا به من
الفواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه سلام وامراته قد علما أنهما لم يأتيا
بأى أمر يفضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هى العلام ، وكان ذلك حُلماً قديماً عند امرأة
إبراهيم عليه اسلام لأنها عاقر ، واستقبلت امرأة إبراهيم بالبشارة الأولى
بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة^(٣) .

(١) قال مجاهد كاتبه سارة بنت سمع وسبعين سنة وقال ابن إسحاق كانت بنت تسعين . وقيل غير
هذا أب إبراهيم فمئيل كان بين سارة وعشرين سنة ومئيل ابن مائة سنة ذكره القرطبي فى تفسيره
(٣٣٨٨/٤)

(٢) حفنة أولاد الأولاد والخائيد العيون والخدام ، وولد الولد ، جمعه خفدٌ ، وحفدٌ ، وخفدةٌ
وحفدى عمله حف ونشط وأسرع فيه فهو حافد ، وعبر حميد ، رسمى العون أو الخدام أو ولد الولد
حافداً لنشاطه ونجته من العون والخدمة . [القاموس المقوم ١/ ١٦٦] .

(٣) يقول رب العزة سبحانه فى ذلك فى سورة التذاريات ، ﴿.. وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٢) فَأَنْتَبِهْهُمَا فِي صُرَا
فَسَكَّتَا وَجْهَهُمَا وَنَالَتَا عَبْرَ وَرَعْنَهُمَا (٥٣) فَهَآءَا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُمَا أَعْمٰكُمُ الْعَيْمُ (٥٤)﴾ [التذاريات] صك
الوجه ، النظم تمجيداً وهو كتابة عن الدهشة والتعجب [القاموس المقوم ١/ ٢٨٠]

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ يَتْلُوَنَّ أَلِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا
إِن هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٧٢)

والشيء العجيب هو الذي يخالف نوايس الكون المعتادة، ولكن هناك فرقاً بين النوايس^(١) وخالق النوايس، الذي هو قادر على أن يخرق النوايس.

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر :

﴿ أَبَشِّرْهُمْ بِي عَنِّي أَن مَسْنِيَّ الْكَبِيرِ .. ﴾ (٥١) [الحجر]

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التي قالت :

﴿ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴾ (٧٢) [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة، لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد.

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوموا به ، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب ، وهو أهم ما تطلبه المرأة .

وأيضاً سُمي النخل بالبعل ، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه ، وإنما يكتفي النخل بما يمتصه من لأرض ، وما يزل له من مصر السماء^(٢) .

(١) البعل الزوج والزوجة ، فهو مصدر مسمى به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل - بعول - قال تعالى : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴾ [هود] وقال تعالى ﴿ وَبِعَرَفِهِمْ أَحَقُّ بِرِذْنِ .. ﴾ [البقرة] أي وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعي ، وبعد طلاق بالنة أو طلاقين بائنتين بعقد جديد [القاموس المجمع ١ / ٧٦]

سُمي زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها والمباعدة المباشرة والجمال النكاح بُعثت المرأة أطاعته بعلاً ، وتبعثت له : زبيث . وامرأة حميمة التبعيل إذا كانت مطاوعة لزوجها معية به [لسان العرب] .

(٢) النوايس : القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (مادة ب ع ل) ، استعمل الموضع والنخل - صار بعلاً راصع العروق في الماء مستعياً عن السقي وعن إجراء الماء في نهر أو عثور إليه (العالم هو البئر)

وكذلك سُمِّي نوع من القزل «بالقول البعلی»، وهو الذي لا يحتاج إلى إرواء.

إذن، فالعمل هو الزوج الذي يقوم على أمر روجه فلا يُحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء.

وهنا تتعجب روجه إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شيء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ

وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٢﴾﴾

والعجب - إذن - إنما يكون من قاتون شري، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدره في أن يحرق الناموس . . ومن حرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر بخارق للعادة الكونية.

والقصة التي حدثت لإبراهيم عليه السلام وامراته تكررت في قصة زكريا عليه السلام، والحق سبحانه هو الذي أعطى مريم عليها السلام إشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها:

﴿أَتَأْتِي^(١) لَكَ هَذَا.. (٣٧)﴾

[آل عمران]

فقالت مريم

(١) أي: اسم استفهام بمعنى: من أين وأناأتى بمعنى: كيف مثل قوله تعالى ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى حَشَمٌ (٣٧)﴾ [البقرة] أي: كيف حشمت بشرط اتباع القطرة المستقيمة التي تشير إليها الآية في قوله تعالى ﴿قَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى حَشَمٌ (٣٧)﴾ [البقرة] وجاءت في بعض الآيات صالحة للمعنيين مثل قوله تعالى ﴿وَأَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران]، [الناموس القوم ص ٤١ ح ١]

﴿..هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

[آل عمران]

إذن: فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم ، لا بين الخالق - سبحانه - وخلقهم .

ولذلك يأتي قول الحق عز وجل :

[آل عمران]

﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ.. (٣٨)﴾

وما دم زكريا عليه السلام قد تذكر بقول مريم :

[آل عمران]

﴿.. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

فمن حقه أن يدعو :

[آل عمران]

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً.. (٣٨)﴾

فأوحى له الله سبحانه وتعالى :

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٣٩)﴾

[مريم]

أى أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط ، بل وسماه له أيضاً باسم لم يسبقه إليه أحد .

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر ، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الضال^(١) الحسن هو أن يعيش الابن -

(١) الضال: ضد الطيرة ، والجمع غفول والغول . ومنها : الضالول ، وهو الاستيثار بالحير . [مشترى القاموس] بتصرف

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٥

لكن الحق سبحانه حين يسمي اسماً ، عقد صماء «يحيى» ليحيى بالفعل ،
ويبلغ من الرشد ، ثم لا يأتي الموت ؛ لذلك قُتل ^(١) يحيى وصار شهيداً ،
والشهيد حي عند ربه لا يأتي إنيّه موت أبداً ^(٢) .

وهنا عكس تسمية البشر ؛ لأن الإنسان قد يسمي به «سعيد» ويعيش
لابن حياته في منتهى الشقاء .

والشاعر يقول عن الإنسان الذي سمى ابنه «يحيى» :

وَمَعِيَّتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ لِرَدِّ قَطْمَاءِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلُ

وحين يرجع إلى أن مريم عليها السلام هي التي نبهت إلى قضية الرزق
من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن ^(٣) وأن
روجه عاقر .

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل
شيء أزلاً ^(٤) ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه
سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) قال أبو كبير في القصص الأنبياء (ص ٣٩٠) : «ذكروا في ليلة أسبى من أشهرها أن بعض ملوك ذلك
الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن
ذلك فبقي في نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوحيت منه دم يحيى فوجه لها
فبكت إليه من قلبه وجاء برأسه ودمه في طست إلى جنتها ، فيقال إنها علكت من مرورها برأسه»
(٢) وفي هذا يقول الحق سبحانه ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا هِيَ سَبِيلَ اللَّهِ أَفَوَلَا يَحْشُرُهُمْ رَبُّهُمْ يُرْزَقُونَ
(٣٩)﴾ [آل عمران] .

(٣) قال زكريا ﴿رَبِّ إِنِّي وَهِنَ الْكِبَرِ وَأَخْلُ الرُّؤْسِ وَلَمْ أُحْزَ بِدَعَائِكَ رَبِّ هَلْأَ﴾ [مريم] وقال
بعد تبشيره يحيى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي بَكَرْتُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَائِلًا وَقَدْ حَفَّتْ مِنْ فَكْرِ عَمِّي﴾ [مريم] قال مجاهد . عتياً يحيى . بحول العظيم . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٢) . «لم يزل فيه لجاج
ولا جماع» .

(٤) الأزل . القدم . أصلها «لم يزل» ، قال أبو منصور . ومنه قولهم . هذا شيء أزلي ، أي . قديم . إنسان
المرب .

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ۝٩٠﴾ [مريم]

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى قرّر ، فلا رادّ لما أَراده ، ولذلك يقول سبحانه

﴿..هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ رَّحَدُ خَلْقِكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ لَكَ شَيْئًا ۝٩١﴾ [مريم]

وهكذا تراءت الأحداث بعد أن نهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خرق الراميس التى تعرضت هى لها بعد ذلك ، حينما تحلّل لها الملك بشراً ، وبشرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهى اتى لم يمسسها بشر - فيذكرها الملك بأنها هى التى أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق فى أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

﴿..إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ [آل عمران]

وكان لا بد من طمأننتها ؛ لأن إيجابها للمسيح عيسى عليه السلام - دون أب - هى مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهى أمانة ، عبر مراقب فيها ولا متهمة .

والآية التى نحن بصلدها هى تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدره الله تعالى وأراد ، خلافاً للناموس العالت فى خلقه ؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والمكرات هبة الأبناء فى غير الأوان المعتاد^(١) .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٣٢٨٩/٤) : من تلك الهبات والمكرات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة ، بصرف

﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .. ﴾ (٧٢)

[هود]

ويهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴾ (٧٢)

[هود]

أى : أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده، فلا حد لحيره وإحسانه، ولله تعالى مُطْلَقُ صِدْقِ المجد .

وكلمة «حميد» - في اللغة - من «فعليل» وتَرَدُّ على معنيين : إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا : «الله رحيم» بمعنى أنه راحم خلقه . وإما أن تكون بمعنى مفعول : كقولنا : «قتيل» بمعنى «مقتول» .

وكلمة «حميد» هنا تأتي بالمعنيين معاً : «حامد» و«محمود» ، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه «الشكور» ؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته . والله سبحانه «حميد» ؛ لأنه حامدٌ من يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه «محمود» ممن أنعم عليهم نعمه السابقة .

والله سبحانه هو المجيد الذي يعطى قبل أن يُسأل .

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل ، فأخرج كيساً ووضع فيه يده ، ثم رجع إلى أهله يبكي ، فقالت له امرأته : وما يبكيك وقد أدبت له حق سؤاله؟ قال : أنا أبكي لأني تركته ليسأل ، وكان المفروض ألا أجعله يقف مراقب السائل .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا ، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل ، ومثال ذلك : هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين في بطن أمه ، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال .

والحق سبحانه وتعالى في كل لقطة من لقطات القرآن يعطى فكرة اجتماعية مأخوذة من الدين ، فيها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجن الحبيذ للضيوف ، ليعلب أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال : لقد أكلت قبل أن أحضر إليّ ، فلك أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه في تناول الطعام .

ويروى بعض العارفين ^(١) أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ألا تأكلون ؟ قالت الملائكة : لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمن الطعام . فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحى الإلهام : ثمه أن تُسموا الله أوله ، ونحمدوه آخره ^(٢) .

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت في أوله : «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا انتهيت منه وقلت : «الحمد لله» تكون قد أدبت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه .

﴿ثُمَّ تَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨)

وهكذا بين لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأننا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد إبراهيم أو يقومه سوءاً ، بل هي مكلفة بتعذيب قوم لوط .

(١) هو عمرو بن دينار الجعفي بالزلا ، أبو محمد الأثرم ، فيه ، كان مفتى أهل مكة ، فارسي الأصل ، مولده بصنعاء ٤٦ هـ وولاه مكة (١٢٦ هـ) عن ٨٩ عاماً قال شعبة : ما رأيت أثبت من الحديث منه
الأعلام للزركلي (٥/ ٧٧)

(٢) ذكر هذا الأثر السهوي في الفهرست (٤/ ٤٥٠) وفي آخره أن الملائكة نظرت لبعضها البعض وقالوا : «لهذا اتخذك الله خيلاً» وعراه لأبي المنذر عن عمرو بن دينار

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ ^(١) ۖ

بُجْدِلٌ ذَاتَ آلِ قَوْوٍ لُوطٌ ^(٢) ۖ ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّةً من مقابل ؛ ونعطيه حُجَّةً ؛ لتصل إلى حق .
والجدل يختلف عن المراء ^(٣) فالمرء يعني أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل
لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق .

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون
الجدال بالنبي هي أحسن .

وهنا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءت
البشرى بأن الله تعالى سيررعه بسلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم
ذاهبون لتعليب قوم لوط :

﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ مُجْرِمِينَ ^(٤) لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَبَاقًا مِّن طِينٍ ^(٥) ۚ
مُؤَمَّةً ^(٦) عِنْدَ رَبِّكَ .. ^(٧) ﴾ [الذاريات]

(١) راعه الشيء يروع ، روعاً أصاب روعه أي قلبه والروع القلب - بهم الراء وقوله تعالى
﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ .. ﴾ (٢٤) [هود] أي ذهب عنه الخوف والفرح [القاموس القويم]
(٢) الجدل ، المارة في الرأي وشدة الخصومة . قال تعالى ﴿ .. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (١٠١) [الكهف] أي : أكثر حيلة في الخصومة ونابذاً للباطل يسير حتى [القاموس القويم]
(٣) مراء يماريه بمارة ومراء . ناظره وجاده . قال تعالى ﴿ .. فَلَا تَمَارِقِهِمْ [الأمراء ظاهراً ولا قَسَطَتْ بِهِمْ
مَنْهُمُ أَحَدًا] ﴾ (٥٥) [الكهف] أي : فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أهل الكهف إلا جدلاً واضحاً يسيراً
وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبُونَ ﴾ [النجم] أي : تتكلم . [القاموس القويم]
(٤) مؤممة : أي : عليها أخواتهم بأسماء المعصيين . قال تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الْمُسْوَمَةُ ﴾ (٥١) [آل عمران]
أي المعلمة بعلامات ، أو المرسلة للرعى . وقال تعالى ﴿ سَجَّاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ .. ﴾ (٥٥) [الفتح] ،
أي علامة ليمانهم نودى ووجوههم [القاموس القويم]

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ^(١) وَعَدَهَا إِنِّيَ ..

[التوبة]

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأتاب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة في قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ..

[التوبة]

وهو في الآية التي نحن بصدد خواطرنها والتي أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل وتأوه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - في اجدال ما قاله الحق سبحانه في سورة العنكبوت :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ

[العنكبوت]

أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ^(٢) قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوطٌ ..

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبي من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿ .. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا تَنْجِيئُهُ وَأَهْلُكَ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ

[العنكبوت]

الغَابِرِينَ^(٣) ﴿

(١) وعده شيئاً بعده وعداً وهذه أخيره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، وهو فعل يتمنى للمعول ، وقد يحذف أحد للمعولين للعلم به .

والوحدة مصدر ميمي ، واسم زمان أو مكان . قال تعالى : ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِنِّيَ ..

[التوبة] أي ، عن وعد واحد في مرة واحدة [القاموس القويم ٣٤٣/٧]

(٢) من الغابرين ، أي ، من الباقين المتخلفين من القرية للهلاك أو كانت من الماطيين الذاهبين أي من الهالكين ، يقال ، مضى وذهب بمعنى مات وهلك [القاموس القويم]

وكان إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، يبيح له الجدل مع أهل القرية جميعاً

ويتلقى إبراهيم الرد هنا في سورة هود في الآية التالية :

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ اَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ٧٦﴾

وقول الملائكة :

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ اَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. (٧٦)﴾ [هود]

يعني إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمر متبني ومحسوم ، فهم قد جحدوا ليفدوا ، لا ليهددوا ؛ وأبلغوا إبراهيم :

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .. (٧٦)﴾ [هود]

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿مُتَّبِعٌ﴾ يعلم أن أي أمر من الله تعالى لا بد أن يُنفَّذَ ، فلا بد أن يتقبل - أمر الحق سبحانه -

﴿وَرَبُّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾ [هود]

أي : لا أحد يقاوم على أن يرد عذاب الله ، وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب^(١) ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود^(٢) .

(١) أمر من فعل أمر من الإعراض ، وهو الانصراف عن الشيء ، وأمر من عن الشيء ، ولى مصرفاً عنه غير راجع إليه قال تعالى ﴿اَعْرِضْ وَذُنِّبْتَ بِهَاتِهِ﴾ [الأنعام] (١٦٠) [الأنعام من القويم ١٦/٣]

(٢) جاء هنا في حق قوم نمرود مع بيهم صالح ، وذلك أن الله نوحهم ملكك والتمتع في دارهم ثلاثة أيام بعدد يأتيهم عذاب الله بسبب عثرهم الثلاثة يقول سبحانه . ﴿فَلَمَّا زَوَّجْنَاكَ لِلنِّسَاءِ إِذْ كُنْتَ تَزْكِي دَارَهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكُمْ وَعَدُّهُنَّ مَكْذُوبٌ﴾ [هود]

(٣) غير مردود أي غير مصروف عنهم ولا مدفع [تفسير القرطبي ١/٣٣٩٢]

ويُروى ^(١) أن إبراهيم عليه السلام في جداله قال للملائكة: إذا كان في قوم لوط خمسون قد آمنوا بالله تعالى، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال وإن كان فيهم عشرة يؤمنون بالله، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فيهم واحد هو لوط؟ فردت الملائكة:

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَحْيِيَنَّ وَآهِنَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ .. ﴾ (٢٧) [المنكيات]

وانتهى الجدل، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (٧٧)

أي: أن لوطاً شعر بالسوء، وضايق بهم ذرعاً، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وتدفع بها الأشياء، وأي شيء تستطيع أن تجد إليه ذراعك لتدفع به، وإن لم تطله ذراعك؛ قلت: «ضقت به ذراعاً» أي: أن يدي لم تطله، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي، وفوق ما أتاني الله من الآلات ومن الخيل

وما الذي يسيء لوطاً في مجيء الملائكة؟

(١) بورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٠) وهراده لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حنيفة بن اليمان

(٢) يقال ضايق بالأمر ذرعاً، وذراعاً: أي لم يطله ولم يقر على احتمالها واشتد عليه بسبب انضيق قال تعالى ﴿ .. وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ (٧٧) [هود] أي اشتد عليه لضيق بسبب وجردهم خوفاً عليهم من قومه [القاسموس القويم]، وضايق بهم ذرعاً، ضغبت طاقته من تدبير خلاصهم [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف].

(٣) يوم عصيب شديد شره وبلاء [كلمات القرآن]

قين. لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال ، فحين يُقال «فلان ملاك» ، أى: أن شكله جميل^(١).

ولوط عليه السلام - يعلم أن آفة قومه هي إتيان الذكور ، وامراته تعلم هذه الآفة ، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط ، فهي ترحب بتلك الآفة

ويُقال: إنها تنبّهت لمجيء لرجاء الحسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح لمنزل ، وصفت لعل القوم يتسهون لها ، فلم يلتفت لها أحد ، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم ، وأشارت لهم بما يعبر عن مجيء صيوف يتميزون بالجمال^(٢).

وهنا قال لوط عليه السلام.

﴿ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) ﴾

[هود]

أى: يوم شديد المتاعب

ويقال: «يوم عصب» و «يوم عصبصب»^(٣)، ومنه «العُصْبَةُ»^(٤) وهم جماعة يتكاثفون على شيء ، ويقوى الفرد بمجموعهم ، وقد صلق ظن لوط.

وفى هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك :

(١) وهذا هو ما قاله من يهيبات يوسف عليه السلام ، عندما أدخلته امرأة العريز عليهن ﴿ .. فَلَمَّا رَأَتْهُ أُنْفِثَتْ رَفْلُنَ الْيَهُودِيَّةِ وَقَالَتْ خَافْتُ أَنْ يَكُونَ لِي مَعَهُ بَشَرٌ إِنْ هَذَا إِلَّا غُلَقٌ يَكْرِهُمُ (٢٤) ﴾ [يوسف].

(٢) وتلك كانت خيانتها لزوجها لوط عليه السلام ، أنها كانت تدل قريش على أخفاف لوط ليقتلوا معهم المنكر وقد قال رب العزة عن امرأة نوح وامرأة لوط ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادٍ عَالَمِينَ فَخَفَا نَهْمَاهُمَا (٦٦) ﴾ [النحر]

(٣) قال المراء ، يوم عصب ، وعصبصب ، شديد ، وبيل هو الشديد الخمر وقال أبو العلاء يوم عصبصب بارد وسحاب كثير ، لا يظهر فيه من السماء شيء [لسان العرب مادة (ع ص ب)]

(٤) العصبية والعصبية جماعة مدين العشرة إلى الأربعين قال تعالى ﴿ وَتَحْنُ عُصْبَةٌ (١١) ﴾ [يوسف] قال الأتفش : والعصبية والعصاب جماعة ليس لها واحد [لسان العرب مادة (ع ص ب)].

﴿١٦﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
قَالَ يَنْفِقُونَ هَهُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ
فِي ضَعِيفِي آلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾

وقول الحق سبحانه . ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨) ﴾

أى : يسرعون إليه فى تدفق ، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به
ثوية ، يكون متردداً حائماً ، أما من له ذرية فهو يقبل على الشر بجرأة وشباط .

وكلمة «يهرعون» هى من الألفاظ العجيبة فى اللغة العربية ، والفاظ
اللغة نجد فيها فعلاً له فاعل ، كقولنا : «يضرب زيدٌ عمرو» أى : أن الضارب
هو «زيد» والمضروب هو «عمرو» ، ونقول : «يُضْرَبُ عمرو» أى : أنت بينا
الفعل للمجهول ، وسمى عمرو «نائب فاعل» .

أما فى الفعل «يُهرعُ» فلا نجد أحداً يقول : «يهرع» إلا ويكون بعدها فاعل
وليس نائب فاعل ، مثلها مثل الفعل «جُنَّ» فهل هناك من يأتى لنفسه
بالجنون ، أم أن الجنون هو لدى جاءه ؟ لا أحد يعرف سبب الجنون ؛
ولذلك سُبِتَ الكلمة للمجهول ، ولكن ما يأتى بعدها يكون فاعلاً . وهذا
من إعجاز البيد القرآنى .

(١) الهرع المشى فى اضطراب وسرعة ، وأقبل بهرع ، وأهرع - مجهولاً - بهرمهرع يرمع من ضعف ،
أو خوف ولهروع : المجنون يصرع [مختار القاموس] .

(٢) الرشيد ، من أسماء الله الحسنى ، ولم يوصف الله به فى القرآن . ورشد يرشد رشداً ورشداً : أصاب
وجه الصواب والخير والحق ، والرشد : صدق والفضل . والرشد : ضد البهيم وسوء التمييز ، وبلغ
رشده : بلغ كمال عقله وحسن تصريفه للأمور . قال تعالى : ﴿ قَدْ ثَبَّحْنَا الرَّشْدَ مِنْ قَبْلِ .. ﴾ [البقرة :
١٢٩] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. ﴾ [الأنبياء : ١٢٨] أى : هديناه إلى الحق والخير
والصواب . وقال تعالى - ما جاء على لسان الكفار - ﴿ .. فَكُلَّابِ الْحَكِيمِ الرَّشِيدِ ﴾ [هود :
٦٧] وقصد لهم الاسمهاء بنى الله شعيب - هبة السلام - بوصفه بأنه وحده من بينهم الحكيم الرشيد ، وهم
يعتقدون عكس ذلك [القاموس المويج ١/ ٢٦٦] بتصريف

وكذلك نقول: «زُكِمَ فلان» فمن الذى أصابه بالزكَم؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام.

إذن: فإذا جُهِلَ الفاعل فنحن نبني الفعل للمجهول، ولكن ما يأتي بعده يكون فاعلاً.

وقوله تعالى:

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ . (٧٨)﴾ [هود]

يُبين أنهم أقبلوا باندفاع، كأنهم يعشقون ما يلحقون إليه؛ لأن كلاً منهم له دربة على ذلك الفعل النشيط، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تهيب، باندفاع من نفسه ودفع من غيره، مثلما نقول: «سنوزع ثوبنا بالمجان»؛ هنا تجد الناس يتنافعون، كل منهم من تلقاء نفسه، وعبره يدعه ليرتد إلى الوراء.

وقوم لوط كانوا على دربة بثلاث الفاحشة.

يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ . (٧٨)﴾ [هود]

أى: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم، ولا حياء يمنعهم عنها.

فالحياء يعنى أن بعض الناس يعمل السيئة ويحشى الآخرون أن يفعلوها، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة، قلن يخرج أحد من الآخر^(١)

(١) وليس يدل على حياء الشديد لهذه الفعلة وعدم حياءهم من إتيانهم إليها أنهم كانوا يأتون بها في ناديهم وهم يجلسون للحديث والشاور، قال الحق: ﴿اتَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ (٢٩)﴾ [العنكبوت] وما كانوا يأتونه أيضاً في مجالسهم الصراط، والصغير، ولعب الحمام، والسخرية من أبناء السبيل، [القاموس القويم]، والله الموفق والسويح

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٧٧

وماذا يكون موقف لوط - عليه السلام - في هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعته ، وفي كركبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوايقهم ، وفكر لوط - عليه السلام - في أن يصرفهم انصرافاً من جس ندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ ۝ (٧٨) ﴾ [هود]

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العرف في أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد روج رسول الله ﷺ إحدى بناته لعتبة بن أبي لهب ، وأخرى لأبي العاص بن ابريق؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لانتين من كل هذا العدد من الرجال المتنافعين؟

وقيل : إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين يسلمهم القرار ، وأراد أن يراضيه بهذا الزواج ؛ لتحلهم يرجعون من الفواحش والسينات ، وفي هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونِ فِي ضَيْفِي ۖ ۝ (٧٨) ﴾ [هود]

وكلمة «ضيف»^(١) - كما نعلم - جاءت هنا معردة ، ولكنها تطلق

(١) ضيفه ضيفاً جيداً - نزل عند قهر ضيفه ، ولا تشتم الضيفون الضيف والضيف مجبري وضع به بلفظه فلا يتن ولا يجمع ولا يثبت ، وقد يجمع على ضيوف ، وضيفان قال تعالى ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ [الحجر] أي هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني بالتمسك بهم ، وضيف هنا لمعنى المفرد وهو لعدد من الملائكة ، [الثامن من القويم]

أَيْضاً عَلَى الْجَمْعِ ، وَالْمِثْنِ ، وَتَصَحَّحَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمَذْكُورِ وَعَلَى الْمُؤَنَّثِ
أَيْضاً ، فَإِنْ جَاءَ ضَيْفٌ وَاحِدٌ تَقُولُ : « هَذَا ضَيْفِي » ، وَإِنْ جَاءَ اثْنَانِ
تَقُولُ ، « هَذَانِ ضَيْفِي » ، وَإِنْ كَانَتْ سَرَاةٌ تَقُولُ ، « هَذِهِ ضَيْفِي » ، وَإِنْ
كَانَتَا امْرَأَتَيْنِ تَقُولُ : « هَاتَانِ ضَيْفِي » ، وَإِنْ جَاءَتْ جَمَاعَةٌ تَقُولُ :
« هَؤُلَاءِ ضَيْفِي » ^(١) .

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَقُولُ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٤١) [الذاريات]

وَهُنَاكَ أَلْفَاظٌ أُخْرَى كَذَلِكَ فِي اللَّعْمَةِ مِثْلُ : كَلِمَةُ « طِفْلٌ » ^(٢) فَهِيَ مُفْرَدٌ ،
وَلَكِنِّهَا قَدْ تَطَلَّقَ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، لِأَنَّ كَلِمَةَ « طِفْلٌ » وَجَدَ لَهَا جَمْعٌ هُوَ
« أَطْفَالٌ » .

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَقُولُ :

﴿ وَلَا يُدِينُ لِنَاسِهِنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْحَكُنَّ بِحُجْرَتِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ
وَلَا يُدِينُ رِبَاسَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ
أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ^(٣) أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) يَقُولُ رَبِّهِ الْعَرَبُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونَّ (٤١) ﴾ [الحجر]

(٢) الطِّفْلُ (بِكسر الطاء) هُوَ الصَّغِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالطِّفْلُ مِنَ الْإِنْسَانِ الْوَلَدُ مَا دَامَ صَغِيرًا . وَيَسْتَوِي
فِيهِ الْمُفْرَدُ وَهُوَ ، وَجَاءَ بِجَمْعٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ الطِّفْلُ الَّذِي لَمْ يُظْهَرْ عَلَى عَوْرَتِهِ النِّسَاءُ . (٤١) ﴾
[النور] أَيْ : الْأَطْفَالُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ نَعْمَ يُكْرِمُكُمْ عَلَمًا . (٤٢) ﴾ [الحج] أَيْ : الْأَطْفَالُ وَجَمْعُ
الطِّفْلِ ، الْأَطْفَالُ ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا . (٣٨) ﴾ [النور] [الْقُدُّوسُ

الْقَرِيبُ ٤١٣/١] بِتَصَرُّفٍ

(٣) سَوَلَتْنِ أَزْوَاجَهُنَّ

سُورَةُ النُّورِ

٦٥٧٩

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ^(١) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ
لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴿٢١﴾ [النور]

إذن . فكلمة «اطفل» تطلق أيضاً ، ويراد بها الجماعة .

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخبروه^(٢) في ضيقه ، والخزى
فضيحة أمام النفس وأمام الناس .

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيئ ما لم يره أحد ،
أما أن يراه انسان ، ففي هذا فضيحة له ؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة
الناس ، وانهم أن يكون يعمل السيئ بينه وبين نفسه

ويتساءل لوط عليه السلام :

﴿ .. أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ [هود]

أى ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة^(٣) ، يمنع هذه
المسألة

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

(١) الإرب . الحاجة التي تقتضى الاحتياط لها وكذلك الأربة والمأرب . قال تعالى : ﴿ فَوَلَّاهُم مِّمَّ لَوْلِي الْإِرْبَةِ
مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ ﴾ ﴿٢١﴾ [النور] أى - غير دوى الحاجة إلى النساء ، أى : اللذين ليس بهم شهوة
لكبرهم أو صغرهم أو صبرهم وقوله ﴿ وَلِي لَهَا مَكْرِبٌ آخَرٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ [طه] أى - حديدات وأقراص
كثيرة أخرى كانت غير أو غير ذلك

(٢) أخزاء فلان : أهانه وفضحه . قال تعالى : ﴿ رَتْنَا بِكَ مِنْ فِئْتٍ أُخْرَى ﴾ .. ﴿١٩٧﴾ [آل عمران]
ومن دعاء القرآن : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُخْزَوْنَ ﴾ ﴿٥٥﴾ [الشعراء] ، وقال تعالى ﴿ لَا تَقْرَأُ اللَّهَ وَلَا تُخْزِنُ فِي
حَبْلِي ﴾ [هود] [أى : لا تهيبس ولا تمضمض موسى بإهانة خبيثي ، وحسب بهاء المتكلم من كلمة
تخزى] رسماً ومطلقاً وتخفيفاً [القاموس القويم ١/ ١٩٢]

(٣) ومن معانى الرشيد أيضاً أن يكون شليداً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويكون صالحاً مصداقاً هادياً
مستقيماً مرشداً حكيماً انظر تفسير القرطبي [٣٣٩٦/٤]

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَسَاتِكَ مِنْ حَقٍّ رَأَيْنَكَ لَنَعْلَمَ مَا نُرِيدُ ﴾^(١) ﴿٧٩﴾

هذه الآية تحمل رد المتذاعين طلباً للفصحاء من قوم لوط ، فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا في بساتك أية حاجة معتبرها غاية لجيتنا .

وكان هذا يعنى الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا في هيئة رجال يلمعوا ببلغ الكمال في الجمال .

ويأتى الحق سبحانه برد لوط عليه السلام :

﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ أَوْى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾^(٢) ﴿٨٠﴾

وساعة تقرأ كلمة «لو» فهذا هو التمني ، أى ' رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع به هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولك : لو أن زيداً عنذك لجئت ، لكن لمجد هنا شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : لو أن لى بكم قوة لفعلت كذا وكذا .

(١) احتلف العلماء في المقصود بالبات هل من باب لوط فعلاً من ضلوه ؟ أم أن المقصود بهن ماء قومه ، فأتى به لأمته ساء ورجلاً ، انظر تفسير ابن كثير (١٥٣/٢) والقرطبي (٢/٣٣٩٥) والدر المنثور للسيوطي (٤/٤٥٧)

(٢) قال ابن كثير : «أى ، إني لتعلم أن ساء لا أربى لنا فيه» . انتهى . وددت أن أفسره (٢/٣٣٩٧) «أن قوم لوط عطفوا بآياته لمردهم ، وكذا مستهم أن من رُد في عملية امرأته يحل له أياً» .

(٣) أوى المكان ، وأوى إليه ياوى أوىاً . نزله والنجاء إليه . تعالى ﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ (٤٠) [الكهف] أى برلوه والنجاة إليه [القائوس القويم]

(٤) ركن الشيء ، جانبه الأخرى وقوله تعالى ﴿ أَوْى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هرد] أى الجأ إلى حصن قوى بجمي ، أو إلى رجل قوى بجمي ويصيرني عليكم كأنه ركن يمنع حصين [القائم من القويم ١/٢٢٦]

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له : إن ركنك لشديد^(١) ؛ ولذلك قال .

﴿ .. أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٨٠) [هود]

والشيء الشديد هو المتجمع تجمعا يصعب فصله ، أو المختلط اختلاطا مزج يصعب تحلله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء ؛ فلما أن تجمع أشياء اجتمعت منفصلة ، ولكنك تربطها ربطا قويا ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة برباط قوى ، لكن كليهما - المصلوب والشجرة - منفصل عن الآخر وله داته ، وهماك ما يسمى خلطا ، وهناك ما يسمى مزجا ، والمخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث نستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء المترجة بعضها

ومثال ذلك : أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع حبات من الفول السوداني ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض ؛ لأنك جمعتهما على استقلال . ولكن إن نُحِمتَ بعصر ليمون على كوب من الماء المالح بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حله .

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في منعة من قومه ، أهل سدوم ، ويقال : إنها خمس قرى قريبة من حمص^(٢) .

وقد تعجب رسول الله ﷺ من قول لوط ، فقال - فيما رواه البخاري :
«رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد»^(٣)

فلهمول ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى .

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٥٩) وعراه لابن جرير الطبري عن وهب بن منبه ركنه الشديد هنا هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٧٥ - ٤٦٩٤) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠) وابن ماجه في سننه (٤٠٢٦) من حديث ابن عمر

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قات الملائكة لوط عليه السلام:

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
إِن مَّوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَنِيسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١)

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم
حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ؛ ليدلنا على أن
إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن
يعلم مسب مجيئهم .

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (٨١) . فمن
باب أولى ألا يصلوا إليهم ، ونخبر الملائكة لوطاً أن يسرى بأهله ليلاً أى :
أخرج بأهلك فى جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد انكالم^(١)
يقوم لوط هو الصبح .

﴿... إِن مَّوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَنِيسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) [مرد]

(١) القطع والمقطعة : الجزء المقطوع . قال تعالى : ﴿يَأْسِرُ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (٨١) [هود] والقطع
جمع «قطعة» وقوله تعالى : ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ رُجُومُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا﴾ (٤٣) [يونس] مظلماً
بكسر القاف وفتح الطاء . ومظلماً : حال من الليل . وفريء : أقطعاً - بكسر القاف ومكسوة : انطأ -
أى : جرمًا ، وعرب مظلماً - على هذه القراءة . نعتاً بقوله : أقطعاً أو حالاً من الليل [القاموس
القيوم ١٢٥/٢]

(٢) النكال : التنكيل والعصية الشديدة الراجعة . قال تعالى : ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٥٠)﴾
[النازعات] أى : أخذه الله عذاباً شديداً بعد حيرة لغيره فى السب والآخرة وقوله تعالى : ﴿فَجَعَلَهَا
نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَظْلَمًا لِّلْعَظِيمِ﴾ (٥٦) [البقرة] أى - جعلها الله - بالعذاب الشديد - حيرة
لأهل زمانها ، ولم يأتى بعدها ، وتلمتقين فى كل زمان . وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَأَرُوا السَّاعَةَ خَالَتُوا
أَنفُسَهُمْ جَرَاءً بِمَا كَسَبُوا نَكَالًا مِّنْ اللَّهِ...﴾ (٥٨) [المائدة] أى : عقوبة راحية فرضها الله تعالى لينشط بها
الناس [القاموس القويم] .

لذلك قالوا:

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِفُطُوحٍ مِنَ اللَّيْلِ... ﴾ (٨١)

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول ويستهي عند ربع الليل الأخير ، وقيل : إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف .

ثم يقول الحق سبحانه ،

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ... ﴾ (٨٢)

والالتفات : هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالك ، ويسمى الانصراف عن المقابل فهل المقصود هو الالتفات الحسى أم الالتفات المعنوى ؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه ؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألقوه من مقام ومن حية ؛ لذلك تبهم الملائكة ألا تنجهم فلو بهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقلوا أنفسهم ، وسيعوصهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم

هذا هو المقصود بعدم الالتفات المعنوى ، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسى .

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه ؛ لأنها خائنته بموالاتها للقوم المفسدين ، وفشائها للأمرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب .

(١) اتبعت الرجل أمام وجهه بظهر يمينه أو يساره ، أو انحرف ورجع عن وجهه قال تعالى ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِفُطُوحٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ (٨١) [هود] أى لا يلتفت يميناً ولا يسرة ، ولا إلى الخلف ، فيرجع وينصرف عن السير معك . [القاموس القويم ١٩٦/٢]

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٨٤

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها محلصة للوط ، وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت : وا قوماء ورجعت لتمسك معهم ، وليألها العذاب الذي نالهم في الموعد الذي حددته الملائكة وهو الصبح .

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ^(٨١) أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ^(٨٢) ﴾ [هود]

وقد تمهد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون لعذاب أشد نكالا .

ويقول الحق سبحانه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

حِجَابًا مِّنْ سَاجِدٍ مِّنْ نُّجُومٍ ^(٨٣) ﴾

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصد ، فالأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس : قرية «سدوم» وقرية «دادوما» وقرية «صعوه» ، وقرية «عامورا» وقرية «قتم» .

وقوله تعالى .

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا .. ^(٨٤) ﴾ [هود]

أى نقلبت انقلاباً تاماً ^(٨٥) .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) : يمحتمل أن يكون جمع الصبح سيقاناً لإهلاكهم ، لأن العروس فيه أودع ، والناس فيه أجمع .

(٢) السجيل . الطين المشعر . قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَا عَالِيهَا سَجَادًا مِّنْ نُجُومٍ ^(٨٤) ﴾ [هود] [القاموس القويم ١/ ٣٠٢]

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) أن جبريل عليه السلام أدخل جنات حيث قرى قوم لوط ، فرقمها من أعوم الأرض حتى أضاءها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء تهيق حميرهم وصياح ديكهم . ثم تكفى لهم جمر ، ولم ينكر لهم إناء ، ثم تكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة .

ويقول القرآن في موضع آخر .

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ ^(١) أَهْوَى ^(٢)﴾ [الجم]

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمد ، أى : قول سبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك ^(٣) إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة رعباً ، ويقلب عبر الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .

كذلك المؤتفكة ، أى : الفرى التى جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضع .

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجر .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى ^(٤) ﴿..حجارة من طين ^(٥)﴾ [الدرياب]

وكلمة «حجارة» تعطى الإحساس بالصلابة ، أما كلمة «طين» فتعطى إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذى نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . . أى : يتتابع فى نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

(١) المؤتفكة ، الفرى المنعكبة عند خسمها . قال تعالى . ﴿وَأَصْحَابُ مِثْقٍ وَالْمُؤْتَفِكَةِ ^(١)﴾ [التوبة] من المنسرفات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها ، وهى المؤتفكة . ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ ^(٢)﴾ [النجم] أى أسقطها ونسفها [القاموس القويم]

(٢) الإفك : الكذب ، وأفك صيغة مبالغة أى : كثير الكذب ، قال تعالى ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ^(٣)﴾ [الشعراء] . وقال فى سحرة فرعون ﴿إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ^(٤)﴾ [الأعراف] أى . ما يكذبون ويدعون أنه حق ، وهذا يدل على أن السحرة تميل ولزهايم ، وليس قلباً لحقائق الأشياء ، فأخيل جعل والشعبان ثعبان ، ولكن السحرة يوهم الناس أنه عمل شيئاً وهو لم يعمل شيئاً [القاموس القويم]

(٣) كان ذلك فى شأن قوم لوط أيضاً ، قال تعالى فيم قاله إبراهيم عليه السلام للملائكة الرسلين إليه ﴿قَالَ فَمَا خَبَّكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ^(٥) فَأَلَا تَأْتُونَ بَشِيرًا ^(٦)﴾ [الأنعام] ليرسل عليهم حجارة من طين ^(٧) نسوة عدد . يكلمهم فى ذلك [الدرياب]

﴿مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣)

وكلمة «مُسَوِّمَةٌ» أى: مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه لى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذلك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى ابلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى. الإنسان ، ولا تلمز البلاد .

ومى مُرْتَبَةٌ لأن الحق سبحانه قال .

﴿.. سَجِيلٌ مُنْقُودٌ﴾ (٨٢) [هود]

ووردت كلمة (سجيل) أيضاً لى قول الحق سبحانه :

﴿.. طِفْراً أَبَايِلَ (٣) قَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّينَ (٤)﴾ [الفيل]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿.. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢) [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تنابعت لى الموكب الرسالى ونجاتها هو محمد ﷺ

وبحن نعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسليية وثباتاً يبين لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ ..﴾ (١٧) [هود]

(١) ضد الشيء يتلوه: جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض لى نظام ، فهو منضود وبصيد ، أى منظم . قال تعالى ﴿وَالْفُلُ بِأَسْقَاتِهَا طَلَعُ نَصِيدٍ﴾ [ق] أى مرصوص بنظام ومثل قوله تعالى ﴿وَقَطِيعٌ مُنْقُودٌ﴾ [الواقعة] أما قوله تعالى ﴿.. مِنْ سَجِيلٍ مُنْقُودٍ﴾ [هود] أى متابع منتظم السقوط عليهم [القاسوس القويم]

وتحكي القصص المأزكة التي قدمت بين كل رسول مُؤيّد بمعجزة من الله ، وبين المكبرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المأزكة بصورة الرسل على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكَلَّفُوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا لحجة الإيمان فقط ، وأن يبلغوا السمع ، فإن عصي القوم ؛ فالسما هي التي تدخل لتأديب المخالفين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (١) إِرَمَ (٢) ذَاتِ الْعِمَادِ (٣) الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ (٤) وَتَمُودَ الَّذِي جَاءَ بِالسُّحُورِ بِالْأَوَادِ (٥) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (٦) الَّذِينَ عَلِمُوا فِي الْعَالَمِ (٧) فَاسْتَفْرُوا فِيهَا الْقِسَادَ (٨) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ (٩) عَذَابٍ (١٠) إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِعٌ (١١) ﴾ [العنبر]

(١) إرم اسم قبل منها عباد ، وقيل هي عليه كبرياءهم ، ورعم الكندي في كتابه فضائل مصر أنها مدينة الإسكندرية . وقوله تعالى ﴿ ... ذَاتِ الْعِمَادِ (٣) ﴾ [العنبر] يدل على أنها ذات حصار ، ويذكر علية [القاموس القويم ١/ ١٨٨]

(٢) حاشية بجوزية جويّاً قصعة وقوله ﴿ ... جَاءَ بِالسُّحُورِ بِالْأَوَادِ (٥) ﴾ [العنبر] أي بطوره وحسنه وصبره من بيوتهم وأصنامهم ، وحذفت ياء الرادى في رسم المصحف [القاموس القويم ١/ ١٣٥]

(٣) الأوتاد جمع وتد ، والوتد قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت في الأرض ثم يشد بها حين يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وتثبت الخصال بالأوتاد ، لأنها تحفظ بوارق الأرض وتثبتها . قال تعالى ﴿ وَالْجِبَالُ أَوْتَادُ (٥) ﴾ [النبا] وقال أيضاً ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (٥) ﴾ [العنبر] قيل هم اختروا الذين يشترط ملكه وليس إلهاً لربك حقيقة كل يشد إليها من يريد عذبهم من الناس ، وبعل الزاد بها الأهرام التي بناها فرعون ، تشبه الجبال [القاموس القويم ١/ ٣١٨] .

(٤) السومر الخلد الذي يضرب به ، ومثى سوحاً لأنه يحلظ الدم باللحم . وقوله تعالى ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (٩) ﴾ [العنبر] أو حبر من الضرب بالسوط بالمعنى صبه ليفيد دوم الألم وشموه ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صبا فأحرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيحمره أو السوط الخيط ، فالعذاب محتلط سوح ، فصب عليهم من العذاب أحلاها متنوعة [القاموس القويم]

(٥) الرعد اسم مكان الرعد ، كإرصاد . قال تعالى ﴿ وَخَلَقُوا لَهُمْ كُلَّ رَمَدٍ (٥) ﴾ [التوبة] وقال تعالى ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (١٠) ﴾ [النبا] وقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِعٌ (١١) ﴾ [العنبر] والمراد أن الحق سبحانه رقيب ملوهم ويحصى جميع ذنوبهم - منها صفوت - ليحاسبهم عليها [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف

ولكن الأمر اختلف بمجيء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذي تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمرون على البلاع عن الله تعالى بخلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ، لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .
والحق سبحانه يقول:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ۚ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ ۝١١٧ ﴾ [البقرة]

إذن: فكل واحد من أمة محمد ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إيماناً في الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تمنك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان النقي الذي يملك انقبوس .
ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ لَعَلَّكَ بَاقِعٌ ۚ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ ۝١٢٠ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آتَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۚ ۝١٢١ ﴾ [الشعراء]

إذن: فالحق سبحانه يريد قلوباً تخضع ، لا أعناقاً تخضع .

(١) الوسط : مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به الفرد وغيره ، بلغة . قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ۚ ۝١١٧ ﴾ [البقرة] . أى . أمة لاعلة غيرة ، خير الأمم ، فالوسط خير الطرفين ، ويؤيد قوله تعالى ﴿ وَكُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ۚ ۝١١٥ ﴾ [آل عمران] .
(٢) يخضع نفسه بخصاً وبخوعاً . لتلها هماً ولحظاً وحرناً . قال تعالى ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۚ ۝١٢١ ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٨٩

وهكذا قُوضَتْ أمة محمد ﷺ تفويضين - قُوضَتْ في نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال ، وكل جبل ينقلها إلى الجيل الذي يليه .

وما هو ﷺ يقول : «نَصَرَ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها ، فربُّ مُبْلَغٍ أوعى من سامع»^(١) .

وَقُوضَتْ أمة محمد ﷺ في أن تعف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض للدين ولكن لتحمي حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفِعَ سيفٌ في الإسلام ليفرض ديناً ؛ بل رفع السيف ليحمي حرية اختيار الإنسان للدين .

يقول سبحانه .

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (٢٩) [الكهف]

فلذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعب للدخول في الإسلام ، فمن أين يأتي ادعاء فرض الدين على المحالفين ؟

إذن : فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين : الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، وإيمان الثاني أن يبلغ الدعوة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل»^(٢) .

فهل المصنوع بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط ؛ لا ، بل يقصد كن من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة ، وبساح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في مسنده (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في مسنده (٢٣٢) وأحمد في (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود

(٢) أورده السيوطي في الدرر المسترشرة (٢٩٢) وقال : لا أصل له . قال شوكان في العوائد المجموعة (ص ٢٨٦) : قال ابن حجر والزيكري : لا أصل له . وانظر كشف الغطاء للمجلوبي (٢/٨٣) .
ويؤخذ من الحديث أن تقرر من العلماء الصق والأمانة في البلاغ والذكاء في العرض .

بالدعوة في الأرض ليعلم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً في اختيار الدين.

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ لأية قوة تحارب حرية اختيار الدين.

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبت فؤاده ﷺ

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى ﷺ وهو في مكة ، فصرخ بالدعوة ، لا في آذان القبائل الواهية في أطراف الجزيرة ، ولكن في آذان سادة الجزيرة ، حتى لا يقل: إنه متضعف فربما فناداهم إلى الإيمان به ، ولم يجروا على السادة ، وهم قريش ، التي أخذت السيادة بحكم إقامتها في مكان البيت العتيق ، وكان كل العرب يحجون إلى البيت الحرام ، فإذا ما تعرضت قسلة لقريش بسوء ، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحجون إلى البيت الحرام .

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت .

إذن: فالبيت هو الذي صنع السيادة لقريش ، وهو الذي صنع السيادة للآلهة المدعومة من الأصنام حين يأتي كل قوم بإلههم من الحجر ؛ ليضعوه في البيت ؛ ليكتسب أحجر قداسة من قداسة البيت .

إذن: فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام ، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة ، وسعته^(١) أحلامهم ، ولم يبال بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة .

(١) سميت الرجل أي: رميعة بالسعة ، وسبت إلى الطيش والجهل ، وسفه نفسه - حملها على الجهل والطيش فكانه جعل نفسه سفيهاً ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْهَبْ مِنْ عِلَّةٍ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسٍ﴾ [البقرة] وسفه أحلامهم اتهمهم بالسفه والجهل . والأحلام - هنا - هي العقول [القاموس القرطبي] ١/ ٣١٧

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش في مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ، لأن الله سبحانه أراد أن يُعلم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد .

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين بصروا الدعوة ؛ فكان الإيمان بمحمد ﷺ هو الذي خلق العصبية لمحمد للحق الممثل في رسالة محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به ويرسالته .

وإذا كان الحق سبحانه قد نعمتهم بالظالمين ، وبين لهم أن المكان الذي قُلبَ حاله أسفله ، ليس بعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟

والظلم كما نعلم - هو مجاورة الحق للغير ، أي . أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذي حق ، فإذا كان ظلماً في الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً في إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء في الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم .

والله سبحانه يريد أن يذكر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجيء ، أو أمر الله حين يأتي ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يحميه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عرضة أن ينزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى ؛ وهي غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبعدو مسافة طوية إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمشون عليها في كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام^(١)

(١) وفي هذا يقول سبحانه . ﴿ وَإِنْ لَوْ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ ﴾ (١٢٢) إِذْ نَجَّاهُ وَأَمْلَأَهُ نَجْمِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ حَبَّبَ إِثْبَاتُ الْغَابِرِينَ ﴿١٢٤﴾ لَمْ يَدْرُوا الْآخِرِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنَّكُمْ لَمُتْرُونَ مِنْهُمْ مُبْتَلِينَ ﴿١٢٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا عَمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ [الصافات] .

إذن: فهي قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها:

﴿ وَإِنَّهَا لَنَبِّيلٌ مُّقِيمٌ ۖ ﴾ (٧٦) [الحجر]

أى بطريق تمرّون عليها ، لا يجرّنها سيل ، ولا يغير معالمها ريح .
بل هى طريق ثابتة مقيمة تمرّون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام ، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لقطعة وعبرة ؛ حتى لا تقعوا فى ظلم آخر .

وقد نهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ رِيعٍ ^(١) آتٍ تَعْتَبُونَ ۖ (٧٨) وَتَتَخَذُونَ مِصَانِعَ ^(٢) لَعَلَّكُمْ تَحْذَرُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ ^(٣) جِبَارِينَ (١٢٠) ﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية ، وكان من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم ، وأن تتبهموا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى .

(١) الرّيع - بكسر الراء - : الجبل ، أو ما يشبهه من لسانى بارتفاع أو مكان المرتفع قال تعالى : ﴿ أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ رِيعٍ آتٍ تَعْتَبُونَ ﴾ [الشعراء] . [القاموس القويم] .

(٢) وَتَتَخَذُونَ مِصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَحْذَرُونَ (٧٨) [الشعراء] أى ، أبنية حالية وتصوراً محيية تحسبون منها راجين أن تحذروا فيها ، ويسمى بخالد بن [القاموس القويم] .

(٣) بَطِشَ بِهِ بَطِشًا - أحده يبطش وشدّة قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطِشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج] . والجبر القهر وجبره قهره وأكرهه على أمر والجبار : صيغة مبالغة . والجبار من الناس : العلى بالشدة للسلط . وقال تعالى : ﴿ قَاتُوا يَا فُوسَى إِنَّ فِيهَا قُوتًا لِلْجَارِينَ . ﴾ [المائدة] وقال تعالى : ﴿ وَحَبَّ كُلُّ جِبَارٍ عِبَادَةً ﴾ [إبراهيم] . [القاموس القويم (١/٧٦) تصرف]

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام .

وقد أخذت قريش مهبتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيرٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحول الحجيج إلى صعاء ، لسفطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول .

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى اسورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش :

(١) كيدهم سعيهم لتخريب الكعبة . تضليل . تضليل وإبطال وخسار . طيراً أبابيل : جماعات متفرقة متتابعة . سجيل : طين متحجر محرق (أجر) كعصف مأكول : كثر أكلت الدواب فرائك [كلمات القرآن - للشيوخ حنين مغاوي] .

﴿لَا يَلَابُفُ ۚ قَرِيشٍ ۚ﴾ (١) إِيْلَاهِهِمْ رَحْلَةُ اشْتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴿ [قريش]

إذن : كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة ، وأنهم وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهي سر معاشهم - رد لم يأخذوا من هؤلاء العبرة منهم يقتشفون ضلماً جديداً آخر .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢) ﴾ [هود]

أو : أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينه قريشاً إلى أن الهلاك الذي نزل بهؤلاء القوم المشركين ، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً ، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوماً يصيبه في مكانه الذي يكون فيه .

والسطحون - في اللغة - يحطشون فيأخذون على القرآن مأخذ ، لا تلغى إليها ملكة لصحبة في اللغة ، ويقولون : كيف يقول الله :

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢) ﴾ [هود]

وكلمة «ما هي» مؤنثة ، وتقتضى أن يقول : «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد» ، أي : أن يكون القول : «وما هي من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى ، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة ؛ لأن «فعليل» إن جاءت بمعنى «مفعول» ، فهذا يستوى المذكر والمؤنث

(١) لا يلاب قريش اعجبوا لإيلاهم الرحلين وتركهم هذا رب البيت [كلمات القرآن].

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ^(١) ﴾ [التحریم]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ فَرُبَّ ^(٢) مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ^(٣) ﴾ [الأهراب]

إذن فعدم درايتهم باللغة هو الذى جعلهم يحفظون مثل هذا الخطأ .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التى جاء بها الله فى هذه السورة لوكب الرسل ، فبأى بقصة شعيب عليه السلام ، ويقول سبحانه .

﴿ وَإِذْ مَتَّيْنَا لَهُمْ أَنْهَافَهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَلَا تَقْسُوا الِّكْيَالَ ^(٤) وَالْيَمْرَانَ ^(٥) إِنْ أُوتِيتُمْ بِخَيْرٍ ^(٦) وَإِنْ أَصَابَ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُجْزَى ^(٧) ﴾

(١) الظهير، المعين المساعد كأنه يسد ظهر من يعاونه قال تعالى ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ^(١) ﴾ [سبا] وقال تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَتْ بِهِمْ مُّظَاهِرٌ ^(٢) لَّهُمْ ^(٣) ﴾ [الإسراء] أى معيلاً مساعداً وقال تعالى ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَءِيسٍ ^(٤) ظَهِيرٍ ^(٥) ﴾ [الفرقان] أى : معاوذاً عمداً لله ضد الله وحده كتبته وحسبته - وتعالى الله عما يشعون [القاسوس القويم ١/٤١٨]

(٢) قرب الشيء من الشيء ، يقرب قريباً فبما منه فهو قريب قرب مسافة ، يستوى به الذكر والمؤنث ، قال تعالى ﴿ إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ فَرُبَّ ^(٢) مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ^(٣) ﴾ [الأهراب] أى : مكنها قريب منهم ، وأما قوله السب فمطهر الموصوف لتقول هو قريب لى وهو قريب لى فى السب والرحم [القاسوس القويم ٢/٦٠٨]

(٣) قال القرطبي فى تفسيره ١/٤١٨ - ٢/٣٤ : فى نسبتهم بذلك قولان أحدهما أنهم مومنين بن إبراهيم ، قنبر ، مطير ، والمراد بنو مطير ، كما يقال مطير ومطير بن مطير الثانى أن اسم مدينتهم فنسبوا إليها ، فأن النحasin : لا يتصرف مدين لأنه اسم مدينة

(٤) كال القمح يكبه كلاً فله يكبال ، وهو وعاء له سعة معلومة اتفق الثامن على الظدير به . قال تعالى ﴿ وَأَرْقُوا الْكِبَالَ ^(٤) إِذَا كُنْتُمْ ^(٥) ﴾ [الإسراء] والكنين مصدر وكال ، ويطون على الكيال والكيال يستخدم لكنين الحيزب وإذا فعل الكيال نفس ما يكال به . فإله سبحانه وسألى بهى عن أن يتقصى الثامن شيئاً مما يبيعه لك من ، أو ما يكبه لهم [القاسوس القويم ٢/١٨١] يتصرف وجمع مكبال مكبيل وجمع كل أكبال والكيالة وعاء يكال به الحبوب ومقداره الآن ثمانية أقداح ، والجمع كبلات [المصمم الوسيط] .

(٥) يوم محيط نهك . [كلمات القرآن] .

ومدين ، هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثه شعيب ، لكن القبيلة التي تناسلت منه سميت باسمه ، وكذلك القرية التي أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ، لأن القرية لا بد لها من سكان .

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٧)﴾ [يوسف]

والمقصود «أسأل أهل القرية»^(١) .

إذن : مرة يطلق الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين . وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى فحة التدين ، وهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك في كل الرسالات .

والحق سبحانه يقول :

﴿شَرَعَ^(٢) لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُ اللَّهِ يَجْتَبِئُ^(٣) إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ^(٤) (١٢)﴾ [الشورى]

إذن : فحمة الدين هي قضية العقيدة الإيمانية ، وهي عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية «افعل»

(١) الآية فيها مجاز بالحذف ، وهو أحد مود البلاغة .

(٢) شرع الشيء : بين وأوصاه . والشرعة والشرعة : ما شرعه الله ويؤتاه من الطاعات والأحكام [القاموس القويم] .

(٣) الاجتهاد : الاختيار والاستغلاء والاعطاء . [القاموس القويم ١/ ١١٧]

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٩٧

و «لا تفعل» فإلله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذي لا يؤمن به ، فإلله سبحانه لا يوجه إليه أى حكم .

ولذلك نجد حيثية كل حكم تكليفي في القرآن مُصَدِّراً بقوله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الذِّهْنُ آمَنُوا .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

سواء أكان الأمر صيماً^(١) ، أم قصاصاً^(٢) ، فمضى كل تكليف يُصَدِّرُ بهذا القول ، لا بد أن يأتي المعنى : يا من آمنتم بى إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع مني التكليف .

ولذلك أقول دائماً :

إن علة كل تكليف هي لإيمان بالمتكلف ، ولا دأى لبحث عن علة أخرى فمثلاً حين يُقَالُ : إن علة الوضوء النظافة ، نقول : وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم لمسح وجوهنا في التيمم^(٣) .
إذن : فالقصد هو أن نتهيا للصلاة بأى شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للخالق سبحانه وتعالى

ولذلك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره ؛ لأن مبرره هو صلوه عن الله سبحانه وتعالى .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الذِّهْنُ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة] .

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الذِّهْنُ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُتِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ وَاحِدٌ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وَرَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ يُدْهِمُ ذَلِكَ اللَّهُ غَلِيظُ الْعِقَابِ (١٧٨) وَكُتِبَ فِي الْقِتَالِ حَيْثُ لَا أُرَى الْأَنْهَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة]

(٣) التيمم لغة : القصد ، وشرحاً : هو طهارة تربية تقوم مقام المياة عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، ويصح إلى تسعة أشخاص : فاقد الماء الكافي ، وفاقد القدرة على استعماله ، والخائف حدوث مرض أو وادته ، وتأخر بوءه ، وعطش محترم ، والخائف مع تلف حال ذي بال ، الشرح الصغير للندوي ج ١ يقول سبحانه : ﴿ .. وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا مِنْهُ طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (٤٣) ﴾ [النساء]

وكذلك كل شيء بقوله رسول الله ﷺ فمن تبعه ، ولا نبحث عن حلة له ، ولا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت بروايتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قلعة الخمر على إهلاك الخمر وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فمن لو ك قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبق المسلمون هذه الأحكام فور نزلها ؛ لإيمانهم بالمهيج وحبهم في اقرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى في تكليفه وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنِّي مَدَّيْنُ لَهَا فَمَنْ شَاءَ فَلْيُشْرِكْ بِهَا وَبِمَا كَفَرْنَا مِنْهُ إِنَّا كَافِرُونَ ﴾ (٨٤) [هود]

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة في الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هي الأركان الأساسية^(١) التي يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عبارة الأرض بتفريد كل التكليف^(٢) ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإن قال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلقت صبعة من صنائع فعلى ولي الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصبغة عبادة

(١) من ابن حجر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «بني الإسلام على خمس شهادته أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، وكذا مسلم (١١) .

(٢) التكليف محصور في الأمر والنهي والأمر تأخذ منه القرصن والواجب والسنة والمستحب ، سواء كان تعديداً أو اجتماعياً ، والنهي مأخذ من الحرام والمكروه ، وعلى اتبع الأمر واجتناب النهي يكون المجتمع الصالح يذيل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٧) [الحشر] وقوله تعالى : ﴿ إِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ﴾ (٣٥) [صافات]

وقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. ﴾ (٨٤) [مرد]

أى : إياك أن تأخذ حكماً تكليفاً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى ،
لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وإياك أن تستدرك^(١) من الشر حكماً على الله سبحانه وتعالى ، وتظلم
نفسك وتقول : لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم ، ولنا نبي لأنفسنا
بحكم جديد^(٢) .

إياك أن تستدرك حكماً على الله . انهم الحكم أولاً ، فإن جاء حكماً
محكماً فحله ، وإن كان غير محكم بأن جاء محملاً ، أو غير مبين ،
فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل

ولذلك لمجد رسول الله ﷺ يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال
« كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضى بـ في كتاب الله . قال
فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم
يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب
رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ
لما يرضى رسول الله ﷺ ،^(٣)

ويعد أن دعا شعيب - عليه السلام - آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده ، وهذا هو
الأمر المشترك بين جميع الرسل - عليهم السلام - تأتي الأحكام الأخرى .

(١) استدرك ما فات ، واستدرك الشيء بالشيء . تداركة به . واستدرك عليه القول : أصلح خطاه ،
أو أكمن نقصه ، أو أزال عنه لثماً . [المعجم الوسيط] .

(٢) يقول الحق : ﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٢٤) [آل عمران]

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٣٠ ، ١٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود في مسنده (٣٥٩٢) كتاب الأنبياء من
حديث معاذ بن جبل

فمن يعمل فاحشة له علاج ، ومن ينقص في الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر .

لأن العالم القديم كان عالم انعزال ، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وآفة في مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة في مكان آخر . وكل رسول يأتي ليعالج عيباً محدداً في المكان الذي أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً ﷺ جاء - وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين - جاء ﷺ والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيماني ، فلما تفارقت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث في عصرنا الآن بفارة أمريكا مجده عندنا في نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد ﷺ هو خاتم لرسول .

وكانت نخبة آل مدبن هي عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيصة التعصب^(١) في الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَلَا تَنفَسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاهُمْ بَعْثِيرٌ ۝٨١﴾ (هود)

وحين قرأ العلماء هذا انقول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون^(٢) ، لأنه لو شاء لقال : «ولا تنقصوا المكيل أو الموزون» هذا

(١) طقف الكيل . طول أهلاء وجعل له حنفاً فهو ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه ، فيمنع الحنك الزائد من الناقط ثم يسرع بوضعه في إناءه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من بيعه في السلمة . قال تعالى ﴿ وَفِي الْمِظَانِ ﴾ (١) الذين إذا أنفكوا على الناس يفسد قوتهم (٢) وإذا قالوا لهم أرؤسهم يفسد قوتهم (٣) ﴿ (الطغافير) فهم يطمشون في الحائيل لأنهم يأخذون أكثر من حقهم ويسلمون غيرهم حق ناقصاً [القاموس القروم ١/ ٤٠٣]

(٢) المكيل اسم مفعول من (كال) ، وهو كل شيء يكال بالمكيال سواء أكان قمحاً أو غيره . واسم القاعل : «كائل» . والموزون . اسم مفعول من (وزن) وهو كل شيء يوزن بالميزان . واسم القاعل : «وازن»

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذي حق حقه ، أن يأخذ المشتري حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه في الربح .

إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشتري معاً^(١) .

والكيل - كما نعرف - هو تعديل شيء بشيء ، فإِنْ كَانَ فِي الْخُصَّةِ وَالثَقْلِ ، فَالْأَمْرُ يَحْتَاجُ إِلَى مِيزَانٍ ، وَإِنْ كَانَ تَعْدِيلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ فِي الْكَمِّ ، فَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى الْكَيْلِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْمَشْهُورُ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، وَأَيُّ تَعْدِيلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَى مَا يَنْاسِبُهُ ، فَالْقِمَاشُ مَثَلًا - يَتِمُّ تَعْدِيلُهُ بِالْمَتَرِ ، وَالْأَرْضُ يَتِمُّ تَعْدِيلُهَا بِالسَّاحَةِ ؛ أَيْ : قِيَاسُ لَطُولٍ وَالْعَرْضِ ، وَبَعْضُ الْأَشْيَاءِ تُبَاعُ بِالْحِجْمِ ، وَهَذَا يَعْنِي قِيَاسَ الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالْإِرْتِفَاعِ وَاسْتِخْرَاجِ النَّاتِجِ بِعَمَلِيَّةِ ضَرْبِ كُلِّ مِنْهُمْ فِي الْآخَرِ .

إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل ليسجر عملاً ، فأنت تعدل بمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذي حق حقه .

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمر أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ، كزهد من أكلت حقوقهم في العمل .

وأنت حين تعطى للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يظيء في العمل ، ولا ينتجر المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .

ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذي حق حقه يزيد من جودة الأداء في العمل .

(١) كما فهم من مراد الشيخ أن إعطاء الحقوق هو التوازن ليرتفع الحجة

وعليه أن يترك صاحب الطمّوح لعمله بدلاً من أن يخزن ماله أو يكثره ؛ لأن صاحب الطمّوح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد المقراء وينفعهم - حتى وإن كان لا يذكر في ذلك - فالذي ينشئ عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجي المواد اللازمة للبناء - دون أن يقصد - ويستفيد العامل الفقير - دون أن يقصد صاحب العمل - وربما تنتفع كل العمراء بما يصنعه صاحب لعمله ، قبله فيما يفعل .

إذن: فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يعف عرقه؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يعف عرقه»^(١)

وهكذا نعلم أن الدين في ظاهر الأمر يحص على الإيثار ، وهي واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذي يؤثر غيره على نفسه ولو كان به خصاصة ^(٢) - لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد أثر لآخر على نفسه في ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى ^(٣) .

(۱) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٢٤٢٣) من حديث أبي حمزة قال أبو بصير في روايته إسناد ضعيف، فيه ضميمان . وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبراني في معجمه الصغير (١ / ٢٠) من حديث جابر ، وأبو نعيم في الحلية (٧ / ١٤٦) من حديث أبي هريرة . فهو مجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبه حسن ، وله أصل في صحيح البخاري من أبي هريرة - كتاب البيع

(٢) انظر : اختاره وفضله قال تعالى ﴿فَالْتَمِذْ لَّهُ بُرْهَانًا خَلْقًا﴾ [يوسف] وقال تعالى ﴿وَلِلَّهِ تَسْلِيمٌ﴾ [الأنعام] وقال تعالى ﴿وَقَالَ تَعَالَى﴾ [طه] ولعلهم

ولو كان بهم خصاصة ﴿٩﴾ [الحشر] أي ' يعصلون غيرهم على أنفسهم كرماء ومروءة وتعمرى .
[المؤمنين القويم ٧ / ١] .

(٢) الخصاصة، المقر وسوء الحال والحاجة وأصل ذلك من العرجة أو الحلة لأن الشيء إذا تمرج وهى واختل [لسان العرب: مادة خصص]

(٤) يقول رب العزة سبحانه في مثل الذين يقولون انا اهل البيت في سبيل الله كمثل حبة انبثت سبع مداين في كل سنة فاما حبة الله فيضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (١٦٥) [البقرة]

وهكذا يعلمنا الدين لشعية الراقية ، وهى الشعية التى يعاملنا بها الله سبحانه ؛ وحين نترك قانون انشعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع فى المجتمع .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خراطرنا عنها عرفنا أن شعبياً قال لأهل مدين :

﴿ وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ .. ﴾ (٨٤) [هود]

أى : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عدء سلع ، ومن يشتري إنما يملك نقوداً ، فاكشفوا بالخير الذى عندكم ، ولأخذ كل ذى حق حقه ، وهذه قضية يعفل عنها كثير من الناس ؛ فالذى يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش فى الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره فى الأصناف الأخرى التى تلزمه لحبائه .

وإن اشتعل واحد فى إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيمعلون مثل ذلك فى كل ما يخصر حياته ؛ لأن الخادع الواحد ، سيلقى محاذعين كثيرين ، وهنا يقول شعب ٨٥ : ما الذى يضطركم إلى ذلك وأنتم بحير ؟ ثم يقول محذراً :

﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ ۚ يَوْمٌ مُّحِيطٌ ﴾ (٨٥) [هود]

لأنك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشتري ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك .

وكذا يعلم أن الخفلة قد تطراً على البائع ، وقد تطراً على المشتري ، وقد يعاوان بائع أن يستعمل عملة المشتري فزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٣٤٠٥/٤) : اختلف فى ذلك العذاب فقيل هو عذاب النار فى الآخرة

وقيل عذاب الاستئصال فى الدنيا وقيل فلاه للمعمر .

يحاول المشتري أن يستغل خفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة في البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأي شيء مهما كثر ، فهو موقوت بعمر الإنسان في الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذي يمش ويخدع إنما يعرض نفسه لعذاب الله سبحانه في الآخرة^(١) ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلم الإنسان نفسه لفائدة قليلة في الدنيا الزائلة ، ثم يلقى عذاباً لا ينتهى في آخرة غير زائلة .

والعذاب في الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعضب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت في الدنيا بإمكانك أن تحتال في النجاة من العذاب ، وقد نجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكم في الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة^(٢) ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

بقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

وَيَقَوْمِ أَوفُوا الْعَهْدَ كَيْلَ وَالْعِزَاتِ بِالْقِسْطِ

وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ^(٣)

(١) وهناك عذاب آخر في الدنيا جاءت به أحاديث رسول الله ﷺ ، فقد أورد القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) عن رسول الله ﷺ : لما أظهر قوم البخس في الكيال والبران إلا ابتلاهم الله بالقسط والعلاء .

(٢) الخلة العساقه الخالصة المتينة التي تغلبت القلب ، وجمعها خلال [الناموس القويم] وقال تعالى : ﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ لَهُ وَلَا خُلَّةَ ﴾ [إبراهيم]

(٣) بالقسط بالعادل ، بلا زيادة ولا نقصان لا تبخسوا ، لا تنقصوا

لا تعترا لا تنقصوا أشد الإفساد [كلمات القرآن] والعتر في الأرض هو لئلاف والإضلال .

وفى الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ (٨٤) [هود]

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص في الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنها أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشتري .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ أَوْ رَزَقُوهُمْ يَغْفِرُونَ (٣)﴾ [المطففين]

ذلك لأن البائع قد يقول لك : أنت مأمون من أن أنت لنفسك أو كل أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حَقِّكَ ؛ وقد يفعل البائع عكس ذلك ، وعلى مثل هذا يؤس للأتنين .

وهنا يقول شعيب عليه السلام :

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (٨٥) [هود]

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (٨٥) [هود]

(١) ويل : مذاب أو هلاك أو وادي جهنم للمطففين الذين في الكيل أو الوزن اتالوا ، اشترى بالكيل ، ومثله الوزن . يستوفون ، يأخذون حقهم كاملاً كالوهم ، أعطوا غيرهم الوزن . ويرزقهم - أعطوا غيرهم الوزن يبخسون يقصون الكيل والوزن [كلمات القرآن] بتصرف

وهذا كلام عام لا ينحصر في مكمل أو موزون ، فقد يأتي مشتركيه من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يحفظ ما ليس حقاً له ، أو يختصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعنى : أخذ غير حق بوسائل متعددة .

وتحسّن يعلم أن الخطف إنما يعنى أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجرى ، أما الخصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقدمه صاحب شيء ، لكن المعتبر يأخذ الشيء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شيء فاختلسه ، والمرثى هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هي حق لمن يطلبها .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

تضم أشياء متعددة .

والبخس هو أن تصر غيرك صرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزن ، أو كغم ، أو كيف .

وكلمة «أشياء» مفردتها : «شيء» ، ويقولون عن الشيء : الجنس الأجناس فالثمرة يقال لها : «شيء» ، وكل الثمر يقال له : «شيء» .

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا نفرنا أي شيء مهما كان قليلاً

ونحن ندحض هنا أن كلمة «الناس» جمع ، وكلمة «أشياءهم» جمع أيضاً ، وإذا قبل جمع بجمع اقتضت القسمة أحاداً . أي لا تبخس الفرد شيئاً ، وإن قل .

ويجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطية^(١) من خان^(٢) ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلب ركب المطية وقع منه لسوط الذي يحركها به ، فأوقف لدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها . فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؟ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصل بها إلى مكان في اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقى مع صاحبها أن أبحث بها عن السوط .

ويجد عارفاً آخر جالس يكتب كتاباً ، وكان الناس في ذلك الزمان يجمعون الحبر الرائد بوضع قبيل من الرمال فوق لصححات المكتوبة ، ولم يجد العرف بالله ما يجفف به المکتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار . ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقومه^(٣) فقال صاحب الجدار : والله لورعك^(٤) لا أقوم ، أى : أنه قد تسامح في هذا الأمر .

ويُنهى الحن سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٨٥)

[هود]

(١) [المطية من الدواب : ما يمتطى أى : يُركب] [تذكر وتوث] [تأجير مطية ، والتأجير مطية . والجمع مطايا ، ومطى] . [المعجم الوسيط]

(٢) [الخان : الشجر ، أو الخانات ، ولد تطلق على الفسق ، أو الأمير ، أو غيره . وهي كلمة عربية] [المعجم الوسيط]

(٣) [القوم هنا معناه : تقدير ثمنه ليُسريه منه والقيمة : ثمن الشيء بالتقويم . ويقال : قم قامت فانك ؟ أى : كم بلغت ؟] [انظر لسان العرب - مادة قوم]

(٤) [الورع : اتقاء الشهوات ، ولا يتم الورع ، لا يحفظ اللسان واجتناب سوء الظن واجتناب السخرة وخفض البصر عن المحارم وصدق اللسان والاعتراف بحسب الله وإنما في المال في الحق ، وترك الكثير واجتناب على التكاليب والاستقامة ، الفية للجبلاني ص ١٣٤ يتصرف .

وكلمة عشا^(١)، يَعيش ، ويعشو ، وعشى . يعيش ؛ كلها تمنى . زاول فساداً ، أى . أن يعمد الإنسان إلى الصالح في ذاته فيفسده ، مثل طمر بئر ماء ، أو خفر طريق يسير فيه لناس ، وهو كل أمر يجرح الصالح - في ذاته - عن صلاحه .

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاوله الفساد ، ولو طبق كل واحد ذلك لصار للمجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيره غير معسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(٢)﴾

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ^(٣) ﴿٨٦﴾

أى : ما يفتى لكم من لأمر الحلال خير لكم ؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطئ ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام ؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه .

وأنت تسمع من يقول : «فلان هذا إنما يحيا في بركة» ، أى : أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويرى أولاده يمسرون ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنياً من غير حلال ، لكنه يحيا في ضنك^(٤) العيش .

(١) عشا يعشو ويعشى ، وعشى يعشى ، عشواً وعشياً أسد أشد الإفساد قال تعالى : ﴿ . ولا تقربوا في الأرض فاسقين ﴾ [هود] ومنسبين حال مؤكدة لعش عشوا . [القاموس القويم ٧ / ٢]
(٢) القبة ما بقى من الشيء أو ما استحق أن يبقى لما فيه من النعم والخير للناس . وتطلق القبة على الشيء الباقى قال تعالى ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ . . ﴾ [هود] أى : ما أيقده الله وأوعده لكم من الثواب خير . [القاموس القويم ١ / ٧٩] .

(٣) حفيظ . رقيب عليكم ويملاؤكم بأعمالكم [كلمات القرآن] بصيرف .

(٤) ضنك الشيء - ضائق والضنك : الضيق من كل شيء وهو مصدر بوصف به ؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والفرد وغيره . قال تعالى : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً . . ﴾ [طه] أى ضيقة غير متسعة . [القاموس القويم ١ / ٢٩٥] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿١٠٠﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿١١٠﴾

وقد تجد هنا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصد
مجموعه ، لأن الله سبحانه قد جرّأ عليه مصارف سوء متعددة .

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن
يخدع ربه أبداً^(١) .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِقِيَّتِ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴾ (٨٦) [مرد]

أى : أن الله تعالى يُذهب - عن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء .
وسبق أن قلنا قديماً . فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛
لأن الناس فى غالبينها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال
الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على
صاحب المال الكثير الذى جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يرمى
حقوق الناس تلك المصارف من السوء^(٢) .

ومن يُربون أولادهم من سُحَّت^(٣) أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن
هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً . فبعد - على سبيل المثال - ابن المرتشي
يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المتضبط والملتزم بتحصيل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَهَادُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَضُرُّهُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَ ﴾ (١)
[البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّا الْعَاقِلِينَ يَهَادُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَالِدُهُمْ .. ﴾ (١١٧) [النساء] ، ويقول من
وجل ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُضَرِّفُوا فَاذْكُرْكُنَّ يَوْمَ إِذْ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ ﴾ (١٢٧) [الأنعام] .

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً يَوْمَ اتَّخَذْتُمُ الْيَوْمَ الْقِيَامَةَ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قال رب لم
حشرني أعمى وقد كنت بصيراً (١٢٥) قال كذلك نفخنا آياتك فنبهها وكذلك اليوم تكسى (١٢٦) [طه]

(٣) السحت : نال الذى يكسب من وجه حرام كالرشوة وما أخذ بالعيش والجداع . قال تعالى : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
بِالْكَذِبِ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا . ﴾ (١٢٦) [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ وَرَبِّى كَثِيرٌ مِّنْهُمْ يَصْغُرُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ
وَأَكْثُهُمْ السُّعْيَةُ .. ﴾ (١٢٧) [المائدة] . [القاسم من القويم] يصرف .

الكسب الحلال مقبل على العدم وباجح أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيه أى شيء ، بل تطمع فى المزيد دائماً ، بينما يعطى الله سبحانه من يرضى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . (٨٦) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رفيق ، وأنه سبحانه نبيوم ، فلا تأخذ حقاً غير حقك ، لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رفيق عليك .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٧) ﴾ [هود]

أى : إن شعيباً عليه السلام قد أوضح لأهل مدين : أما لن أقف على رأس كل مقصد لأمنعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ يَقِيْتُ ' ' ' اللَّهُ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن ما يقى إنما تشيع فيه ابركة .

وهذه هى فائدة الإيمان : ما يأمر به وما ينهى عنه .

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى ؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يحفى من أمور الناس فكانها تحميمهم من الوقوع تحت طائلته .. أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعينة ، والخافية .

(١) جاءت آية فى (يقيت) فى رسم القرآن مفتوحة الناء . قال الزركشى فى «البرهان» ١/ ٤١٣ «مدت نأؤه ، لأنه يحى ما يقى فى أموالهم من الربح المعسوس ، لأن الخطاب إنما هو فيها من جهة الملك» .

أي: أيا مارك إلهك ودينك أن تترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولنقاتل أن يقول: وماذا قالوا: «أصلاتك» ؟

نقول: لأن الإسلام بُني على خمس^(١)، أولها شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ويتكفي أن يقولها لإنسان مرة واحدة في حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يرتكئ به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة في حياته ، ولا يبقى في أركان الدين ، لا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها: «عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين»^(٢) ؛ لأنها الركن الوحيد الذي يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً في الولاء لله.

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أي إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛^(٣) قل له أن يصلي بزموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك زموش عينيه فليجتر الصلاة على قلبه ، حتى في حالة الحرمة والسبيفة^(٤)

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ومسلم بن صحيحه (١٦)

(٢) قال الحافظ العراقي في تخرجه للإحياء (١٤٧/١) : «رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عمر» . وقال الملا علي القاري في «الأسرار المرفوعة» (حديث ٥٧٨) ، «قال ابن الصلاح في «مشكل الوسيط» إنه غير معروف . وقال النووي في التوضيح إنه مكروه باطل . لكن رواه الديلمي عن علي كما ذكره السيوطي في التكرار المنتشرة (ج ٢٧٩)

(٣) من حصل له عذر من مرض ونحوه لا يستطيع معه القيام في القنوس يجوز له أن يجلس قائماً ، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه يرمي بالركوع والسجود . راجع فقه السنة (١/ ٢٣١).

(٤) إذا اشتد الحرق والتعنت الصفوف صلى كل واحد حسب استطاعته واحلاً أو راكعاً مستقبلاً القبلة أو غير مستقبلها يرمي بالركوع والسجود كيفما أمكن ، ويجعل السجود أخفض من الركوع ويسقط عنه من الأركان ما عجز عنه [فقه السنة - ١/ ٢٦٠]

قال الإنسان المسلم يصلي صلاة الحرف^(١).

إذن: فالصلاة هي الركن الذي لا ينفك أبداً ، ويُكرّر في اليوم خمس مرات ، وقد أعطاه الحق سبحانه في التشريع ما ياسبها من الأهمية .

وكل تكيفات الإسلام جاءت بروحي من الله سبحانه وتعالى ، فجبرين عليه السلام يحمل الوحي إلى الرسول ﷺ ، ويلفها الرسول ﷺ إياه ، ولم يزل الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلف به النبي ﷺ في أثناء وجوده في الملا الأعلى ، عند سفرة المنتهى ^(١) ، وذلك لمرط أهميتها.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الرئيس في أى موقع من مواقع العمل ؛ وهو يستقبل البريد اليومى المتعلق بالعمل ، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو يقترح بخصومه اقتراحاً ، وإذا وجد الرئيس أمراً مهماً قديماً من أعلى المستويات ؛ فهو يستدعى الموظف المختص ؛ ويرتب معه الإجراءات والنسيات الواجب اتخاذها ؛ وإذا كان هذا يحدث في الأمور البشرية ، فما بالنا باتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول ؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة - لأهميته - هو التكليف الوحيد الذي بال تلك الميزة ؛ لأنها الركن الذي يتكرر خمس مرات في اليوم الواحد ؛ ولا مناص^(٣) منه .

[illegible]

(٢) فرضت الصلاة مباشرة لبلدة الإسراء والمعراج لشرفها ، ولأنها جماع العبادات ، فهيها الشهادة والفرقة والصوم والجمع ، لذلك لم يسقط عن التكليف من مجموع شرائع الشيخ

(٣) لامناض لا يبدل لامه ب وناض، به من قرأها بوا وناض من المكروه مجامع وخلص
قل تعالى ﴿ولان حين ضاع﴾ [ص] أى ليس الخبيث حين فرار ومروء من العذاب للميط
بهم، أو ليس الخبيث حين مجاة وخلص من العذاب [القاموس المأثور] بضم

قانت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها في كل صلاة .

وفي الزكاة تضحى بمحض المال ؛ وأنت لم تولد ومالك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت هي بطن أمك ؛ ولا بد أن تركي من مالك ؛ والعمال لا يأتي إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت في الصلاة تضحى بلوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة .

وفي الصيام أنت تمتنع عن شهوتي البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة حياة ؛ أما في الصلاة قانت تصوم عن شهوتي الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك في الصيام

وفي الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت في كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام في الصلاة .

وأهل مدين هنا - في الآية الكريمة التي نحن بصدد حواظرنا عنها - قد هزموا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فسد كفار قريش مع رسول الله ﷺ

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام :

﴿ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ ۖ ۝٨٧ ﴾

[هود]

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتحكمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم - كفار قريش - يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْمَغْشَاءِ ^(١) وَالْمُنْكَرِ ^(٢) ۝ (٤٥) ﴾ [التكوير]

إذن: فللصلاة ^(١) أمر ، وللصلاة نهى ، وما دام قد ثبت لشيء حكم ؛ ثبت له مقابله ، وأنت تسمع من يقول لآخر: أنت تصلى لذلك فإن أتق في أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله: كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة ؟ ^(٣)

وكثير من الناس يعفلون عن أن التقابل في الجهات إنما يحل مشاكل متعددة ؛ ليأخذون جهة ويتركون الأخرى .

ولذلك أقول: ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير ^(٤) .

ومثل آخر: نجد في قول الحق سبحانه عن عرق قوم فرعون:

﴿ فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ۝ (٦٩) ﴾ [الدخان]

(١) المغشاء - المغش هو العمل القبيح المنكر قال تعالى ﴿ الشَّيْطَانُ يَمْشِي فِي الْبُحُورِ يَأْمُرُكُمْ بِالْمَغْشَاءِ . (٦٩) ﴾ [البقرة] أي: يأمركم بالبحل أو فعل القبيح - غشاة - ومنه يبحل والمغشاة الغشاة القبيحة والفواحش الأمور القبيحة . وقد فحش وفحش فحشاً فهو فاحش ، أي جاور الحد ، وفحش القبيح . [القاموس القويم ٧ / ٧٣] .

(٢) لأن الصلاة فعلت استجابة لأمر الأمر ؛ وهي تشمل على آيات القرآن الكريم ، والآيات وما آيات أمر ، وإما آيات ناهية ، وما فيها من إحرام وركوع وسجود يدل على استقبالها بقلب ميب في استجابة خاشعة ، فكل ما فيها هو نافع لك أمراً أو نهياً ؛ لذلك كانت الصلاة مدرجة تنهى عن الفحشاء والمنكر

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ . من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٥٤ / ١) وعراه ابن كثير لابن أبي حاتم في تفسيره ، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٥٨ / ٢) وقال به ثبت بن أبي سبيم ثقة مدني

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلاناً يمشي بالليل ، وإذا أصبح صرعى ، قال : إنه ميتناه ما تقول ؟ أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧ / ٢) والبراء (١ / ٣٤٦) - كشف الأسرار وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظلمات) . قال الهيثمي في المجمع (٢٥٨ / ٢) رجاله رجال الصحيح

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففي المقابل فلا بد أنها تبكى على قوم آخرين^(١) ؛ لأن السموات والأرض من المسخرات لتسبيح ، وقال الحق سبحانه عنهما:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .. (٧٦)﴾ [الأحزاب]

وبهذا القول انتصارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسخرة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ^(٢) مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

فلذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسِيحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً ، معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبك على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكى إلا على المهديين

وقد حنّ لنا الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - هذه المسألة ؛ فقال: « إذا مات المؤمن يبكى عليه موضعان . موضع في الأرض ، وموضع

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله في السماء يابان ياب يسفر عنه ربه ، وياب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقتله ويكب عليه وتلا هذه الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ .. (١) [السخن] - وذكر أنهم لم يكرهوا عمالوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم وهم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح يتقدم فيبكي عليهم » .

(٢) الأمانة : مصدر آمن فهو أمين ، « تطلق الأمانة على الوحدة نفسها » قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٥)﴾ [النساء] أي : الودائع . وقال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب] فالأمانة هنا مستعارة لتكاليب التشريعية من أوامر وتواهي وأحكام وعقائد وعبادات وأخلاق [القاموس المفرد ٣٥ / ١]

(٣) إن - هنا - نافية بمعنى «ما» أو «ليس» أي : «ما من شيء خلقه الله (لا يسبح بحمد الله تعالى

في السماء ، أما موضعه الذي في الأرض ؛ فمصلأه ، وأما موضعه في السماء فمبعد عمله ^(١) .

لأن موضعه الذي كان يصلي فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلي فيه ، وأما موضعه الذي كان يصعد منه عمله ؛ فيفتقد راحة عبور العمل الصالح

لأن أردت بالصلاة الدين ؛ وهي رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين ، وهي الأمر بالإيمان الحق ، لأن الإيمان المقلد لا ينع به .

إذن : فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألا يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألا ينفصروا الكيل والميزان ؛ وألا يحسوا ^(٢) الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم ، وألا يعيشوا ^(٣) في الأرض مفسدين .

وقالوا : أتنهانا أيضاً عن أن نعمل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبي حاتم أن عبداً بن عبد الله مال ممال رجل علياً رضي الله عنه . هل يكن السماء والأرض على أحد؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له تعالى في الأرض ومبعد عمله من السماء ، وإن أله فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ على رضي الله عنه : ﴿ فَمَا يَكُنْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا عَاطِلِينَ ﴾ (١٥) [الدخان]

(٢) بخره عنه بعضاً : قصه عنه ولم يوجه . قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ شَيْئاً ﴾ (٥٥) [هود] [القاموس المبرور ٥٦/١] .

(٣) هنا يعيش . أفسد أفسد الإفساد قال تعالى ﴿ - وَلَا تَقْرَأُ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١٥) [البقرة] ، فكأنهم لا يكونون للكمال ولا الميزان بل يفسدون ، ويحسون الناس أشياءهم هذا هو فمة الإفساد في الأرض .

فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ ومتصلطهم المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧) [هود]

استمرار في التهم الذي يدموه بقولهم :

﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَهْدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

مثلهم في ذلك مثل منافق المدينة الذين قالوا للأنصار

﴿ لَا تُبَيِّنُوا عَلَيَّ مِنْ "عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَفْصَحُوا" ﴾ (٧) [المنافقون]

وكانوا يريدون أن يصربوا المواخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا

﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ تهكماً ، وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم - أيضاً - مثل قوم لوط حين نهامهم عن فعل تلك الفاحشة ؛

فعالوا نهكماً منه وعن آمن معه :

﴿ .. أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْطِغُونَ ﴾ (٨٦) [الأعراف]

فهل نطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم

لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مشبه نسمع في حياتنا من يقول : «لا تستعن بعنان لأنه حنسي» .

(١) المقصود بهم المهاجرون الذين كان رسول الله ﷺ قد أعان بينهم وبين الأنصار بعد قدومه إلى المدينة ، وكان معهم هذه الفتاة هو عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان من مقتضى هذه الواقعة أن يشارك المهاجر الأنصاري في ماله وداره ، بل إن بعض الأنصار وصل به الأمر أن عرض أن يطلق إحدى زوجاته ليزوجها المهاجري ، انظر كتب السيرة وتفسير ابن كثير (٤ / ٣٧)

(٢) أي " حتى يفضحوا من حول رسول الله ﷺ وينصرفوا عنه " يقال نفص الناس - نفروا وانصرفوا . [راجع قاموس القويم ٢ / ٨٤]

(٣) لأن مجاهد أي أنهم يبطغون من أذيال الرجال وأذيال النساء . قالوا هذا استهزاء بهم . وقال قتادة : عبوهم بعبو عيب ، ودموهم بعبو دم . انظر : الأثر الثور للسيوطي (٣ / ٤٩٦) .

هم - إذن - قد قالو :

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧)

[هرد]

وهذا منطق السخرية منه ؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله ؛ ولم يوافقهم على إنفاص الكيل والميزان ؛ ونهاهم عن بئس الناس أنبياءهم

وإذا قبل حُكْمُ وهو حق ؛ ويقولوه من لا يؤمن به ؛ فهو يقصد به الهُزء والسخرية .

وهو لول من التهمكم جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن تمير وطني في الدنيا ؛ ويلقى عذاب السعير في الآخرة

﴿ دُقْ^(١) إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيبُ الْكَرِيمُ ﴾ (٩١)

[الدخان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثَرَا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ^(٢) .. ﴾ (٩٦) [الكهف]

(١) ذاق الشره بدرقه درقا ودوقا : أدرك طعمه في فمه وتضمن سجايا إلى الإحساس العام ، كقوله تعالى : ﴿ يَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ ﴾ (٩٦) [السماء] ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. ﴾ (١٥٥) [آل عمران] ، وقوله تعالى ﴿ فَمَا ذَاكَ الْأُخْرَىٰ .. ﴾ (٣٧) [الأعراف] القاموس القويم ج ٢٤٧ ج ١

(٢) استغاث طلب الغوث والمساعدة ؛ واستغاث فلان واستغاث به استنصره واستعان به قال تعالى ﴿ لِمَ اسْتَعَاذَ الْفِرْعَوْنُ بِعَبْنِهِ عَلَى الْغِيْثِ مِنْ عَذْرَةِ^(١) ﴾ [القصص] أي . استنصره وعانه الله يعونه فوقاً لصره وأخائه وأخائه ، وخائه مصره وأخائه والمهل (ضم الميم) الممدد للذئب ، والمطران ، رحكر الزيت المذلى ، والتميح قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثَرَا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ ﴾ (٩٦) [الكهف] [القاموس القويم ٢ / ٦٦]

وفي كُلِّ من القولين تهكم وسخرية، وكذلك قولهم في الآية التي نحن بصددها :
﴿ أَعْمَلْتُمْ ذَاكُمْ فَأَعْرِكُوا ۖ ۝٨٧﴾ [هود]

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم :

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ ۝٨٨﴾ [هود]

يعني التساؤل كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تشورط وتقول لنا :

﴿ اْعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۝٨٩﴾ [هود]

وقد نالوا ذلك لأنهم قد ألغوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على دعوتهم لهم بعدم إتقاص الكيل والميزان .

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف في المال، والعملة التي برروا بها كل هذا المسّفة أن شعيباً حليم رشيد ، فكيف يدعوههم إلى ما يخالف أهواءهم ؟

وبأني الحق سبحانه بما قاله شعيب - عليه السلام - فيقول جلّ شأنه :

(١) الحليم : الأنيق والخطيب النفس والعقل ، نهر حليم أي : متأن عاقل ضابط لنفسه بعيد عن الجهل والحمق والعيش

والحليم : من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْقِضُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ لِحُسْنِ وَهْدِهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ۝٨٨﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود] أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝٨٨﴾ [هود] نهر وصف بالحليم والرشيد على

سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام [القاموس القويم ١/١٦٩ ، ١٧٠]

﴿قَالَ يَتْلُو آيَهُ يَشْفِرَانِ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَزْقِي وَرَزَقْنِي
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُمُ عَنْهُ
إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨)

وهنا يعلن لهم شعب - عليه السلام - أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فأمور حياته ميسورة ^(١) .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُمُ عَنْهُ ..﴾ (٨٨) [هود]

أي : أنتى أطبق ما أذكركم إليه على نفسى ؛ فلا أنقص كَيْلاً أو أخسر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً شيئاً ؛ لأننى لا أعبد غير الله

(١) بيته حجة وبرهان وبان الشئ بين يدياً ظهر واتضح فهو بين ، ومن بيته ، أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيته بمعنى المظهر والمظاهرة والموضح والموضحة ، والمعلنين يُفسر قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَنهَكُمُ مِنْ كَيْدٍ بِئْسَ آيَةً﴾ (١١١) [البقرة] أى : واضحه لا شك فيها أو من بيته بلحق مؤيداً له ، مظهره لأمره . [القاموس القويم]

(٢) إن - هنا - نافية ، بمعنى «ما» أو «لا» أى : ما أريد - أو لا أريد - إلا لإصلاح .

(٣) أناب العبد إلى ربه - رجع إليه وبات بترك المنكر وقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠٣) [هود] أى : إلى أتوب وأرجع . [القاموس القويم] .

(٤) الرزق الحسن : الواسع الحلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل لراديه الهندي والثوقي ، والعلم والمعرفة . قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٨٠٤) .

وكلمة «أخالف»^(١) تدل على التباين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «إلى» كذا ، وإن كنت تريد أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «عن» كذا .

فشعيب - عليه السلام - يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذي لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بالألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالذهاب ، وهو الذي أنزل عليه الرسالة

وشعيب - عليه السلام - لا ينهاهم عن أفعال بفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يروونه خيراً ؛ وليس في نقص الكين والميران ؛ أو الشرك بالله أذى خير ، فكل تلك الأفعال هي الشر نفسه .

ويوضح لهم شعيب - عليه السلام - مهمة النبوة ؛ فيقول :

﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ..﴾ (٨٨) [هود]

فالبينات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم^(٢) الفساد ، ويأتى السبي المرسل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال «افعل» و «لا تفعل» ويكون النبي المرسل هو لأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنجوة^(٣) ؛ ويطلق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه .

(١) قال أبو حيان في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرِيدُ إِلَّا أَخْلَافَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ﴾ (٨٨) [هود] للمعنى : لست أريد أن أصل الشيء الذي يهينكم عنه ، من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال . قال ابن عطية وقتادة : لم أكن لأنهاكم من أمر ثم أوتيتكم ، فحللنا هذا الظاهر أن قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرِيدُ إِلَّا أَخْلَافَكُمْ﴾ (٨٨) [هود] في موضع المفعول لأريد ، أى : ما أريد محالفتكم ، أى أكون علفاً معكم ، ويكون خالف بمعنى خلف مع جاور وجاز وتعلق إلى ما خالفتكم ، وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه (تفسير البحر المحيط ٦/١٩٨ باختصار)

(٢) طم الشيء : عظم وعلا . وطم الله إذا كثرت وجاء السيل بطم كل شيء . أى : علا . والمقصود أن يكثر الفساد وينتشر ويصبح فساداً عاماً بعم البلاد والعباد . وفقط [سائر العرب - ملحة . طمم]

(٣) السجوة : ما ارتفع من الأرض فلم يعلو السيل ، أى : أنه مكان مرتفع . وللفصود : أنك بعيد حصاناً من به [وانظر اللسان مادة - لجو]

ولذلك قال شعيب - عليه السلام - :

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ.. (٨٨)﴾ [هود]

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما يدخل في طوعها.

ويقول شعيب - عليه السلام - بعد ذلك :

﴿.. وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ (٨٨)﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق في العمل ؛ لأن جوارحك قد تشغى بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندك لا يأتي التوفيق من الله.

أما إن أهملت على العمل ؛ وفي بيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوب لك أي خطأ تقع فيه ؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفي الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول قلت «على الله توكلت وعليك» ؛ فتوقع ألا يوفقك الله . لأنك أشركت أحداً غير الله^(١)

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام .

﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ.. (٥٦)﴾ [هود]

(١) من حديثه روى الله عنه أن النبي ﷺ قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء ملان، قولوا ما شاء الله ثم شاء ملان» أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤ / ٥) وأبو داود في سننه (٤٩٨٠) والحاكم في مستدركه (٤٦٣ / ٣) قال النووي في الأذكار (ص ٣١٨) . هذا الإرشاد إلى الإحسان ، وذلك أن النوازل لجميع والتشريك ، ولم للعطف والتراخي ، فأرشدكم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه .

ويجوز لك هنا أن تعطف

ولك أن تذكر قول أحد العارفين^(١) : «اللهم إني أستعفرك من كل عمل قصدتُ به وجهك فخالفتني فيه ما ليس لك».

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تتيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب عليه السلام . «وَأَنِّيهِ أُمِيبٌ» .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿وَنَقُورَ لَا يَجْرُ مَنَّكُمْ شِقَاقِي^(٢) أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ^(٣)﴾

يقول لهم شعيب عليه السلام . أرجو ألا تحملكم عداوتكم لي على أن تجرموا جرماً ؛ يكون سبباً في أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم

(١) هو . مطرف بن عبد الله بن الشخير ، كان يمس العصف ويجلس مع الساكين وقد أورد أبو نعيم هذا الأثر في حلية الأولياء (٢/ ٤٦٠٢) وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم (ص ٢٧) وقد أورداه تماماً والعطف فيه من تمام الدعاء ؛ وليس عطفًا مفاهراً .

(٢) جرم الشيء جرمياً : قطعه ؛ وهذب على فعل الشر يقال جَرَمَ السبب وجهي جناية وجرم المال كسبه من أي وجهه وجرمه . حملته على فعل شر أو قنب أو جرم . قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَطْغَوْا﴾ [المائدة] أي لا يحملتكم بغض قوم على عدم العدل ، أي : التزموا العدل حتى مع من تكرههم أي اعدلوا دائماً ، فالعدل أقرب للنزوى .

وأجرمه : دفعه وحمله على فعل الحرم والشر ونزى (ولا يُجرمُكم) بضم الياء من الرباعي المزيد بالهيرة : أي : لا يحملتكم على فعل الجرم والظلم [الناسوس القويم]

(٣) شاقه شاقاً وشقاقاً حاله ومه قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاظَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴾ [الأنفال] وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَوَلَّوْا لِمَنْ هُمْ فِي شِقَاقٍ ..﴾ [البقرة] أي في خلاف وبراع [القويم ١/ ٣٥٢] .

الذين سبفوكم ؛ من الذين خالفوا رسلهم ؛ فأنزل الله - عز وجل - عليهم العذاب كالعرق ، والرجفة ، والصيحة ، والصاعقة ^(١) ؛ فاحذروا ذلك .

وشعيب عليه السلام ينصحهم بما حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكونون له العداء ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤهم ؛ وبهزمهم عن أنفاص الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ؛ وسبق أن عذب الحق سبحانه لمخالفيين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب عليه السلام بأقرب من عذبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ إِنَّ رَبِّي رَجِيمٌ وَدُودٌ﴾ ^(٢)

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يخلق أمام العاصي حتى النصير على شيء من المعصية - باب التوبة .

ويقول رسول الله ﷺ ، «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط ^(٣) على بعبيره وقد أصابه في أرض فلاة ^(٤)» ^(٥) .

(١) يقول الحق سبحانه ﴿فَكَلا أَخَذْنَا بِيَدِهِ فَمُضُّوا مِنْ أَرْضِهِ حَاسِبِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ أُخِذَتِ الصُّلْبَةُ مِنْهُمْ مَنْ عَسَا فِي الْأَرْضِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [المنكحوت] (٢) فردود : من أسماء الله الحسنى ، وهو صيغة مبالغة أى كثير الود ، [القاسم من القويم ٢/٣٢٦] والود : الحب ، قال تعالى ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الْوَحْشَ وَدًّا﴾ [١١] ﴿مريم﴾ أى محبة من تعالى ومحبة فى قلوب الناس

(٣) سقط على بعبيره أى ضلله وعثر عليه من غير قصد فظفر به ، ومنه قولهم ، على الخير سقطت ، قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١١/١٠٨)

(٤) الفلاة : الصحراء ليس بها ماء ولا أنيس ، وهى القفر من الأرض لأنها غابت عن كل شجر أو مطم وحزلت . [لسان العرب]

(٥) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٤) من عبد الله بن مسعود ، واللفظ للبخارى .

ولك أن تحيل بماذا يشعر من فقد بعيره ؛ وهذا البعير بحمل راد صاحبه
ورخله ؛ ثم يمشي الرجل على بعيره هذا .

لا بد - إذن - أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه

واحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب - عليه السلام - لقومه :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ ۞ ﴾ [هود]

وما دمتم تستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتشربون إليه ؛ بالآ
نعوذ إلى إربكابها مرة أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد من قصد نابه . ﴿ ۞ ﴾ إن
ربي رحيم ودود ﴿ ۞ ﴾ لأن مغفرته تستر العذاب ، ورحمته تمنع العذاب .

وجاء الحق سبحانه ها بأوسع المعاني . المغفرة ، والرحمة ، ومعهما صفتة
[الدود] ؛ وهي من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضي العطف على قدر
حاجة المعطوف عليه .

ولله لئل الأعلى : يرى الأم ولها ولدان ؛ أولهما قادر ثرى يأتي لها بما
تريد ؛ وثانيهما ضئيف فقير ؛ فتجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضئيف
الفقير ؛ وتحسن قلب القوي لقادر على العففر الضئيف .

وتجد المرأة العربية استديمة تحبب على من سألها : أى أبنائك أحب إليك ؟
فتقول : الصغفر حتى يكبر ؛ والثائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى .

إذن : فالحب يقتضي العطف على قدر الحاجة .

ويقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

يا بن آدم ؛ لا تخافن من دى سلطان ؛ ما دام سلطانى باقياً ؛ وسلطانى
لا يقد " أبداً . يا بن آدم لا تخش من خبيق رزق ؛ وخزائنى ملائكة ، وخزائنى

(١) لا يقد لا يشئ . وقد يقد نفداً رهاداً من واقعهم ولم يتق منه شيء . قال تعالى ﴿ ما عدكم بهداً
وما عد الله بالى ۚ ۞ ﴾ [النمل] وقال تعالى : ﴿ إن عندنا رزقك ما لك من ثناء ۚ ﴾ [س] . أى أنه
رزق دائم لا انقطاع له . [المدرس القويم]

لا تنفد أبداً . يا ابن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب ، وضمنت لك
رزقك فلا تتعب ، فوعزني وجلالي إن رضيت بما قسمته لك أرحمتُ
قلبك وبدك ؛ ركنتَ عندي محموداً ؛ وإن أنبت لم ترض بما قسمته لك ؛
فوعزني وجلالي لأسلطنَ عيش الدنيا ، تركض فيها ركض^(١) الوحوش في
البرية^(٢) ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا ابن آدم خلقت السموات
والأرض ولم أعي^(٣) بخلقهن ؛ أيعينني رغيف عيش أسوفه لك ؟ يا ابن آدم
لا تسألني رزق غد كما أصلب منك عمل غد . يا ابن آدم أنا لك مُحب ؛ فبحقي
عبيك كن لي مُحباً

وهذا الحديث الكريم يبين مدى مودة الله سبحانه لخلقه ؛ تلك المودة التي
لا تستوعبها لقلوب البشر .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقول أهل مدين ردّاً على
شعيب - عليه السلام - .

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ
فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَازَهُطُّكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾^(٤)

(١) الركض الجري والعدو . قال تعالى ﴿ قُلْنَا احْمِلُوا فِيهَا أَنْظَاهُمْ عَنْهَا يَرْتَضُونَ ﴾ (الأنبياء) أي
يجرون ويعرون كتابه عن الصرع والخوف الشديد والركض الضرب بالرجل . قال تعالى ﴿ أَوْكُضْ
بِرِجْلَيْهِ ﴾ (ص) أي المهرّب بها . [القاموس القويم] .

(٢) البرية . الصحراء والجمع البرارى والبر . عبد البحر [راجع مختار الصحاح - مادة بر] .

(٣) لم أعي بخلقهن . لم أجز عن ولم أطق إحكامه . والإعياء الكلال والتعب [من لسان العرب] .

(٤) الفقه . المذهب وفقه يعقده فهو فقيه ؛ صار عالماً عاهماً والفقه في الاصطلاح . علم أحكام العبادات
والعاملات ، وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى ﴿ لَا تَقْفُوا نَسِيحَتَهُمْ ﴾ (الأنبياء) [الإسرائيل]
أي لا تمسوه . وماك تعالى ﴿ لِيَتْلُوهُنَّ فِي الْقُبُورِ ﴾ (التوبة) أي ليبرهنوا أحكام الدين
وليتمسوها [القاموس القويم ٨٦/٢] .

(٥) الرمط . جماعة دون العشر من الرجال ، ورمط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال
تعالى ﴿ وَلَوْ لَازَهُطُّكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ (هود) أي ' ولو لا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله
تعالى ﴿ تَمُوتُ رَمَطًا ﴾ (المل) من إضافة الشيء إلى ما يبينه . [القاموس القويم ٦٧٨/١] .

وهذا يضاهي قول مشركي قريش لرسول الله ﷺ ، فقد قالوا :

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ۖ ﴾ (٥٠)

[فصلت]

والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلئ بالباطل ؛ ليحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل ، فهي غير فائدة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقول تلك القلوب من الباطل ، وناقشت العقول كلاً من الحق والباطل ، ثم بأذن لنا اقتضت به أن يدخل القلوب .

ولذلك نحمد الحق سبحانه وتعالى بطبع ويختتم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل هددوا شعبياً وقالوا

﴿ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيهَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ ﴾ (٥١)

[هود]

وهذا التهديد يحمل تحدياً ، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم يستغفون حبيته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهي أن رهطه - أي : قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأي ضرر يصيب شعباً ؛ وتناموا أن الذي أرسل شعبياً - ﷺ - لا بد أن يحميه ، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله - عز وجل - بأن يُعَذِّبَ الكفر خدمة الإيمان

ومثال ذلك : هو بقاء عم النبي ﷺ أي طالب على دين قومه ؛ وقد ساهم هذا الأمر في حماية محمد ﷺ في ظاهر الأسباب .

ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك برّد شعيب عليه السلام على قومه ؛ فيقول :

﴿ قَالَ يَنْفَوِرَ أَرْحَطِي - أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذَتْكُمْ وِرَاءَ كُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٩٧ ﴾

وهذه يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار : أوضعتم رهطى فى كفة ؛ ومعزة الله تعالى فى كفة ؟ وغلبتم خوفكم من رهطى على خوفكم من الله ٩٧ ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتراضه بربه ؛ لأنه أعلن - من قبل - توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا التفكير فى الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم :

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا .. ٩٧ ﴾ (هود)

أى : لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله ؛ ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزة فوق معزة الله

ولم يقل : (ظهيراً) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمين نقول : يميني ، ونقول ، يمانى ، فالنسب هنا إلى الظهري ، وهى المنسى والمتروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، بمعنى جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً إذن : فهناك تغييرات تحدث فى باب النسب^(١)

(١) الظهري - المنسى المتروك وراء الظهر ، يقال : جعله ظهيراً ، أى ، جعله شيئاً منسياً ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا .. ٩٧ ﴾ (هود) أى سيتم الله وحفرته عليكم [القاموس المفهوم ١/١١٩] .

(٢) المحيط من أسماء الله الحسنى ، أى : المسيطر على كل شئ . وقال تعالى ﴿ .. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ

(٣) [البقرة] أى : مسيطر عليهم لا يمكنون من هرباً ولا فراراً . [القاموس المفهوم ١/١٧٨] .

(٤) النسب باب من أبواب علم الصرف .

ويذكرهم شعيب عليه السلام بقوله:

﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٧ ﴾ [معد]

أي: أن كل ما تقولونه أو تعملونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تحصى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل في نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال به : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال .

وقد شرف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه .

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَقَوْمٍ أَصْحَابُ عِثَانٍ مَكَانٍ ١٢٨ ﴾
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ
وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ١٢٩

إذن: فشعب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أمرٌ من ربه ؛ وباعتباره ربه قد أوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم .
افعلوا ما هي وسعكم ، وما هي مكتكم هو ما في مكتة البشر ،
وسأعمل ما في مكتى ، ولست وحدى ، بل معى الله سبحانه وتعالى ؛
ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة .

ومهما فعلتم لمعارضه هذا الإصلاح الذى أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلنى الذى أرسلنى ؛ وما دمتم تريدون الوقوف فى نفس موقف الأمم السابقة التى

(١) المكتة . وقعة الشبان والزناة والثوثة ، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اصْبِرُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ ١٢٥ ﴾ [الأنعام]
أي بردانة وثوثة ونهضر وقرىء على مكالاتكم بالجمع [الفسر القويم ٢/ ٢٣٩]

تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهرمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر^(١) ، وبانقذف بأى شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تنزعوا أنى أتودد إليكم ؛ فأتانا على ينة من ربى ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

وَلَمْ يَقُلْ شَعْبٌ عَلَيْهِ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ ضَعْفٍ ، وَلَكِنْ قَالَ رَدًّا عَلَى قَوْلِهِمْ :

﴿ وَإِنَّا لَنُرَاكُم مِّثْلَ ضَعِيفٍ أَتَوْا وَهَظُّكَ ﴾ (٩١) [هود]

وأبرر لهم مكانته المستمدة من قوة من أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۚ ۝ (٩٢) ﴾ [هود]

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدي ، لأنى سأعمل على مكانتى ، و﴿ .. سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذبٌ وأنتبيرا إني معكم رقيبٌ ﴾ (٩٣) [هود]

أى . أن المستقبل سوف يسر من منّا على الحق ومن منّا على الضلال ، ولن سيكون النصر وانغلبة ، ومن الذى يأتيه الخزي ، أى : أن يشعر باحتقار نفسه وهوائها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ ومن منّا الكاذب ، ومن على الحق .

وكان لا بد أن نأتى الآية لتالية .

(١) الريح الصر والصرصر : شديدة البرد وقيل : شديدة الصوت قال الزجاج الصر والصرة شدة البرد [قال ابن منظور في اللسان] .

(٢) الهمط الجماعة دون العشر من الرجال ، ووهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ ﴾ (٩٣) [هود] أى ولولا عشيرتك من الرجال برجعتك وقوله تعالى ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْتٌ زَيْنُ وَطَرٌ ۚ ﴾ (٩٤) [النمل] من إضافة الشيء إلى ما يربطه [المقاموس القويم

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَآخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
فِي دِيَارِهِمْ حَشِيمًا^(١)﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد أورد في هذه السورة : أسلوبيين منطوقين أحدهما بالوعد ، والآخر بالفاء .

الأول : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩١)﴾ ، في قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثاني : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩٦)﴾ [هود]

في قصة اثنين من الرسل^(٢) .

وقصة شعيب هي إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ولم يأت بـ «الفاء» لأنها كما نعلم تقتضي التعقيب بسرعة ، وبدون مسافة زمنية ، ونسمى في اللغة «فاء التعقيب» ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ آتَيْنَاهُ غَافِقَهُ^(٣)﴾ [عبس]

(١) الصيحة اسم مرة من الصباح ، وهو الصوت الشديدي . والصيحة العذاب الذي يصحبه صوت شديد . قال تعالى ﴿يَوْمَ يَسْمعون الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٩٦)﴾ [الن] [القاموس القريم]

(٢) حشم حشوماً : نزع سكانه لاصفاً بالأرض . قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ حَاشِمِينَ (٩٦)﴾ [هود] كتابة عن موتهم بحالهم فهم هامسون لا يسمعون بالأرض [لقاموس القريم]

(٣) هما من الله صالح ، وبني له لوط عليهما السلام . قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٩٦)﴾ [هود] وقال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلًا وَأَعْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبًّارَةً مِنْ سَجَلٍ مُنْقُوعٍ (٩٦)﴾ [هود] .

أما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فقد جاءت في بني الله هود في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٩١)﴾ [هود] ، وكذلك لبني الله شعيب في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٩٦)﴾ [هود] .

(٤) قبره وأخبره خلقه في قبره . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . قال تعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَاهُ غَافِقَهُ (٩٦)﴾ [عبس] وجميع القبر . قبره . وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْبُورُنَّ يُتْرُكُ﴾ [الأنفطار] [القاموس القريم ٩٥/٢] بتصرف

أما «ثم» فتأتى لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرَهُ﴾^(١) (٢٢) ﴿[عبس]

وقد جاءت «الفاء» مرة فى قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذى يزل فيه العذاب ، وقال :

﴿.. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) ﴿[هود]

فكان لا بد أن تسبق «الفاء» هذا الحديث عن عذابهم ، فقال

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ﴾^(٢)
مضروب (٨٢) ﴿[هود]

أما هنا فى الآية التى نحن بصدد خراطتها عنها ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ..﴾ (٩٤) ﴿[هود]

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ..﴾ (٩٤) ﴿[هود]

وكل أمر يقتضى أمراً ؛ ويقتضى مأموراً ؛ ويقتضى مأموراً به

(١) أنشروه - أحياء وأوجده - وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرَهُ﴾ (٢٢) ﴿[عبس] أى ، بعثه من قبره . وقال تعالى ﴿فَأَنْشُرُنَا بِهِ بَنَاهُ مِيقَاتٍ .﴾ (١١) ﴿[الزخرف] أى أحييها بما جاء المطر ؛ لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم] .

(٢) السجين الطين للتصحر والتفرد . المتتابع العظيم القوط عليهم وقرن تعالى ﴿وَأَنْشُلُ بِاسْمَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق] أى مرصوص بنظام [القاموس القويم ١/ ٣٠٤]

والأمر هنا هو الله سبحانه ؛ وهو القادر على إنقاد ما يأمر به ، ولا يجزى مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه ؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه .

إذن : فعين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم ؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر ؛ ولم يتخلف العذاب عن بلجىء ، لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر بالمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجزى العذاب على المخالفة لأنه مُسَحَّرٌ ، لا اختيار له .

والقائل هـ هو الله سبحانه صاحب الأمر الكونى والأمر التشريعى ؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجّله فى القرآن ؛ فمعنى من أنه حادث لا محالة ؛ لأن القصبة الكونية هى من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعى يسعد به مَنْ يُطِيعُهُ ؛ ويشقى من يحالفه

والحق سبحانه يعطينا مثالا لهذا فى قصة أم موسى . . يقول جلّ شأنه .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلَمِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ ۝٧﴾
[القصر]

فمتطق ابشر يقول . كيف نقول لامرأة . إذ خفت على اسك ألقيه فى البحر ؟ كيف ننجيه من موت مظلون إلى موت محقق ؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت بتنفيذ أمر الله سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام بالمقربين ، لا يأتى لها معارض فى الدهن .

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها فى اليم ، يقال :

(١) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿فَأَنفِرْنَا فِيهِمْ فِي لَيْلٍ ۖ﴾ [الأعراف] وقوله . ﴿وَاللَّهُ بِهِ

بِالْيَمِّ ۖ ۝٧﴾ [مده] [النهر العذب] [القاموس القويم ص ٣٧٢-٣٧٣]

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٦٦٣٥

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ يَوْمَ .. (٣٩)﴾ [طه]

كذلك أمر الحق - سبحانه وتعالى - اليمُّ بإلقاء التابوت - وفي داخله موسى - للساحل ، ولذلك ييقن أم موسى في أن أوامر الله لا تخلف ، جعلها تسارع في تنفيذ ما أمرها الله به .

والحق سبحانه يريد أن يُرَبِّبَ الإيمان ، أي : يزيده في قلوب عباده ، فَهَبْ أَنْ الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون عسى وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس ؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنْ حُدِّثُوا لَهُمُ الْعَالَمُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غلبوا فانهزموا أن شرط الجندي لله قد تخلف ، وأن عنصراً من عناصر الجندي قد تحلف وهو الطاعة .

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ في البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فماذا يحدث لو أنهم انصروا مع هذه المخالفة ؟

[د] : فقد انهزم المسلمون الذين احتلت فيهم صفة من صفات جديتهم لله .

ولا بد أن تلتقي القضيتان ، القرآنية والكوبية ؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب .

وسمى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال :

﴿.. وَأَخَذَاتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَمْضَوْا فِي ديارِهِمْ جَاهِلِينَ (٤٤)﴾ [مرد]

وسمى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب لدى الحق بهم :
«الرجفة» ، فقال :

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرُّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (١١)

[الأعراف]

وسماه في قصة قوم عاد :

﴿ .. بِرِيحٍ عَرَصَرَتْ عَائِيَةً ﴾ (١٢)

[الحاقة]

وسماه بالخسف في عذاب قارون

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان يتقى القوم الكافرين فقط ،
ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَآلَيْهِ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴾ (١٣)

[هود]

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقدر ، يُصَرِّفُ الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة «نجينا» : من النجاة ، أي . أن يوجد بنجوة ، وهي المكان
العالى ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ، فقد كانوا يقيمون في اليمن
ثم يعثرهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ^(١) فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٤) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

(١) العبر ، والعبر عبر البرد الشديد قال تعالى ﴿ كَمْ ظُلْمٍ فِهَا سَرٌّ ﴾ (١١٧) ﴿ آل عمران ﴾ والريح ،
الهواء المتحرك في الجو ، وأصعبها «روح» قلبت اللفظة لكسر ما قبلها والجمع «رياح» وتجمع أيضاً
على «أرواح» على الأعرس - وقال تعالى ﴿ بِرِيحٍ عَرَصَرَتْ عَائِيَةً ﴾ (١٢) [الحاقة] أي شديدة
مدمرة على سبيل الاستعارة - كأنها إنسان جبار طاغى ذات . [القاموس القويم] .

(٢) سبأ . اسم رجل يجمع عدة قبائل شأت في اليمن ، وسبب تسميته مدينة كبيرة باليمن ، كاتب عاصمة
ملك اليمن . قال تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَارٍ ﴾ (١٧) [الملئ] [القاموس القويم ١/ ٢٩٩] .

الْعَرِمِ^(١) وَيَذْنَاهُمْ يَجْتَنِيهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمْطٍ^(٢) وَأَنْلِرٍ^(٣) وَشَيْءٍ مِّنْ سَدْرٍ^(٤) قَلِيلٍ^(٥) ﴿١٦﴾

[سبأ]

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا في الجزيرة العربية ، وكانوا يخافون من الماء - رغم أنه سر الحياة ؛ وفضلوا لتعب في البحث عن الماء للشرب لهم ولأنعاسهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء جاءت كلمة «لجأ» أي: صعد إلى مكان مرتفع.

واستخدمت كلمة «لجأ» في كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر الداهم^(٦) ، فيقال: «لجأ من النار» ؛ «ولجأ من العدو» ؛ «ولجأ من حيوان المفترس» ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أي: المكان المرتفع. ويقال في الفعل (لجأ) : لجأ فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب.

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من لعذاب ، فهو يحتاج إلى من يُنَجِّيه ، ويقال: «أنجأه» ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة صعبة ليُتَحَقَّقَ الفوز.

(١) العِيل . الماء الكثير يجري ويسيل على الأرض . وسيل العرم أي سيلان العرم ، وهي سدود اليم . أو سين للطر الشديد . [القاموس القويم ١ / ٣٤٠]

(٢) الخَمْط : كل نبات فيه مروة وحموضة تعافه الشمس . قال تعالى ﴿ ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَنْلِرٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سَدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] لما غضب الله على سبأ جعل طعامهم هذه الأشياء ، وذلك كناية عن شدة الفقر [القاموس القويم ١ / ٢١١] .

(٣) الْأَنْلِر : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأخصان ، أوراقه دقيقة ، ونسبه حب أحمر مُرٌّ لا يؤكل قال تعالى ﴿ ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَنْلِرٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سَدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] كناية عن شيق العيش وشدة الفقر [القاموس القويم ١ / ٧] .

(٤) السَدْر : شجر التين ، وهو شجر شائك له نمر ، ليه حلاوة قليلة ، وحلته مدورة ، وهو كناية عن شيق العيش ، فقد هيئ الله عليهم الرزق لعدم شكرهم . [القاموس القويم ١ / ٣٠٧] .

(٥) كل ما غشيك لقد حدث ويقال : ينعمهم أي : يقبضهم راجع لسان العرب .

وسبب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال «نجينا»

ويأتي الحق سبحانه في مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ^(١) ﴾ [القدر]

فكل شيء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتي الله فيه بضمير الجمع : إنا .
أما إذا كان الشيء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتي بضمير الأفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ^(٢) ﴾ [طه]

وقد ألجى الحق سبحانه شعباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعباً عليه السلام قال لقومه .

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ^(٣) ﴾ [هود]

وكان عمل شعب ^(٤) فيه صحة وعريضة التوكل ؛ لذلك أجهز الله تعالى ولذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالأطمئنان على أداء أي عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة . والمفتاح في يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال في الحديث القدسي :

«من ذكرني في نفسه ذكرته في ملائكتي منه» ^(٥)

(١) أنزلناه ابتدأنا ونزل القرآن العظيم . ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف]

(٢) إني أنا الله . أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملائكتي في ملائكتي منه ، وإن اقترب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ، من حديث أبي هريرة .

إذن : فالفتاح في يد العبد

والحق سبحانه هو القائل

«ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً» .

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد ، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى ، فإنه سبحانه يتقرب إلى العبد أكثر وأكثر .

ثم يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي :

«ومن جاءني يمشي أتيتُهُ هرولاً»^(١) لأن المشي قد يُتعب العبد ، لكن لا شيء يُتعب الحق سبحانه أبداً ، لأنه مُنزهٌ عن ذلك .

إذن : فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية في الانحرام بمعية الله تعالى ، ليضمي علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله^(٢) .

وانظروا إلى ميلنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار .. يقول الحق سبحانه :

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ..﴾ (٤١) [التوبة]

أي : أن رسول الله ﷺ ينهي صاحبه عن الحزن بعلّة معية الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يصيد الحزن ؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه ، بل من قانون كوني ، حين قال لرسول الله ﷺ : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، لكن رسول الله ﷺ لا يتكلم من القانون »

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) صفات الجمال هي الصفات المعبرة عن الرحمة والمغفرة والأمن والسلام مثل : الرحيم ، الغفور ، السلام ، المؤمن . أما صفات الجلال فهي الصفات المعبرة عن القهر والجبروت والضر مثل : القهار ، الجبار ، العاصم ، المحييت .

الكوني ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكون سبحانه ، فقال : «ما ظلك باثنين الله ثالثهما؟»^(١) .

لمعية الله أصبحت عليهما شيئاً من جلال وجماله ، والله سبحانه لا تتركه الأبصار ، وهو يترك الأبصار^(٢) .

وقد ألحق الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ، والرحمة ألا يصيبك شيء .

ومثال ذلك : إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من الداء .

ولذلك اتبهاوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين : شفاء ، ورحمة ، فإذا كان هناك داء وترجمه إلى منهج الله ، فالحق سبحانه يشفيه ، والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية .

وأما الذين ظلموا فقد أحدثهم الصيحة ، وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ۖ ﴾ (٦٧)

[هود]

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه .

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ۖ ﴾ (٦٨)

[هود]

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعلى قريشاً ، ولكن لأن لغة قريش كانت مُصفاة من جميع القبائل العربية ، فهي تملك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعني أن نطمس بقية القبائل .

(١) سبق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٢) ومسلم في صحيحه (٢٢٨١) من حديث ابن عمر الصديق رضي الله عنه .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ ذُكِّمَ لَهُمْ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٧٠) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْغَلِيظُ الْخَبِيرُ (١٧١) ﴾ [الأنعام]

ولذلك جاء في القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطى لقريش سيادة في الإسلام كما كان لها سيادة في الجاهلية ، لذلك يأتي بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتي بته التانيث ومرة لا يأتي بها .

والتانيث إما أن يكون حقيقياً^(١) أو مجازياً^(٢) . والتانيث الحقيقي هو المقابل للمذكر ، مثل : امرأة . والتانيث المجازي مثل : «الصبيحة» و«الحجرة» . وكانت القبائل العربية تتجاوز في لؤث المجازي ، فمرة تأتي «النساء» ومرة لا تأتي^(٣) .

وإن كان هناك فصل بين الفعل والفاعل ، فالفصل قائم مقام التانيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَسَدَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (١٧) [هود]

(١) اللؤث الحقيقي هو الذي يلد ، ويتناسل ، ولو كان تناسله من طريق البيض والتمريخ ولائد في لفظ لؤث الحقيقي من علامة تانيث ظاهرة أو مقدرة مثل : فاطمة ، ليلى ، هند ، عصفورة ، بقرة .. إلخ . قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَأْتِيكَ بِكُلِّ بَشْرٍ ﴾ (٣٥) [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَمَلَأْتُهَا نَبَاتًا لَّنَّمْ لَا دَاحِلُهَا مَالِي ﴾ (١٨) [النمل]

(٢) اللؤث المجازي هو الذي لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان لفظه مجتمعاً بعلامة تانيث ظاهرة ، مثل : ووفة ، وسفينة ، أم مقدرة ، مثل : دار ، ونمى ولا ميل لمعرفة لؤث المجازي إلا من طريق السماع الواردة من العرب

(٣) يجوز التانيث وتركه إذا كان الفاعل حقيقياً والتانيث ولم يتصل بالفاعل - أي فصل فاصل بين الفعل والفاعل اللؤث - مثل قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَصْفَى ﴾ [نأى بدعوك . (٢٤)] [الفصحى] وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَهُمْ أَصْلُ خِثْلٍ مِمَّا جَرَابٍ فَاقْتَحَوهُمْ . ﴾ (١٥) [المسحاة] وإذا كان الفاعل مؤنثاً مجازياً ، كقوله تعالى : ﴿ هَٰؤُلَاءِ يَتَخَوَّبُونَ إِلَّا تَأْتِيهِمْ بِهِمْ فَتَدْعُهُمْ أَشْرَافُهُمْ ﴾ (١٦) [محمد] ، وأن يكون الفاعل جمع تكثير ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْغُرَابُ أَمْأ . ﴾ (١٧) [الغراب] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ (٢٠) [يوسف] وهناك تضييحات كثيرة أخرى انظرها في [النحو الوافي] - عباس حسن (٥٨٦/١ ، ٥٨٧) ، والنحو الصافي - الدكتور محمد عبد (ص ٤٠٦ - ٤٠٧) .

فكان الصبيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسل الصبيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد.

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَانِمِينَ ﴾ (٩٦)

[هود]

ونلاحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

[هود]

ومثل قوله الحق :

﴿ .. فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنَادِرِينَ ﴾ (١٧٧)

[الصافات]

والصبح هو وقت الهجمة على العاقل الذي لم يغادره اليوم بعد^(١) ، مثل رؤا الفجر الذين يقبضون على الناس قبل النهار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَانِمِينَ ﴾ (٩٦)

[هود]

ولم يقل سبحانه : «فأصبحوا في دارهم جَانِمِينَ» ؛ لأن بعضهم قد لا يكون في بيته ، بل في مكان آخر لزيارة أو تجارة .

ومثال ذلك : قصة أبي رغال ، وكان في مكة ، لكن الحجر الذي قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه في البقاع ولم يتزل عليه الحجر في مكة ؛ لأن

(١) وقد قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الفرقان] والبكرة أول النهار ويستعمل للإسراع إلى الأمر في أي وقت . [الذوق من القويم] .

الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر في البيت الحرام ، الأمن ، وكان الحجر قد تنبّه ، مثلما تسعت الصيحة الكفار من أهل مدين ^(١) .

ونلاحظ في الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي «جائمين» أن حرفي «الجيم» و«الشاء» حين يجتمعان معاً -يصرف النظر عن الحرف الثالث- فمیهما شيء من الهلاك ، وشيء من العافية . ومعنى «جائمين» أي : مُلقون على بطونهم بلا حراك

والحق سبحانه يقول :

﴿وَنَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ^(٢) .. (٢٨)﴾ [الجاثية]

أي : يركع كل من فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : «الجثة» .

واطردوا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تطلق لفظ «الجثة» تعبيراً عن أي «ميت» عظيم كان أم ضئيلاً ^(٣) ، ثم توضع جثته في القبر ، لتحتضنه أمه الأولى : الأرض .

(١) من جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تسألوا لأيات فقد سألتها يوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الملح وتصدر من هذا الملح ، معترأ عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب مدهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخذ الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله فقلوا : عن هو يا رسول الله ؟ قال : أبر دعال ، فذهب فخرج من الحرم أصابه ما أصاب لومه » أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) والحاكم في مستدركه (٢/٣٦٠ ، ٥٦٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجه .

(٢) جث يجهثو جهثاً ، و جهث يجهث جهثاً . جلس على ركبتيه فهو جاث . وهي جاثية . قال تعالى : ﴿وَنَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ^(٢٨)﴾ [الجاثية] كناية عن العجز والشحوب والشرق كالسجين ينظر المحاكمة . وقال تعالى : ﴿.. ثُمَّ لَنَضْرِبَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ^(٢٩)﴾ [مريم] تصويراً لخائهم في دن وسفاهة بتظرون العذاب الشديد [القامر من القويم . مله (جثي)] .

(٣) التوضيح : الذي - من الناس - وهو ضد الشريف والضعة ، الدل والهوان والدعة [لسان العرب - مادة وضع]

ومن يرغب في تهدئة إنسان ملتحاح^(١) وغاضب لموت عزيز عليه ، فليقل له : هل تتحمل جنمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : « لا » .

إذن : فبمجرد أن يتزع الله سبحانه السر الذي به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يرم^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل «مدين» .

﴿ كَانَتْ لَكُمْ أَرْضُكُمْ فَأَصْبَحَتْ أَيَّامُكُمْ فَأَصْبَحَتْ نَارُكُمْ ﴾ (١٥)

أى : أن من يمر على أهل «مدين» بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَصْبَحَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَنَ أَهْلِهَا أَتَتْهُمْ فَأَذْرَوْهُ عَلَيْهَا فَأَتَاهَا أُتْرُقًا ۖ ﴾ (٢٤) [يونس]

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحزن ، وقيل : هي حرقه الحزن والهوى والوجد ، وهي أيضا ما يجعله الإنسان تولد وحيمه من الحرقه وشدة الحب [انظر انسان - مادة يوح] .

(٢) الرميم : البالي من كل شئ . رم لليت : بلى جسمه ، قال تعالى ﴿ مَنْ يَتَّبِعِ الظَّالِمَ فَإِنَّهُ يَكُونُ رَمِيمًا ﴾ (٥٥) [يونس] والرمة : العظم البالي [لسان العرب : القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طاب مقامهم فيها . قال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ لَمْ يُقَرَّبْ إِلَيْهَا ﴾ (١٥) [هود] [القاموس القويم مادة : غنى] .

(٤) يبدئ ببدأ وبدأ : هلك . قال تعالى ﴿ الْآخِثَةُ لَمَدِينٍ كَمَا بَدَأْتُمْ لَمُودَ ﴾ (١٥) [هود] أى : هلاكاً للمدين كما هلكت لمود . [القاموس القويم : مادة : يبدئ] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهي غير الجنة التي ينال فيها الإنسان ما يشتهي بمجرد أن يخطر لأمر بياله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَانَ لَمْ يَتَوَّأ فِيهَا .. ﴾ (٤٥) [هود]

ومادة «الغنى» منها: الغنى - بكسر العين - وهو ما يشنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدي إلى الشيء الذي يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكفى عما في أيدي الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذي يعجبه ، والملاحن بطريقة تعجبه ؛ والغناء هو الملاحن المستطاب الذي يغنيك عن غيره .

والغناء ، أى : الإقامة فى مكان إقامة تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن يقول الحق سبحانه :

﴿ كَانَ لَمْ يَتَوَّأ^(١) فِيهَا .. ﴾ (٤٥) [هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستقروا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ^(٢) ﴾ (١٠٠) [هود]

(١) فى القوم فى ديارهم طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا فى ديارهم جاثمين ﴾ (٤٤) كان لَمْ يَتَوَّأ فِيهَا . [هود] وقد غيب الدار بأهلها عثرت بهم . قال تعالى : ﴿ فاصْبِرْ لِحَصِيدِهَا كَان لَمْ يَتَوَّأ فِيهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠٠) [هود]

.. (١٠٠) [يونس] أى : كأنها لم تعمر [القاموس القويم - مادة (عسى)]

(٢) قائم اسم لفاعل من قام قال تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يَصْلِي على السُّجُودِ ﴾ (٢٤) [آل عمران] ونوره تعالى ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَفْخَةً مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠٠) [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزروع ، ومنها ما هلك فعصر كالزروع الحصيد [القاموس القويم - مادة (قوم)]

أى: أن الأطلال^(١) قائمة بما تحويه من أحجار ورسوم^(٢)، مثل معابد قدماء المصريين، وأنت حين تزورها لا تجد العابد كلها سليمة، بل تجد عموداً متصباً، وآخر ملقى على الأرض، ولبناً عبر سليم، ولو كانت كلها حصيداً، لاحتضت تماماً، ولكنها بقايا قائمة، ومنها ما اندثر^(٣).

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات، لأنها لو ذهبت كلها، لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿.. أَلَا يَعْلَمُ لِمُتِّدَّتْ لُحُودُهُ (٩٥)﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كف عرفنا من قبل - هى «أداة استفهام» ليستفهم السامع ويتصت، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم، ويستفهم السامع الكلام كله استفعال المستفيد.

وكلمة «لُحُودُهُ» ليست دعاء على أهل مدين بالعد؛ لأنها هلكت بالفعل، ومادة كلمة «لُحُودُهُ» هى: «الباء» و«العين» و«الدال» وسعمن استعمالين مرة تريد منها الفراق؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون، ولذلك جاء بعدها:

﴿.. كَمَا بَعْدَتْ لُحُودُهُ (٩٦)﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعد لا لقاء بعد، إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة.

(١) الأطلال جمع طلل، وهو ما شُيِّع من آثار الديار القديمة وقيل: طلل كل شيء شُيِّع [انظر: سلك العرب].

(٢) رسوم: جمع الرسم وهو بقية الأثر وقيل: حوت لصق بالأرض منها ورسم الديار: ما كان من آثارها لا منقأ بالأرض.

(٣) اندثر: الدروس وانحدر الذكر، ركن شيء أصغر وذهب أثره نقد دثر - [اللسان بتصرف].

والشاعر^(١) يقول:

يَقُولُونَ لَا تَبْعِدْهُمْ يَدْفِنُونَنِي وَأَمِيرٌ مَكَانٌ لِبُعْدٍ إِلَّا مَكَانِيَا

فهذا هو البعد الذي يذهب إليه الإنسان ولا يعود^(٢).

ولما خص^(٣) الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ، وقد سبق أن قال سبحانه عن أنعام آخرين : «ألا بعداء؟»

لأن الصبيحة قد جاءت لثمود^(٤) ، وبذلك اتفقوا في طريقة العذاب .

وتنتهى هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين ، ونلاحظ أن لها مساماً يرسل مثل موسى عليه السلام ، مثلما كان لقوم لوط مياس بإبراهيم عليه السلام .

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت ، أى ، أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئته معينة ومكان معين . ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم ، لذلك أرسل لكل بيئة رسلاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة .

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام ، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام . وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون .

(١) الشاعر هو مالك بن الربيع المازني ، شاعر من الطوائف الأدباء القشاش ، اشتهر في أوائل العصر الأموي ، شهد فتح سمرقند وتسلق ومرض في مرو وأجس بالوب فقال قصيدته التي منها هذا البيت وحدثها ٥٨ بيتاً أوردها أبو علي القالي كسلة في أماليه (٣/ ٥١ - ١٥٤) توفي عام ٦٠ هجرية . انظر الأعلام للزركلي (٢٦١/٥)

(٢) البعد الهلاك بعد هلك هلك . فقولته تعالى ﴿.. أَلَا بَعْدُ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ لُثَمُودَ (٥٣)﴾ [هود] أى ملاقاً بدينى كما هلكت لثمود والبعد خلاف القرب ، قال تعالى ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ (٢٩)﴾ [الزخرف] أى : مقدار بعد آدمحما من الآخر . [القاموس القويم] .

(٣) قال رب العزة سبحانه ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاتَّخَذُوا بِالنَّاطِقِ (٤٠)﴾ [الحاقة] أى : أملاك بالصبيحة التي تجاوزت الحد في قوتها والعنفوان . تجاوز الحد ، قال تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا عَلِمْنَا آتَاءَ حِمْلِكُمْ فِي الْعَارِيَةِ (٤٠)﴾ [الحاقة] أى ، زاد وتجاوز الحد بأخرى البلاد . [القاموس القويم ١/ ٤٠٢] .

ونحن نعلم أن الأماكن في الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش في موقع قد لا يدرون عن بقية السواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه أولاً أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن في أي مكان في العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية في ثوان معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ

أب تعدد الرسل وتعدد اللفظيات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون ، لأن الأصل في الفهم القرآني أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحي لتناسب الموقف الذي يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت لنفوسه^(١) .

ويبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخواته من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله بهم في النهاية ، وحين أورد الحق سبحانه أن يقص قصة مذبذبة جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس في القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسول ﷺ .

ولما أن نلاحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كن يجب أن تنتهي إلا بأن تأتي فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود] ثبت الأمر ، وسخ واستقر عند نزول واضطرب . ويقول تعالى ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَقْوَالِ الْآيَاتِ .. ﴾ [الزمر] أي : يثبتي إيمانهم بالأقوال الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك ثابت معنوي . اراجع : القاموس القويم ١ / ٤١٥

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطعتين
النقطة الأولى: هي الإرسال بآيات إني فرعون .

والنقطة الثانية: هي خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق
سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى :

﴿ يَتَذَكَّرُ فِيَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أُرْسِلَ بِهِ فَأُورَثُ الْوَرْدَ الْخَرُودَ (٩٨) وَأَنْبِئُوا فِي
هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ (٩٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن
له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب
عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه في قوله .

﴿ .. نَجَّيْتُم مِّنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبتته وهياً له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثمانى حجج أو أن يتمها
عشر حجج^(١) ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَعْبُدُ رَبَّنَا عَلَى أَنْ تَأْخُذَ بِنَا (٢٦) نَعْمَانِ
حِجَجٍ فَإِنْ أَتَيْنَا بِمَنَافِعٍ فَكُنْ مُدَبِّرَهَا إِنَّمَا أَنَا خَائِفٌ لَّكَ يَا رَبُّ أَن يَمْسَسَ بِنَا
الْعَذَابُ مِنَّا وَلَمْ نَكُن لَّكَ بِنَا حِجَجًا (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَشِيرٌ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ أَخْبَرَهُمْ
بِمَا كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَخَسِبَ عَنْهُمْ رَبُّهُمْ وَهُمْ قَوِيُونَ (٢٨) ﴾ [القصص]

(١) الحجة - بكسر الحاء - السنة الكعبة اثنا عشر شهراً ، وجمعها حجج - قال تعالى ﴿ حَلِي لَكَ تَأْخُذُ بِنَا حِجَجٍ (٢٦) ﴾ [القصص] أي: ثمانى سنوات كاملة [القاموس القويم]
(٢) أجر ثلاث مائة ألفاً ، لأنه على حد أصح أميرائه ، وبالعشرين فسر قوله تعالى ﴿ حَلِي لَكَ تَأْخُذُ بِنَا حِجَجٍ (٢٦) ﴾ [القصص] أو ثمانى المهر أجراً ساجزاً وقال تعالى ﴿ فَتَوْمًا أُخْرِجُوا (٢٧) ﴾ [النساء] أي: سهودى وقال تعالى ﴿ فَكَانَ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (٢٨) ﴾ [البقرة] أي: ثواب عمله [القاموس القويم ٨/١] .

وعكدا بأشر شعيب عليه السلام مهمة في قصة موسى عليه السلام

ومن هذا ومن ذاك يعطين الحق سبحانه الدرس بأن العقرة السليمة لها تقنيات قد تلتقي مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قسَّ الحق سبحانه انطلاق في الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مرَّ المعاناة .

ومثلما حرم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ،
فهل كنا مطالبين بأن نوجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك
التائج ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل في القرآن قانون السماء الذي يقي الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى في كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه

وفى قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرأ عين له ^(١) ، رغم أن فرعون كان يُقتل أطفال تلك الطائفة ^(٢) .

ثم تليحظ أحت مرسى أنخاما ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه .^(٣)

(١) يقول ب العزة سبحانه ﴿وَقَالِ ابْنَتَا مُوسَىٰ أَمْرَأَتِ قُرْعُونِ قُلْتِ عِشْرِي لَيْلًا لَا تَحْبِرُونِ عَلَىٰ أَن يَصْحَبَنِي ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْنَ بَلْ عَلَّمْنَا وَلَدَنَا وَمَا لَا يَنْتَعِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [قصص].

(٢) قَالَ تَعَالَى - ﴿١٧٠﴾ لِمَ عَزَّ عَلَى الْإِنْسَانِ وَجْهَ الْأَرْضِ وَجْهَ أَهْلِهَا شَيْئًا يَسْتَعْتِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْعِيهِمْ إِلَى تَعَالَمِهِ وَيَسْتَعْفِي لَهَا هُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُنْقَذِينَ ﴿١٧١﴾ ﴿[القصاص]

(٣) قَالَ تَعَالَى «وَإِذَا صُحِّقُوا ثُمَّ يُنَادُوا بِمُوسَى فَارْجِعْ» إِنَّ كَلِمَاتٍ أَتَتْكَ مِنْ رَبِّكَ أَنْ تَقُولَ إِنْ رَأَيْتُكَ عَلَىٰ نَفْسِكَ مَتَّكُودٍ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٤) وَقَالَتْ لِأَخِيهِ أَفَإِنَّهُ يَتْلُوا كُتُبَنَا عَلَيْهِمْ أَفَرَأَوْهُ مُتَوَلِّيًا (٥) وَخَرَجْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاحِعَ مِنْ نَحْنٍ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَهُ عِلْمٌ بِمَا يُكْفَرُ بِهِ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَوَعَدْنَا فِي آلِهَتِنَا إِلَىٰ أَيُّهَا كَيْ تَفَرَّ عَنْهَا وَلَا تُجْرَمُوا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَكَذِبًا أَفَلَا يَعْلَمُونَ (٦) ﴿[التقصير]

وقد صور الشاعر هذا الموقف بقوله :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فِي بَيْتِكَ عَنَابَةً

مِنْ اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبَ الرَّاجِي وَحَابَ الْمَأْمَلُ

فَمُوسَى "الذي رباه جبريل كافر"

وموسى الذى رباه فرعون مُرسَلُ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجرة ، فى البداية وفى النهاية ؛

ليبين لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل ، وهو موسى عليه السلام .

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث - هو ماء مدين ، فحدث ما يمكن أن يجد فيه حلاً لمشاكل الحنسيين الرجل والمرأة . وهى رأس الحرية التى تُوجه إلى المجتمعات الإسلامية ؛ لأن البعض يريد أن تبذل المرأة فى مهاتها ، لإعواء الشباب فى أعز أوقات شراسة المراهقة .

لكن القرآن حلَّ هذه المسألة فى رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى .

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ .. (٢٢) [القصص]

أى ' تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه ، وكان هذا المشهد ملقياً لموسى عليه السلام ، وكان من الطبيعى أن يتساءل : ألم تأتيا إلى هنا لتسقىا الماشية ؟
وقال القرآن السؤال العبيى :

- (١) موسى السامرى الذى رباه جبريل خالف أمر ربه بقتة ، فسرل اجتماعاً وكتب عليه العذاب . بخلاف موسى الرسول عليه السلام .
(٢) ورد يرد وودأ وورودأ . حنسر أو أشرف على المكان - دخبه أم لم يدخله . ورد الماء : قصده وبلعه ووصل إليه . وسم العاص منه ورد . واسم المفعول : مرود [القاموس القويم]
أمة من الناس : جماعة كثيرة منهم . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف]
تذودان : تمنعان غنمهما من الماء [كلمات القرآن] .

[القصص]

﴿ مَا عَظَّمْنَا ١٠٠ ٢٣ ﴾

فتأتيه الإجابة من المرأتين

﴿ فَالْتَا لَا تَسْقَى حَتَّى يُغْلِبَ الرَّعَاءُ ٣٠ وَأَيُّونا شَيْخٌ ٣١ كَبِيرٌ ٢٤ ﴾ [القصص]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له حلة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بعرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وتنتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظننا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى ﷺ ليعرض مهمة الرجل .

[القصص]

﴿ فَسَقَى لَهُمَا . ٢٤ ﴾

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قري ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام

فساحة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضي الرجل المسلم لها حاجتها

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام ١٩٥٠م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من المعجين التي لم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما عظيمكما . ما شأنكما ؟ أو ما مطلقكما ؟ . [كلمات القرآن]

(٢) يصدر الرعاء . يصرف الرعاة مواشيهم من الماء . [كلمات القرآن]

والصادر الرجوع والانصراف . يقال : ورد إلى البئر ثم صدر عنها إلى : رجع . وصدر دوابه : أوجعها بعد ورودها . [القصص للتوبيا] .

(٣) شاخ الإنسان يشيخ : أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من تجاوز الخمسين من عمره . وله جموع كثيرة منها : أشياخ ، وشيوخ ، وشايوخ ورد منها في القرآن سبع واحد من شيخ قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَمْهِنُوا إِذْهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَمْثَلًا ٢٥ ﴾ [طه] [القاموس القويم ١/ ٣٦٣] .

نفس الباب . وقال لي : إن هذه هي عادة أهل مكة ، إن وجد إنسان لوحاً من المعجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا النوع أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب .

وهذا كله مأخوذ من كلمة .

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ۖ ٤٤ ﴾

[التقصير]

وعمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم .

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التي تخرج إلى مهمة عليها ألا تستعري^(١) ذلك ، بل تأخذها على قدر الضرورة ، فإذا وجدت متفلاً لهذه الضرورة ، فعليها أن تسارع إلى هذا المتفلد ، وبذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب :

﴿ .. يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ٤٥ ﴾ [التقصير]

ويُنهى شعيب رضي الله عنه هذا المرقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول لموسى :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ مَكِّحَكَ بِحَدِيثِي هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي نَصَابِي حَجَجٍ

لَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمَنْ عِنْدَكَ ۖ ٤٦ ﴾

[التقصير]

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يُلقي بابتته هكذا دون مهر^(٢) ،

(١) استعرا الطعام: وجده من غير أن يـُـجـد جيداً مستضافاً، واستعرا الشيء: أحبه واستراده منه [المعجم الوسيط] بصرف .

(٢) مهر الصداق، واجمع مهر وهو الصدقة جمعها صدقات. قال تعالى ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلًا ٤٠ ﴾ [النساء] قال في فقه السنة (٢/٢١٨) : لم يجعل الشريعة حداً لقلت، ولا لكثرة، وإن الناس يختلفون في القنى والفقير، ويفاوتون في السعة والفقير، ولكل جهة عاداتها وتعاليمها، وكل التصور جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة، يقطع النظر عن القلة والكثرة ، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله ، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم .

لا . . بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه ^(١)

وهذه القصة وضعت لنا مبادئ تحل كل المشكلات التي يتشدد بها خصوم الإسلام .

وها نحن نجد في الغرب صحبات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء في المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ، ليس لأن المرأة باقصة ، ولكن لأن كمال المرأة في أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهي تربية الأبناء

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل الكائنات ، والأبناء الذين يتشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ^(١٧) ﴾

وبنحن نعلم أن الآيات إذا وردت في القرآن إنما تصرف إلى ثلاثة أشياء :

آيات كونية تعاصر كل الناس ويرها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والتجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

(١) الجمع بين الأخنتين من المحرمات محرماً مؤقتاً ، يرون التحريم يروا أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت طلاقاً باتماً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثانية هي وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ ﴾ (٢٩) إلى قوله ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (٣٢) [النساء] وانظر فقه السنة (٢/١٦٩)

(٢) سلطان مبين برهان بين على صدق رسالته [كلمات القرآن] والسلطان : الملك والقوة والفهم والحجة والبرهان يقول تعالى ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ (٣٢) [التعليل] أي : فهو الشيطان وخبثته وتمسكه على الذين يتولونه ويستمعون به ، وقال تعالى ﴿ هَٰذَا هِيَ سُلْطَانُكُمْ ﴾ (٤٩) [الحاقة] أي : قوتي والتمسك وخبثتي وفهري فلا أستطيع الدفاع عن نفسي [القاموس القويم]

سورة هود

٦٦٥٥

وربت^(١) ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر في أن وراء هذا الكون الدقيق تكويماً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتي لبيان صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات مثل : ناقة ثمود المبصرة^(٢) ، وشفاء عيسى عليه السلام^(٣) للأكمة والأبرص^(٤) بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التي تبين مطلوبات المهج بـ «افعل» و «لا تفعل» .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حمجة تنفع العقل

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يشهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قلوباً ؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ يٰمَلِكُ بَاخِعُ^(١) نَفْسِكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [نشا فتزك عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤)] [الشعراء]

(١) يقول تعالى ﴿ . . وقرى الأرض حمدة لله إذ أنزلنا عليها الماء فخرجت ورمت وأنبثت من كل زوج بهيج (٥) ﴾ [الحج] ، أي ، فإن أنزل الله عليها المطر فخرجت أي خرجت بالنبات وحييت بعد موتها ، ورمت أي ارتفعت ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والثمار من ثمار وزروع ، قال ابن كثير في تفسيره (٢٠٨/٣)

(٢) قال تعالى ﴿ . . وَأَنبَأَ لُحُودَ الْعَالَمِ تَهَيَّأُوا لَهَا . . (٣) ﴾ [الإسراء] (٣) قال تعالى : حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿ . . وَأَنبَأَ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَنبَأَ النَّوْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ . . (٤) ﴾ [آل عمران] ، الأكمة : أن يولد أحمس ، أو يفقد بصره ، والأبرص : من أصابه مرض جلدي يحدث بقعا يضاء في الجلد تشوّهه [القاموس القويم] .

(٤) يخضع نفسه بخراباً ويخضعاً قسماً لها رغباً وحرماً قال تعالى ﴿ . . يٰمَلِكُ بَاخِعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٥) ﴾ [الكهف] وقال تعالى ﴿ . . يٰمَلِكُ بَاخِعُ نَفْسِكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٦) ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم ٥٦/١] بتصريف .

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا الفواهب ، قلوب تأتى إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه .

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجة ، لأنه يقنع الإنسان أن يفعل . . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطان من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجة ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ رَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاهِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية في موسى عليه السلام ، وطارقة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، بل دليل الاحتياط في قوله تعالى :

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِثْلَ غَيْرِ سَوَاءٍ ۚ ۞ (٢٧) ﴾ [طه]

أما العصا فهي الحجة التي دفعت فرعون إلى أن يأتى بالسحرة ، ليغيبهم موسى أمام الفرعون والملأ ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهرون .^(١)

(١) حقيق على أن : حريص على أن ، أو علق بأن . [كلمات القرآن].

(٢) مبين أى : ظاهر أمره لا يشك فيه [كلمات القرآن].

(٣) ونزع يده : أخرجهما من طوق نصيب بيضاء . جلب شعاعها شعاع الشمس [كلمات القرآن]

(٤) إلى جناحك : إلى جنبك تحت العضد الأيسر [كلمات القرآن].

(٥) قال تعالى ﴿ فَالْقَىٰ السَّحَرَاءُ سَجُودًا فَقَالَ أَمَّا بَنُو إِسْرَآئِيلَ وَمُوسَىٰ ۖ ۞ (٢٧) ﴾ [طه] .

إذن: فالكلام في الآيات التسع المقصود بها لآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل .

وبذلك نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا في آخر السورة بالخلاف بين موسى ﷺ وبنى إسرائيل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْطِلِفَ بِهِ . . . (١١٠) ﴾ [هود]

إذن: فقصة مع بنى إسرائيل تأتي بعد إتيائه الكتاب ، أى : التوراة .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى ﷺ مع فرعون فيقول :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَمِسْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

أى : مسطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاً^(١)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ ظَنَنَ أَنَّهُ آمِنٌ بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ
وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾

والصلا: هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصلدون للجهالين .
ويقال: «ملأ ملء العين» أى : لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح طاهر .

(١) الفكك: فكك الرهن والأسير ما فك به والرد به هنا الهروب (المعجم الوسيط) بصرف .
(٢) الرشيد: ضد الغي والضلال ، وضد السف وسوء التدبير . ورشد فلان : أصاب وجه الصواب والخير والحق . ونهى الرشيدنى للحق والخير والصواب . (القاموس القويم ١ / ٢٦٥) بصرف .

فالملا - إذن - هم أشرف القوم ، وهم - عادة - الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَاسْتَخَفَّ ^(١) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملا والقوم ، نجده يبين ويفصل بين الملا من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملا من جهة ، والقوم من جهة أخرى فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبين لنا الله سبحانه أن الملا قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذى يصفه الحق سبحانه بقوله:

﴿ .. وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٢) ﴾ [هود]

والرشد يقابله العقى ، وهذا القول يدلنا على أن الملا من قوم فرعون لم تدارسو أمر فرعون بتأن ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

ويبين الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم لقيامة هو وقومه ، فيقول تعالى:

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ
وَيُسَمَّى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ^(٢) ﴾

(١) لعب اسحق بن علي ولم يكن لهبلاً ومن للجهاز: خف عقله: طاش وحقق ومنه: استخفقه أى استصعب عقله وسحره وسيره على هواه وحمله على العيش والحق قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف] [القاموس الفويم ١/٢٠٠].

(٢) يقدم قومه: يقدمهم كما يقدم الزارد فأوردتهم النار أدخلهم فيها بكسر وكسرهم. الورد المورود: المتدخل المدخول فيه ، وهو النار. [كلمات القرآن].

وكلمة «يقدم» هي من مادة «القاف» و«الدال» و«الميم». وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابةً ، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: «قدم فلان» دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: «أقبل فلان» فهذا يعنى الإقبال بشيء من العزم. و«قدم القوم يقدمهم» أى: أنهم يتقدمون فى اتجاه واحد ، ومن يقودهم يتقدمهم

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون ، وما داموا قد اتبعوه فى الأولى ؛ فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة

ويأتى القرآن بآيات ويُسِّنها ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿قَوْرَيْكَ لَخَشْرْتُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثَمَّ لِنُحْصِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ﴾ (١٨)
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِجْعَةٍ أَهْلَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا ۖ﴾ (١٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ
بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا ۖ﴾ (٢٠) [مرم]

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطرة ، وينقيه فى انذار ، لأنه أعلم بمن يجب أن يصلى السعير .

ويقول الحق سبحانه .

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۖ كَانَ عَلَىٰ رَيْكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ (٢١) ثُمَّ نُنْجِي
الَّذِينَ آمَنُوا وَنُذِرُ الْكَافِرِينَ فِيهَا جِثِيًا ۖ﴾ (٢٢) [مرم]

(١) جثياً يركن على ركبهم لشدة الهول عتياً- حصاناً، أو جراءة أو جسوراً صلياً: دخولاً أو مقاساة غرها. [كلمات القرآن]

(٢) واردها- أى بالتحضر ، وواصل إليها ، فمنهم من يردّها ليدخلها ، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورؤيتها ليدرك مقدار نعمة الله سبحانه عليه بالجنة منها. [القاموس القويم ٢/ ٢٣٠] ، وورد فى [كلمات القرآن] . واردها ، أى . بالمرور على الصراط المبدود عليها .

(٣) حتم الله الأمر حتماً- أوجبه ، وهذا أمر حتم- أى- لازم لا بد منه ولا فكك عنه . والحتم- القضاء النافذ. قال تعالى ﴿... كَانَ عَلَىٰ رَيْكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ [مرم] أى: أن ورود المخاطبين من الكفار الذين لم يدبروا لها هو قضاء نال لازم . ولعل- يردّها ليدركوا مقدار نعمة الله عليهم بالنجاة منها مقضياً- أى: محكوماً به مفروضاً ، لا راد له ، ولا معقب عليه. [القاموس القويم ١/ ١١١] .

ولم يقل الحق سبحانه : « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » .

وإنما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴾ (٧١) [مرم]

وبذلك عمم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمزلة .

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون :

﴿ فَأَوْرَثَهُمُ النَّارَ وَيَتَى الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ^(١) ﴾ (١٨) [مرد]

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن «الورود» ، وهو الكتاب الذي نزل بلسان عربي مبين ، نجد أن الورود يأتي بمعنى المطعاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت : «ورد يرد وروداً» ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل : «ورد يرد ورذاً» بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ .. وَيَتَى الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴾ (١٨) [مرد]

أي : أنهم يشعرون بالبرس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه .

ذن : فكلمة «الورود» تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله .

﴿ وَتَسْقِي الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ^(٢) ﴾ (٨٦) [مرم]

(١) يتى الورود المورود : أي : يشي الموضع الذي يورده لإنسان فيلحق فيه العذاب الأليم [القاموس القويم] ٣٢٠ / ٢ .

(٢) الورود : الماء الموضعه ، أو الإبل الوردية على سبيل المجاز قال تعالى ﴿ وَتَسْقِي الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴾ [مرم] أي : جماعة يردونها ويدخلونها كمن ترد الإبل الماء . [القاموس القويم] ٣٢٠ / ٢ .

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى^(١) في معلقته:

قَلَمًا وَرَدَّنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامَةً وَضَمَعْنَ عَصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ^(٢)

والشاعر هنا يصف الركب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أي شيء يعكرها أو يكدرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً في يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال:

﴿مَنْ عَصَايَ أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى^(٣)﴾ (١٨)

[طه]

ويقول الشاعر^(٤):

فَأَلْقَيْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى^(٥) كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ^(٦) الْمُسَافِرُ

(١) حكيم الشعراء في الجاهلية ، من قبيلة مضر ، ولد في بلاد «مرينة» بتونس الحديثة ، كان أبوه وشيخه وابنه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أخته سلمى والحسناء . توفي عام (١٣٠ ق هـ) [انظر الأملام لخبر الدين الرواسي] .

(٢) الحمام . ما اجتمع منه في البئر والحواس وغيرها . وضع العصي . كتابه عن الإقادة ، لأن المسافرين إذا أناموا وضعوا عصيهم والتحيم . ابتداء الخيمة [راجع: شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٨٩] .

(٣) مثل الشجر يهشه هشاً . ضرب به عصاً بسوط ورقه لتأكده لماشية . قال تعالى: ﴿وَأَشْهُبُهَا عَلَى غَنَمِي﴾ (١٨) [طه] أي: أسقط بعصاي لرواق الأشجار على غنم لتأكلها .

ومآرب أخرى أي: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كتأكله ضرر أو غير ذلك [القاموس القويم ١٧/١ بصرف] .

(٤) هو: مقر بن حمار . [قاله ابن منظور في سنان العرب - مادة نوى]

(٥) أنية والنوى . الوجه الذي يويه المسافر من قرب أو بعد . والنية والنوى جميعاً: البعد . والنوى: النار . والنوى: التحول من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . وقد أورد ابن منظور هذا البيت في السان مادة: نوى .

(٦) الإياب: الرجوع والعودة . أب يزوب يرجع عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهًا لَّهُمْ (٥٥)﴾ [الغاشية] أي: رجوعهم والياب المرجع . اسم زمان واسم مكان [القاموس القويم ٤٢/١] .

سورة الزمر

﴿٦٦٦٣﴾

ساعة رأى الراكب المياه زرقاء ، فهذا يعنى أنها مياه غير مكسرة
ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزرقاء إن كانت خالية
من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتعكس عليها صورة السماء الزرقاء .
والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافي وتوقفوا وأقاموا
في المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعنى الذهاب إلى الماء دون الشرب منه ، والورد
للماء يُفرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء
لا شك أنه يعانى من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَبَشَى الْوَرْدَ الْمُرْرُورُ ﴾ (٩٨) [عرد]

وفى هذا تهكم شديد ، لأنهم قوم فرعون ساعة يرون الماء يشعرون
بقرب رى الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبشس
ما يشربون ، فهو يطعمهم أولاً ، ثم يئسهم بعد ذلك .
كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يَعْنُوا بِمَاءِ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الرُّجُومَ ﴾ (١٢٩) [الكهف]

فهم ساعة يسمعون كلمة «بشاشوا» يفهمون أن هناك فرجاً قاصداً لهم ،
فقد ما علموا أنه ماء كاللهل يشوى الوجوه ، عانوا من مرارة التهكم .

ولله المثل لأعلى : فأتى قد نجد من يدعوك لأطيب الطعام ، وبعد ذلك
تغسل يديك ، فيلج عليك من دحلك إلى تناول الخلوى ، فتستشرف نفسك

(١) كاللهل ، مثل يردى الزيت أو كالمذاب من المعدن ، [كلمات القرآن] والمهل المعدن اللذاب والقطران
وعكر الزيت الغلى ، والقيح [القاموس المجمع ٢/٢٤٦]

إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دماك قد أوصى الطباخ أن يخلط
الحلوى نبات «الشطة» فيلتهب جوفك ؛ أليس في هذا تهكم شديد ؟
والحق سبحانه يبين لهم أن الررد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن
أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك طعام الذي
يأكله أهل النار .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ (٣٦)
وهكذا تصير الكفة نكتتين .

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لَأَ وَادُّهَا .. ﴾ (٣٦)
بمعنى أنهم جميعاً سوف يردون جهنم .
ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ ثُمَّ لَنْ نَعْلَمَ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا حِيلًا ﴾ (٣٧)

إذن : فالحق سبحانه يعطى لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون
النار وتسعروها ^(١) ، وهم يدخلوها ، صرعوا كيف نجتهم كلمة الإيمان منها
فيعبدون الله سبحانه وتعالى على النجاة

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) الغليل خسالة أبدال أهل النار ، أو ما يسيل من جلود أهل النار من الصبر وغيره مما تعافه النفس
وتكرمه . قال تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة ٤٤] . [القاموس القويم ٢ / ٤٤] .
(٢) سعرت النار : اشتعلت ، وأمرها ؛ أوقدها وأهيجها وسعرتها بالخشبة . أهيجها : قال تعالى
﴿ وَإِذَا الصُّجُجُ سُحِرَتْ ﴾ (٥٥) [التكوير] أي : لوحدت بشدة . [القاموس القويم ١ / ٣١٣]

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾ (٩٩)

أى : أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ،
ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهى لعنة يوم القيامة : ﴿يَبْسُ الرِّقْدُ
الْمَرْقُودُ﴾ (٩٩) والرقد : هو العطاء ، فهل تعد اللعنة فى الآخرة عطاء ؟

إن هذا تهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (٩٨) [هود]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِرٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠)

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب ؛ لأنها كذبت أنبياءها .
والخطاب موجّه لرسول الله ﷺ لتثبيت مؤاده ، والحق سبحانه إنما يبس
له أن الكافرين لن يكونوا بمنجى من العذاب ؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم
السابقة الكافرة بالعذاب .

وقول الحق سبحانه :

- (١) رقد يرقده رقداً ، أعطاه وأعانه والرمد العطاء والمحنة قال تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾ (٩٩) [هود] أى : العطاء المعطى لهم ، وهو العطاء الذى أتبعها فى الدنيا والآخرة ،
رسمى اللعنة رقداً تهكماً وسخرية [القاموس القويم ١/ ٢٧]
(٢) لعله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِرٌ وَحَصِيدٌ﴾ (٩٨) [هود] أى : منها باق ، ومنها
هالك وقال تعالى ﴿ .. حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (٩٥) [الأنبياء] أى : جعلناهم كالاربع
المحصود ، أى : أهلكناهم [القاموس القويم ١/ ١٦٦] .

﴿ نَقِصُّهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (١٥٠) [مرد]

يتعلب أن يفرق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقي لها ، فبعض الناس يقول: إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تمتلىء بالتوسيع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحكمة .

ولهؤلاء قول: أنتم لم تفهموا معنى كلمة «القصة»^(١) في اللغة العربية ، لأنها تعني في لغتنا الالتزام الحرفي بما كان فيها من أحداث ، فهي مأخوذة من كلمة: «قص»^(٢) الأثر ، ومن يقص لأثر إنما ينتج مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشيء المراد .

إذن: قصص القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُحح عليه في عرف العامة أنه قصص ، بما في تلك القصص من حبات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمى لغوياً بالروايات ، ولا يُعتبر نصصاً .

وقصص الإهلاك للآم التي كُفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، وإنما تعلم أن ما رواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التي ابدثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار وقوش على المقابر .

(١) قص الكلام أو الأخبار ، ينصها نصاً وقصصاً تبعها رواها وحكاها . قال تعالى ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تنطق .. ﴾ (١٥٠) ﴿ القصص ﴾ أي قص عليه أخباره وحديثه بها وقال تعالى ﴿ ورسلاً قد نعصاهم فليت من قبل ﴾ (١٥١) ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ (١٥٢) ﴿ التباء ﴾ أي: ورسلاً ذكرنا لك أخبارهم ، ورسلاً لم نذكر لك أخبارهم . [القاموس القويم ١٢٠/٢]

(٢) قص الأثر قصصاً ، تبعه ومنه قوله . ﴿ لا نقص على أقرهنا نصصاً ﴾ (١٥٣) ﴿ الكهف ﴾ أي يتبعهم آثارها تبعاً . [القاموس القويم ١٢٠/١]

(٣) القصص مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار قال تعالى ﴿ قد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب .. ﴾ (١١١) ﴿ يوسف ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (١٢٣) ﴿ يوسف ﴾ وقال تعالى: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (١٢٤) ﴿ الكهف ﴾ [القاموس القويم ١٢٠/٢]

سُورَةُ الْأَنْعَامِ



ونحن نجد في آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة
وتقرش ، ومنها ما هو مُحطَم .

ولذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٢٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَقْلًا مُعَفِّونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

[الصافات]

أى . أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم .

ويقول الحق سبحانه من تلك القرى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ
عَنَّهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَهُ
أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعًا ﴿١٦﴾ ﴾

وبين الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم ؛
لأن معنى الظلم أن يكون لإنسان الحق ، فسلبه هذا الحق

وفى واقع الأمر أن تلك الأمم لتى كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هى
التي ظلمت نفسها بالشرك ، وكذبت تلك لأقوام الرسل الذين جاءوا وهى
يد كل منهم دليل الصديق وأمارات الرسالة .

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن تعلم أن الحق
سبحانه مُنزَهٌ عن أن يظلم أحداً

(١) التنبيه . الإهلاك والتعجير والتباب الهلاك قال تعالى . ﴿ .. وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ﴿ .. ﴾
[غافر] . ونبيه تنبيهاً : لهلاكه . قال تعالى ﴿ .. وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعًا ﴾ [هود] . [القاموس القويم

وهم حين أشركوا بالله - تعالى - آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمي مَنْ آمنوا بها ؟

ويجبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التي عبدوها تلعنهم ، وهم في النار ، وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار

والحق سبحانه يقول عن النار :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ ۞ (٦٤) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجهنوا ، بالجهل على هذا الإنسان الذي عبدوه ، أو تلك الأحجار التي صلوا لها أو قلدسوها .

والشاعر المسمم تأمل غار حراء وغار ثور - وكلاهما من الأحجار - فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الرحي على الرسول ﷺ ، وغار ثور حمى رسول الله ﷺ حين خفي فيه ومعه الصديق أبو بكر في أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حصد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَنًا حِرَاءَ حِينَ بَرَى الرُّوحَ آمِنًا يَغْزُوكَ بِالْأَنْوَارِ

فَحِرَاءٌ وَتَسُورُ صَارًا مَوَاءَ بِهِمَا تَشْفَعُ لَأَمَّةِ الْأَحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد ﷺ ، لكن غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول في الهجرة .

(١) الرقود : ما تشتمل به النار من حطب وفير . قال تعالى : ﴿ النَّارُ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ ﴾ [البروج] أي : ذات الحطب الذي يلقى فيها ليندعا اشتعالاً ، وذلك يدل على حرص الكفار الفاضلين حولها على زيادة اشتغالها ليحديروا بها المؤمنين أشد العذاب - كما حدث في قصة أصحاب الأخدود - ولكن النار في الآخرة تكون وقودها الناس والحجارة ، ولما نادى بالناس هنا الكفار والصفاة الذين يكون مصيرهم إلى النار . قال تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ هُم وَقُودُ النَّارِ ۚ ﴾ [آل عمران] . [القاسم من القويم ٢/ ٣٤٨] يتصرف .

كذلك الأحذ الذي أحذ الله به القرى التى كُتِبَتْ أنبياءها
لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ
إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٢٢﴾

أى : أن الأحذ الذى أحذ به الله القرى الكافرة ، إنما هو مثل حى لكل
من يكفر .
والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالْعَجْرُ ١ وَلَيْلٍ عَشْر ٢ وَالشُّعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ ﴾
هل فى ذلك قسم لئلى حجر ٥ ﴿

[العجْر]

أى : أن الحق سبحانه يقسم لعل كل صاحب عقل يستوعب ضرورة
الإيمان ، ويضرب الأمثلة بالقرم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب ، فيقول
سبحانه

(١) الأليم : المزمع شديد الإيلاء والوجع . قال تعالى : ﴿ وَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة]
والأليم : الوجع الشديد . [المؤمن القوم ٢٦/١] بصرف
(٢) والعجْر : قسم من الله تعالى بالوقت المعروف (وقت العجْر) .

وليلٍ عشر : العشر الأول من دى الحجة

والشع والوتر : يوم البحر ، ويوم عرفة .

والليل إذا يسر : إذا مضى ويذهب لو يسر فيه .

هل فى ذلك . أى : فى المذكور الذى أقسمنا به .

قسم لئلى حجر ؟ - قسم به حق بالتمظيم لئلى العقلاء - نعم - (وجواب القسم) لتعذيب الكافرين .

[كلمات القرآن] للنبيح حسين محمد مطوف

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ
مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتُمْوِدَ الَّذِينَ جَاءُوهَا الْعَصْفَرِ يَالْوَادِ (٩) وَلِرَعْنُونَ ذِي
الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَرُوا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِمٌ مُرِيدٌ (١٤) ﴾ [المعجم]

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر .

وقوله سبحانه هنا :

﴿ وَكَذَلِكَ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

أى : مثل الأخذ الذى أخذت به القرى التى كلَّبت رُسدها ، فظلمت نفسها ،
والأخذ هنا عقاب على العمل ، بدليل أنه أنجى شعبياً ﴿ كَذَلِكَ ﴾ وأخذ قومه
بسبب ظلمهم ، فإذات لإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذى يستحق
العقاب

ومثال ذلك . لجده فى قصة نوح ﴿ كَذَلِكَ ﴾ حين قال له الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فإلذى وضع ابن نوح فى هذا الموضع هو أن عمه غير صالح ؛ لذلك
فلا يقول نوح : إنه ابنى .

(١) عَاد - قوم هود ، سُورَةُ نَاسِمِ آبِيهِمْ .

إِرَمَ - هو اسم جنحهم وبه سميت القيلة

ذَاتِ الْعِمَادِ - اللثة ، أو الأبنية الرابطة المحكمة بالعمد

جاءوا الْعَصْفَرِ - طعموه وبحثوا فيه يبرأتهم

ذِي الْاَوْتَادِ : الجهورش الكثيرة التى تشد سلكه .

سَوْطَ عَذَابٍ : عذاباً شديداً مؤلماً دائماً

إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِمٌ يَرْفُقُ أَصْمَالَهُمْ وَيَجَارِيهِمْ عَلَيْهَا [كلمات القرآن]

فليس الإهلاك بعلة الدات والدم والقراية ، بل الإهلاك بعلة العمل ،
فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن تعلم
أن البتوة للأنبياء ليست بتوة الذوات ، وإنما بتوة الأعمال .

وكللك لجد الحق سبحانه بنبي إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فعين
كرم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال .

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞١٦١ ﴾ [البقرة]

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ ۞١٦٢ ﴾ [البقرة]

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله
سبحانه :

﴿ .. لَا يَتَّخِذُ الْغَالِي ۚ ۞١٦٣ ﴾ [البقرة]

وظلت هذه القضية في ثورة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البتوة
للأنبياء ليست بتوة ذوات ، بل هي بتوة أعمال .

(١) يول تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞١٦١ ﴾ [البقرة] أي قسوا يقضى بك الناس ويقول تعالى
﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ الْأُمَمِ لِمَتِهِمْ ۚ ۞١٦٢ ﴾ [الاسراء] أي : برسولهم فيقال : يا أتباع إبراهيم ، وأمة موسى ،
ويا أمة محمد - أو مكاتبهم ، فيقال : يا أمة التوراة ، ويا أمة الإنجيل ، ويا أمة القرآن [القلموس القويم
٣٢ / ١] .

(٢) القرية للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث من سبل الإنسان . قال تعالى ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ حُجَّاجٌ ۚ ۞١٦٣ ﴾ [البقرة] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الْقُرْآنَ وَالْكِتَابَ ۚ ۞١٦٤ ﴾ [الحديد] وقال تعالى ﴿ .. وَإِنِّي أُعِيذُكَ بِكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۚ ۞١٦٥ ﴾ [آل عمران] وقال
تعالى ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّنَا ۚ ۞١٦٦ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَبَنَّا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ ۚ ۞١٦٧ ﴾ [الفرقان] بالجمع ، وقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِمْ دُخَانُهَا وَهُمْ يُنْفَخُهَا ۚ ۞١٦٨ ﴾ [الأنعام]
بالجمع ، ورست بغير الق في المصنف . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخْبَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ يَكْفُرُ بِكُلِّ قَوْمٍ فَأَبَىٰ لَهُمْ فَقَالُوا إِنَّا
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞١٦٩ ﴾ [البقرة] قال لا يتَّخِذُ الْغَالِي ۚ ۞١٦٣ [القلموس القويم
٣٢ / ١] بصرف .

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله من وادٍ غير ذي زرع ،
وقال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ . ﴾ (١٦٦) [البقرة]

وهنا اتبته إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ .. ﴾ (١٦٦) [البقرة]

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ انقياس : لأن الرزق عطاء ربويه يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ فلا تحلط بين عطاء الربوية^(١) وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِغُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَمِنْهُ الْمَصِيرُ ﴾ (١٦٦) [البقرة]

وأتت يا إبراهيم دعوت برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تقي الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية في التكليف ، وعطاء الربوية في الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر .

إذن : فأخذ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو هتف التنازل لمخالف ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الأخذ ، فإذا كان الأخذ هو الله سبحانه ، فهو أخذ عزيز مقتدر .

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق ؛ لأن الحق سبحانه حين يحرم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرم عليك أيضاً ظلم نفسك

(١) عطاء الربوية عام ، وعطاء الألوهية خاص ، فالعطاء العام لكل مخلوق ، والعطاء الخاص لأهل التكليف من الإيمان السخي واليؤن النقي . من حكم الشيخ

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله :

﴿ .. إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) [هود]

أى أن أخذه موجه على قدر طلاقه قدرته سبحانه
وعب أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن
يرد السيئة سيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَالِيْتُمْ لَفَعَابُوا بِمِثْلِ مَا عَلِمْتُمْ^(١) بِهِ .. ﴾ (١٠٣) [النمل]

حتى لا تبیت انفعالاتك عندك قهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط
التزوع فعليه أن ينظر في قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ^(٢) .. ﴾ (١٠٤) [آل عمران]

إذن : فإما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، وإما أن تكظم غيظك ،
أى : لا تُترجم غيظك إلى فعل نزوى ، وإما أن ترتقى إلى الدرجة الأعلى
وهى أن تعفو ؛ لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو^(٣) .

(١) عاقبه عقاباً ، جازاه سوءاً بما عمل . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَلِمْتُمْ لِمَعْتَدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ^(١) بِمِثْلِ مَا عَلِمْتُمْ بِهِ .. ﴾ [النمل]
والعقاب والمناسبة إيقاع الجزاء على القلب . قال تعالى : ﴿ إِذْ نَكَثَ آلُ بَكْرَةَ وَذَرَعَابَ إِلَيْهِمْ^(٢) ﴾
[فصلت] [القاموس القريم ٢/ ٢٩]

(٢) الكاظمين الغيظ : الخاضعين غيظهم في قلوبهم [كلمات القرآن] . وكظم الغيظ : إمساكه وحجسه في
النفس والصبر عليه . [القاموس القريم ٢/ ١١٣]

(٣) يقول الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ جَاهِلٌ بِمَا عَمِلَ فَإِنَّ إِلَهَهُ يَخْشَاهُ^(١) وَالْأَرْضُ أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ^(٢) الَّذِينَ
يُخْفُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْمُتَّقِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٣) ﴾ [آل عمران]
ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَا تَسْأَلْنِ الْمَنَّةَ وَلَا السَّخَّةَ لَدُنَّ النَّاسِ مِنْ أَحْسَنُ^(٤) إِلَهِ يَمْلِكُ وَيَبْهُ عَذَابُهُ
كَالْوَلِيِّ^(٥) ﴾ [فصلت]

ولذلك حين سألوا الحسن البصري : كيف يُحسِّن الإنسان إلى من أساء إليه ؟

اجاب : إذا أساء إليك عبد ، ألا يُغضب ذلك ربه منه ؟ قالوا: نعم . قال : وحين يغضب الله من الذي أساء إليك ، ألا يقف إلى جانبك ؟ أفلا تحسِّن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك ؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين ^(١) أنه سمع أن شخصاً اغتابه ، فأهدى إليه - مع خادمه - طبقاً من بواكير ^(٢) الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً : لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك ؟

قال العارف بالله : بَلَّغَهُ شُكْرِي وامتناني لأنه تصدَّق عليَّ بحسناته عندما اغتابني ، وحسناته - بلا شك - أنقَسَ من هذا الرطب .

ولذلك يقال : إن الذي يعفو أنكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذي يعاقب إنما يعاقب بقوته ، والذي يعفو فهو الذي يترك العقاب لقوة الله تعالى ، وهي قوة لا متناهية

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ ^(١) وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

[هود]

(١) هو الحسن البصري روى أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً حتى يثبِقَ وقال : قد بلغني أنك ضيقت إلى من حسنته فارتيت أن أكافئك حلبيها فأهدى غلتي لا ألدن أن أكافئك على التعمد أو ربه القراني في الإحياء (١٥٤/٣)

(٢) البواكير جمع باكور أو بلقورة ، وهي أول ما يذرك من الثمر . وهي أيضاً المعجل من كل شيء المعجم الوسيط مادة (ب ك ر) يتصرف

(٣) القرية جمع قرية وهي البلدة الكبيرة وتكون أقل من المدينة ، أو هي كل مكان اتصلت به الأودية . قال تعالى ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا﴾ [يوسف] أي : أهل القرية . مجر مرسس علاقته العملية وكذلك قوله تعالى ﴿وَوَكَّلْنِي مِنْ قَرْيَةٍ فِي أَشَدِّ لُؤْمَةٍ مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَ أَجْدَكَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد] والمراد أهلها . أحد من أهل مكة الذين أخرجوك وقوله تعالى ﴿إِنَّا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود] أي أخذ أهلها ومع ظالمون [القاموس القويم مادة (ق ر ي)]

أى أخذ مرجع على قدر قوة الله سبحانه ؛ وهو أخذ شديد ؛ لأن الشدة تعنى جمع الشيء إلى الشيء بحيث يصعب انفكاكه ، أو أن تجمع شيئين معاً وتتضمنهما بحيث يصعب تحلل أى منهما عن الآخر

وهذه أقوى غلبة القوة

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾^(١)
 ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(٢)

من بحاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التى تخبر عن الذى حدث للامم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل.

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة ، ويعتبر بما جاء فيها ، وينتفع بالخبرة التى جاءت منها ، فهو صاحب بصيرة نافذة ، فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملقنة.

ولذلك يقال إن لكل آية مواليد ، هى العبر بالآيات. ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

(١) مجموع اسم مفعول من جمع والامر الجامع الامر العظيم الذى يجمع الناس له. والجامع اسم فاعل من جمع، وهو من أسماء الله العسوى. قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُنْ لَّكُم مِّنْ يَّوْمٍ لَّا رُبِّ فِيهِ - ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْكُرُوا حَتَّى يَمُوتُوا﴾. (٣٦) [النور] [القاموس القويم. مادة (ج م ح)].

(٢) مشهود اسم مفعول، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (٣٥) [مريم] أى: حضره الناس، وشاهدوا قوله أو حضرته ملائكة العذاب، وقوله: ﴿إِنَّا قَرَأْنَا الْقُرْآنَ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٣٦) [الإسراء] أى: إن قرآن القجر تشهد الملائكة وتسجل ثوابه ومشهده. اسم مكلن، واسم زمان ومصدر ميمي، كما فى قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ لَّدَيْنِ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهُدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧) [مريم] [القاموس القويم. بتصرف] ص ٢٥٩ [١-]

﴿وَكَايَ (١) مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٢)﴾ [يوسف]

إذن: فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولى الأبواب (٣) ، فلا ندخل في نائرة من لا يشافون العذاب ، أولئك الذين يتلقون العذاب خزيًا في الدنيا وجحيمًا في الآخرة ؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له ، والفضيحة فيه أمام كل الخلق.

لذلك قال الحق سبحانه

﴿.. ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لُّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (٤)﴾ [هود]

أي: أن الفضيحة في هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر ، من لدن آدم إلى آخر البشر ؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان ، وأمام من لا يعرفهم

وقول الحق سبحانه

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لُّهُ النَّاسُ (٥)﴾ [هود]

وكلمة «مجموع» تقتضي وجود جامع ، و«المجموع» يتناسب مع قدرة «الجمع» ، فما بالنا والجامع هو الحق الخالق بكل الخلق سبحانه وتعالى.

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة : بل يجتمعون وكلهم انتباه ، فالحق سبحانه يقول

(١) ﴿وَكَايَ مِّنْ آيَةٍ (١٥٥)﴾ [يوسف] أي كم من آية أو كثير من الآيات. [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف].

(٢) معترضون اسم فاعل من «عرض» و«عرض» عن الشيء ولم ينصرفاً عنه غير واقف فيه. قال تعالى: ﴿أَعْرِضْ وَذُنِّبْ بِجَانِبِهِ (٨٧)﴾ [الإسراء]. [القاموس القويم مادة: (ع ر ح)].

(٣) الأبواب جمع لب وهو العقل وقد وردت في القرآن ١٦ مرة يقول تعالى ﴿ (١٣) إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ (١٣)﴾ [الزمر].

﴿ .. إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٧) [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه أيضاً،

﴿ وَاتَّقِ رَبَّ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٩٧)

[الأنبياء]

وهنا يقول سبحانه

﴿ .. وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (١٠٢) [هود]

أى أن كل الخلق سيشهدون هذا القصر المعرى لمن لم يعتبر بالآيات.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك فى معاد هذا اليوم

﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ (١٤)

وهكذا نعلم أن تأخر مجيء يوم القيامة لا يعنى أنه لن يأتى ؛ بل سوف يأتى - لا محالة- ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم فى تقايح موانيدكم ما يجعلكم تتقون بأن مزاليد الأحداث إنما يسمدها الله.

وقول الحق سبحانه.

﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ . ﴾ (١٠١) [هود]

يتطلب أن نعرف أن كلمة «الأجل» تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته.

(١) معدود: اسم مفعول من الفعل (عد). قال تعالى ﴿ أَيُّهَا مَعْدُودَةٌ . ﴾ (٤٥) [البقرة] أى -معدودة قليلاً، هي أيام شهر رمضان. وقال تعالى ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ [هود] وقال تعالى ﴿ لَقَدْ أَخْلَصْنَاهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ [مريم] والأجل: مدة الشيء وغاية الوقت ووقت الحياة أو وقت الفناء أو وقت الموت. والمعاد به هنا يوم القيامة. [القاموس القويم: (مادة ح د د) و(مادة أ ج ل)] بتصرف

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة في حكم واحد ، فقله تعالى :

﴿ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يعنى لا تتكلم أى نفس^(١) إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا بعلاقة القدرة التي منحهم إيها الله سبحانه حين أضع لهم جوارحهم وجعل الحق سبحانه للجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ، وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح ، فتجد الآخرس الذي لا يستطيع الكلام ، وتجد المشلول الذي لا يستطيع الحركة ، وتجد الأعمى الذي لا يبصر ، وغير ذلك..

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هي أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ، وليست مسألة ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يبين لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا في الدنيا ، فهي ترضخ لإرادتنا ، لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولا نفعلاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا في إطار الإذن العلم للإرادة أن تتفعل لها الجوارح.

وقد سلب الله سبحانه هذا الإنس فلا تفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى

﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الْوَحْيُ وَقَالَ صَوَابًا (٢٨) ﴾ [الباء]

(١) النفس الروح وذات النفس وحقيقته معصداً لقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . (١٨٨) ﴾ [الأعراف] هي نفس آدم عليه السلام ، وقوله ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي . (٤٣) ﴾ [البقرة] أي ما استره في ضميري . وقوله ﴿ وَمَا كُنْ مِنْ نَفْسِي . (٤٣) ﴾ [يوسف] أي دأب وقوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا نَحْنُ الْبَاقِيَّةُ . (٢٧) ﴾ [البقرة] أي . انصلاً والنفس لها حالات ، فتكون أماره ، وتكون لوامة ، وتكون مطمئنة برضية ، وتخرج برجتها لتكون مرصية قد رضي الله عنها وأرضى بها . وقوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ نَكُفِّرُ بَعْضَكُمْ عَنْ بَعْضٍ . (٢٨) ﴾ [آل عمران] أي قصيه [القاموس القويم ص ٢٧٨ ج ٢]

سورة هود

٦٦٨١

ويقول الحق عز وجل في آية أخرى:

﴿رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ (٧٧)﴾ [الصافات]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات]

ويقول الحق سبحانه أيضاً

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ (١١٠) عَنْ نَفْسِهَا .. (١١١)﴾ [التحل]

وفي موضع آخر يقول سبحانه

﴿رَفَعَهُمْ (٧٤) إِنَّهُمْ مُسْتَقِرُونَ (٧٤)﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُحيل للبعض أن هناك آيات تتناقض بعضها ، فهناك آيات

تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفي القدرة على الكلام.

وأقول: يجب أن نفهم أن الكلام الذي سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم

القيامة هو الكلام المجدي النافع ^(١) ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذي

لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ، وذكره لنا القرآن في قوله سبحانه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَبْنَا اللَّذِينَ أَحْلَاْنَا (١١٠) مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجَعْتَهُمْ

نَحْتُ أَقْدَامًا .. (٧٩)﴾ [فصلت]

(١) جادل صاحب الحق، والمباطل، واستعمل في الباطل في قوله تعالى. ﴿هَذَا يَوْمٌ هَؤُلَاءِ جِئْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٥)﴾ [التيسار] . واستعمل في الحق في قوله تعالى. ﴿وَيُجَادِلُهُمْ بِالَّذِي فِي الْحَسَنِ .

(٣٦)﴾ [الصل] ، وقد نهى الله حجاج بيته عن الجدل بكل أنواعه صيانة لعلاقة العجبة بيومهم. قال

تعالى ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ . (٣٣٣)﴾ [البقرة] [القاموس القويم. مادة (ج د ل)]

(٢) قلوبهم أصبحوا في موقف الحساب . كلمات القرآن للشيخ حسين مطوف.

(٣) أي أنهم لا يتفقون بحجة توجب لهم. وإنما يتكلمون بالإقرار بظنهم، ولو لم يمتهم بعضاً، وطرح

بعضهم الدعوى على بعض، فاما التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما نقول للذي يعطيك كثيراً

وخطابه فارغ عن الحجة ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء. نسمى من يتكلم بلا حجة فيه له

غير متكلم. قاله القرطبي في تفسيره (٣١١٧/٤)

(٤) قيل فلا من عبود أرواحه في الضلال والضياع. قال تعالى. ﴿وَمَنْ جَاهِلٌ فَهُمٌ مَا

كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٥)﴾ [يونس] أي. غاب عنهم ما عبودوا وقال تعالى. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

.. (٣٥)﴾ [الكول] أي. ضاع عنهم ولم يحقق أرواحهم منه أي لم يجدوا ثواباً يوم القيامة

[القاموس القويم. مادة (ض ب ل)] بتصرف.

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى

إذن فالمصروع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة ،
فرقت يتكلمون فيه ؛ وقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون ، ويأمر
الحق سبحانه الجوارح المفعلة أن تتكلم وتشهد عليهم^١

ويقسم الحق سبحانه أحوال الناس لتسمين. كما فى قوله تعالى فى آخر الآية:

﴿ .. فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ^(١) وَسَعِيدٌ^(٢) ﴾ [هود]

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين ، «شقي» و«سعيد» ، لأن الاسم يدل على
الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نعت بالشقي ، والسعادة ثابتة لمن نعت بالسعيد^٢ .

ثم يبين لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شَقُوا وَمَنَّا مَنْ سَعَدُوا ؛
ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل . فيقول سبحانه.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَوْنَ إِلَىٰ أَعْيُنِ النَّارِ لِمَ كَانُوا فِيهَا زُرَّارًا^(٣) وَشَقِيٌّ^(٤) ﴾

(١) ويقول الحق سبحانه ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المود] وتند
لورد العيصوطي فى الدر المنثور (٦ ، ١٦٥) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «إن كان
يوم القيامة عُرف الكافر بملكه مسجد وحاسم. فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول
كذبوا. فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال أحلفوا فيحلفون. ثم يعصتهم الله وتشهد
عليهم ألسنتهم وأيديهم. ثم يدخلهم النار» عزاد لآبى يحيى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه.
(٢) شقي - من باب فرح - شقا وشقاك وشقارة : ساءت حاله المادية أو المعنوية فهو شقي. وأسم
التفصيل لشقي. وسعد كفرج وسعد [ككرم] بسعد ويسعد سقنا وسقونا وسعانة نال الخير
﴿ .. فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود] [القاموس التوحيدي (٢٥٣/١) ، (٢١٢/١) بتصرف مختصر

(٣) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية ﴿ .. فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود]
سألت رسول الله ﷺ فقلت يا مبيى الله فعلام بعمل ؟ على شيء قد فرغ منه لو على شيء لم
يفرغ منه ؟ فقال : بل على شيء. قد فرغ وجرت به الأقدام يا عمر. ولكن كل منجز لما خلق به
أمرجه الترمذى فى سننه (٣١١١) وابن أبى عمير فى السنة (٧١/١) وأحمد فى مسنده (١/١)
قال الترمذى. «هذا حديث حسن صحيح»

(٤) زجر - إخراج شديد للنفس من الصدر وشهيق. رد النفس إلى الصدر [كلمات القرآن للشيوخ
حسنيين مخلوف].

﴿ .. فَمَنْ النَّارِ نُهُمَ فِيهَا زَغِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (١٦) [هود]

ونحن نعلم أن الذي ينفخ في النار سيخرج الهواء من صدره
ساخناً ملأماً يأخذ الشهيق ساخناً

ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصَفًا مَا يَتْلَقُهُ أَوَّلُ الشَّقَاءِ فِي
النَّارِ ، فيقول سبحانه

﴿ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (١٧)

وكلمة «الخلود» تفيد لمكث حويلاً : مكوثاً له ابتداءً ولا نهاية له ؛
وإذا أُبْدِ فهو تأكيد للخلود.

والذين شقوا إنما يدخلون النار ، بدءاً من لحظة

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ فَسٍّ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. ﴾ (١٨) [هود]

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين

وأما عذاب المسلم العاصي على ما ارتكب من آثام ، فبدايته من
لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهي فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ،
ويدخل الجنة من بعد ذلك^(١)

(١) فعل يفعل فهو فاعل ، وفاعل سم فاعل من فعل ، وفعل صيغة مبالغة من فعل ، قال تعالى
﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِزُكَاةٍ لَّا يَخْرُجُونَ ﴾ (٢١) [المؤمنون] ، وقال تعالى ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (١٧) [هود] .
[القاموس القويم مادة (ف ع ل)] ينصرف .

(٢) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون
فيها ولا يحيون ، ولكن خامساً أصابهم النار بذنوبهم أو قتلوا بخطاياهم فاماتهم الله إماتة حتى إذا
كانوا قداماً أنى لهم من الأشقة فيجيء بهم مسبقاً فينثروا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل
الجنة أمضوا عليهم ، فيموتون بمات الحبة تكون في حنظل السيل ، أخرجه مسلم في صحيحه
حديث (١٨٥) ، وأحمد في مسنده (٢ / ٥٠٥)

ولهذا قال الحق سبحانه

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٧)﴾

[مرد]

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لانصاف المؤمنين فالحق سبحانه ﴿.. فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٧)﴾ ولا يحكمه أى شىء.

ولياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ، فالقدر فعله ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عما يفعل ، لأن ذات الله هي الغاية ، فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاص في النار ، فالتقص يكون في النهاية ، وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده في الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفى عقابه.

وبهذا التصور ينتهي الإشكال الذي ختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يخلق أبواب الدار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قل بذلك الراى ، ثم يسوئ بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رايه بالآية الكريمة التي جاءت في سورة الجن ، ولتى يقول فيها الحق سبحانه.

﴿إِلَّا بِلَاغٍ مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (١٣)﴾

[الجن]

منحن نقول. إن الحق سبحانه يربب لطقه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصي حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأييد الخلود في العذاب لم

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٦

يرد إلا في آيتين^(١)، وهنا دليل على عظيم رحمة الله وسعة عفوه سبحانه.
ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ إنه رحمة الله للعالمين؛ وكلمة
«العالمين» جمع «عالم» ولعالم هو ما سوى الله تعالى.
ولذلك هناك رحمة للكافر، هي عطاء الله له في الدنيا.
ومكنا نعلم أن الله سبحانه هو الذي يملك تواسيس الكون،
ولم يتركها تفعل وحدها، بل يزاوِل سبحانه سلطانه عليها، وما دام
القدر هو فعله سبحانه؛ فهو يغيّر فيه كما يشاء.
فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة، وما دام هو رب كل شيء
فإنه فعلى ما يريد، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيئته
وقول الحق سبحانه،

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ [١٧]

فهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما
ويظللهما، ولا بد أن يرحنا فوق أرض ما

وإذا قال قائل، إن الحق سبحانه قد ذكر في القرآن أن السموات
سوف تمور^(٢) وتنطمر^(٣)

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [٢١] خالدين فيها أبداً لا يجدون فيها رباً ولا
نصيراً [٢٢] [الأحزاب] وكذلك في سورة الجن ﴿.. ومن يضر الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين
فيها أبداً..﴾ [الجن].

(٢) ماز الشيء بمور موراً: تهرق وتغيب وجاء في سرعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْوُ السَّمَاءُ مَرًوًا﴾ [٥]
[الطور] [القاموس القويم مادة (مور)].

(٣) ينطمر الشيء وينطمر يتشقق. قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [١١] [الأنطار] أي انشقت يوم
القيامة وأمره تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْطَرُونَ مِنْهُ﴾ [١٢] [مرهم] أي يتشققن من مور كقهرم
واعتاشهم أن لك ولداً - كما بهم من قوته تعالى: ﴿وَقَالُوا اللَّهُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [٢٤] الله جهم جهنماً [٢٥]
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْطَرُونَ مِنْهُ وَتَسْجُدُ الْأَرْضُ وَتَعْرِفُ فُجُيَانَهُ هَذَا [٢٦] [مرهم] [القاموس القويم مادة
(نطر)] بنصرف.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٧

نقول رداً عليه، لا تأخذ آية في القرآن إلا بضعيمة ^(١) مثيلاتها.

ولذلك قال الحق سبحانه

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ^(٢) ..﴾ (٤٨) [إبراهيم]

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ، لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة

﴿وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَبْوَاً ^(٣) مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ..﴾ (٧١) [البرم]

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار

ومن العجيب أن الإنسان المحبوم بالمادة الحامدة ، وبالنبات النامي ، وبالحيوان الذي يحس ويتحرك ، هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخرة لخدمته ، لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر.

(١) الضميمة، المضموم إلى غيره، [المعجم الوسيط: مادة (ضمم)]، والمراد ضم الآيات المتعاقبة ومنها فهما شاملاً

(٢) يبدل الشيء غيره، ويدل الكلام غيره أو حرفه بحيث يؤدي معنى غير المراد منه. قال تعالى: ﴿يَبْدُلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قُلُوبَهُمْ غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ..﴾ [البقرة] أي: يغيره بكلام آخر أو حرفه ليدل معنى آخر غير المراد منه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَوْعِدَهُ يَوْمَ ..﴾ [الأنعام] أي: عس الخير والنعس بعد عمل السوء. وقال تعالى: ﴿.. وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْرَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٤٨) [الأنعام] أي: جعلناهم بدلاً منهم، كقوله تعالى: ﴿.. إِذْ يَسْأَلُكُمْ رَبُّهُمُ رَبُّكُمْ رَبَّنَا تَحَدَّثْ لَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٤٨) [إبراهيم] [القاموس القريم مادة (بدل)].

(٣) بوا، أسكنه، وبوا في الأرض، مكى به فيها. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ابْرَاهِيمُ مَكَانَ الْقَبْرِ ..﴾ (٢٢) [الحج] أي: هيأته له ومكانه منه. وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿يَسْأَلُهَا مِنْهَا هَيْثُ يَتَوَضَّأُ ..﴾ (٥٦) [يوسف] أي: يسأل في أي مكان يريد من أرض مصر، وهذا كناية عن اتساع جاهه، [القاموس القريم مادة (ب. و. ف)] ينصرف.

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان في الآخرة ، فكانه سبحانه يعطى الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار ، ولذلك قال سبحانه

﴿ مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (١٠٧) [مؤ-]

وإذا علق الله سبحانه شيئاً على شيء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى
﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ^(١) .. ﴾ [الأعراف]
فهو سيلج الجمل في سم الخياط ؟ إن ذلك محال
ولذلك أقول فلناخذ التعليقات في نطلق أنه سبحانه:

﴿ .. فَعَالٌ لَّمَّا بَرِدَ ^(١٠٧) ﴾ [مؤد]

وقد جاء في الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام
﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ^(١١٨) ﴾ [المائدة]

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه وإن تغفر لهم فلأنك أنت
التغفر الرحيم.

وهذه نظرة سطحية بدلالات القرآن ، بعقول البشر ، أما ببلاغة

(١) السَّم - مئة السبي - الثوب المصيق، قال تعالى: ﴿ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. ﴾ (١٠٧) [الأعراف] أى: تهب الإبرة. [القاموس القويم مادة: (س م م)].

الحق سبحانه فيكون الامر مخالفاً ، فأمر التعذيب أو العفوان موكول له سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لم فعل هذا ؟ وبم ترك هذا ؟ لذلك كان هذا هو معنى العزة ، ولذلك كان سبحانه عزيزاً . وهو سبحانه أيضاً حكيم في أي أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة لذلك جاء سبحانه بالعامة التي تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة.

ففي تعذيب الكافرين قال سبحانه ﴿ فَعَالٌ لَّمَّا يَرْدُ ﴾ (١٠٧) .

وفي الكلام عن الطائعين لذين أدخلوا الجنة قال سبحانه

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ ﴾ (١٨)

فالحق سبحانه يعطي المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم في الجنة ، وعساؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ

ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴾ نصيبهم غير منقوص (١٩)

(١) جد النفس، يجده جدياً قطعه أو تكسره ، أو فنته . والجداً القطع المكسرة المفضلة والحطام قال

تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ جَدلاً أَكْبَرَ لَهُمْ ﴾ (٢٠) [الأنبياء] والمجرب المطروح . قال تعالى ﴿ - عطاء

غير مجنود (٢١) ﴾ [هود] أي أنه عطاء نكح غير مقطوع [القاموس القويم مادة (جد)]

(٢) المرية - بكسر الهميم، وبضمها - الجدول والشك . قال تعالى ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ فَعَلُوهُ مِنْ رَبِّكَ

(٢٢) ﴾ [هود] وقرئ مرية - بضم الهميم [القاموس القويم مادة (م ر ي)]

(٣) لانقص مصدر نقص . قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ لَعْنَكُمْ بَشَرٌ مِنْ الْغَوْرِ وَالْجَرِّ وَنَظَرُوا فِي الْأَمْثَالِ وَالْأَنْصِ

وَالْغُرَانِ - (٢٣) ﴾ [البقرة] ومنقوص اسم مفعول منه . قال تعالى ﴿ - وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبُهُمْ غَيْر

مفروق (٢٤) ﴾ [هود] أي . كاملاً ، لا ننقص منه شيئاً [القاموس القويم مادة (نفس)]

فهل كان الرسول ﷺ في مرية ؟

هل كان الرسول ﷺ في شك؟

لا ، ولكنه قول الأمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله ﷺ في صدد هذا الأمر ، ويدلك يقصر في الحق سبحانه إلى الدوام.

مثلم قال الحق سبحانه للنبي ﷺ

﴿ أقم الصلاة .. (٧٨) ﴾ [الإسراء]

وكان الرسول ﷺ يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع

ومثل هذا أيضا قول الحق سبحانه في خطاب النبي ﷺ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب]

فهل كان رسول الله ﷺ لا يتقى الله ؟

نقول: لا ، إنما هو لإدانة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام، واتباع أمته للتقوى وللإعراض عن النفاق والكفر، وهو خطاب للرسول وأمته، فللرسول الدوام والتزقي والحصانة، ولأمته الاتباع لمنهج الله

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ، لأنهم اعتقدوا اعتقاد الأنوهمية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان

وما دام قد آمن بالآله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يتخطبه ويصفه بأنه من المؤمنين، فإذا نُوذِيَ عليهم بهذه الصفة فهي علامة استعوار المقبول.

وإذا طُلِبَت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، ما علم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها، وفي الاستمرارية ارتقاء.

وقول الحق سبحانه هنا

﴿ مَا يَجِدُ هَؤُلَاءِ مِنْ عِبَادٍ إِلَّا يَتْلُوا كُتُبَنَا وَإِنْ لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَالْتَمِذُوا لَهُ لَئِنْ أَجْمَعُوا لَيَكُونُنَّ مِنْ يَدَابِرِ الْأُولَىٰ ۚ ﴾ (١٠٩)

[هود]

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة^(١) ، لأن معنى العبادة انتمار عابد بأمر معبود. وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسير عليه من آمنوا بها.

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هذا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبَنَا إِلَى اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ يَلْفِي سُبُلَ الدِّينِ ۖ فَلْيَفْزِعْهُمْ إِلَىٰ بَرِّهِمْ ۚ ﴾ (٣)

[الزمر]

(١) عبادة يعبد، عبادة وشبهة إطلاقه فهو ما دام اسم قاعل وعبد بالتخصيف مشهور وأدلة، يقول الحق سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا عَلَىٰ أَنْ عِبَدْتُمُونَا بِإِنشَاءِ الْبَنَاتِ ۚ﴾ [الشعراء] والعبد بالنسبة للناس الرقيق المملوك، ويجمع على جموع منها: عباد، وعبيد وعبد - وعبد والعبد بالنسبة هو الإنسان الحر أو الرقيق، فكلاهما مملوك له جامع لحكمه وإرادته وعبد الأصنام هم عباد لأفكار هي تخريف وتحريف عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكل عابد لفكرة منحرفة، فهو منحرف عن الحقيقة [القاموس القويم ١/ ٣٠١ - بتصريف].

(٢) الرافى القرب والمنزلة والدرجة قال تعالى ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي نَقَرْتُمْ عَنْكُمْ عِندَ رَبِّي﴾ [سبا] أى قرية، مفعول مطلق مرادف أو تقريكم درجة ومرة قريبة من [القاموس القويم مادة (ر ل ق)].

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي: أن تستقبل أنت بذاتك
القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الأبياء ،
فإيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقيد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع .
ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل للنسب في الكون
إما ليثبت نسبة إيجابية ، أو نسبة سلبية ^(١) .

﴿ مَا يَهْدُونَ .. (١٠٦) ﴾ [هود]

أي على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة
تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهي ، وعبادتهم هي
عبادة تقليدية للأبياء ؛ ولذلك قالوا

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا ^(٢) عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٧) ﴾ [البقرة]

ولذلك يقرر الحق سبحانه هذا جزاءهم ، فيقول تعالى

﴿ .. وَإِنَّا لَمَوْتُهِمْ ^(٣) نَصِيْبُهُمْ ^(٤) غَيْرَ مُنْقَرَضٍ (١٠٩) ﴾ [هود]

(١) فالكون فيه الفاظ مفردة نعرف معانيها مثل السماء والأرض . وفهم تصور الشيء . أما عندما
يذكر بهذا الشيء صفة فهذا معناه النسبية ، مثل لو أننا الأرض كروية . [مستنبط من كلام فضيلة
الشيخ] .

(٢) الفس الشيء . وجده قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا آَلَيْنَا بِأَهْلِهِمْ حَبْلًا (١٠٦) ﴾ [الصافات] . وقال تعالى ﴿ وَآَلَيْنَا
مِنْهَا لُحْيًا (١٠٦) ﴾ [يوسف] أي وجدها . [القاموس القويم . مادة (أل ف ي)] .

(٣) وإلى إليه حكمه أوصله إليه كمالاً ويتمدى ليعملوا فيهم . وقوله حكمه . واسم الفاعل مؤلف
اسم منقرض [القاموس القويم . ٢/٢٤٧]

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٤٢٢) :

«فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : نصيبهم من الدين . قاله أبو العالية

الثاني : نصيبهم من العذاب . قاله ابن زيد .

الثالث : ما وُعِدوا به من خير أو شر . قاله ابن عباس .

أى. سنعطيههم جزاءهم كاملاً : لأنهم يفسدون فى كون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار فى أن يفعل الشيء أو لا يفعله ، وإن لم تنصبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعى يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ، فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذى يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قتلوا الأبناء قد ساروا فى طريق إفساد الكون ، لذلك يؤقِّبهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب

والمفهوم من كلمة «النصيب»^(١) ، أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفى هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم. ويقول الحق سبحانه بعد ذلك.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَفَى فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝١١﴾

(١) النصيب. القسم والحصة من الشيء. قال تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اسْكُنُوا فِي الْبَنَاتِ هُنَّ حُلٌّ لَكُمْ فَمَنِ الْعَامِلُ﴾ [البقرة] أى. لهم حظ وقسم وحصة من كل لهم من كسبهم. [القاموس المقوم. مادة (ن من ب)].

(٢) سبق. سبق سبقاً. تقدم. فهو لارم. وصيغته تقدمه. فهو متعد. واسم الفاعل سابق. واسم المفعول مسبوق. قال تعالى ﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سُبُلٌ ۝١٢﴾ [الأنفال] أى. تقدم وثبت فيه الحكم من قبله وهو اللوح المحفوظ. [القاموس المقوم ١/ ٣٠١]. والكلمة القضاء له وحكمه السابق فى اللوح المحفوظ قال تعالى ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ۝١٢﴾ [هود] أى. قضاه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيمة. [القاموس المقوم. مادة (س ب ن)]. (٣) مريب. متعريف.

(٢) المريب. الشك. قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۝١﴾ [البقرة] ورأيه الأمر. يريبه ريباً وريبة. شك فيه والريب. حادث الدهر المفاجيء وريب المؤمن الموت. قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ يَقْرَأُ فِي قُلُوبِهِمْ ۝٢﴾ [الطور] أى. حادث الموت. وقال تعالى ﴿لَا يَزَالُ يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ رَيْبٍ لِي قَوْمِهِمْ ۝١٢﴾ [التوبة] أى. مصدر شك وتفاق. ورأيه. أوجسه إلى الشك وانحل شك فى نفسه. واسم الفاعل. مريب. قال تعالى ﴿وَأَنَّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝١١﴾ [هود] على سبيل التوكيد أى. فى شك موصل إلى شك. وأرباب الرجل فهو مريب. وهو موضح ريبه وشكه لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى ﴿مَتَاعٌ كَذِبٌ ۝١٢﴾ [الطور] أى. [القاموس المقوم. مادة (ر ي ب)].

وسورة هود هي السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى ﷺ بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد ^(١) ، ثم انتقل من ذلك الإبلagh فقال سبحانه

﴿يَقْنَمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨)﴾ [هود]

أي أنه أعقب أولية الإبلagh بالختام الذي انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورد قومه النار

ثم يأتي الحق سبحانه هنا إلى موسى ﷺ بعد ابتداء رسالته ، ولذلك يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١)﴾ [هود]

ونحن نعلم أن ذكر موسى ﷺ في البداية كان بمناسبة ذكر ما له علاقة بشعيب ﷺ حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذكر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون

وقد علمنا أن موسى ﷺ لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هي أن يرسل معه بنى إسرائيل ^(٢) ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كامر تبعي ، لأن

(١) ولذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٨)﴾ إلى فرعون ومعه طائفة أمر فرعون وما أمر فرعون برسله (٩٩)﴾ [هود]

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٦)﴾ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق فدعيتكم بربكم فأرسل معي بنى إسرائيل (١٠٧)﴾ [الأعراف].

رسالة موسى ﷺ لم تكن إلا لبني إسرائيل ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بني إسرائيل منهجاً ، أما في الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون

وتحسّن تعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل نوح ، وهود ، وصالح ، وإسحاق ، وإبراهيم - عليهم جميعاً السلام - وجاء الحديث فيها عن موسى ﷺ مرتين مرة في علاقته بفرعون ، ومرة في علاقته ببني إسرائيل.

وفي كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من صفحات المنهج الإلهي للناس عموماً ، من أول آدم ﷺ إلى أن تقوم الساعة ، إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتي باللقطة التي تعالج داءً موقوتاً عند القوم فانقذوا المشترك في دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ (٥٩) [الاعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لأخر ، فمنهم من يأمر قوماً ألا يعبدوا الأصنام ، ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد في كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات (١) تلك

(١) ما هنا باقية بمعنى ليس ، أي ليس لكم إله غيره.

(٢) الداء المرض ظاهر أو باطناً ، والعيب ظاهراً أو باطناً ويقال فلان ميت الداء لا يصدق على من يسميه إليه. وداء الأسد الحمى وداء الطير الصمّة والنشاط وداء الملوك الذنوس. وداء الكرم النخيل والظفر وداء الضرائر الشر الدائم وداء البطن الفتنة العمياء. وداء النخيل الجوع. والجمع أنواع [المنجم الوسيط مادة (د و)] ويصور التأنيدي فيقال داءة وجمعها داءات. وهي الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية

الامة . أما الإسلام فقد جاء ليعالج نداءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم العاضلة في القرآن كمنهج للبشرية^(١)

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآني للتسلية . أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ، ولكن لنتلطف العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته لتنى بعث إليها ليعالج داءه.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر^(٢) ، وستكون فيها كل أجواء ونداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله . والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَفِ بِهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما

وقوله سبحانه ﴿ فَاحْتَفِ بِهِ .. (١١٠) ﴾ يصح أن يكون لاختلاف في أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب ، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر ، لأنه لا انفصال بين موسى ﷺ ، والكتاب الذي أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان أمر الرسالة في الكتاب ، وأمر الرسول في الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

(١) يقول الحق ﴿ فَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَتُمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ .. (١٧) ﴾ [الشورى] إذن ، جمعت قيم الأديان في الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والمجد والسلام.

(٢) مقصود قصبة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم منذ بعثت محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسول.

واحد ؛ لأن الرسول لا يتفصل عن منهجه.

وقوله الحق ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ١١٠ ﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، والله^(١) ذات ، والله صفات ، والله أفعال

وهو سبحانه مُنَزَّهٌ هـي ذاته عن أى تشبيه ، والله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلي لا ينعدم ، وأنت موجود طارئ ينعدم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ١١١ ﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعل صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية

وقوله سبحانه هنا.

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ١١٠ ﴾ [مود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفراً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل وما دام موسى عليه السلام قد أوتي الكتاب ، واحتكف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقاليم الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

(١) توحيد الذات هـى لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتفريد لله يقول الحق ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْتَعِيْطْتُ وَاسْتَعِيْطْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢١٦ ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ [الأنعام] وللذات عطافات كلها ذكرته موحداً كانت فى رقى دائم وتستحق من الله عطاء الصفات - فستحق الرحمة من الرحيم والرزق من الرزاق والجبر من الجبار - فمن أحب الذات وهدت له عطافات الصفات ، وهى أسمائه الحسنى الزائد المطلوب - [من مفهوم الخواطر].

ونقول: ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم ، بل لأن الحق سبحانه قد جعل عذابهم أجلاً^(١) ، وهو يوم الحساب

ولذلك قال سبحانه في الآية نفسها:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ . ﴾ (١١٠) [هود]

وبذلك حكم الحق حكماً فاصلاً ، كما حكم على الأمم السابقة التي كانت مهمة رسلهم هي البلاغ ، ولم تكن مهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ، ولذلك كانت السماء هي التي تتدخل بالأمر النهائي.

لكن اختلف الأمر في رسالة موسى عليه السلام . فقد سبق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه هنا

﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١١١) [هود]

كانهم في شك من يوم القيامة ، وفي شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه في آية عن الاختلاف في الكتاب وموسى عليه السلام

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَإِنْ كُنَّا لَأَكْثَرُهُمْ أَهْلَ حُجْمٍ ﴾ (١١٢)

خَيْرٌ

(١) وهذه هي الكلمة التي ذكرها الله سبحانه هنا: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ (١١٠) [هود] قال

القرطبي في تفسيره (٢/٤٢٢) : «الكلمة أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيمة لما علم

في ذلك من الصلاح ولولا ذلك لقص بينهم أجلهم بأن يذيب المؤمن ويقلب للكافر»

(٢) التغيير من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١١٢) [الأنعام] . والتغيير العالم بمواطن

الأمر قال تعالى: ﴿ فَاَسْمَلُ بِهِ حُبِيرًا ﴾ (١٣٥) [الفرقان] [الفارس التويم حادة (خ ب ر)] .

إنّ: فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى ﷺ فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة

ويبين الحق سبحانه: لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعنى الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه آت - لا محالة^(١) وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفرًا أو إيمانًا ، صلاحًا أو فسادًا ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة

وهنا رقفة في أسلوب النص القرآني، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كمثكة^(٢)، كما فهمها العرب الأقدمون

ونحن نعلم أن لعربى القديم لم يجلس إسماعيل، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ، لأن من أمة مفطورة^(٣) على الأداء اليباني الدقيق ، الرقيق ، الرائع

فاللغة - كما نعلم - ليست جسدًا ، وليست دماء ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذى ينشأ فيه الطفل هو الذى يحدد لغته ، فالطفل الذى ينشأ فى مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ،

(١) للمعالم: ما انخفض الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد والمحال من الأشياء ما لا يمكن وجوده والمحال من الكلام ما عدل به عن وجهه والمحال العيلة والجمع محال، ومحاول بفتح الميم شيهما ويقال لا محالة من ذلك أى لا بد منه [المعجم الوسيط مادة (ح و ل)] بتصريف

(٢) الملكة بفتح الميم واللام والكاف صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحلق ومهارة ، مثل الملكة العبدية، والملكة القرية [المعجم الوسيط مادة (مك)]

(٣) فطر الله فطرًا شقّه والجمع بطور والاسم القشرة قال تعالى ﴿ فطرت الله أنى فطر الناس عليها ﴾ [الروم] أى خلقه الله خلق الناس عليها وقوله تعالى ﴿ كل نون من فطر ﴾ [الملك] أى من سدوح، أى هل ترى من خلل أو فساد في الخلق ، والاستفهام هما للنفى، أى

لا ترى أى خلل، [القاموس القرين مادة (فطر)]

ولطف الذي يوجد في مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ، لأن اللغة هي ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن.

وكانت غالبية البيئة العربية في الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السيمية.

أما العربي الذي عاش في حاضرة مثل مكة ، ومكة بما لها من مكانة - كانت تستقبل أفواجا كثيرين - ولذلك كان أهل مكة يأخذون الويد فيها لينقلوه إلى البادية ، حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية.

ولتقرب هذا الأمر ، ولنتظر إلى أن هناك في حياتنا الآن لغتين لغة نتعلمها في المنازل والشوارع وتتقاطب بها ، وتسمى «اللغة العامية» ، ولغة أخرى نتعلمها في المدارس ، وهي اللغة المعقولة ^(١) المعيزة بالفصاحة والضبط.

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتتلقط الأذن الفصاحة ^(٢) ، وكانت اللغة الفصيحة هي «العامية» في البادية ، ولم يكن الطفل في

(١) المسقول اسم مفعول من الفعل «سقل» - وسقل الشيء سقلا وسقلا جلاء - يقال: سقل السيف والحرث ونحوهما ويقال: سقل كلامه عذبه ونقته وسقل العادة تشبهها بالترقية ونستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن إجابة شيء مثل اللغة ، والموعبة ، فيقول: سقل لغة ، أي: تكرب عليها حتى أجادها. وسقل مرهته بالدراسة ، أي: تكرب على استحضارها حتى أجادها [المعجم الوسيط مادة (سقل)] يتصرف.

(٢) وهذا يمين أن اللغة العربية في الجزيرة العربية مصاحبة للفطرة السليمة والصحة الراسخة ما حكى أن سقاء أسر ابنه أن يمسك بقم قرية الماء ، فقال الغلام لأبيه: ما أبت إن القرية غلتي فوها أدرك غلعا لا طلبة لي بغيرها وفي هذا المنطق قواعد لإعراب الأسماء المحسن أو المست بهي شعرب بالراو ولغا ، وبالألف مصبا ، وبالياء جراً ، والألف لا حصر لها وهي العراجع مريد لكل من أراد

البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها ؛ لأن الله لا تسمع إلا لفصاحة.

وكانت هذه هي اللغة التي يتفوق فيها إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهي تختلف عن اللغة التي نكتسبها الآن ، وبصقلها في مدارسنا ، وهي لغة تكاد تكون مصنوعة ، لم يالف بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين، ويتعلمون اللغة على كبر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطمئنا في القرآن ، وادعى بعض من أشبيائهم أن في القرآن لحناً ^(١) قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من ستقبلوا القرآن من رسول الله ﷺ وهم أهل الفصاحة، لم يجدوا في القرآن لحناً ، ولو أنهم أخذوا لحناً على القرآن في زمن نزوله ، لاعتنوا هذا الممن ؛ لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة ، صناعتها الكلام.

ولامر ما أبقي الله سبحانه هناديد ^(٢) قريش وهناديد العرب على كفرهم لفترة ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحناً في القرآن لأعلمه

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً

(١) لحن لفلان يلحن لحنًا: كلّمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من ثورية، أو تصريح، أو إشارة خفية. قال تعالى ﴿وَعَرَفْتَهُمْ نِيْحَنُ الْقَوْلِ﴾ . (٢٧) [محمد] أي: إنك ستعرف المنافقين في أسلوبهم في القول بإخفائه وتحريفه، أي: مستترهم في خطأ القول وولات اللسان. ولحن من كلامه: أخطأ. وفي المعجم الوسيط : لحن القول غواء وما يفهم السامع المتأمل فيه من وراء لفظه، ويمكن أن يفسر بذلك أيضاً والراء بالعين في اللغة: التعلل فيها والمروج عن قواعد [القاموس القويم مادة (لحن) بشراف]

(٢) الهناديد: الشديد والجمع هناديد ويقال يوم حامى الهناديد: شديد الحر ويقال برد هناديد: وريح صليبيد، ومطر صليبيد، أي: شديد وهناديد القدر: دواقيه. [المعجم الوسيط مادة (هناديد)] بتصرف.

فيه. ولو كان عند أحدهم جهز بما منعه كفره أن يبين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين عاشوا في القرن العشرين أن يجدوا لحناً في القرآن ، وهم لم يمتلكوا ناصية اللغة ملكة ، بل تعلموها صناعة، والصنعة عديمة الإحساس الذوقي

ومثال ذلك عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها ، فالحق سبحانه يقول:

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُهُمْ^(١) رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ خَبِيرٌ^(٢)﴾

[مسود]

أى، أن كل واحد من الذين صدقوا أو من الذين كذبوا ، له قوفية في الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصي العقوبة

وكلمة «إِنْ» - كما نعم - هي في اللغة «حرف توكيد» هي مقابلة مَنْ يَنْكُرُ ما يجيء بعدها.

والإنكار - كما نعلم - مراحل ، فإذا أردت أن تخبر واحداً بخبر لا يعلمه فأنت تقول له مثلاً: «زارني فلان بالأمس».

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالي، فإن قال لك «لكن فلاناً كان بالأمس في مكان آخر» فأنت تقول له «إن فلاناً زارني بالأمس».

(١) وفي الشيء وفي ولأياً تم ولم ينجب منه شيء. وفي الرجل بالصدوقاء. قام به وظنه، فهو واف. واسم التفضيل. أوفى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة] أى، أن الله أعظم وفاءً ممن سواه. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاءُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ [الحجم] أى، الجزاء الأتم الأكمل. وفي إليه حقه أوصله إليه كاملاً ويتعدى هذا الفعل لاسمعيلى يقال: وفاء حقه. واسم الفاعل موف واسم المنقول، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمُرْفُوعُهُمْ نَسْبُهُمْ خَيْرٌ مَّقْصُومٍ﴾ [هود] [القاموس القديم مادة (ومى)].

سُورَةُ هُودٍ

﴿١٧﴾

وحين يرد عليك السامع: «لكننى قابلت فلاناً الذى تحدث عنه أمس فى المكان الفلانى».

وهنا قد تؤكد قولك: «والله لقد زارنى فلان بالأمس».

بذن: هانت تأتى بالتوكيد على حسب درجة الإنكار^(١)

وحين يوجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس فى الدنيا ، قد يقول غافلاً: لعل الله لم يعد يعذب أحداً

ولذلك بين الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع المصدور ، والعاصى المكذب ، فقال سبحانه

﴿ وَإِنَّا كَلَّا لَمَّا لُوقِيَهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ .. ﴾ (١١١)

[مرد]

والذين لم تستقم لهم اللغة كملكة ، كالمستشرقين ، وأحدوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وتأنوا لماذا جاء بالتنوين فى كلمة وكلاً ، ؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين^(٢) يقنى عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عَرْضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه

(١) إن التوكيد للمكر من فنون البلاغة. يقول الإمام السيوطى فى الإنشاد (١٩٢/٣) «ويقلبت التأكيد بحسب قوة الإنكار ويضعفه بقوله تعالى حكاية عن رجل عيسى إذ كذبوا فى العرة الأولى ﴿إِنَّا إِلَهُكُمْ مُّؤْتَوُونَ﴾ [يس] ، فأكّد بـ «إِنَّا» وإسمية الجملة وفى المرة الثانية ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا بِهِمْ إِنَّا إِلَهُكُمْ مُّؤْتَوُونَ﴾ [يس] ، فأكّد بـ «إِنَّا» وإسمية الجملة. لمبالغة المحاطين فى الإنكار حيث قالوا ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَزَلَّ الرَّحْمَنُ مِنْ قَبْلِهِ إِنَّكُمْ إِذْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْفُرُونَ﴾ [يس]».

(٢) التنوين فى اللغة هو ثوب سائكة تتبع آخر الاسم خطأً وتفاوته خطأً. وهو أنواع منها تنوين المعكّر والتكثير والمرض والترم [راجع شرح الأسمونى على الألفية (١ / ١٨)]

﴿ قُلُوبًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُقُوفَ ^(١) وَأَنُتِمَ بِحِينِهِمْ لِنَظَرُونَ ﴾ (٨٤) ﴿ [الواقعة]

وهكذا، هي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجب أن كلا من
الملائكة المؤمنين، والخاصة الكافر، سوف يلتقي جزاءه ثواباً أو عقاباً.

أما قوله سبحانه ﴿لَمَّا﴾ في نفس الآية، فنحن نعلم أن «لما»
تستعمل في اللغة بمعنى «لحين»، و«الزمان» مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ بِمِيقَاتِنَا ^(٢) وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ..﴾ (١١٢) [الاعراف]

ومثل قوله سبحانه

﴿وَلَمَّا فَصَلَ^(٣) الْعَمِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ ^(٤) يُوسُفَ..﴾ (٩٤) ﴿

[يوسف]

أي حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهـم ﴿إِنِّي لَأَجِدُ
رِيحَ يُوسُفَ..﴾ (٩٤) .

(١) الحُقُوفُ: الحلق والحلقوم علمياً الآن. هو تجويف حلق تجويف الفم، وفيه ست فتحات فتحة
الفم، وفتحة المعصوين، وفتحت الأنف، وفتحة الحنجرة، ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى
المريء، أما نفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة. قال تعالى ﴿قُلُوبًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُقُوفَ ^(١)﴾
[الواقعة] كناية عن الاحتضار للموت. أي بلغت الروح الحلقوم وهي حارجة من الجسد [القاموس
الغريب، مادة (ح ل ق)].

(٢) المِيقَاتُ: الوقت المحدد لهم من الأعمال قال تعالى ﴿فَتِمُّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً..﴾ (١١٢) ﴿
[الاعراف] أي تم الزمن المحدد لاستجابة ربه. وقال تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامِ مِيقَاتُهُمْ أَشْجَعِينَ﴾ (٢٦) ﴿
[البقرة] أي وقتهم المحدد لهم من أعمالهم. والجحيم: مواليت [القاموس الغريب مادة
وقلت]].

(٣) فصل عن المكان. جاوره. قال تعالى ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعَمِيرُ..﴾ (٩٤) ﴿ [يوسف] أي خرجت وجاورت
المدينة. [القاموس الغريب مادة (فصل)].

(٤) قوله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ..﴾ (٩٤) ﴿ [يوسف] أي ريحاً تفصل رائحته أو الريح بمعنى
الرائحة أي رائحته. [القاموس الغريب ١/ ٢٨٠].

و«لما» تأتي أيضاً للنفي مثل قوله سبحانه

﴿قَاتِ الْأَعْرَابَ إِنَّمَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [المجرات]

أي، أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، ونعمن كلمة «لما» الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك.

وحيث تستخدم كلمة «لما» في النفي تكون «حرفاً» مثلها مثل كلمة «لم» ، ولكنها تختلف عن «لم» لأن «لم» تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف. أما «لما» فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيدان بأن يحدث ما تنفيه وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٥)﴾ [هود]

أي، أن كلاً من الطائع والعاصي سيوفي حسابه وجزاءه ثوباً أو عقاباً ، حين يأتي أجل التوفية ، وهو يوم القيامة

وقد جاءت «لما» لتخدم فكرة العقوبة التي كانت تأتي في الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو «لما»

وحين تقرأ ﴿لُؤْلُؤًا بِحُسْنٍ﴾ تجد اللام ، وهي لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفيهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً.

(١) الحبير من أسماء الله الحسنى. قال تعالى ﴿... وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٥)﴾ [الأنعام] وحبير الأمر، وخبير بالأمر، كعلمه، وعلم به ورأى ومعنى - فهو به خبير، والخبير العالم بهوطن الأمور قل تعالى ﴿... فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيرٌ (٢٤)﴾ [الفرقان] [القاموس القويم ، مادة (حبر)]

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسى أو تذهب أدراج الرياح ، لأن من يعلمها هو «الخبير» صاحب العلم الدقيق ، واسمير يختلف عن العالم الذي قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرب على التخصص.

ولذلك غالباً ما تأتي كلمتا «اللطيف والخبير» معاً ، لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

ومثال هذا أنك قد تعرف مكان احتباء رجل في جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنماد إلى مكانه، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر . وهو الدقة واللف

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسأل رسوله ﷺ ، لأن بعضاً من الكافرين يرسلون محمد عليه الصلاة والسلام قالوا: ما دام الله يأتي بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتي لنا العذاب^(١) ؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين، لا محالة ، وإياك أن يخادعوك يا رسول الله - في شيء.

(١) إن وعد الله له توقيته المراد له مصداقاً لله تعالى - ﴿ولا تحسبن الله ماعلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأنهار﴾ (٣٢) ﴿إبراهيم﴾ وقوله ﴿سنستخرجهم من حيث لا يحسبون﴾ (٣٣) وأما لهم إن كيدي مني ﴿٣٤﴾ [الكلم]

أو يسأوموك على شيء ، مثلما قالوا ، نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلِهتنا
سنة ^(١)

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَتَى عَبْدٌ مَا عِبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام في تلك المسألة التي لا تقبل
المساومة، وهي العبادة.

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبي، لا يمكن لمساومة فيه، وقطع
العلاقات في مثل هذا الأمر أمر واجب، لأنه لا يمكن التفاوض حوله،
فهى ليست علاقات ظرف سياسى، ولكنه أمر ربانى ، يحكمه الحق
سبحانه وحده

وقول الحق سبحانه

﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ
مَا عِبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون]

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على

(١) ذكر الراصدى في أسباب النزول (ص ٢٦٦) أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم لتبع ديننا
وتتبع دينك تعبد آلِهتنا سنة وتعبد إلهك سنة، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناه
فيه ولقدما بحفظ منه، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يديك قد شركت فى أمرنا وأخذت
بحفظك فقال: هاهنا الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون]
إلى آخر السورة، ففدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ومعه الملائكة من قريش فقرأوا عليهم
حتى فرج من السورة ، فأيسر منه عندك

عبادة غير الله . وإن محمداً سيظهر على عبادة الله ، وإن كلمة «الله» ستعلمو ، لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة «الكاثرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿فَاسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا نَفْطَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

والاستقامة معناها عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تطبيقه ، لأن الفاصل بين الصديق ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان.

ومثال ذلك حين تروى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وتستجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ إنا جاعن نصر الله - يا محمد - على قومك من قريش، والفتح فتح مكة. ورأيت الناس من صفوف العرب وقبائلهم يدخلون في دين الله أفواجا أي. في دين الله الذي يتحدك به الفواجا يعني زمرا (جماعات)، موجاً فرجاً فسبح بحمد ربك أي اسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، واستغفره وسأله أن يغفر لمؤيك. إنه كان تواباً أي. نا رجوع لعبده المطوع إلى ما يحب [مختصر تفسير الطبري - بتصرف].

(٢) استقام الشيء خلا من العوج واستقام العزم سلك الطريق القويم. قال تعالى ﴿فَمَا اسْتَفِمْ لَكُمْ فَاسْتَفِمْ لَهُمْ ۖ﴾ [التوبة] أي. حافظوا على الوفاء لهم بعدكم ما داموا هم يعالظون على عهديكم. ولم ينكروا العهد معكم. [القاموس القويم - مادة (فرم)].

(٣) طفا بطمس طفواناً وطفوى لعل وأوى، بمعنى تجاوز الحد في الجور والتعدي، وطفى يطفى وطفى طفاناً لعل ياتى، بمعنى. تجاوز الحد. قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الفجر] أي. ظلموا وتجاوزوا الحد في الصيائن. [القاموس القويم - مادة (طفى)].

سُورَةُ هُودٍ

١٠٦٧

وهكذا يصبح فصل الشيء عن تقيضه صعباً . ولذلك فالاستقامة
أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيبستى هود
وأخواتها»^(١).

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتاب الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ^(٢) .. (١٦) ﴾ [التغابن]

ملولا نزول هذه الآية لتعيب المسلمون تعاملاً . وقد أنزل الحق
سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ^(٣) .. (١٧) ﴾ [آل عمران]

وعز ذلك على صحابة رسول الله ﷺ . فأنزل الحق سبحانه ما
يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ^(٤) .. (١٦) ﴾ [التغابن]

إذن فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً وخبياً .
بحيث لا تميل إلى جهة دون جهة

(١) عن أبي حنيفة قال: قالوا يا رسول الله برك وقد شبت؟ قال: «شيبستى هود وأخواتها» أخرجه
أبو نعيم في الحلية (٤ / ٢٥) وأوردته الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٧) من حديث حنيفة بن عاص
وعنه الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح» وأحوات سورة هود التي شيبت رسول الله هي
سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير انظر الترمذي في سننه (٣٢٩٢)

(٢) تلقى أصله (لوقتي) على وزن (انتقل) ، فثبت راء الفعل تاء . وادخلت في تاء الانتفال . وانقضى الله
تجنب ما يقضيه وما يسبب عذاب . وذلك بطاعة الله . وبالتبعد عن معصيته . قال تعالى: ﴿ .. لَكُمْ
تَقْوَى (٣٧) ﴾ [البقرة] أي تحفظون أنفسكم عن عذاب الله بطاعته وتارك معصيته [القاموس القويم
مادة (و ق ي)]

(٣) التلبس . الالتئام . والتقوى . وأصلها: رقية . فثبت الواو تاء . وإليه الفاء . وجمعها: تلقى . قال تعالى
﴿ إِنْ أَنْشَأُوا مِنْهُمْ هَآءَ (٣٨) ﴾ [آل عمران] أي: لا أن تخلقوا منهم شراراً . وتحقروا بهم
مكرهم . لا تريدونه لا تنفككم [القاموس القويم مادة (و ق ي)]

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم العفلة.

ويقول الحق سبحانه.

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن قَابٍ مَعَكَ ۖ ۞ (١١٢) ﴾ [هود]

وهذا إيمان بالآية بيأس رسول الله ﷺ من وتوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ ، لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم

وقول الحق سبحانه

﴿ ۞ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (١١٣) ﴾ [هود]

يعنى ألا تتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي ، فالحق سبحانه إن أمر بك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ ۞ (١١٤) ﴾ [البقرة]

وهذا القول في الأوامر ، أما في النواهي فقد قال سبحانه

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۚ ۞ (١١٥) ﴾ [البقرة]

(١) اعتدى. ظلم وجار قال تعالى ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِقْدَرِ عَدْوِي عَلَيْكُمْ ۖ (١١٦) ﴾

[البقرة] أي. فعانوه على اعتدائه. وسُمي عطف المعتدين اعتداءً للمضارع. وعدت. وعدوا. عدواً جري. وعدا عليه عدواً وعدوتاً. ظلمه. رسال عليه. مثل. اعتدى عليه. والراد بعدم الاعتداء هنا عدم تجاوز حدود الله التي هي سبحانه عن الترافيق [القاموس القويم: مادة (عد) يتصرف]

(٢) قربت الأمر. أقربه قرباً وقرباً. فعلته أو بانينيه. ومنه قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ ۚ ۞ (١٢٠) ﴾

[الإسراء] وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الْقُصُورَ ۚ ۞ (١٢١) ﴾ [البقرة] أي. لا تأتوها ولا تلمسوها

ولا تأكلوا منها والله من باب أولى من الشيء. وكذلك ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ ۚ ۞ (١٢٢) ﴾ [الإسراء] فإنه

لهي عن القرب منه. وهو نهى عن لمس ومن القبلة ولعمري مما يقرب الإنسان من الزنوع فيه

[القاموس القويم: مادة (ق ر ب)]

أى: أن تبعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ: «من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى^(١) يوشك أن يرتع^(٢) فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه^(٣)».

وحيث ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هي استقامة الاحتياط، وهي قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخل فيه، فمثلاً عند تحريم الخمر، جاء الأمر باجتنابها أى الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر في مكان وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة في مسائل الطاعة، وهو سبحانه يقول

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٤) .. (١٤١)

[الأنعام]

(١) قال النووي في شرحه: «معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الدس ويحفظهم من غوائله، فمن دخله ارتفع به العقوبة، ومن اعتاده لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفاً من الوقوع فيه»، (٣/ ١٢٢٠) ط. مؤيد عبد الناقى.

(٢) الرتع: الأكل بشرة. والرتع في الحمى هو الرعى فيه وأرتع القوم: راحوا في غسب ودعوا. [اللسان: مادة رتع]

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٥١: ٢) ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث التميم بن بشير

(١) إسرف: جاوز القصد والاعتدال فهو سرف، ويكون في المال وفي غيره. قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١) [الفرقان] أى معتدلاً في إنفاق المال. وقال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ اسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٢) [الزمر] أى جازوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى ﴿وَلَا يُسْرِفُوا فِي الْقُلُوبِ﴾^(٣) [الإسراء] أى لا يقتل أكثر من القاتل، كما كثروا يسطرون في الجاهلية فيقتلون بالشويف عدد من قبيلة القاتل. وقال تعالى ﴿وَلَا تُطِعُوا أَمْرَ الْمُضْرِبِينَ﴾^(٤) [الشعراء] والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إتفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين لا إسراف في الخير ولا خير في الإسراف [القاموس المفيد: مادة (سرف)]

والنهي عن الإسراف هنا ، ليصنعنا الحق سبحانه من لحظة فنذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود^(١) فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول « يا ليتني لم أعص » وهكذا يصنعنا الحق سبحانه من هذا المرفف.

ويقول رسول الله ﷺ « صدّدوا^(٢) وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل »^(٣) ، لأن الدين قوي متين^(٤) ، ولأن يشاد الدين أحد إلا غلب^(٥) .

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحر أيضاً ، فيوصينا سبحانه بالزنى واللين والهادية ، وأن يجعل الإنسان لنفسه سُكُنَةً الاختيار

ومثال ذلك أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى في ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ في مزاولة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه.

(١) الأود أي ما يكون ثوباً ضرورياً له فيقوم به حياته

(٢) سد الثرى سدّاً وسدّاً استقدم ، يقال سد السهم وسد فلان أسباب قوته وقطعه وسد قوله وقطعه استقام وأصاب ، فهو سديد والسداد الاستقامة والقصص والمساب من القول والعمل [المعجم الوسيط مادة (سد) بتمسرف]

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٢) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة (٤) عن أس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « من هذا الدين سثنى فأرغوا فيه يراق » أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩/٣).

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا خليه سديراً وقاربوا وبسروا واستميرا بلقدوة والروحة وشيء من الدلجة » أخرجه انفصالي في سننه (١٢٢/٨).

سُورَةُ الْهُجُرَاتِ

﴿٦٧١٣﴾

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ، استقامة في تحديد المأمور به والمنهى عنه ، ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ «الحلال بين^(١) ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ^(٢) لدينه وعرضه»^(٣).

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا في الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط مرة بالنقص ، فحين نصلّي خارج المسجد الحرام، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلّي في المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنايته عالمة ، وقسم اسمه «الحطيم»^(٤) وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ، فلم يبنوه^(٥)

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالى المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

(١) بين: صيغة مبالغة من البيان، أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من الدين والنفس: طلب البراءة عنه واستبرا الشيء: قصص به حتى يقطع الشبهة عنه [المعجم الوسيط - مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٥١ - ٦) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار وهو هنا جدار الكعبة، قال الأزهري: الذى فيه المزالج، وإنما يسمى حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك مقطوعاً [اللسان - مادة حطم].

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: بن قومك قصرت بهم النطقة، قلت: فما شئنا بأه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شألوهم ويخرجوا من شألوهم، ولولا أن تتكر قلوبهم لتفترت أن تدخل الجدر فى البيت وأن ألقى بابه بالأرض، متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (١٥٨٤) ومسلم في صحيحه (١٦٣٢ - رواية رقم ١٠).

سُورَةُ هُودٍ

٦٧١٤

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك هو الطواف ، وقد يردحهم الشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد .

وهكذا يصول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة .

وهكذا حدد الاحتياط هو الذي يحدد معنى الاستقامة .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٤ ﴾ [هود]

وفي الآية السابقة قال سبحانه . ﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١ ﴾

[هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة، لأن حركة العبادة مرئية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ

لَا تُنصَرُونَ ١٢﴾

(١) ركن يركن بكنا يركنوا: مال إليه وسكن- وركن الشيء: جعله الأقوى. قال تعالى ﴿ .. أَوْ أَوِي إِلَى رُكْنٍ ضَرِبٍ ٥٦ ﴾ [هود] أي: ألبا إلى حصن قري ومسيني، أو إلى رجل قوي يحميني وينصرتي عليكم، كأنه ركن معتنح حمين. وقال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. ٥٦﴾ [هود] أي: لا تميلوا إليهم وتعتصموا عليهم. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَعْبُدَ هَذَا كَدَتْ لُرُكُنُ لَهُمْ شِرْكًا فَلَوْلَا ٥٧﴾ [الاسراء] أي: تميل إليهم. [القاموس القويم: مادة (ركن)].

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد
آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع
وفصل في هذا الأمر.

ويأتى هنا تأكيد هذا الأمر ، فيقول سبحانه.

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ^(١) . . (١١٣) ﴾ [هود]

والركوب هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وأنت إذا ركبت
للظالم ، أدخلت في نفسه أن لقوته شأنًا في دعوتك.

والمركوب أيضاً يعنى المعاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن
تزيّن للناس ما فعله هذا الظالم.

وأنة أدتيا هي الركوب للظالمين ، لأن الركوب إليهم إنما يشجعهم
على التمسك في الظلم ، والاستشراء فيه وأنتى مراتب الركوب إلى
الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركوب إلى الظالم أن
تزيّن له هذا الظلم ، وأن تزيّن للناس هذا الظلم.

وأنت إذا استقرأت وضع الظالم في العالم كله لوجدت أن آفات
المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركوب إلى الظالم ، لكذلك حين
تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك ، فسوف يخلو أنك لم
تعرض عنه إلا لأنك رائق بركن شديد آخر ، فيترزّل في نفسه ،
حاسباً حساب القوة التي تركب إليها ، وفي هذا إضعاف لبقدرته ، وفي
هذا عزلة له وردع ، لعله يرتدع عن ظلمه.

(١) الظلم مجاوزة الحد ومطرفة الحق أو فسسه وانتقاصه. وهو ضد العدل. قال تعالى ﴿ وَبَا
ظِلْمَانَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٣) ﴾ [الحل] والظالم اسم ماضٍ يقول الحق. ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
(١١٤) ﴾ [الكهف]. والظالم صيغة مبالغة يقول الحق ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِمْ لَكَفَّارٌ (٣١) ﴾ [إبراهيم]
وظالم صيغة مبالغة يقول الحق ﴿ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ (٣١) ﴾ [ق]. وظالم اسم مفعول يقول
الحق ﴿ وَمَنْ قُلٌ مَّظْلُومًا (٣٩) ﴾ [الإسراء] [القاموس القويم ١/ ٤١٦، ٤١٧]

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الركون ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَوَكَّلُوا إِلَى الدِّينِ ظَلَمُوا فَتَمَسْكُمُ ^(١) النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ^(١١٣) ﴾ [هود]

فانتم حين تركزون إلى ظالم إنما تتبعون في عدااء مع منهج الله ، فيخطئ الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً ^(٢) مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ^(١١٤) ﴾

وهذا أمر بالخير ، يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ .

ونحن نلاحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي ، الأوامر بالخير دائماً ، والنواهي عن الشر دائماً

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَعَنِ تَابِعِكَ ^(١١٥) ﴾ [هود]

(١) مسه يمسّه مساً أجري يده عليه من غير حائل .

ومسه مثل أصابعه ، وباهوت يلمس باآته .

ومسه المرض - على المجرار - لصلته قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا الشُّرَكَاءُ يَهْمُكَ ^(١١٥) ﴾ [الأنعام] .

[القاسوس القويم مادة (مس)] .

(٢) زلف إليه يراف رافة ورافى ، قرب وجداً . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَافَوْهُ ^(١١٦) ﴾ [الحج] أى قريباً .

وهو وصف بالمصدر بالفتحة ، ويحرب حالاً ، أى : ذاك القرب ، أى : قريباً قريباً شديداً

والرافى القرب والمنزلة والدرجة . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ إِلَّا أَوْفَاقُهُمْ ^(١١٧) ﴾ [الحج] أى : قريباً

بجسمها . زلف : قال تعالى : ﴿ وَاجْعَلِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً ^(١١٨) ﴾ [هود] أى : أوففاً وساعات

من الليل . قيل : فى أوله . قيل : فى آخر وقت فيه . [القاسوس القويم مادة (زلف)]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

ثم وَجَّهَ النهي للأمة كلها ﴿ وَلَا تَطْغَوْا .. ﴾ [هود] ولم يقل «فاستقم ولا تغض» لأن الأمر بالحير يأتي للنبي ﷺ وأمرته معه ، ونهى النهي عن الشر يكون للخطاب موجهاً إلى الأمة ، ونهى هذا تأكيد لرفعة مكانة النبي ﷺ

ونرى نفس الأمر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى أمة محمد ﷺ فيقول سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴾ [هود]

ولم يقل «ولا تركن إلى الذين ظلموا».

وهنا هي الآية التي نحن بصدد خراطونا عنها يقول الحق سبحانه برسوله ﷺ ولأمرته

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ .. ﴾ [هود]

والإقامة تعني أداء للمطلوب على الوجه الأكمل ، مثل إقامة البنيان ، وأن يجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه.

ويقال: «أقام الشيء» أي جعله قائماً على الأمر الذي يؤدي به مهمته.

وقول الحق سبحانه

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي^(١) النَّهَارِ .. ﴾ [هود]

أي: بهايته من ناحية ، ونهايته من الناحية الأخرى ، لأن طرف الشيء هو نهايته

(١) الطرف - بفتح الراء - الجانب، ومتقضى الشيء قال تعالى: ﴿ لِيُطْعِمَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾

﴿١٣٧﴾ [ال عمران] أي: يهلك جانباً منهم، أي: طائفة منهم. وقال تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾

﴿١٣٧﴾ [هود] أي: صباحاً ومساءً والراء جميع الأوقات ويؤيده قوله تعالى ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ وأطراف النهار تلك رُحَى ﴿ [طه] أي: جميع الأوقات [القسوس القويم، مادة

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو
الفاصل بين الطرفين ، فما على يمين الوسط يعد طرفاً ، وما على
يسار الوسط يعد طرفاً آخر ، وكل جزء بعد الوسط طرف

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم
إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل
قسم بين تلك الأجزاء التي على اليمين والتي على اليسار يعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عنه من بواكير الفجر
الصالح ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ثم يأتي الظهر ،
فإن وقع الظهر قبل الزوال^(١) حسنا من منطقة ما قبل الوسط ، وإن
كان بعد الزوال حسنة من منطقة ما بعد الوسط

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر^(٢)

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزَلَّامًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى ما أن نفهم أن كلمة ﴿زَلَّامًا﴾ هي جمع زلفة، وهي مأخوذة
من أزالقه ، إذا قُرب

والجمع أقله ثلاثة ، ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة

(١) البرهان الوقت الذي تكون فيه الشمس في كبد السماء [المعجم الوسيط : صلاة (زول)].

(٢) قال مجاهد الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر، واختاره بين
عليه. وغير الطرفان الصبح والمغرب قاله ابن عباس والحسن وعمر الحسن أيضاً، الطرف الثاني
العصر وحده، وقاله قتادة والضحاك. نقله القرطبي في تفسيره (٢٤٢٨/٤)

العشاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة يعبر الوتر واجباً^(١) ، فقال إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب^(٢) .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة .

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ^(٣) .. (١٤) ﴾

[هود]

وهذا التعقيب يضع الصلاة في قمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا بأن قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة بما بينهن ما لم تُغْلَبْ الكبائر »^(٤) .

(١) قال الشوكاني في نهج الأوطار (٣ / ٢) : ذهب الجمهور إلى أن الوتر غير واجب بل سنة ، وخالفهم أبو حنيفة فقال : إنه واجب ، وروى عنه أنه فرض . قال ابن المنذر ولا أعلم أحداً وافق أبا حنيفة في هذا ومن الأدلة الدالة على عدم وجوب الوتر ما اتفق عليه الظهيري من حديث طلحة ابن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات في اليوم والنية قال هل على غيرها؟ قال : لا إلا أن تطرحه .

(٢) للفرغ : ما ثبت بدليل قاطع لا شبهة فيه ويكثر جاحده ويُعتَبَر تاركه ، وهو على نوعين : فرض عين وفرض كفاية ، فرض العين ما يلزم كل واحد إقامته ، ولا يسقط عن البعض بإقامة البعض كالإيمان ونحوه ، وفرض الكفاية ما يلزم جميع المسلمين إقامته ، ويسقط بإقامة البعض عن الباقين كالجهاد وصلاة الجنازة ، أما الواجب فهو اسم لما لزم علينا بتدبير فيه شبهة كخير الواحد والقياس والعمام المتخصص والآية المؤثرة كسنة الفطر والأضحية . [التعريفات للجرجاني - صفحـات ١٤٤ ، ٢٢٢]

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٤ / ٣١٣) أن سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فوجها دين الفرج ، روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : «إني عالجت امرأة في أقصى المدينة ، وإني أحييت منها ما نور أن أمسها وأنا هذا فاقض في ما شئت . فقال له عمر لقد سئرتك الله لو سئرت على نفسك ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً ، فانتقل الرجل فلتبعه رسول الله ﷺ رجلاً مدعاه ، فتلا عليه ﴿وَأَنَّمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُكُوعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ فَكُلُّهُ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَافِ الْاَوْثَرِ ﴿١٤﴾﴾ [هود] فقال رجل من القوم : هذا له ضاحكة؟ قال : «لا بل للناس كافة» قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٢) وأحمد في مسنده (٢ / ٤٨٤) وابن ماجه في صفته (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة .

واختلف العلماء في معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم
الحسنة هي ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هي
ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات في الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة
أذهبت لكفر : لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذي ارتكب معصية أو كبيرة
من الكبائر ، لا يخلد في النار ، لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت
سيئة الكفر ، أنلا تذهب ما دون الكفر ؟

وهكذا يحقّف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد
فيها ، لأننا لا يمكن أن نساوي بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله
والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن
باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتساءل بعض العلماء: هل الفرائض هي الحسنات التي تذهب السيئات؟
وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله ﷺ
عن حسنات في غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم
عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات^(١).

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله:
الحمد لله الذي رزقني من غير حول^(٢) ، ولا قوة ، والحمد لله الذي

(١) عن قتادة بن النعمان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه
وسنة بعده».

(٢) القول: الحق وجودة النظر ، والقبلة على مكة المحترفة في الأمور [المعجم الوسيط مادة
[حول]]

سورة هود

﴿٦٧٢١﴾

كسأني من غير حولٍ مني ولا قوة^(١) . وهذا القول يكفر السيئات.

الم يقل ﷺ إنك إذا قلت سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٢) بهذا القول كفارة^(٣) ؟

إذن : قال الحسنات مطابقة سواء أكانت فرضاً أم غير فرض ، وهي تذهب السيئات . والسيئة هي عمل توعد الله سبحانه - من يفعله بالعقوبة

وتسأل أيضاً بعض العلماء : إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجل ، فكيف تُذهبها الحسنات ؟

وأجابوا إن ذهب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عنك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك ، فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهب العمل في ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع : أو يحفضها الله إن وقعت : لأنه هو سبحانه القائل

(١) من معاني ابن أنس أن رسول الله ﷺ قال : من أكل طعاماً ثم قال : الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام وورقني من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لم يمس ثوباً فقال : الحمد لله الذي كسأني هذا الثوب وورقني من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٢٣) وكذا ابن ماجه (٣٢٨٥)

(٢) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن الباقيات الصالحات ، وهن يحطن الخطايا كما تحب البشارة ورفها وهي من كنوز الجنة.

قال المنذرى في الترغيب (٢/٢١٨) : «رواه الطبراني بإسنادين أصحهما فيه عمر بن راشد، وبقية رواه محتج بهم في الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد في المتابعات برواه ابن سريج في طريق غير أيضاً باختصار».

(٣) الكفارة ما شرعه الله من القربات لمحو الذنوب وعفوانها. مثل كفارة اليمين، قال تعالى ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ حُرَّةٍ مَسْكِينٍ﴾ (٥٠) [المائدة] [الشموس القويم : مادة (كفر)] . وقال ابن منظور في اللسان (سادة كفر) : «تكرر ذكر الكفارة في الحديث وهي عبارة عن الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تكفر المصلحة أي تمحوها وتستمرها»

﴿ مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾^(١) [٣]

ويقول سبحانه

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١) كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [الأنفال]

وممكن أن يكون إنهاب السبحة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّحْمُ ﴾^(٢) [ذُرِّيَّتُكَ وَاسِعُ
الْمَغْفِرَةِ .. (٣٧)] [النجم]

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر

والحق سبحانه يقول

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْمَعْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٣) .. (٤٥) [المنكيات]

(١) لفظ التوبة يفتلها لفظاً رماها ولفظ الكلمة قال تعالى: ﴿مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [٣] أي: كل كلمة يتكلمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد، وعتيد هي حاضر مستعد لإثبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم مادة (لفظ، عتد)].
(٢) اللحم صفات الذنوب. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّحْمُ﴾ [٣٧] [المجم]. [القاموس القويم مادة (لحم)].

قال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿إِلَّا اللَّحْمُ﴾ [٣٧] [النجم] كل شيء بين الصدين حد الدنيا وحد الآخرة تنكفه الصلوات فهو اللحم، وهو دون كل موجب لما حد الدنيا لكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وما حد الآخرة لكل شيء حتمه الله بكفار وأخر عقوبته إلى الآخرة ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٢٤٦).

(٣) المَعْشَاءُ الفحش، وهو العمل القبيح المنكر قال تعالى: ﴿الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ بِاللَّهِ عَافُونَ﴾ [البقرة] أي: يأمركم بالعدل أو فعل القبيح عامة، ومنه البخل. والفواحش هي الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم مادة (فحش)].

والمنكر ما يستلجمه الشرع الشريف، وما تستنكره العقول السليمة قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم مادة (منكر)].

سورة الزهراء



وحين ننظر إلى مواعيت الصلاة ، نجدنا خمسة مواقيت ، فمن تعلق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طول وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدة ، ولو لم يات له وقت صلاة لأحس بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة ، فقلوب يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة.

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هي وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينم على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ، فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة

وهناك أعمال كثيرة من العروض والحسنات وهي تسحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات ، لأن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها وقد يضعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة ^(١).

ويُنهي الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله.

﴿ .. ذَلِكَ ذِكْرُ لِلَّذِينَ هُمْ ﴾

[هود]

أي ، أن إقامة الصلاة طرفى النهار ، وزناً من الليل هي حسنات تذهب السيئات ، وفي ذلك ذكرى وتنبية للنفس إلى شيء غفل عنه ، أي أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت لغفلة لتنتسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثانى يذكر

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : من عم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن عم بحسنة فعملها كتبت له عشر إلى سبعين ضعف ، ومن عم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت ، أخرجه مسلم في صحيحه (١٢) كتاب الإيمان.

بالحكم ، لأن آفة الإنسان أن الأمور التي تمر به من المراتى والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التي فى بؤرة ^(١) الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار فى حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكّر بما غاب فى حاشية الشعور.

ومثال ذلك إنك إذا ألقيت حجراً فى بحر ، فهذا الحجر يستقر فى بؤرة تصنع حولها دوائر من العياش ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفى من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة فى حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ فى تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، فى قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ، لأن حين يسمع لكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التى تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكرى ، لأنها تستدعى ما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التى تتبع المعصية ، وهى العقاب

(١) بؤرة الشيء مركزه، أو وسطه وبؤرة الشعور مركزه أى: يخلو مركز الإحساس والشعور (الإدراك) فى المخ، والبؤرة فى اللغة: الحفرة، وهى مأخوذة من يئثر أما البؤرة فى علم الطبيعة، فهى نقطة تقاطع أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض درتها شيء [المعجم الوسيط مادة (بؤر) بتصرف وإضافة]

سبحانه رسول الله ﷺ إليه يفرض عليه الصلاة^(١) وهي تحية لامة محمد ﷺ، نظراً لأنها شرعت في قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب امة رسوله ﷺ جميعاً . وذلك فهي الباقية

وَيُحْكِنِي أَنْ الْإِمَامَ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَرَضَى عَنْهُ أَقْبَلَ عَلَى قَوْمٍ وَقَالَ لَهُمْ: أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْجَى عَنْكُمْ ؟

أَيُّ مَا فِي الْآيَةِ الَّتِي تَعْطَى الرَّجَاءَ وَالْعِبَائِيَّةَ وَالْبُشْرَى أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ يَقْبَلُنَا وَيَغْفِرُ لَنَا وَيَرْحَمُنَا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ قَوْلُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ..﴾ (١١٦)

[النساء]

نقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها أي أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التي يعتيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجْعِدِ اللَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠)

[النساء]

فكرر الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

نقال بعض القوم هي قول الحق سبحانه:

(١)- وذلك في ليلة الإسراء والمعراج عند سيرة المنتهى، ذكره البخاري في أول كتاب الصلاة (١٥٨/١) فيه قال النبي ﷺ «ثم خرج بي حتى ظهرت لمستقرى أسمع فيه حفيف الأعلام، ففرس الله على أمس خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت فرض خمسين صلاة، قال فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعني لو وضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك، فقلت استحييت من ربي الحديث ٢٢٩»

سُورَةُ الزُّمَرِ

﴿١٧٢٧﴾

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا^(١) عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا^(٢) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. (١٤٢)﴾
[الزمر]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها

فقال بعضهم هي قوله سبحانه

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً^(٣) أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ لِمَا اسْتَفْهَرُوا لِلذُّنُوبِ وَمِنْ يُعْمِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .. (١٣٥)﴾
[آل عمران]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

وصعدت القوم وأحجموا ، فقال الإمام علي كرم الله وجهه ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم لماذا سكتكم ؟ فقالوا: لا شيء..

(١) اسرف جاوز القصد والاعتدال ويكون الإسراف في المال وفي غيره قال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .. (١٤٢)﴾ [الزمر] أي جاوزوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة، فكثر الذنوب على أنفسهم، وقال تعالى ﴿وَلَا تُظْلَمُوا أَمْرَ الْبَصِيرِينَ (٥٦)﴾ [الأنعام] والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين «لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف». [القاموس القويم مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط يقط قنوطاً: انقطع أمره في الخير، أو ينس منه، فهو قنوط، وقرا حفص يفتح القنوط في المعاصي في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا نُظِرُوا .. (٥٥)﴾ [الأنعام] وفي قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاسِقِينَ (٦٠)﴾ [المعجزة] ، وقري: «من القنطين» بكسر القين - كما قرئ - بالحركات الثلاث من القنوط في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [الزمر]. وقنوط صيغة مبالغة قال تعالى ﴿وَلَا تَمْنَأِ الثَّرَافُوتُ مِنْ قُنُوطٍ (٤٤)﴾ [فصلت] أي شديد الهوان معنوم الأمان [القاموس القويم مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فحش، وفحش، فحشا، فهو فاحش أي جاوز الحد، وفعل الفحيج. والفاحشة: الفعلة القبيحة. قال تعالى ﴿وَلَا تَفْعَلُوا فَاحِشَةً .. (٣٨)﴾ [الأنعام] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُوا الْفَاحِشَةَ (٥٥)﴾ [النساء] أي الزنا وقال تعالى ﴿وَلَا تَطْرُبُوا النِّفَاسَ (١٨١)﴾ [الأنعام] أي لا تدرجوا الأمور القبيحة المتكررة [القاموس القويم مادة (فحش)]

وهكنا جعل الإمام على التشويق أساساً يبنى عليه ما سوف يقول لهم واشرباً^(١) أعناهم ، وأرمقوا السمع ، فقال لهم الإمام على ، سمعت حبيبى رسول الله ﷺ يقول- أُرْجَى آية فى كتاب الله هى تولى الحق سبحانه

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَرُفْعَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكْرٌ لِلَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ ﴾ (١١٤)

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ، فربنا أنبى على الله بوجهه وقلبه لا ينقل^(٢) أى لا يلتفت إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثم عدّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال ، بين الصبح والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ ، يا على إنما الصلوات الخمس لأمتى كنهر جارى بباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد منكم درن^(٣) ثم اغتسل فى البحر ، أبقى على جسده شيء من الدرن؟ قال فذلكم والله الصلوات لأمتى ،

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل به مجاله فى عمره إلا مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥)

(١) اشرب إلىه ، أو اشرب له ، اشربها ، وشربية مد علقه أو ارتقم لينظر [المعجم الوسيط مادة (شرب)]

(٢) لا تقلل القوى ، وانصرف . يقال : انقل عن رأيه ، وعن حاجته وانقل وجهه عنهم . [المعجم الوسيط مادة (قل)]

(٣) درن لغيره درناً . وسخ وتطبخ يقال : درن الشريد ودرنت يده بكذا فهو درن ، وأحد ، وهو درنه . وأم درن ، الدنيا [المعجم الوسيط مادة (درن)]

وجاءت كلمة «اصبر» لتحتم كل عمليات الاستقامة

وكنك يقول الحق سبحانه.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ^(١) عَلَيْهَا ..﴾ (١٣٩)

[طه]

والصبر نوعان. صبر «على» ، وصبر «عن» ، وفي لطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلي الفجر ، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين. في الإيجاب للطاعة ، وفي السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ^(٢) بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتْ لنار بالشهوات ، فاصبر عنها^(٣) .

وافرض أن واحداً يرغب في أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستكين

(١) اصطبر على وزن السمل ويفيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ..﴾ (١٣٩) [طه] وقال تعالى ﴿لَا تُفْسِدُوا صُطُبَكُمْ لِعَبَادَةٍ ..﴾ (٦٤) [مريم] ، وقال تعالى ﴿إِنَّا مَرْسَلْنَا نُوحًا لِقَوْمِهِمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (٦١) [التكميل] [القاموس اللزيم مادة {صبر}] بتصرف.

(٢) حف تقوم بالبيت، أو من حوله أطاف به واحترق حوله قال تعالى ﴿وَحَمِيمًا بِضُفْرِ﴾ (٦٧) [الكهف] أي جعلنا لنحل نسط بالجنيتين [القاموس اللزيم مادة {حف}] .

وحف الشيء حف وحفاً استنار حوله وأحرق به. ويقال حف الشيء بالنسيء، وحرقه، ومن حوله [المعجم الرسيط مادة {حف}] .

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات» أخرجه معجم في صحيحه (٢٨٢٢) قال النووي في شرحه «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في المبادئ والموانئ فيها والصبر على مشاقها وكظم الحيف والمقو والحلم والصبر والإحسان إلى المعسر والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المعرمة كالخمر والزنا والمظر إلى الأجنبية والقبية واستعمال الملاهي ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكثر الإكثار منها مخالفة أن يجر إلى الشهوات المعرمة أو يقسى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يعوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا الحسرة فيها»

ولذلك يقول الزهاني ليس هناك شيء اسمه علاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول إذا غلا شيء على تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا

والحق سبحانه يقول:

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ . (١٧)﴾ [الفرقان]

وهذا يقول الحق سبحانه

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾ [هود]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما ترضى الله فوق ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبيت الله ، لأن العبدية ليست اقتراحاً من عايد لمعبود ، بل اسمعبد هو الذي يحدد ما يقربك إليه

وحاول ألا تدخل في مقام الإحسان نذراً^(١)؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما قدرته ، واجمع زمان الاحتيار والتطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في ود إحصائي ثم تفتقر عنه ، وكأنتك - والعياذ بالله

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات وهي الطاعة وإما صبر على المصدورات، وهي النواهي إما صبر على المنكرات، وهذا الصبر على النواهي والتقي فإذا تحققت الثلاثة كنت من أهل القلاح. مصداقاً لقول الحق ﴿بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتُمْ صَابِرُونَ وَاصْبِرُوا وَابْتَغُوا الْوَعْدَ اللَّهُ لَكُمْ فَتُحْبَبُوا (٢٥)﴾ [آل عمران]

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقنطروا قبل النصر لا يفتى من القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل» أخرجه مسلم في صحيحه (١٦١٠) والترمذي في سننه (١٥٣٨) وكذا النعاشي (١٧٧) قال النووي في شرحه: «معناه أنه لا يأتي بهذه القرية تطوعاً مضافاً حبساً وإنما يأتي بها في مقابلته شفاء الجريحين وسيره مما تعلق النظر عليه»

سُورَةُ الْفُجُورِ

٦٧٢١

قد جُرِّبَتْ مودة الله تعالى ، فلم تجده أفعلاً لها ، وفى هذا حفيان منك .
وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ نخل مقام الإحسان فلا
تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما قُرِضَ عليه ، وبين
من تجاوز ما قُرِضَ عليه من جنس ما قُرِضَ الله .

وجرب تلك فى نفسك ، والتزم أمر الله باحترام صواقيت الصلاة ،
وقم لتصلى الفجر فى المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عملك ،
وحين يجرى الظهر قم إلى الصلاة فى المسجد ، وحاول أن تزيد من
ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلعات قد رقت فى أعماقك ،
وامتلأت بإشراقات نورانية تفوق إدراكات العواس . ولذلك لا تستكثر
على مَنْ يرتاض^(١) هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد
أبار بصيرته بتجليات من وسائل إبراك وشفافية

ولذلك لا تجد واحداً من أهل النور والإشراق يدعى ما ليس له ،
والراحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعنها
له ، لأن الله سبحانه وتعالى قد خصه بأشياء وصفات لا يجب أن
يضعها موضع التباهى والمراءاة .

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراء أن يضع حدوداً للمرتاض
ولغير المرتاض ، فى قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفاته
عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى

(١) راضه ورضاء ورضاء ذلك يقال: راض المهر، وراض نفسه بالقتوى، وراض القوافى
الصعبة، وارتاض: صار مروضاً يقال: ارتاض المهر ثل، وارتاضت القوافى ذلك. والرياضة
عند الصوفية تهذيب الاخلاق النفسية بملازمة العبادات، والتخلي عن الشهوات. [المعجم
الوسيد مادة (دوس)] بمصرف.

﴿.. عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا^(١)﴾

﴿٦٥﴾ عَلِيمًا

[الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿.. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٦)

[الكهف]

وبين العبد الصالح لموسى بمنتهى الأدب - عذره في عدم الصبر، وقال له:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا^(٢)﴾ (٦٨)

[الكهف]

ورد موسى عليه السلام:

﴿.. سَجِدْ لِي إِن شَاءَ اللَّهُ عَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩)

[الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿.. فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَ لَكَ بِهِ ذِكْرًا^(٣)﴾ (٧٠)

[الكهف]

(١) لبن، ظرف مكان، أو ظرف ومكان بمعنى (عند) مبني على السكون، وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصارت مبنية نون الوصلية وأنضمت في نومها مثل قوله تعالى ﴿.. قَدْ بَعَثْنَا مِنْ نُفُسِنَا عَلِيًّا﴾ (٣٦) [الكهف]، وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب في قوله تعالى ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ (٦٥) [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين [إنا] في قوله تعالى ﴿.. وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عَلِيمًا﴾ (٦٥) [الكهف]، وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله تعالى ﴿لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَيُنْذِرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٩) [الكهف] [القاموس القويم - مادة (لذ)].

(٢) خير الأمر وخير بالامر، مثل: علمه، وعلم به - وردنا ومعنى: فهو به خير قال تعالى ﴿.. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (٦٥) [الفرقان] وقال تعالى ﴿سَأَلَكُمْ مِنْهَا بَعِيرٌ﴾ (٧٢) [الملك] أي: بعبء ولعل تعالى ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ (٦٨) [الكهف] أي: علمًا [القاموس القويم - مادة (خير)].

(٣) الذكر: القرآن، والكتب المنولة كلها، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَعَافُونَ﴾ (٥٢) [الحجر] هو القرآن الكريم وقال تعالى ﴿ذُكِّرْ وَحَسَّتْ إِلَيْكَ عِبْدَكَ وَكُفْرًا﴾ (٦٨) [مريم] أي: قصة رحمة الله لعبده وتكريا. وقال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَكَ ذِكْرًا﴾ (٦٨) [الشرح] أي: شركك وحديث الناس عنك بالخير [القاموس القويم - مادة (ذكر)].

وجاء في [مختصر تفسير الطبري - ص ٣٣٧] في تفسير هذه الآية ﴿حَتَّىٰ أُخْبِرَ لَكَ بِهِ ذِكْرًا﴾ (٧٠) [الكهف]. يقول: «حتى» أي: ما لك، ما ترى من الأفعال التي أفعَلها وتستذكرها أنت، وبين لك شأنها، وأهتدك الشبر منها»

سُورَةُ الْهُودِ

٦٧٢٢

ولكن الأحداث توالى ، فلم يصبر موسى ، فقال له العبد الصالح

﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ ۝ (٧٨) ﴾ [الكهف]

وهذا حكم أزلى بأن المرتاض للرياضة الروحية ، وبخلف مقام الإحسان لا يمكن أن ينتهى مع غير المرتاض على ذلك ، ويلتزم غير المرتاض الأدب متلف يلتزم المرتاض الأدب ، ويقدم العذر فى أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه

ولو أن المرتاض لد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض قاذب مع المرتاض لاستقر ميزان الكون

والحق سبحانه يبين لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين ، فى قوله تعالى
﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ (١٦) ﴾ [الذاريات]

ويبين الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، فى قوله سبحانه

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ^(١) (١٧) ﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف فى الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، والمسلم أن يصلى العشاء ، وينام إلى الفجر .

وتستمر مدارج الإحسان ، فيقول الحق سبحانه

(١) هجع يهجم هجوعاً نام ليلاً قال تعالى ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧) [الذاريات]
[القاموس المبرور مادة (هجع)]

﴿وَبِالْأَسْحَارِ^(١) هُمْ يَسْتَعْبِرُونَ^(٢)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكف المسلم بذلك ، ولكن الذي يرغب في الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ^(٣)﴾ [الذاريات]

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم. وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليؤد الحق سبحانه.

ولله المثل الأعلى. نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ، فهو يعطيه من خصوصياته ، ويفض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالنا بمن يدخل في ود مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

(١) السحر - يفتح السجين والهاء - الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحر قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغِيرِينَ بِالْأَسْحَارِ^(١)﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَعْبِرُونَ^(٢)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم مادة (سحر)].

(٢) السائل الفقير أو من يسأل عن شيء. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ^(٣)﴾ [السمي] يحتل المصيب السائل الذي يطلب الصدقة والسائل المستفهم عن شيء وقوله تعالى ﴿لِلسَّائِلِ وَالْأَرْمَلِ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ السُّبُلِ^(٤)﴾ [الأعراف] ، السجين الناس والمرسل يوم القيامة [القاموس القويم مادة (سأل)].

والمحروم. المحروم من الخير. قال تعالى ﴿بَلْ لَّعَنُ الْمُحْرَمُونَ^(٥)﴾ [الواقعة] أي. حرماً نعر احديقه وحرماً الخير كله. والحرمان. المنع. والمحروم أيضاً اسم معرول ويطلق على الفتيان. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ^(٦)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم مادة (حرم)].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِمْ وَكَانُوا بِحُرْمَتِ﴾ (١١٣)

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حشا لفعل
لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه
تكون «لولا» للتحسر والتأسف.

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه

﴿لَلْوَلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَبِغَايَةِهَا إِلَّا قَوْمُ يُوسَى﴾ (٩٨) [يونس]

وذكرهم بالآيات ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان في اللغة
فهى إن دخلت على جملة اسمية ، فهى تدل على امتناع لوجود ، كقول
إنسان لأخيه «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أدنيت» وتسمى «لولا»
في هذه الحالة «حرف امتناع لوجود».

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهى أداة تحضيض ،
وتحميس ، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً، مثلما تشجّع طالباً على
المداكرة ، فتقول له «لولا ذاكرت بجد واجتهاد فى العام الماضى لما
نجحت ووصلت إلى هذه السمة الدراسية».

(١) أولو البقية أصحاب التمويه والعقل والنظر من العرالم وأصحاب الفضل الباقي والخير الثالث.

قال تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ (١١٣) [هود]

والبقية الباقية والنشء الباقي [القاموس القويم مادة (بقى)]

(٢) ترف ترفاً تنعم وتترف الله بعباده ما يشتهى ترف ترفاً [القاموس القويم مادة (تربى)]

(٣) [المؤمنين] ، وقال تعالى ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِمْ﴾ (١١٣) [هود] أى جروا وراء

شهواتهم وتبعوا ما أتوا به من بطرهم وأطماعهم [القاموس القويم مادة (تربى)]

وفى هنا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب :
«لولا ذاكرت بما رسبت» فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ،
وشحن طاقته لما هو آت ، لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛
لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ^(١) .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت
أمام أحداث الزمن ، بأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشئ التافه أولاً ،
ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشئ القوي ؛ لأنه ثابت على
أحداث الزمن ؛ وبقيّة الأشياء دائماً خيرها

والحق سبحانه قد بين لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت ، لأنه لم
توجد فئة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع
من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

(١) لولا حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، وجملة الشرط (تسمية) ويحذف
الخبر وجوباً إذا كان كونه عسكراً وإذا وليها مقصود يكون ضميراً ورفع متفصل مثل ﴿لولا أنهم لكنا
مؤمنين﴾ (٣٥) [سبا] ، وجملة الجواب (قطعية) وتقترب باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب، وتجرد عنها
إذا كانت منفية، قال تعالى ﴿ولولا فعل الله عليكم رحمته ما كنتم من الخاسرين﴾ (٣٥) [النور] تجرد
الجواب من اللام لأنه منفي بالعرف (ما) ، ولقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل
كقوله تعالى ﴿ولولا لهلك علىكم حزنك وإن الله لعرف رسيم﴾ (٣٥) [النور] ، وتضمير الجواب
«بمسئلكم فيها أنظرتكم فيه عذاب عظيم» ، كما وضحت الآية التي بعدها فى نفس السورة

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتخصيض مثل (هلاً) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى
﴿لولا تستغفرون الله...﴾ (٣٥) [العمل] ، وتدخل على منفي فى تالوين المضارع كقوله تعالى ﴿لولا
أخترنى إلى أجل لم رب...﴾ (٣٥) [المنافقون] أى لولا تؤخرنى -- وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتعظيم
فتختص بالماضى كقوله تعالى ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء...﴾ (٣٥) [النور] وقوله تعالى ﴿ولولا
إد مسخموه أقدم ما يكون لنا أن نكلمهم بها...﴾ (٣٥) [النور] وقوله تعالى ﴿لولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا
...﴾ (٣٥) [الأنعام] ولولا هنا بمعنى (هلاً) للتوبيخ، ومؤيده قراءة «هلاً إذ جاءهم بأسنا»

[القاموس التوحيدي مادة (لولا)].

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية من كل شيء ، وأنها هي التي تبقى أمام لاحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه .

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَفْضَحُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَرَبِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴿ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخر .

ولذلك قال شعيب عليه السلام

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) وَلَا تَبْخَسُوا ^(٢) النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

فأنت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخراً لك باقياً .

ولنا امثل في موقفه رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - حينما سألها عن شاة أهديت له ، وكانت تعرف أن

(١) أقيست عدن . وقال الظلم أو الجور . قال تعالى . ﴿ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القسط) بكسر القاف وسكون السين بمعنى العدل كما في قوله تعالى . ﴿ أَقْلُ أَمْرِ رَبِّي بِالْقِسْطِ . ﴾ (٣٩) ﴿ [الأعراف] أي . بالعدل . وقال تعالى ﴿ وَأَقِمُّوا قُرُونَكُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ (٤٣) ﴿ [الرحمن] أي . بالعدل . وقال تعالى ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. ﴾ (٨٥) ﴿ [هود] أي . بالعدل [الاناموس القويم مادة (قسط)]

(٢) يخسه حقه بخساً نقصه حقه ولم يؤده قال تعالى . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ . ﴾ (٨٥) ﴿ [الأعراف] [الاناموس القويم مادة (بخس)]

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها^(١)، فتصدقك بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها، فلما سألها ما فعلت بالشاة؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنها - هذا المنظور الواقعي؛ بأن الباقي من الشاة هو كتفها فقط، وأنها تصدقت بباقي الشاة، وبلغتها رسول الله ﷺ لفئة إيمان ويقين، ويقول لها: «بقى كلها إلا كتفها»^(٢).

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقي من الشاة من حير.

ويؤيد ذلك حديث قاله ﷺ: «وعل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأمضيت، أو لبست فألبيت، أو تصدقت فأمضيت»^(٣).

وبلغتنا القرآن الكريم إلى المنظور، وإلى المدخور، فيقول الحق سبحانه ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا...﴾ (٤٦) [الكهف]

ويصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله.

(١) أخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٢٨٨) (ص ٦٠) عن ابن عباس «كشأ أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف» وأخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢) عن أبي هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٦) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة قال الثوري: «حديث صحيح».

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٦٦، ٦٦) ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) والترمذي في سننه (٢٢٤٢) وصححه.

(٤) بنى بقاؤه ضد نسي وفاق اسم فاعل. مؤنثه: باقية. قال تعالى ﴿وَبَقِيَ رَحْمَتُكَ ذُرِّ الْعَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٥٧) [الرحمن] وقال تعالى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (٥٨) [الرحمن].

والباقية، الباقية، والشيء الباقي وجمع بقية: بقيات وجمع باقية: باقيات، قال تعالى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ لَّكَ﴾ (٥٦) [الكهف] أي الأعمال النافعة الباقية التي يبقى خيرها في الناس هي خير ثواباً عند الله. [القاموس الفريسي مادة (بقى)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٣٩

﴿.. ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا^(١)﴾ [الكهف]

وفى آية أخرى يقول سبحانه

﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مُرَدًّا^(٢)﴾ [مريم]

إذن لا بد أن ننظر إلى الباقيات في الأشياء ، لأنها هي التي يُعَوَّلُ عليها.

ويفتتنا الحق سبحانه إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(٣)﴾ [الاعلى]

ويقول سبحانه

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .^(٤)﴾ [التيسر]

إذن، فإياك أن تنظر إلى الذاهب ولكن انظر إلى الباقي.

وإذا عضَّتِ الإنسان الأحداث في أى شيء ، نجد أن سطحى الإيمان يفرع مع ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكراً لله تعالى على ما بقى

وما هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر رضى الله عنه - حينما

(١) أمل يأمل أملاً وإملاً وأملاً رجاء يرجو والامر الرجاء قال تعالى: ﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مُرَدًّا^(٢)﴾ [الكهف] لأنه رجاء عند الله متحقق، لا شك فيه [القاموس القويم مادة (أمل)].

(٢) مرَدٌّ اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمي قال تعالى: ﴿وَأَنْ مُرَدًّا إِلَى اللَّهِ .^(٣)﴾ [غافر] أى رجوعاً إليه - على المصدرية - أو مرجعاً إليه - على أن اسم مكان أو زمان. وقال تعالى ﴿وإذا أراد الله بخلق سوءاً فلا مرد له^(٤)﴾ [الرعد] أى لا حصر له ولا إرجاع به - على المصدرية - فهو واقع بهم حتماً [القاموس القويم مادة (رد)]. وجاء في [كلمات القرآن للشیخ محمد حسين مخلوف] أن كلمة (خير مردي)، أى، مرجعاً وعاقبة

جُرحت ساقه جرحاً شديداً. وهو في الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة . فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين

وكان هذا القول يعني أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مضر . فلما قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ، لتسببه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاموا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت في عصو ، فقد عافيت^(١) في أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقى.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقي الإيمان يقول مرة

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. ﴾ (١٠) [عافر]

ويقول عن آباس آخرين .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴾ (١٠٧) [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا

تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة

وهكذا نجد في كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه

(١) عفا التبت. كثر وطال. وعفا القوم كثروا. يقول الحق ﴿ تَمَّ بَنَّا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ حَتَّىٰ هَوًّا ﴾ [الأعراف] أي كثروا وامتزوا واعتنوا. والحغو في المال ما زاد من النفقة. يقول الحق: ﴿ وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُغْفَرُ لِقُلِّ الْأَعْرَ .. ﴾ (١١٩) [البقرة] وعفا عن الذنب عفواً تجلوا عنه. وعفو صيغة مبالغة أي. كثير العفو يقول الحق: ﴿ إِنْ اللَّهُ تَغْفِرَ خَيْرٌ ﴾ (١٤) [الحج]. ويقول الحق ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ .. ﴾ [الأعراف] أي. جد ما عفا عنه الناس وسمحوا به عن طيب خاطر. ومن دعاء القرآن الكريم ﴿ رَاغِبًا عَنَّا وَغَافِرًا لَّنَا وَارْحَمًا لَّنَا مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٧٨) [البقرة] القاموس الكريم (١/٢٧، ٢٨).

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٦٧٤﴾

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ ^(١) مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُوَى عَنْ الْفَسَادِ ^(٢) فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ .. ﴾ (١٦٦) ﴿

[هود]

أى. لولا أن كان في الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكلنوا يمهون عن الفساد في الأرض ، لولا هم لخشف الله الأرض بمن عليها .
والبقايا في كل الأشياء هي نتيجة الاختيار ، والاختيار : مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ ^(٣) فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^(٤) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ ^(٥) فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) ﴿

[الزهد]

(١) القرن من الناس أهل زمان واحد قال تعالى ﴿ فَأَمْلَكْنَاهُمْ يَنْسُرُهُمْ وَأَنفَعْنَا مَنْ يَخْصُهُمْ قُرُونِ آمِينَ ﴾ (١٢) [الأنعام] ، وجمعه قرون. قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا .. ﴾ (١٦٦) ﴿ [يونس] ، [القاموس القويم مادة (قرون)]

(٢) بعد فساداً ، والفساد ضد الإصلاح ، والنسب غير جملته ماسداً قال تعالى ﴿ .. وَيَسْخَرُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٩٤) [المائدة] . وقال تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ (٢٣) [البقرة] ، وكلمة مفسدين حال مؤكدة بمعنى الفعل «تعتوه» أى لا تفسدوا في الأرض فساداً ، [القاموس القويم مادة (فسد)]

(٣) زبد الماء ما يعلوه - عند جريانه واضطرابه - من الرغوة وحطام الأشياء . وزبد المعادن خبثها ونفائسها قال تعالى ﴿ فَاِذَا جَاءَ السَّيْلُ زَبَدًا ﴾ (٥٧) [الزهد] وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴾ (١٧) [الزهد] حسب الله - سبحانه - ما طار بالزبد الذي يلقى ويرمى لأنه لا يقع الناس ، [القاموس القويم مادة (زبد)]

(٤) جفت القدر ومث ريحها عند الغياض ، وجفا السيل خثاه . رماه وقتظه . ومن عادة الطهارة أن يلقى ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب. قال تعالى ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥٦) [الزهد] أى. لا يمتلح به ، ويلقى بعيداً ، أو يدمج شيئاً كالجفاء ، [القاموس القويم مادة (جفا)] .

(٥) مكث مكثاً ومكثاً أقم في مكانه ، وتعيد الداني وعدم العجلة قال تعالى ﴿ فَبَكَتْ غَيْرَ مُعِدِّ . ﴾ (٣٩) [النمل] أى استمر للهدم في غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى ﴿ فَبَكَتْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٥٧) [الزهد] أى. يبقى مدة طويلة فيها تديرها حصباً . وقال تعالى ﴿ لَمَكُتُوا إِنِّي لَكُنْتُ نَارًا ﴾ (٦٥) [طه] أى. انقبوا في مكانكم مستظريين . وقال تعالى ﴿ وَفَرَأْنَا لَهُ أَفْوَاحًا يُفَاهِي عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكُتٍ ﴾ (٦٥) [الأنعام] أى. على سهل وثان بغير عجلة في أزمة متطولة [القاموس القويم مادة (مكث)]

وفي العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إذن، فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة هؤلاء الذين يتهون عن الفساد في الأرض ، لأنهم يعملون على صوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهج سبحانه إنما يصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذي كَوَّنَ الكون بكَماله.

واقراً إن شئت قول الحق سبحانه

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا (٨) فِي الْمِيزَانِ (٩)﴾ [الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ، فلکم أن تعملوا في الكون في الأمور الاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاقل خير الكادح ، ويرى إنسان العاقل ، وهو يحيا في ترف من سرقة خير الكادح ، فيعملون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد

(١) طفي يطفئ طموناً وطموى بمعنى تجاور الحد في الجور والعدوى وطفي يطفى طغياناً: تجاوز الحد ، وطموى: من الوارى، وطمغيان: من اليتيم. قال تعالى ﴿الَّذِينَ ظَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١١)﴾ [الفجر] أى: ظفروا وتجاوزوا الحد في العصيان. وقال تعالى ﴿فَمَا تَمُوءُ فَطَفَرُوا بِالْعَاقِبَةِ (٤)﴾ [الحاقة] أى: بالصيحة التي تجاوزت الحد في قوتها [القموس القويم مادة (طفي)] رجاء في كلمات القرآن للشيخ محمد حسين مخلوف [﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]: شرع العدل وأمر به الحق. و﴿الْأَطْفَاءُ (٨)﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

سُورَةُ هُودٍ

﴿٢٧٤٢﴾

وينزوي أصحاب المواهب ، فلا يميل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ، لأن ثمرة عمله إن زادت فهي غير مصنونة بالمعالة.

وهكذا تنفس حركة الحياة ، وتختل الموازين وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة

والحق سبحانه وتعالى يقول.

﴿ فَبَلَّوْا كَانِ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .. (١١١) ﴾

[هود]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد ﷺ خير الأمم بشرط أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر.

قال الله تعالى.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ^(١) وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ^(٢) .. (١١٠) ﴾

[آل عمران]

وجعلها الحق سبحانه الأمة الحاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتي بعد أن يتخلص الخير في المجتمعات ، وفي النفوس.

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق في النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية في الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع

(١) المعروف ضد المنكر وهو الذي تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن. قال تعالى: ﴿ تَوَلَّوْا الْمَعْرُوفَ وَاصْطَفُوا خَيْرًا مِنْ صَلَافٍ يَنْفَعُهَا ذِي ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ إِنَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَنْتَ حَكِيمٌ ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم مادة (عرف)] يتصرف.

(٢) المنكر ما يستقبحه الشرع الشريف، وما تستفكره العقول الصليمة. قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ إِنَّهُم بِآيَاتِنَا أَكْبَرُونَ ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم مادة (نكر)]

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوامة» ، ويستسلم للنفس الأمارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقرمه ، فإذا ما قسد المجتمع ، فللسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد آمنها الحق سبحانه أنه سيعطل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهي عن المنكر^(١)؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى «علماء امتي كأنبياء بني إسرائيل»^(٢)

والعالم هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلفه إلى الناس

ورسول الله ﷺ يقول «نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها ، وأدأها إلى من لم يسمعها ، فربُّ مُبْلَغ أوعى من سامع»^(٣).

ويقول الحق سبحانه:

﴿... أَوَلَوْ لَا بَقِيَّةٌ يَتَّهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا بِهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١١)﴾ [هود]

ولقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض.

(١) من معارية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا تترك طائفة من امتي قائمة باسم الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» أخرجه مسلم في صحيحه (١-٧٢).

(٢) ذكره العجوني في كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال «قال السهرطي في الدرر لا أصل له» وكذا قال ابن حجر والتميمي والذركشي.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٧/١) وابن ماجة في سننه (٢٣٢) من حديث ابن جهمود

سُورَةُ هُودٍ

﴿١٧٤﴾

وفرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت حاصرة البحر ، وكانت
تأتيهم حينئذهم شُرْعاً ^(١) يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على
أنفسهم ، ويوم لا يسبغون لا ثيابهم .

ويقول الحق سبحانه

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ بَنِيهِمْ لِمَ تَعْطُونَ ^(٢) قَوْمَ اللَّهِ مَهْلِكَهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا قَالُوا مَعْذَرَةُ ^(٣) إِلٰهِ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ
انجَبْنَا آلَ الْيَمِينِ يَتَهَوَّنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَنِي ^(٤) يَمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ^(٥) ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف]

(١) شرع . ظهر وأشرف فهو خارج أي بارز ظاهر ، وجمعه شرع ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينُئِذِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا .

﴿١٦٥﴾ [الأعراف] بارزة واضحة في الماء [القاموس القويم ١/٣٤٦]

(٢) وعظه بعظه وعظاً وعظه بمصحه بالطاعة وبالعمل الصالح ، وأرشدته إلى الخير قال تعالى مصوراً
عباد الكافرين ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَ أَمْ لَمْ تُنْكِرْ مِنْ نُنَاوِعُظْ ﴾ [الشعراء] فهم لشدة عنادهم
وكبرهم يستوي عندهم الأمران ، الوعد ، وعدم الوعد .

والموعظة : ما يوعظ به من قول أو فعل قال تعالى ﴿ وَنُوحِظُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الذرة] وقال تعالى
﴿ وَأَدْخِلْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. ﴾ [الصل] [القاموس القويم : مادة (وعظ)] .

(٣) المعذرة : مصدر ميمي ، واسم للعدو وللحجة وعذره قيل عذره وسامحه قال تعالى ﴿ مَعْذَرَةُ إِلَى
رَبِّكُمْ .. ﴾ [الأعراف] أي اعتذاراً له ببدل الجهد في السعي لهداية الناس ، وقال تعالى ﴿ وَلَوْ
أَنَّ سَائِلِينَ ﴾ [التفيلة] [القاموس القويم : مادة (نقس)] .

(٤) يؤس يؤوس ، بأسأ شجع واشتد . يؤس يؤس أي شديد ويقال: فارس يؤس أي قوى شجاع
قال تعالى ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَنِي يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف] أي عذب
ضديد [القاموس القويم : مادة (نقس)] .

(٥) غسقت الرطبة تسوقتاً وسقاً ، خرجت من قشرتها ومن هذا المعنى المادي أخذ الجسم العطوي ،
فقبل فسق الرجل خرج من طاعة الله خرجاً فاسقاً ، والفسق كعم من الكفر ، فلا يكون فاسقاً
ولا يكون كافراً ، كالمسلم المعاصي . قال تعالى ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِهَايَتِهِمْ ﴾ [١٦٦]
[الاحزاب] . وقال تعالى ﴿ الْيَمِينُ كَانَتْ مُؤْمَنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا . ﴾ [السجدة] أي كافراً غير مؤمن ،
بالمسوق هنا من الآية الأخيرة بمعنى الكفر [القاموس القويم : مادة (فسق)] ، ينصرف .

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن سوء في تلك القرية ، وقد نرى في بعض المجتمعات عنصريين .

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد .

والعنصر الثاني أن يفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه ، وفي انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلة للبشر ، لأنك قد تجد إنساناً لا تتروعه إمكانياته ؛ فيزيد هذه الإمكانيات بالرشوة والسرقه والمحسوب .

وكل ذلك إما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتنعمون بنعيم لا تملكه إمكانياته أن يتنعم به

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه امجتمعات ،

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ^(١) .. ﴾ [الإسراء]

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها ، فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة لأمر من الله - سبحانه وتعالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ، لأن الحق سبحانه يقول

﴿ وَمَا أَمَرُوا إِلَّا ليعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ^(٢) لَهُ الدِّينَ .. ﴾ [البينة]

أي، أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتشيعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهي مختارين ، ففسقوا عن أمر ربهم

(١) أمراً مترفيها أمراً متشيعها بطاعة الله ، ففسقوا ، فتمردوا ، وعصوا . [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف]

(٢) أحلص دينه لله . طهره وسفاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى ﴿ لَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر] وقال تعالى ﴿ إِنَّا أَعْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ﴾ [تكرى الدار (٤١)] [سورة من] أي، إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خالصة خاصة هي ذكرى النار الآخرة، فذكرها والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل . وهي فضيلة عظيمة خاصة بهم . [القاموس القويم مادة (خلص)] .

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خراطرف عنها

﴿وَاتَّبَعَ الدِّينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ .. (١١٦)﴾ [هود]

وقوله سبحانه (ظلموا) تبين أن مادة الترف التي عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتناعهم دماء الكافرين .

ومادة (ترف) تعني النعمة يتنعم بها الإنسان . ومنها أترف ، وأترف ، وكلمة «أترف» أي أطففته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه وأترف ، أي مد الله له في النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر .
واحق سبحانه يقول .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (١) . (١١٧)﴾ [الأنعام]

لمن يمسك عدوه ليرفعه ، فلا يظن ظان أنه يدلكه ، ولكنه يرفعه ليلقيه من عل ، فيزداد ويعظم ألمه . وكان الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليبلغوا

ولما أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التي تجعل انفس منشروحة ، وغليظة أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

(١) الباب . مدخل المكان . وجمع . أبواب . ويستعمل مجازاً فيمما يوصل إلى غيره ، قال تعالى . ﴿وَفُتِحُوا الْبَابَ سَجْدًا . (٢٥)﴾ [البقرة] هو باب حقيقي للبلد .

وقال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ ثَلِيثٍ . (٢٧)﴾ [المؤمنين] أي . أسبغهم بعداء شديد . كأنه حلف باب مغلق ففتح وتدفق العذاب عليهم . وقال تعالى . ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١٧)﴾ [الأنعام] أي . مدحناهم أصناف النعم من صحة ومال وجاه . وغير ذلك . كأنها كانت حلف أبواب ملققة فتحت [القاموس القويم مادة ب و ب]

(٢) بغتة بغتاً وبغطة فاجاء على غرة وغطة قال تعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْةً وَهُمْ لَا يُخْفِرُونَ (٢٥)﴾ [الاعراف] [القاموس القويم . مادة (بغت)]

إِنْ قُتِحَ عَلَيْكَ ، فَافْهَمْ أَنَّ النِّعْمَةَ جَاءَتْ لِنُطْفِئِكَ ، وَلَكِنْ إِنْ قُتِحَ لَكَ ،
فَهَذَا تَيْسِيرٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، فَهُوَ الْقَائِلُ .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ^(١) لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم في هذه الآية التي نحن بصدد
خرائطها عنها ؛ قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر ، لأنهم غفلوا عنه .
ويُنْهِى الحق سبحانه لآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١) ﴾ [هود]

أى : كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصس ؛ وهو اتباع منهج
السماء ؛ لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» ^(٢) وتعنى
«قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء ، والغفلة عن الإيمان بالخالق
سبحانه ، والاستغراق في الترف الذى حققوه لأنفسهم بظلم الغير ،
وأخذ نتيجة عرق وجهه الغير .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

(١) فتح يفتح فتحةً عند الخلق . ويسمى النصر على العدو فتحةً لأنه يفتح بلاءه للمستتر . قال تعالى :
﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ (٥٧) ﴾ [الأعراف] أى : انصربنا عليهم . ويجوز أن يكون المعنى
ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب القلالم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عناهم . وقال تعالى
﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ (٤٥) ﴾ [الأعراف] أى : لا يرصص عنهم الله ، ولا يبالوا رحمتك كأن
السماء مغلقة أمامهم كما تغلق أبواب الملوك في وجه الذين لا يرغبون في لقاءهم . [القاموس
القيوم مادة (فتح)] .

(٢) جرم الشيء جرماً ، قطعه ، وألغى هذا الفعل على من فعل . يقال : جرم أنثى ، وجنى جنابة . وجرم
المال ، كسبه من ي وجبه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجرمه . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمُكُمْ
شَكَارُكُمْ عَلَى الْقَتْلِ (٢٠) ﴾ [المائدة] أى : لا يجعلكنكم يفسد قوم على حدم العدى ، أى : القتلوا
العدى حتى مع من تكرهونهم أى : أعدوا دائماً فالعدى أقرب للتقوى [القاموس القويم - مادة
جرم]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ
وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١٧)

وساعة تقرأ أو تسمع (ما كان) يقطر إلى ذلك، ما كان ينبغي^(١)

ومثال ذلك هو قولنا «ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا» . وقولنا
هذا يعني أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغي أن يصدر منه

وهناك فرق بين نفى الوجود ' ونفى انبغاه الوجود

والحق سبحانه يقول

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾ (٦١)

[يس]

وهذا لا يعني أن طبيعة الرسول ﷺ جامدة ، ولا يستطيع - معاذ
الله - أن يتذرق المعاني الجميلة ، لأنه ﷺ جبل^(٢) على الرحمة ؛ وقد
قال فيه الحق سبحانه

(١) هلك، يهلك هلكاً وهلكاً وهلاكاً، ومهلكاً - يفتح اللام ومكسرها - وتهلك - مات وفسد، فهو عاكف
قال تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ مَّا لَكَ إِلَّا رَجْءٌ...﴾ [الفصيح] وقال تعالى ﴿لِيُهْلِكَ مِنْ ظَنِّكَ عَنْ يَّتَذَنَّ﴾
[١٧] [الانفال] وقال تعالى ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِمْ مِنْكُمْ أَهْلُهُ...﴾ [النمل] وقوله تعالى ﴿هَلْكَ عَنِّي
سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة] أي ذهب وضاع ولم يبق لي من ولا سلطان، وقوله تعالى ﴿إِنْ أَمْرًا هَلْكَ
فِيهِ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء] أي مات وليس له ولد يرثه، وأهلكه أمانته وانفسده، أو كان سبباً في
هلاكه قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نَادَانَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الهمم] أي أهلكهم وأبادهم، [التناسون] التوهم
مادة هلك [يتصرف].

(٢) قال الإمام أبو يحيى زكريا الانصاري في مفتاح الرحمن (ص ١٦٥) «نفى الله الظلم عن نفسه
بأنه لفظ يستعمل في النفي، لأن اللام فيه لام الجحود والمضارع يفيد الاستمرار، فمعناه
ما فعلت الظلم فيما مضى، ولا أفعله في الحال، ولا في المستقبل فكان عليه من الظلم».

(٣) جبل الله الشلق جبلاً خلقهم ويقال جبله على كذا: طبعه وفي لسان «جبلت القلوب على حب من
أحسن إليها» وجبل الشيء: شبعه وأوتقه وجبل فلاناً على الشيء، والأمر جره [المعجم
الوسيط، مادة (جبل)].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٠٩)﴾ [ال عمران]

ولهذا نفهم قوله الحق

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. (٦٩)﴾ [يس]

أى . أن الحق سبحانه لم يشأ به أن يكون شاعراً

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين «نفس الوجود» وبين «نفس انشغاف الوجود».

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. (١١٧)﴾ [هود]

أى لا يهلكنى . ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم . لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير ليستفيع به ؛ ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً لأنه سبحانه واهب كل شيء ؛ لذلك فالظلم غير وارد على الإصلاق هي العلاقة بين الخالق سبحانه وبين ابشر

وحين يورد الحق سبحانه كلمة «القرى» - وهى أماكن السكن -

فلنعلم أن المراد هو «المكين» ، مثل قول الحق سبحانه

﴿وَاسْتَلَّهْمُ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً^(١) الْبَحْرَ .. (١٦٣)﴾ [الاعراف]

وقوله الحق أيضاً.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ^(٢) الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٧)﴾ [يوسف]

(١) حاصرة البحر، أى مشرفة عليه، مجاورة له غير بعيدة عنه. [القاموس للتوحيه ١/ ١٥٩] بتصرف.

(٢) القرية البلدة الكبيرة، تكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية قال تعالى

﴿وَادْخُلُوا فِي الْقَرْيَةَ^(٣)﴾ [البقرة] ، ثم قال ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٧)﴾ [يوسف] أى

أهل القرية. مجاز مرسل علاقته المحلية وكذلك قوله تعالى ﴿وَكُنَّا مِنْ قَرْيَةٍ مِمَّنْ أَنْشَأَتْ مِنْ قَرْيَةٍ

الَّتِي أَخْرَجْنَا مِنْهَا طَائِفَةً فَلَا تَأْمُرُ لَهُمْ^(٤)﴾ [محمد] والمراد أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجهم

[القاموس للتوحيه ٢/ ١١٥]

والحق سبحانه في مثل هاتين الآيتين ؛ وكذلك الآية التي نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المعين.

والله سبحانه يقول هنا :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ۖ ﴾ (١١٧) [هود]

أي أنه مُنْزَهٌ عن أن يهلكهم بمجاوزة حدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدلٍ ، لأن العدل ميزان ، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران ، ومن العدل العقاب ، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب

ومى مجالنا البشري ، لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة ، فمن نتعبه فعلاً ؛ لكنا نريح كل المظلومين وهذه هي العدالة فعلاً.

ومن خطأ التقنيات الوضعية البشرية هو ذلك الدراحي في إنفاذ الحقوق في التقاضي ، فقد تحدث الجريمة اليوم ، ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ، إنما هو واحد من أخطاء التقنيات الوضعية ، ففي هذا تراخ في إنفاذ حقوق التقاضي ، لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ، إنما يضعف الإحساس بشاعة الجريمة.

ولذلك حرص المشرع الإسلامي على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة فعقاب المجرم في حُمُوءٍ^(١) وجود الأثر النفسي عند المجتمع ، يجعل المجتمع راضياً بعقابه

(١) حموة الالم سورته، وشذبه، سواء أكل الالم مادياً أم معنوياً. [المعجم الوسيط - مادة: حمو] [حمو]

المجرم، وينكر الجميع ببشاعة ما ركب ، ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها

ويقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَمَا كَانَ لَكَ لِهَٰذَا الْقَرْيَةِ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ ^(١) ﴾ [هود]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ .. لَمْ يَكُنْ لَكَ لِهَٰذَا الْقَرْيَةِ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ ^(٢) ﴾ [الأنعام]

إذن: لا بد من إزاحة العفلة أولاً ، وقد أزاح الله سبحانه العفة عنا

(١) أصل امر إصلاحاً: أزال إفساده قال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا . ^(١)﴾ [الأعراف] . وأصل بين الرجلين: أزال ما بينهما من خلاف . خصام . قال تعالى ﴿فَلْيَصْطَرِغَا بَيْنَ آخَرَيْكُمَا .. ^(٢)﴾ [الحجرات] . ومصلحون: جمع مصلح . والمصلح: اسم فاعل، من الفعل ،أصلح . قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَظُنُّ الْمُفْسِدِينَ الْمَصْلُحِينَ . ^(٣)﴾ [البقرة] . وقال تعالى ﴿فَالْتَوَا أَنَّمْ يَصْنَعُ مُصَلِحُونَ ^(٤)﴾ [البقرة] . وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكَ لِهَٰذَا الْقَرْيَةِ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ ^(٥)﴾ [هود] . وقال تعالى ﴿.. إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصَلِحِينَ ^(٦)﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم مادة (مصلح)] يتصرف.

(٢) غفل عن الأمر، يغفل غفولاً تركه عمداً، أو عن غير عمد، وأخطأه - ملأه بالهزيمة - تركه من عمد . وأخطأ غيره عن الأمر: جعله يغفل عنه . ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْكُمْ مِنْكُمْ . ^(١)﴾ [الكهف] أي: جعلناه غافلاً عن ذكرنا، والطفلة: سهو . يعتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة . قال تعالى ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا .. ^(٢)﴾ [ق] أي: غافلاً عن إرفاق القيامة، وغافلاً عن أحوال ما بعد الموت . وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَقَرَّوْا تُؤْتَفَّقُونَ عَنْ أَسْلَحَتِكُمْ .. ^(٣)﴾ [الصافات] أي: تسبون عنها وتتركوا حراستها فينقصون عنكم . وقال تعالى ﴿.. وَمَا لَهُمْ بِمَا يَفْعَلُونَ عَمَلُونَ ^(٤)﴾ [البقرة] أي: أي الله عالم، يعلم بكل ما تعملون، لا يسهر عن شيء منه . وقال تعالى ﴿.. أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ^(٥)﴾ [الأعراف] أي: الذين لا يتركون الحق ولا يهتدون إليه فيعترضون منه [القاموس القويم مادة (غفل)] يتصرف.

إرسال الرسل وبالبيان والفتور ، حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق انتشريع لها ^(١)

وهكذا أطمأننا الله سبحانه وتعالى لبيان اللزم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود]

والإصلاح في الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا في الكون من ضروريات لننتفع بها ، وقد كھانا الله ضروريات الحياة ، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل الترف في الحياة

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة في الكون ، والتراوج متاح بوجود الذكر والأنثى في الكائنات المخلوقة ، أما ما يصعب نحن من تجويد لأساليب الحياة ورفاهيتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا

وسبق أن قلنا ، إن المصلح هو الذي يترك لصاحبه على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدي إلى ترفه وإلى راحته ، وإلى الوصول إلى العاية بأقل مجهود في أقل وقت.

والقرى التي يصلح أهلها ، لا يهلكها الله ، لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى ، فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات ، بل تتساند وتتعاقد ، ويتواجد المجتمع المنشود

(١) يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا كُنَّا بِمُعْذِرِينَ عَنْ تِلْكَ أَعْمَالِهِمْ ﴾ [الإسراء]

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوى ، ولكنهم اهتدوا إلى أسلوب عمل يريحهم، مثل لأمم الملحدة التى هتدت إلى شيء ينظم حياتهم ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنح العقل البشرى أن يصل إلى رضى قانون يريح الناس.

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوى فقد شاء به الله سبحانه أن يلقى الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعضهم الأحداث

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهى تعالج بعض الداءات التى يعانى منها البشر ، لا تعطى عائد الكمال الاجتماعى، أما قوانين السماء فهى تقى البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ (١١٧) ﴾

[هود]

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوى، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوى ، نكنهم يصلحون أنفسهم.

إن قال الحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة ، بن يبقيا كافرة ما دامت تسمع القوانين التى تنظم حقوق وواجبات أفرادها ، وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام.

ولكن على المؤمن أن يعلى لهم منهج الله ، فإن أقبلوا عليه ففى ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا ، فعلى المؤمنين أن يكفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيمانى.

لأن الحق تبارك وتعالى - أثبت لنفسه طلاقة القدرة في تسخير
أجناس لمزاده ، بحيث لا تخرج عنه - وذلك يثبت لله - سبحانه -
القدرة ولا يثبت له المحبوبة

أما انذى يثبت له المحبوبة فهو أن يخلق خلقاً ؛ ويعطيهم في
تكوينهم اختياراً.

ويجعل هذا الاختيار كل واحد فيهم صالحاً أو يطيع ، وصالحاً أن
يعصى ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبة الله - تعالى.

وهكذا نعم أن الكون المسخر المقهور قد كشف لنا سيال^(١) القدرة،
والجنس الذي وهب الله الاختيار إن أطع فهو يكشف لنا سيال المحبوبة.

والحق سبحانه - هو القائل.

﴿لَمْ يَشَأْ قُلُوبُهُمْ وَهِيَ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ﴾ (٢٩) [الكهف]

ويكن أيتوك الإنسان حتى يأتي له انزور في أنه يملك الاختيار دائماً؟

لا فمع كونك مختاراً إناك أن تغتر بهذا الاختيار ، لأن في ذلك
قهر^(٢) ، وما دام في طيك قهر فعليك أن تتأدب ، ولا تتوهم أنك
مختار في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن ، ولا تتوهم أنك مختلف من
قبضة الله - تعالى فهو يملك زمامك^(٣) في القهريات التي تحفظ لك

(١) سال يسيل سبلاً وسيلاناً، ومسبلاً، ومسلاً، فهو سائل وسيل جري وحشي ويقال سالت
الأرض وشعوب، وسالت بها فيها، وسالت عليه الخيل وغيرها جرت من كل وجه وتدفقت وسال
بهم السيل وجش بنا البحر وقعوا في أمر شديد، ووقعنا نحن في أشد منه. وسالت الغرة
سبيلت وعرضت في الجيبة وقصبة الأنف.

وسيل القدرة الإلهية ظهور آثارها في جميع المخلوقات، وانتشارها وشعورها لكل شيء في
الكون. ما علمنا منه وما لم نعلم [المعجم الوسيط مادة (سيل)] بتصرف.

(٢) لأن الإنسان مختار فيما يستطيع السيل فيه ، مظهر فيما لا يستطيع إبداله ، إلى الاختيار حدود
مقرونة بالاستطاعة ، والطلاقة البشرية.

(٣) الزمام الحيط الذي يشد في البرة أو في الحشائل ثم يشد إلى طرف المقود ويقال دهر زمام
قومه. قاندهم ومثد بهم ومماحب أمرهم. وهو زمام الأمر ملاك. وألقى في يده زمام أمره
فوضه إليه. ويملك الله زمامك أي يملك أمورك كلها [المعجم الوسيط مادة (زمم)] بتصرف.

حياتك مثل الحيوان والنبات والجماد ، ولكن - سبحانه - مَيِّزٌ بالعقل
وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطى الأسماء معانى صد مسمياتها ،
فكلمة «العقل» مأخوذة من «عقل»^(١) وتعنى «ربط» ، فلا تجمع^(٢)
بمعنك فى غير المطلوب منه ، لأن مهمة العقل أن يربط جمالك. وتذكر
دائماً: فى قبضة من أنت ، وفى زمام من أنت ، وفى أى الأمور أنت
مقهور؟

وما دُمْتَ مقهوراً فى أشياء فاضتر أن تكون مقهوراً لمنهج الله
سبحانه وحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وحدك سواء
ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه

وانظر إلى من سلبهم الحق سبحانه بعض ما كانوا يظنون أنها
أمور ذاتية فيهم ، فتحد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ،
أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية فى الإنسان لما عصته ، وهذا دليل
على أنها أمور موهوبة من الله ، وإن شاء أخذها، فهو - سبحانه -
ياخذها ليؤدب صاحبها.

وما دام الإنسان بهذا الشكل، فليقل لنفسه. إياك أن تفتخر بأن الله

(١) عقل يعقل عقلاً أدرك الأشياء على حقيقتها. وعقل البعير. ضمَّ رُسْعَ يده إلى عُنُقِهِ وربطهما معاً
بالمثال: ليسقى باركاً والعقل. ما يكرن به التكبير وتُسَوَّرُ الأشياء على حقيقتها. كقوله تعالى
﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا ﴾ [البقرة: ٢٤٦] أى: أدركوه على حقيقتها وعلموه علماً ثابتاً. قال تعالى:
﴿ وَلَمَّا لَأُوا لِرَبِّ كَفًا لَسِمِعُوا ﴾ [البقرة: ٢٤٦] أى: أصحاح السمع (٢) ﴿ [العنك] أى: لو كنت أدرك الأمر على
حقيقته. وقد معنى القرآن كثيراً على من لا يستعملون عقولهم. وحث على استعمال العقل، فمن رآه
توكل تعالى. ﴿ أَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦] [القاموس الفيوم مادة (عقل)] يقتصر.

(٢) جمع أسرع. والجمع الرجل يركب وراءه فلا يمكن رده [مختار القاموس - مادة جمع].

جعل فيك زاوية اختيار، وتذكر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقى التكليف من الله بـ «افعل»^(١)، و«لا تفعل»، لأن معنى «افعل كذا» أنك صالح الأتفعل؛ ومعنى «لا تفعل كذا» أنك صالح أن تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة إلهية وتسخير، فتأديب في منطقة الاختيار، كما تأديب في منطقة الاضطرار والظهور وقد وصف الحق - سبحانه - الإنسان بأنه كنود، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٢) [العاديات]

لأن الإنسان لا يشكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده، وأن يقول لنفسه: «ما دامت انشوائية في مقهورة، وما دامت الجسدية في مقهورة، فلأكن مؤدياً مع ربي، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله.

وانت إن أردت أن تضع إحصائية لـ «افعل»، ولا «تفعل» لوجدت ما لم يرد فيه تكليف بـ «افعل»، و«لا تفعل» لا يقر عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة، وهو المصاح.

وأنتزل الله سبحانه التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها - إن جعلت التكليف هو مرادك - وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة، ويعود حير ذلك عليك.

(١) وكلمة افعل ولا تفعل تدور حول مطلوبات المنهج اسماً وبيهاً، فالقروض والتواجب والامتناع والمستحب مأمور بهم، والحرام والمكروه منهي عنهم، والامر عطاؤه مصداقاً للقول تعالى ﴿يَسِّرْ لَوْ تَبَايَأْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِي الْأَمْرِ أَتَكُمْ فِيهَا مَا تَتَّبِعُونَ أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ﴾^(٣) [فصلت] والله عاقبه أو المغفرة من الله.

(٢) كند المعنى يكفها، جعدها ولم يشكرها، فهو كائد، وصيغة المبالغة «كنود». قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٤) [العاديات] أي كنود شديد الجور [القاموس القويم: كند (كند)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٦

فساعة يقول لك التكليف عليك أن تزكّي عن مالك، فلا بد لك من أن تقدّر المقابل، لأنك إن امتنعت واحتجّت^١ سيأتك من زكاة الآخرين ما يلبي احتياجاتك، فمن «افعل» التي تلزم بها ويلتزم بها غيرك تأتي للثمرة التي تسدّ عجز أي ضعف في مجتمع الإيماني بالتراحم المتبادل اسارع عن النقيض بالمنهج.

وحين يقول لك التكليف لا تعتمد على حُرّمات الغير، فهو يقيّد حريتك في ظاهر الأمر، لكنه يحمي حُرّماتك من أن يعتدي عليها الغير، وحين تتعلّق أواخر التكليف كلها سنجدّها لصالحك، سواء أكان الأمر بـ «افعل» أو «لا تفعل».

وهنا يقول الحق - سبحانه - ﴿رَقُودًا يَكْمُلُ الْإِنْسَانُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (١٠٨) ﴿

و «لو» تفيد الامتناع^(٢)، أي، أن الله - تعالى - لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين.

(١) لو حرف شرط غير جازم، ومضاه امتناع الشرط لامتناع الجواب قال تعالى ﴿لو نشاء لجنّنا عظاماً...﴾ (١٥٥) [الواقعة] ويقترون جوابها باللام للتوكيد، وقد لا يقترون باللام، كقوله تعالى ﴿لو نشاء عظاماً ألقاها فلا تشكروا﴾ (٩٢) [الواقعة] ويقل اقتران جوابها باللام إذا كان منفيّاً كقوله تعالى ﴿ولو أناس في الأرض من شجرة أقلام﴾ (٣٩) [النمل] ثم قال ﴿ما نقصت كلاماً لله﴾ (٣٦) [النمل]، وقد يُحذف جواب لو كقوله تعالى ﴿ولو أن فرأنا سبيك به الجبال أو نقصت به الأرض...﴾ (٣١) [الرعد] الجواب محذوف تقديره لكن هذا القرآن العظيم يقل ذلك ونكس الله لم يهمل قرآننا بهذه المصفاة [القاموس اللويمي ٢٠٦/٢]

وقد تستعمل «لو» حرفاً مصدرياً مثل «أن» ويكثر ذلك بعد كلمة «وذا» وكلمة «أحب»، وما شبههما، كقوله تعالى ﴿يردّ أعضائهم نو يعضرّ ألف سنة﴾ (١٥) [البقرة] أي يود التعمير ألف سنة والمصدر المؤول مفعول به للفعل «يردّ»
وقد تستعمل «لو» للتمني، مثل قوله تعالى ﴿ولو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتروا منا﴾ (١٦٣) [البقرة] وهي على لسان بعض أهل النادر يوم القيامة الذين يثبثون الرجوع إلى الدنيا ليتبرءوا من الكهراء الذين كانوا يتبعونهم في الدنيا ثم تنكروا لهم في الآخرة [القاموس اللويمي مادة (لو)]

وقد حاول بعض من الدين يريسون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا الا تتعارض هذه الآية مع قول الله ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ (٢٢٣) [البقرة]

وَضَوْأَصْحَابْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْبَشَرَ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى خَالِقِهِمْ مِنَ الْبَدَايَةِ ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ لِيَلْتَفِتَهُمْ إِلَى الْمَنْهَجِ .

وسقول لهؤلاء لا ، فقد ضمن الحق سبحانه - للناس قوتهم وقوام حياتهم، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيمانى منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهنة الحلافة فيها، وقال الله سبحانه ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ^(١) فَلَا يَضِلْ^(٢) وَلَا يَشْغَى^(٣)﴾ .. (١٧٣) [طه]

ولو استقصى هؤلاء الآيات التي نعالج هذا الأمر، وهي ثلاث آيات، فهذا يقول الحق سبحانه ﴿وَرَوْضَاءٌ لَكُمْ لَتَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (١١٨) [هود]

(١) منه الطريق يهده خدياً روحانية ومُتًى، اعطيه إِيَّاه، وعرفه له، وأرشده إليه، فهو هاد ومن المجدد المعنوي، هذه الحق، أو هاد إلى الحق، دأله عليه وأرشده إليه

واللهي مصدر الفعل هدى، ويأتي بمعنى الرشاد ويوصف به للمبالغة، كقوله تعالى: **وَذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ لَهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (١)** ﴿البقرة﴾ أي: هادٍ للمتقين، وذلك إذا وقفنا على قوله تعالى: **﴿لَا رَيْبَ لَهُ (٢)﴾** [البقرة] فالكتاب هُدىً للمتقين، أي: هادٍ لهم وأما إذا وقفنا على قوله تعالى: **﴿لَا رَيْبَ (٣)﴾** [البقرة] فيكون هُدىً مصدرًا بمعنى هداية أي: هي الكتاب هداية للمتقين لا ريب في ذلك. [القاموس القويم مادة (هدى)] يتصرف.

(٧) صل الكافر عاب عن الحجة المقنعة وعننى عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق والصلوات
المسيان والحسيان قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ خَلَقْنَا لَكُمْ أَمْثَلَكُمْ عَلَىٰ نَفْسٍ﴾ (١٠) [عنيا] [العاموس
التويم مادة (صلل)]

٣ شقى شقىا شقاء وشقاوة ساء حاله المادية او المعنوية فهو شقى قال تعالى ﴿لَاؤا ونا غبت عليا شروعا ٤٥﴾ [الملءوى] اى حلة الشقة والصلال وفساد انفسى وقال تعالى ﴿ما ارننا عبك الا شقى ٦٦﴾ [ناه] اى مصرى وتقالع اسع على عسيانهم. [القاموس الءومى مادة (شقى)] مقتصر

وفي الآية التي ظنوا أنها تتعارض مع الآية التي نحن بصدد خراطرنا عنها يقول - سبحانه :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَبَعَثَ اللَّهُ الْفِتْنَةَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم - عليه السلام ثم طرأت الغفلة^(١) ، فاختلف الناس ، فبعث الله الأنبياء ليحكموا فيما اختلف فيه الناس.

إذن فقول الله - تعالى.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (١١٣) [هود]

يعنى أنه - سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية ، لانه بعد أن خلقهم وأنزلهم إلى الأرض وأنزل لهم المنهج ، كانوا على هداية ، ولكن بحكم خاصية الاختيار التي منحها الله لهم ، اختلفوا.

ثم يقول الحق - سبحانه ، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.﴾ (١١٤) [هود]

أى أنهم سيظلون على الخلاف.

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - في الآية التالية بالاستثناء فيقول.

(١) الغفلة : سبب يعجز الإنسان من قوة التمسك وعدم اليقظة ، يقول الحق ، ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا...﴾ (٢٢) [ق] وتأتى بمعنى عدم الإدراك للحق وعدم الالتفات إليه يقول الحق ، ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْآيَاتُ﴾ [الأنعام].

وعقل عن الأمر غفلاً : تركه عما أو عن غير عساه وأغفله متعمداً بالهمزة : تركه عن عمد وانظر غيره عن الأمر : جعله يفعل عنه ، يقول الحق ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا عَنْهُ﴾ (٢٣٥) [الكهف] أى : جعلناه غافلاً عن ذكرنا [القاموس القويم : تصرف ورتب من ٥٧ جـ ٧] .

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩)

أي أن الحق - سبحانه - قد خلق الخلق للرحمة والاختلاف.

وسعة نرى «اسم إشارة» أو «ضعيفاً» عائداً على كلام متقدم،
فنحن ننظر ماذا تقدم والمتقدم هنا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ
رَبُّكَ. (١١٩) ﴿ [هود]

واحق - سبحانه وتعالى - حين تكلم عن خلق الإنسان قال
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ (٦٦) ﴿ [الذاريات]

ومعنى العبيدة^(١) هو طاعة الله - سبحانه - في «افعل» و «لا
تفعل» وهذا هو المراد الشرعي من العباداة ، ولكن المرادات الاجتماعية
تحكمت فيها خاصية الاختيار، فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف
من تعدد الأهواء.

فلو أن هوائاً كان واحداً ، لما اختلفنا ، ولكننا نختلف نتيجة
لاحتلاف الأهواء . فهذا هواء يميني ، وذاك هواء يساري ، وثالث هواء
شيوعي ، ورابع هواء رأسمالي ، وخامس هواء وجودي، وكل واحد به
هوى^(٢) .

(١) عباده يعبد عبيدة وعبيدة طاعة فهو عابد قال تعالى ﴿وَمَا كَانُوا إِلَّا يَفْبَهُونَ﴾ (٥٧) ﴿ [النصير]
وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...﴾ (٥٧) ﴿ [الفاتحة] . [القاموس القويم مادة (عبد)] يتصرف.
(٢) يقول تعالى ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْ أَطْعَمَا قَبْلَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَابْتِغَاءَ مَرْغَاةٍ﴾ (٥٧) ﴿ [الكهف]

ولذلك قال الحق سبحانه ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ^(١) لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (٧٦)

[المؤمنين]

وَم يكن العالم ليستقيم لو اتبع الله - سبحانه - أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا للعالم يمكن أن تستقيم إذا صدرت حركته الإحتيرية عن هوى واحد، وبذلك قال العبي لله :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(٢) .

وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التي تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها ، نجد فيها اختلافاً لا محالة ، لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلها عباقرة في كل مناهي الحياة ، أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة

ولو شاء - سبحانه - ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ، فمن يقوم بأعمال التحارر وغيرها ؟

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكامل وضرورة ، لا ارتباط تفضل.

(١) هوية يهواه هوى أحبه. وأكثر ما يستعمل في الباطل وفي الشهوات الضالة. قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ﴾ [النساء] ١٩٢٠. أي ما تهواه أنفسكم وما تشتهيه فيضلكم ذلك عن الحق. وقال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ شَرٍّ قَدْ خُتِلَ مِنْ قَبْلِ وَأَصْلُهُ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكُنْ﴾ (٧٦) [المائدة] [القاموس القويم. ٧ / ٢٩ ، ٣٠١]

(٢) أخرجه ابن أبي عمير في كتاب «السنن» (١٢/١) من حديث عباد بن حمزة وأورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم» (٤٦) وصفه

ولذلك يقول الحق - سبحانه.

﴿ اَتَمُّ يَاقُومُونَ رَحِمْتَ رَبُّكَ نَحْنُ قَسَمًا بِنُفْسِهِمْ مُعِشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ^(١) لِيَجْزِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآ ^(٢) .. (٣٩) ﴾ [الزخرف]

وهكذا يعرف أن رفع الدرجات لا يعنى تلك البظرة الحمقاء الرعناء ^(٣) ، والتي تدعى أن فى ذلك التقسيم رفعة للغنى وتقليلاً لشأن الفقير ، لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع فى جهة بسبب ما يُحسنه فيها ، ومرفوع عليه فى جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره مكمل له

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم ^(٤) ، واختلاف المواهب هى مجموعات التلاحم

ولذلك قلنا إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى ، وقيمة كل امرئ ما يُحسنه

(١) الدرجة المرفوعة برافى عليها الصاعد إلى أعلى، ويهبط عليها النازل من أعلى، وهى واحدة درجات السلم تتجارع للمنزلة والمكانة المحفوية من الفضل والجاه وفى الأجر والثواب عند الله. قال تعالى ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [آل عمران] أى أنهم منازل مختلفة من الفضل وفى الثواب كُلٌّ بحسب عمله قال تعالى ﴿ وَرَبِّهِ الدَّرَجَاتُ ذُو الْعَرْشِ .. (٥٠) ﴾ [غافر] أى أن الله عنده المنازل بعالية يدرج فيها من يشاء من عباده العقريين، والله عادل متعادل لخلق أعلى الدرجات طيُّ القُدْرِ، جُلُّ شَانِهِ. [القاموس القويم ١/٢٢٥]

(٢) سَخِرَهُ يَسْخَرُهُ أَذَلَّهُ وَقَهَرَهُ وَلَمَضَعَهُ قَالَ تَعَالَى ﴿ لِيَجْزِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآ ^(٢) ﴾ [الزخرف] وَسَخَّرَهُ بِالْمُتَشَدِّدِ لَمْضَعَهُ وَقَهَرَهُ لِيَفْهَدَ مَا يُرِيدُ مِنْهُ بِلَوْزِ لَزَادَةٍ وَلَا احْتِسَارٍ مِنَ الْمُسَخَّرِ، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَاسْجُدْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

[القاموس القويم ١/٢٠٦]

(٣) الرعونة الضمق، والأرعى، الأهوج فى منطقته [لسان العرب مادة رعن].

(٤) إن اختلاف المواهب عز للتكامل الإنسانى نحو تيسير حركة الحياة بخلاف اختلاف الاموال ففيها مساد لحركة الحياة

وقد ترى صاحب لسيارة الفارهة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذي يرتدى ملابس رثة^(١) ومتسخة ليصلح له سيارته، فيقول له العامل لا وقت عندي لإصلاح سيارتك ، فيلج صاحب السيارة الفارهة بالرجاء ، فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارهة ويذهب لإصلاحها.

لذلك أقول ، إن نظرتَ لمن هو دونك في أى مظهر من مظاهر الحياة، فلا تغتر بما تفوقت وتميزت به عليه ؛ ولكن قن لنفسك - لا بد أن هذا الإنسان متفوق في مجال ما

ونحن نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - ليس له أناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - هنا: ﴿لَا يَرَاؤُنْ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ وَتِلْكَ حَلَقُهُمْ .. (١١٩)﴾ [هود]

وإن كان الاختلاف^(٢) في المقدرات والعنيج ، فهذا ما يولد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ، بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلوة الإيمان ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله

وإذ قلت قدسماً إن الكفر يعاون الإيمان ؛ متلماً يعاون الألم العامية ، قلولا الألم لما جئنا بالطبيب ليَشْخَصَ الداء ، ويصف الدواء الشافي بإذن الله.

ولذلك نقول الألم رسول العاقية.

والحق سبحانه يقول هنا ﴿لَا يَرَاؤُنْ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ .. (١١٩)﴾ [هود]

وَأَنْتَ إِنْ دُمُتَ النَّظَرُ فِي لاختلاف لوجدته عين الوفاق

(١) الرث: القيم البالي من كل شيء، ويرث الخروب أخلق. [اللسان مادة رث]

(٢) إذا كان الاختلاف في المقدرات والعنيج، ينتج ذلك الشيء، وضده.

سورة التوبة



ومثال ذلك: اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام، فتجد ابنًا يفضل صدر الدجاجة، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها «الورك»، وتضحك أنت لهذا الاختلاف، لأنه اختلاف في ظاهر الأمر، ولكن باطنه وفاق، لو اتفقنا جميعاً في الأمجة لوجدنا التعاند والتعارض، وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة.

ولمن يسأل: هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟

نقول: إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً، لأن الجبة مُنمَّكة.

ثم يقول - سبحانه - هي نفس الآية: ﴿..وَوَقَّعْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ لِأَمَلَنَ جَهَنَّمَ مِنْ الْجَنَّةِ^(١) وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٢)﴾ [هـ]

والحق سبحانه قد علم أولاً بمن يختار لإيمان ومن يختار الكفر، وهذا من صفات العلم الأزلي لله - سبحانه وتعالى - وبذلك قال - سبحانه: ﴿وَوَقَّعْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ أَيُّ عِلْمٍ - سبحانه - مَنْ مِنْ عِبَادِهِ سَيُخْتَارُ أَنْ يَعْمَلَ فِي الدُّنْيَا عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ سَيُخْتَارُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَسَبَقَ عِلْمُهُ الْأَزْلَى بِمَرَادَاتِ عِبَادِهِ وَاحْتِيَارَاتِهِمْ

وسبق أن ضربنا مثلاً - وشه المثل الأعلى - بعميد الكلية الذي

(١) تَمَّ الْأَمْرُ بِدَمْدَمٍ وَمُتَابَعَةٍ تَحْتَلُّ وَتَحْطِقُ وَهِيَ قَائِمٌ رَاسِمٌ وَيَكُونُ حَسْبًا وَمَعْنًيًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَقَّعْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ صَفْحًا وَعَدْلًا..^(١)﴾ [الأنعام] أَيُّ كَلِمَةٍ وَتَحَقُّقَةٍ. وَتَمَّ الشَّرْءُ. كَتَلَتْ أَوَّلًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ لَزِيمٌ يَتْلُو..^(٢)﴾ [الأنعام] أَيُّ كَلِّ الْمَدَدِ الْمَحْدَدِ لِمُنَاجَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَتَمَّ الشَّرْءَ أَكْمَلَهُ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي..^(٣)﴾ [الأنعام] أَيُّ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ. [القاموس القويم، ١/١٠٢، ١٠٢/١] بتصرف.

(٢) الْحِجَّةُ يَكْسُرُ الْجِيمَ الْجَوْنَ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ فِي صُغُورِ النَّاسِ (١) مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ^(٢)﴾ [الناس]. [القاموس القويم، ١/١٢٢].

يعلن للأساتذة ضرورة ترشيح المتفوقين في كل قسم ، لأن هناك جوائز في انتظارهم، فيرشح كل أستاذ أسماء المتفوقين الذين لمس فيهم النبوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعته أن يضعوا امتحانات مفاجئة لمجموع الطلاب : ويُفجأ العميد بتفوق لطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ، وهنا يصدق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته

ولكن قد تحدث مفاجأة - أن يتخلف واحد من هؤلاء الطلبة لمرض أصابه أو طارئ، يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ، وبهذا يحتل تقدير أستاذه : لكن تقدير الحق - سبحانه - مُنزه عن الخطأ، وما علمه أزلًا فهو مُحقق لا محالة، لذلك بين لنا أنه علم أزلًا، ويتحدى الكافر به أن يعيره

وكذا يعرف أن الحق - سبحانه - أمرل قوله الكريم

﴿ تَبَّتْ رُءُوسُهُمْ يَوْمَ السَّعْيِ ﴾ [١] ﴿ يَدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ۖ ﴾ [المسد]

وسمعتها أرو لهب ولم يتحدا ما إعلان الإيمان - ولو مفاقًا.

وقرل الحق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ تبين لنا أن الحق سبحانه

(١) نَبَأُ يُشَبُّ تَبًّا وَتَبَابًا - حَسِرَ وَمَلَكَ قَالَ تَعَالَى ﴿ تَبَّتْ رُءُوسُهُمْ يَوْمَ السَّعْيِ ﴾ [المسد] معناه عليه بالمسراة أو بالهلاك - ودعا عليه أولًا بأن تهلك يدها : لانهما آلة النبط والإيتاء. والقياب الهلاك قال تعالى ﴿ وما كند فرعون إلا هي تباب ﴾ [الشعراء] رُئِيَّةٌ شَدِيدَةٌ. أهلكه. قال تعالى ﴿ وما زلنهم غير ضلّين ﴾ [هود] أي هلاك وتضسير . القاموس القديم ١/ ٩٦

سُورَةُ الْكَافِي

﴿١٧٦١﴾

إِنْ قَالَ شَيْئًا فَهُوَ قَدْ ثَمَّ بِالْعَمَلِ ، فَلَا رَأْيَ لِمَشِيئَتِهِ ، أَمَا نَحْنُ مَعِينَا
أَنْ نُسَبِّحَ كُلَّ وَعْدٍ بِعَمَلٍ سَنَقُومُ بِهِ بِقَوْلِ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾

[الكهف]

لَا نَحَقُّ يَقُولُ إِنَّا ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٥) إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . (٢٦) [الكهف]

وَمِنْ هَذَا احْتِرَامُ لَوْضَعِنَا الْبَشَرِيِّ، وَإِيمَانٌ بِغَلْبَةِ الْقَهْرِ، وَمَعْرِفَةٌ
بِحَقِيقَةِ أَنبَاءِ مِنَ الْأَغْيَارِ ، لَا كُلَّ حَدَثٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ يَتَطَلَّبُ فَاعِلًا ،
وَمَفْعَرًا يَقَعُ عَلَيْهِ الْفِعْلُ ، وَمَكَانًا ، وَزَمَانًا ، وَسَبَبًا ، وَلَا أَحَدًا مِمَّا
يَعْلَمُ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْعِبَاصِرِ.

فَإِنْ قُلْتُ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تَكُونُ قَدْ عَصَمْتَ نَفْسَكَ مِنْ أَنْ
تَكُونَ كَاذِبًا، أَوْ أَنْ تَعْدَّ بِمَا لَا تَسْتَطِيعُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مَنْ يَقُولُ هُوَ
مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا قُوَّةَ تَصْرِجُهُ عَمَّا قَالَ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ
يَنْفُذَ مَا يَقُولُ

وَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنْ كُلُّ فِعْلٍ يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - يَتَجَرَّدُ عَنْ

(١) ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٧٦/٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي سَبَبِ دُرُودِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ
قُرَيْشٍ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ وَبَلَغَ بَعْدَ مَشُورَةِ الْيَهُودِ سُلُوكُهُ عَنْ قَتْلَةِ ذَمِيَّةٍ
فِي الدَّمْرِ الْأَوَّلِ ، مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا بِهِمْ قَدْ كَلَّ بِهِمْ حَدِيثٌ عَجِيبٌ وَسُلُوكُهُ عَنْ رَجُلٍ
هَلَوَافٍ يَلْمُ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ يَبْذُو وَسُلُوكُهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ ، «أَحْبِرْكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ» وَلَمْ يَقُلْ «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» ، وَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يُحَدِّثُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ وَحْيًا ، وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ حَتَّى ارْجَفَ أَمْسَ مَكَّةَ ،
وَقَالُوا وَبَعْدًا مَعْدَدًا غَدًا وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَمْ يَحْدِثْ فِيهَا لَا يَخْبِرُنَا شَيْءٌ عَمَّا سَأَلْنَاهُ
عَنْهُ، فَفَرَدَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَهِيَ السُّورَةُ (الْكَافِي) فِيهَا خَبَرٌ مَا سَأَلُوا عَنْهُ

الزمن، فلا نقول: «فعل ماضٍ، أو «فعل سيحدث في المستقبل، أو «فعل مضارع»؛ لأن تلك الأمور إنما تُقاسُّ بها أفعال البشر، لكن أفعال الله - سبحانه - لا تقاس بنفس المقياس، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل.

والحق سبحانه - يقول

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ^(١) فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ^(٢)﴾ [الحج]

وقوله سبحانه . ﴿أَتَى﴾ بمعنى تقرر الأمر ولم يُبْقَدَ - بعد - فلا تستعجلوه، وهذا هو تحدّي القيومية القاهرة، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله سبحانه وتعالى - فهو يحكم فيما يملك، ولا منازع له سبحانه.

وقوله الحق ﴿لَا مَلَأُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ^(٣)﴾ [هود]

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان ^(٤) المكلفان .

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك

(١) أمر الله بحاقبه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. [إبالة القرطبي ٢٧٨٩/٥] وقال ابن كثير في تفسيره (٥٦١/٢): «يحبر تعالى عن التتراب الساعة وذنوها معبراً بهزيمة المنقبي الدال على التعلق والتوهم لا محالة»

(٢) استعجل الأمر: طلبه عاجلاً سريعاً قال تعالى ﴿وَلَوْ يَعْلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الْغُرَّ اسْتَعْجِلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَنُفِىَ إِلَيْهِمْ أَجْرُهُمْ ^(١)﴾ [يونس] [القاموس القويم ٩/٢].

(٣) الثقلان: الإنس والجن لأنهما كالحملين الثقيلين على ظهر الأرض. قال تعالى ﴿وَسَنُفِى لَكُمْ أَنَّهُمَا الثَّقَلَانِ ^(٢)﴾ [الرحمن]. وهو جبر المقصود منه التهديد والوعيد [القاموس القويم ١/١٠٨].

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

﴿وَجَاءَ لَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٠)

ومسألة ترى لتتوین فی قوله الحق ﴿ وكلا ﴾ فاعلم أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - في القرآن الكريم.

وهین بتکم الحق - سبحانه وتعالی - عن فعل قد أحدثه ؛ فلما أن ننظر هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له سبحانه أم مأخوذ من اسم موجود ؟ فيحق لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله - تعالى ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ .. (٧٠) [الرحل]

نعلم منه أنه سبحانه - خالق ، ولكن إن جاء فعل ليس له أصل في أسماء الله الحسنى ، فإياك أن تشتق من الفعل اسماً لله .

ومثال ذلك قوله سبحانه ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ ﴾ .. (١٣٠) [مود]

والذي يقص هنا هو الله - سبحانه - نكن لا أحد في إمكانه أن

(١) ثَبَّتَهُ جعله ثابتاً مُتَعَمِّكاً قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا إِذْ نَسَخْنَا لَقَدْ ثَبَّثْنَا فُؤَادَكَ بِرُسُلِنَا لِيُتَبَيَّنَ لَكُمُ الْآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧٥)

[الإسراء] أي جعلناه ثابتاً ودفعنا عنك أسباب الضطرب [القاموس اللغوي: ١٠٥/١]

(٢) قوله تعالى ﴿ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ [معد] أي هذه السورة. قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وفتادة: في هذه الدنيا والصحيح في هذه السورة المستطاعة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق، وثبات صدق وموعظة يردع بها الكافرون ويذكر بها المؤمنين قال ابن كثير في تفسيره (١٦٥/٢)

(٣) يقول رب العزة سبحانه ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْفَعُكُمْ ﴾ [الرحل]

(٤) قصص الكلام أو الأخبار يلصقها قصصاً وقصصاً تتبعها ودونها وحكاها ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ عَلَيْهِمْ الْحَقُّ فَكَانُوا لَا يَتُوبُونَ ﴾ [القصص] وقصص الأمر قصصاً تتبعه . ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَى آلِهِمُ أَنْبَاءًا ﴾ (٩٥) [الكهف] والقصص مصدر يُطلق على ما يُروى من لأخبار، ومنه قوله تعالى ﴿ بَعْضُ نَقْصٍ عَلَيْهِ أَحْسَنُ الْقَصَصِ ﴾ (٣) [يوسف] [القاموس

يقول: إن الله قصاص ، منما لا بحق لاحد أن يقول إن الله مآكر ، رغم أن الله سبحانه - قد قال ﴿ وَيَكْفُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢٠) [الأنفال]

وكذلك لا يصح لاحد أن يقول: الله المضادع ، رغم أن الحق سبحانه قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ .. (٢٧) [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والحلال وأن نكتفي بقول إن مثل هذا النفس جاء للمشكلة^(١) ما دم ليس به وجود ضمن أسماء الله الحسنی

(١) مكر يمكر مكرًا: دبر الشر لغيره في حيلة واحتيال قال تعالى ﴿ إِذْ هَبْنَا لِكُرْتُوهُمْ لِيُفْلِتُوا ﴾ [الأنفال] وقال تعالى ﴿ إِذْ لَّهُمْ مَكْرٌ فِي الْأَنْفَالِ ﴾ [يونس] أي تدبير سيئ يقصد صدمتها عن وجهها وسدّ الناس عنها وإذا أسد المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكريين وإيقاع الملقوبة بهم من حيث لا يشعرون، كقولته تعالى ﴿ وَامْكُرُوا لِلَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى ﴿ وَامْكُرُوا مَكْرًا وَكُنَّا مَكْرًا وَعَمَّا لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنفال] [القاموس القويم: ٢٣٩/٢ ، ٢٣٢] .

(٢) خدعه يقضه خدعًا وخديعة: أظهر له حلال ما يخفيه ليوقعه في مكره من حيث لا يعلم قال تعالى ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ الْجِبِ الْمُحْجَبِ فَيَخَفُوا قُلْ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي الْقُلُوبِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الأنفال] وحادثه خدعه أو حاول ذلك قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء] أو يظهر الإيمان طائفًا ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله مبطل خداعهم وكاشف أمرهم، ومعلقهم على خداعهم [القاموس القويم: ١٨٨/١] .

(٣) المشكلة ذكر الشيء بلفظ غير لائق في صحبته تحقيقاً أو تدبيراً فالأول كقوله تعالى ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة] ، وقول ﴿ وَامْكُرُوا لِلَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران] ، فإن إطلاق النفس والمكر في جنب الباريء تعالى إنما هو لمشكلة ما به ومثال التدبير قوله تعالى ﴿ وَصَبَّحَهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة] أي تطهير الله لأن الإيمان يظهر النفوس، معبر عن الإيمان بـ : صيغة الله ، المشكلة بهذه الطريقة: الإتيان للسيوطي (٢٨٢/٢) .

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ^(١) الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ^(٢) وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا^(٣) ﴾ [الأحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد ، بمعنى تسكينه على منطلق اليقين الإيماني برب أرسله رسولا ليبلغ منهجا ، وما كان الله سبحانه ليرسل رسولا ليبلغ منهجا ثم يُسلمه لأعدائه.

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التي تفرضوا لها تهون عيه المصاعب التي يتعرض لها ، ويثبت فؤاده.

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه «القلب» وهو رعاء الحقائق بمعنى أن المح يستقبل من الحواس - وسائل الإدراكات من عين ترى، ومن أذن تسمع، ومن أنف يشم، ومن فم يستطعم، ومن كف تلمس -

(١) زاغ يزيغ زيفا وزيفتك مال من القصد . وزاغ البصر اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو اسرف من القصد فلم ير شيئا . قال تعالى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى^(١) ﴾ [النجم] أى . ما انحرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى فرأى أكثر مما أمامه ، بل رأى الملك رؤية صائغة . ولوله تعطى في وصف مدح بعض الناس في المدينة حين أحاطت بهم الأعداء في غزوة الأحزاب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ^(٢) ﴾ [الأحزاب] أى اضطربت لشدة المرح [القاموس القويم ٢٩٤/١] ينصرف.

(٢) الصجرة - شى اللغة - الحظوم والطلق . وهي علمية تسمى القصة الهوائية ، ويبر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ^(١) ﴾ [الأحزاب] كناية عن شدة الكرب والضيق.

(٣) الظنون ما يحصل من النفس عن أمارة فهو شك واجح . وقصه من أفعال الرجال . من باب تصور والظن مصدر والظن اسم لهذا المأخوذ الذي يحصل من النفس . قال تعالى ﴿ إِنْ يَحْمِلُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَكُنْ مِنَ الْحَقِّ شَيْئَا^(٢) ﴾ [النجم] وجسمه ظنون، وتقرى ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا^(٣) ﴾ [الأحزاب] الظنونا - يبالغ في الوصل، ونس الرلف - ويغير ألف قراءة [القاموس القويم ٤١٧/١]

فتتولد المعلومات التي يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصبح القضية العقلية صحة لا يأتي بعدها ما ينقصها ، فيسقطها المخ في الفؤاد لتصبح عقيدة : لا تطفو بعدها إلى العقل لتناقش من جديد ، ولذلك يسمونها بعقيدة - من العقيدة - فلا تتذبذب بعد ذلك.

إنّ . فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى المخ من تمحيصها^(١) تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، وأسقطها على القلب بدير حركة الحياة على مقتضاها.

وعلى سبيل المثال نجد الشاب الذي يفكر في مستقبله ، فيدرس سزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذي يتناسب مع مراهبه ، وأحلامه ، ثم يدرس المحسّنات التي استقبلها بحراسه ليُمحّصها بعقله ؛ وما ينتهي إليه عقله يسقطه في قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا أنه قد استقر في وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرِقَةٌ. ولكن من أين جاء هذا اليقين في أن النار محرقة ؟ بقول . جاء من أمر حسى بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقتّه.

لا بد - إذن - أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب.

(١) محص الشيء ومحصه خلصه من عيوبه . يقال محص المعنى بالنار خلصه مما يشوبه ومحص السيف جلّاه ومحص الله الكاتب من الذنوب طهره منها ومحص فلانا انلّاه واشهره [المعجم الوسيط]

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكَأَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحَبْتُ بِهِ فَؤَادَكَ ۖ ۝١٢٠﴾ [مؤ.]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذي من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق، وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق سبحانه وما يأتي من الحق سبحانه هو الحق أيضاً ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير

وحق الحق ينسوع العقيدة الذي ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولا بد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة لمكلف قبل أن يُقبل على التكليف ، لذلك لزم أن يأتي الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قحة الوجود الأعلى - قبل أن تأتي الموعظة^(١) ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذي لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجيء تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهي هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذي خلق ، ولا يمكن أن يعيش أو يحدع مخلوقاته ، ويصحبها لك رسول منه سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ، لأنه لن يعطك إلا بكمال يتمير به ليحدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذي يعط به فالموعظة سيرد على الواعظ قائلاً فلتعظ نفسك أولاً.

(١) الموعظة ما يُوعظ به من قول أو فعل ، قال تعالى ﴿ وَسُورَةُ الْمُمِيتِينَ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى ﴿ وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [الشع] ووعظه يعظه وعظاً وعظاً صححه المطبعة ورشده إلى فعل المميز [القاموس القريم بصرف ٢، ٣٤٥].

ولذلك نجد قول الحق - سبحانه

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ^(١) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ^(٢) ﴾ [الصفا]

لأن الواعد الذي يَعِطُ بما لا يطبقه على نفسه يعطى الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ^(٣) وليقول لنفسه « لو كان في هذا الأمر حير لحببته على نفسه ».

وهكذا بيّنت الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كَمُثِّبٍ ، وايضاً موقف المؤمنين برسائله كمدكرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمناعب متاعب مشقة التكليف التي سيعامى منها مَنْ لا يأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلفين - مثلاً - أن الأمر بفرض الطرف ^(٤)

(١) مَقْتًا مَقْتًا لِمَنْعِهِ بَعْضًا شَدِيدًا لِأَمْرِ قَبِيحٍ فَعَلَهُ

وَمَقْتًا اللَّهُ غَضَبُهُ وَاتِّقَامُهُ وَعَذَابُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْتَوُونَ عَنْ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْسِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر] أَيْ أَنَّ عَصِيَّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لَكَبِيرٌ مِنْ بَعْضِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا وَاتِّقَامُ بَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّهُ كَانَ لَاحِشَةً وَمَقْتًا وَمِنْهُ سَبِيلٌ﴾ [السلام] أَيْ أَنَّ زَوَاجَ مَنْ سَبَقَ أَنْ تَرَوْجَهَا أَلَا يَعْثُرُ لَعْنَةً عَظِيمَةً شَدِيدَةً الْقَحْجِ وَتَكُونُ سَبِيلًا فِي مَقْتِ النَّاسِ وَبَعْضُهُمْ الشَّدِيدُ لِمَرْتَكِبِهِ وَسَبِيلًا فِي مَقْتِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ وَاتِّقَالِهِ مِنْ فَاعِلِهَا لِأَنَّهُ عَقَرَتْ بِالْأَكْبَاءِ وَخَلَطَ لِلْأَسْبَابِ [القاموس القويم ٢/ ٢٢١].

(٢) الطرف جانب العين ويطلق على العين وعلى البصر قال تعالى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى] أَيْ مِنْ جَانِبِ الْعَيْنِ لِي خَفِيٍّ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَعَنْهُمْ قَامِرَاتٌ كَأَمْثَلِ النَّفْثَاتِ﴾ [الصفات] أَيْ غَامِضَاتُ الْبَصَرِ مِنَ الْعَفَةِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّا أَنهَكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [الزلزال] أَيْ بِصَرَكَ أَيْ مَقْبَارَ عَصْفَةِ الْمَيِّتِ وَفَتْحُهَا [القاموس القويم مادة طرف].

جرمان من شهوة طارئة ولا يسبر غور^(١) لفهم بأن في غُضُّ الطرف
أمراً لكافة المؤمنين أن يعضوا للطرف عن محارمه ، وقد يرى في
الزكاة أنها أخذ من ماله ، ولا يسبر غور لفهم بأن في الزكاة تاميناً
له إن حُرَّت عليه الأعبار وصار فقيراً ؛ عندك سيقدم له المجتمع
الإيماني التامين الاجتماعي الذي يحميه وعياله من مغبة السؤال.

وعمق لفهم أمر مطلوب لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ^(٢) الْقُرْآنَ .. (٨٧) ﴾

[النساء]

لأنك حين تتدبر المعاني ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛
وستقول لنفسك « ما كلمني الله إلا لخير نفسي » وإن ظهر أنه لخير
الناس .

(١) مَبْرَّةٌ مَبْرَأٌ خَزْرَةٌ ، أو خَبْرَةٌ يقال مَبْرَأُ الجرح ناس غُورٌ بالمسيار رَسَبَرٌ ملائمة
خبره يعرف ما عنده ، والقُور كل منخفض من الأرض ، والغور من كل شيء قعره ومقه
يقال مبر غوره تبين حقيقته وحوره ويقال قلان بعد الغور دحية وماء غور غائر
وفي التثنية العرين ﴿ لَأُولَئِكَ إِنْ أَصْبَحَ عَاوِلُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِهِمْ مَبْرَأٌ ﴾ [المائدة] .
[المعجم الوسيط مادة (سبر) ، (غور)] .

(٢) يَبْرُ الأمر نظر في عواقبه وأبداره ليضع على ما يرى فيه الخير به ، وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ
اسْمِعُونِ عَلَى السَّحَابِ يَنْزِلُ السَّمَاءَ .. (٢٣) ﴾ [يونس] أي يفضيه ويقدِّره ويشفقه على حسب حكمته
وإرادته وقوله تعالى ﴿ فَاتَّخَذَتْ أَسْرًا (٢٦) ﴾ [النازعات] هم الملائكة ينجون أمور الخلق
بإذن الله ويمثلن حكمته وإرادته

وتدبر تأمل في أديار الأسور وعواقبها ، أو تدبر لفهم حقائق الأمور قال تعالى
﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ لَمْ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِيهَا (٢٤) ﴾ [محمد] أي فل عجّوا وعصّوا فلا يتأملون
معاني القرآن ويصبرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين مرة الاستفهام ولما
العلماء فعل محذوف ناشأ فسره هنا بقولنا أعجّوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ
يَتَذَكَّرُوا الْقُرْآنَ .. (٢٥) ﴾ [المؤمنون] أي أسجروا ولم يدبروا ، والاصبر يتدبروا ، فليت التأمل
بالأول ، وأدعت في الدال ، القاموس القويم ١/ ٢٧٦ .

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد : هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد : لأن الفساد في الأرض لا يعيش إلا إنا ووجد منتفع بهذه الفساد ، والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكل مقاوم له.

إن موقف خصوم النبي ﷺ موقف طبيعي لمصالحهم، ولكنهم - لحملهم - حددوا الصالح بمصالحهم الآتية^(١) في الحياة الدنيا ، وهم ينظرون إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة نعيماً أو عذاباً^(٢).

ولو أنهم امتلكوا ابصيرة ، لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد من يقومهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شركاً يوجد لهم في الآخرة.

ولو أنهم قطنوا ، لعلموا أن الرسول كما جاء لمصالح المستضعفين المستقلين بالفساد ، جاء أيضاً لمصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شيء من التعقل ، لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ ، ولكان

(١) المصالح الآتية العاجلة نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال. ومن ظرف ثلثت الحاضر معرف بال دائماً، ومبني على الفتح. قال تعالى ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١ : ٤٥].

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة ﴿ يَحْمِلُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ مِّنَ الْآخِرَةِ قَوْمٌ مُّغْلَبُونَ ﴾ [الروم] ثم يلفت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكثبين ليقول: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَجَلٍ مُّسَدَّدٍ وَإِن كَثُرُوا مِّنَ النَّاسِ بِقَاءَهُ رَبُّهُمْ لَكَاظِرُونَ (٤) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا اتَّخَذُوا مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَقَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ إِسَارُوا السَّوَادُ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (٦) ﴾ [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد ، وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينظرهم نتيجة لهذا الفساد أن يتبعوه وأن يشكروه لأنه خلّصهم من طفة لشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق سبحانه - لرسوله أنت لست بدعاً من الرسل^(١)، وكل رسول تعرض لمتاعب مقلد تعرض أنت لمتاعبها^(٢)، وأنت الرسول للحاتم ، ولأن الدين الذي جئت به لن يأتي بعده دين آخر ، لذلك لا بد أن تتركز العتائب كلها معك ، فكنّ على ثقة تماماً أنت مصارف للمتعاب

ولذلك تثبت فؤادك بما يقصّه عليك من أنباء الرسل ، لأن هذا الفؤاد هو الذي سيستقبل احقائق الإيمان من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تدّرك والمؤمنين معك

وهكذا بيّنت الآية موقف الرسول ﷺ كمثبت ، وموقف المؤمنين كمذكّرين من الرسول ، لأنهم سيتعرضون للمتعاب أيضاً

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للانصار حين بايعوه في العقبة على بصرة ، وقالوا إن نحن وقينا بما عاهدناك عليه ،

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ ﴿قُلْ مَا كُنْتُ دَعَاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَايَ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ، (١٤) [الاحقاف] أي ما كنت مبعثداً من تلقاء نفسي ما ادعوا إليه إن اتبع [لا] ما يؤمى إليه.

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ لَعُنُوكَ الْكَافِرُونَ لَئِنْ لَمْ يَنْفِرُوا فِيكَ لَيَسْفُتُنَّكَ وَيَكْفُرُوا بِكَ﴾ ، (١٦) ولقد كتبت رسلاً من قبلك فصبوها على ما كتبتوا وأكفروا حتى أتاهم نصرتنا لا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين (٢٣) ﴿[الانعام]

فمدا يكون لنا ؟ ولم يقل لهم ﷺ « ستملكون الدين ، وستصبحون
سادة الفُرس والروم ، بل قال لهم « لكم الحنة »^(١) .

لأنه ﷺ يعلم أن منهم من سيموت قبل أن تتحقق تلك
الانتصارات ، لذلك وعدهم بالقدر المشترك الذي يتساوى فيه من
يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين من سيعيش يشهد تلك الانتصارات
وهكذا تبيننا كيف تضمنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ،
وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين
معاً

هذا هو الطرف الأول ، فساداً عن الطرف الثاني ، الطرف المكذّب
لِلرسول؟

كان ولا بد أن يتكلم الحق سبحانه - هنا عن المكذّبين لِلرسول:
لأن استدعاء المعاني يجعل النفس قابلة للسماع عن الطرف الآخر
وما دام الحق - سبحانه - قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال،

(١) كان ذلك في بيعة العقبة الثانية وهي الكبرى، وذلك أن القوم لما اجتمعوا بيعة رسول الله
ﷺ قال العباس بن حبيدة الأنصاري يا معشر الخزرج، هل تدرون هلام ثيابهم هذا
الرجل؟ قالوا نعم قال إنكم ثيابهم على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم
تدرون أنكم إذا بهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم
هزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم تدرون أنكم وأموالكم إنما دعوتهم إليه على بهكة الأموال
وقتل الأشراف فخذوهم، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا إنما شأؤنا على مصيبة الأموال
وقتل الأشراف، مما لنا بذلك يرسول الله إلى نحن ولينا؟ قال: «الجنة» قالوا أبسط يدك
مبسط يده ثيابهم [سيرة النبي لأبي هشام ٥٥/٢].

والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور^(١) منهم العزائم ، فلا
بدُّ - إذن أن يتكلم - سبحانه - عن القسم الآخر ، وهو القسم
المكذَّب ، فيوضح - سبحانه - لرسوله أن له أن ينعدهم ولا يتهبُّ

يقول الحق : سبحانه .

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٥)

أي اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه ﷺ مستند إلى رصيد
قوي من الإيمان بالله لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو ﷺ والدين
معه لا يواجهون أنخصم بذواتهم ، ولا بعدتهم وعددهم ؛ وإنما
يواجهونه بالركن الركين الذي يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه
وتعالى .

وحن يرى في حياتنا اليومية أن أي قائد في معركة إنما يشعر
بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذي

(١) الخور الضبط خار الرجل ضعف وانكسر والخوار الضعيف الذي لا يقاوم له على
الشدة [لسان العرب مادة خور]

(٢) المكانة دجلة الشار والبرانة والتؤدة قال تعالى ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..﴾ (١٥٥)
[الأنعام] أي برزاة وتؤدة ونيسر، وقرأه علي مكانتكم بالجمع . [القاموس القويم
٢/٢٣٢]

والمكانة الحالة التي يكون عليها المرء من فجرة أو حجر أو إيمان أو كفر ، ومن ذلك
قوله تعالى ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ (١٥٥) [هود] أي على الحالة التي أنتم عليها، وقوله
تعالى ﴿لَمَسْخَرَاتِهِمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ (١٥٧) [يس] أي على الحالة التي هم عليها حين
عبادهم وكفرهم . [القاموس القويم ٢/١٧٩ ، ١٨٠] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿١٧٨٢﴾

يحارب من أجله، لأنه سيعزز من قوته، فما بالتنا بالممد الذي يأتي
ممن لا ينفد ما عنده^(١)، وممن لا يُجِير عليه أحدٌ؛ فهو يُجِير ولا
يُجَار عليه.

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بملك المظلة، فموسى - عليه
السلام حين كاد الفرعون أن يلحق به، ورأى قومه أن لا نجاة لهم؛
فالتجأ أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا:

﴿ إِنَّا نَعْلَمُكَونَ^(٢) .. ﴾ (١١)

[الشعراء]

لكن موسى - عليه السلام بطمأنينهم

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ سَهَدَيْنِ ﴾ (١٢)

[الشعراء]

فموسى - عليه السلام - يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه،
وأمدّه الله - سبحانه - بمعجزة جديدة.

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ .. ﴾ (١٣)

[الشعراء]

فينطلق البحر، لتفسح بين مياه طريقاً يابسة، وسار موسى
عليه السلام وقومه، وفكر موسى في قطع السبيل على عدوه حتى

(١) يقول الحق سبحانه ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرُدُّوهُنَّ إِلَى بِلَادِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَخَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي بُلُوغٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ مُبْتَهِمًا وَتَبَسُّمًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ذَلِكَ هُوَ الْبَاقِي لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَوْنَ ﴾ [الفتح] . ويقول تعالى في شأن غزوة

حديبية ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُبُودًا لِّمَن تَرَوْنَهَا ﴾ (١٥) [التوبة]

(٢) أدركه بحته قال تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَفْرَكَهُ افْرَكَ .. ﴾ (١٥) [يونس] على المجاز، كان الفرق
عدو مطارد بحق لعدوى غافلته

والفرك - يفتح الفاء، ويسكنها - اسم مصدر يعنى الإدراك والحصول قال تعالى
﴿ لَا تَعَالُ فَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه] أى لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده، [القاموس
الزويم ٢٢٦/١].

لا يسير في نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا، وأراد موسى - عليه السلام - أن يصرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى، فيقول له الله - سبحانه: ﴿وَأَثَرُ الْبَحْرِ رَهْوًا^(١) إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

أي : أتركه على ما هو عليه ، لينخدع فرعون ويسير في الطريق اليابسة، ثم يعيد الحق - سبحانه - البحر كما كان ، وبذلك أنجى لحق سبحانه وأهلك بالشيء الواحد^(٢)، وهذه لا يقدر عليها غير الله - سبحانه وتعالى وحده

وهكذا يَهَبُ الحق سبحانه المؤمنين به القدرة على تحدى الكافرين والإيمان كله معركة من اتحدى نحد في صدق الرسول كمبرلغ عن الله ، ومعه معجزة تكل على رسالته، وتحد في نصره الرسول ومن معه من قلة مؤمنة ، فيقبلون لكثرة الكافرة.

وابحق سبحانه يقول: ﴿كَمْ مِّنْ أُمَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ هَذِهِ كَثِيرَةٌ بَادَنَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة]

وهكذا، يشجع التحدى في معارك الإيمان.

وقد تعيّن كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ، ثم ينتهي دورها لينزل له بعدها منهج من اسماء ، ليبشّر به قومه، لكن رسول الله ﷺ

(١) رها البحر يرهو رهوا سكن فهو رها ورمّ مصدر يوصف به يلفظ ، قال تعالى ﴿وَأَثَرُ الْبَحْرِ رَهْوًا (٢٤)﴾ [الدخان] ساكن الأمواج: ليفتلوا فيتلوا فيه ، أو ساكن الدبس، فهو حال من الممحول به وهو البحر، أو من الفاعل وهو الضمير المستتر مانت، وهو موسى عليه السلام أي: يكون هائلا عظمتا إلى الجاهل [القاموس القويم، ١/ ٢٧٩].

(٢) قال سبحانه وتعالى أنجى موسى ومن معه وأهلك فرعون وجنوده بالشيء الواحد وهذا دليل على طلاقة القدرة

تَمِيزُ بِمَعْجَزَةٍ لَا تَنْتَهِي ، وَمِنْ عَيْنٍ مِنْهُجَةٍ ، لِأَنَّهُ رَسُولٌ إِلَى كُلِّ
الْأَزْمَانِ وَإِلَى كُلِّ الْأَمَكَةِ^(١) ، فَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ مَعْجَزَةٍ تَصَاحِبُ اسْمَهُجٍ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وَلِذَلِكَ نَجِدُ كُلَّ مُؤْمِنٍ بِالرَّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ يَقُولُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالْقُرْآنَ مَعْجَزَتَهُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ

وَالْحَقُّ سَبِّحْهُ - يَقُولُ هَذَا : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى
مَكَانَتِكُمْ ۚ ﴾ (٦٧١)

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ كَائِنٍ مَثًّا لَهُ مَكَانٌ ، أَيْ ، لَهُ حَيْزٌ وَجَرْمٌ^(٢) .
وَيُقَالُ : فُلَانٌ لَهُ مَكَانَةٌ فِي الْقَوْمِ ، أَيْ لَهُ مَرْكَزٌ مَرْمُوقٌ ، إِذَا خَلَا
مِنْهُ لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُهُ أَنْ يَشْغَلَهُ ، وَهُوَ مَكَانٌ يُدَلُّ عَلَى الشَّرَفِ
وَالْعِظَمَةِ وَالسِّيَادَةِ وَالْوَجَاهَةِ وَنِهَاجَةِ الشَّأْنِ .

فَقُولِ الْحَقُّ : ﴿ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ۚ ﴾ (٦٧٢) [هــد]

أَيْ أَعْمَلُوا^(٣) عَلَى قَدْرِ طَاقَتِكُمْ مِنْ عُدَّةٍ وَمِنْ عُدَّةٍ ، فَإِنَّ
لِلْحَمْدِ ﷺ رَبًّا سَيِّدِيهِ وَيَنْصُرُهُ ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَلَيْسَ أَمْرًا لَهُمْ ؛
لَأَنَّهُمْ كُفَّارٌ لَنْ يَمْتَثِلُوا لِأَمْرِ مَنْ عَدُوَّهُمْ .

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : طُفِئَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْمَةُ أَطْعِمَتْ
جَوَامِعَ النَّاسِ ، وَبَصُرَتْ بِالرَّعْبِ ، وَاحْتُلِيَ لَهَا الْغَنَاءُ ، وَجُعِلَتْ لَهَا الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا ،
وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كِفَافًا ، وَخَتَمَ بِهِنَ السَّبْيُونَ ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٥٢٢) كَتَبَتْهُ
الْمَسَاجِدُ .

(٢) الْجَرْمُ : الْجَسَدُ أَوْ الْجِسْمُ . وَهُوَ مُجْتَمِعٌ قِيَامُهُ مَكَانًا وَحِيدًا فِي الْوَسْطِ الَّذِي هُوَ فِيهِ

(٣) الْأَمْرُ هَذَا لِلتَّهْدِيدِ . وَهُوَ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين؛ بل
لأصبحوا من الحائِثِينَ.

وحين يقول لهم - سبحانه - قى آخر الآية ،

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ (٤٢) [هود]

فمعنى ذلك أن كل ما فى قِدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار
الأحداث^(١)، أما فعل الله - تعالى - فهو غير محدود ، لأنه -
سبحانه- قديم أزلى لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المحدث
الحادث عمل القديم الأزلى ، فقوة الحادث المحدث موهوبة له من
غيره ، أما قوة الحق - سبحانه - فهي ذاتية فيه.

وبحق نعلم أن أى عمل إنما يُقاس بقوة فاعله ، وخطأ المستقبِلين
لمسحِج الله أنهم إذا جاء عمل ؛ فسوا من الذى عمِلَ العمل ، ولو كان
العمل من فعل لبشر لحق للإنسان أن يتكلم، لكن إذا ما كان العمل
من الله - تعالى - فلنلزم الإنسان حدوده.

ومثال ذلك هؤلاء الذين جادلوا فى مسألة الإسراء التى قال فيها
الحق تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى^(٢) بِهِ مِنْ الْمَسْجِدِ

(١) الأحداث - الأشياء العادئة، أى لم يكن لها وجود ثم وجدت، وتأتى عليها عوامل الفناء والتغير.
(٢) أسرى به - جعله يسرى، أو جعله معه على السَّيْرِ لَيْلًا قال تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى^(٢) بِهِ مِنْ الْمَسْجِدِ ﴾ [الإسراء] وهذا يشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ﷺ ومهيئاً له فى
إسراءه. وقوله تعالى ﴿ فَأَنْزِلْنَاهُ بِذَلِكَ نَبُوءَةً ﴾ [الدخان] أمر الله سبحانه موسى
عليه السلام أن يجعل قومه على الإسراء ويكون لهم دليلاً ومهيئاً وهادياً. [القائمون القويم.
٢١٢/١] يتصرف.

الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ^(١) .. ﴿٦﴾ [الاسراء]

وقالوا . إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً فكيف يقول إنه أئاماً
فى ليلة؟

وكان الرد عليهم. إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام
إلى المسجد الأقصى بقوته هو، بل أُسْرِيَ به، والذي عدل ذلك هو الله
- سبحانه - وليس محمداً، فقيسو هذا العمل بقوة الله تعالى وليس
بقوة محمد

ويقول الحق سبحانه - بعد ذلك:

﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾^(٢)

فى هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد : فالكافرون ينتظرون وعد
الشيطان بهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم^(٣)

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة ﴿أَنْ قَدْ جِئْنَا مَا

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى ﴿فَصَدَقْنَا عَنْهُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

.. ﴿٥٥﴾ [الأعراف] وبارك الله لقصى، وبارك لفيه وخطبه وحوله . قال تعالى ﴿هَذَا

مَآءٌ مُّبَارَكٌ أَمْزَجَ فِي الْفَارِوسِ حَوْلَهَا . ﴿٥٦﴾ [الزلزل] وقوله تعالى ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ .. ﴿٥٧﴾ [النور] أى عطية الخير، كجيرة النفع. [القاموس القويم ٦٥/١]

(٢) انتظروا ترقبه وترقبه . وقال تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَلَنَنْظُرَ إِلَيْهِمْ مُنْظَرُونَ ﴿٣٥﴾ [السجدة]

أى. ترقب ما سيحل بهم، إنهم متوالمون [القاموس القويم ٢٧٢/٢].

(٣) يقول الحق سبحانه ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

.. ﴿٥١﴾ [ابراهيم]

وَعَدَدًا رُبَّمَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا .. (١٣) ﴿ [الأعراف]

وفي انتظار الكفار تهديد لهم ، وفي انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم ، ولو لم تأتِ الأحداث المستقبلية كما قالها القرآن لتتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا . وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر [لا من واثق بأن ما في هذا القول سوف يتحقق.

وقد جاء للواقع بما يؤيد بعض الأحداث التي جاءت في القرآن .

ألم ينزل قول الحق : سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ^(١) ﴾ (١٤) ﴿ [الأنعام]

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية ^(٢) حتى قال عمر - رضي الله عنه - ^(٣) : « أَيُّ جَمْعٍ يَهْرَمُ » لأن عمر حينئذ كان يلحس ضعف حال المؤمنين، وعدم قدرة بعض المؤمنين على

(١) وأى المحارب يهزم كناية عن هزيمه قال تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١٤) ﴿ [الأنعام] أى ويفرون . وجمع الدبر أدبار قال تعالى ﴿ وَإِنْ يَخْلَوْكُمُ الْيَوْمَ الْأَنْفَارُ لَمْ يَكُنَ الْيَوْمَ لَكُمْ لُجُومٌ ﴾ [الأنعام] أى يفرون منكم منهزمين . وقوله تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١٤) ﴿ [الأنعام] أى سيهزم الجيش لدى جمعهم ، أو سيهزم جماعتهم . [القاموس التوحيدي] ١/١٢٧ بتصرف .

(٢) قال ابن عباس: كان حين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . نقله القرطبي في تفسيره (١٥٤٦/٩)

(٣) أورد ابن كثير في تفسيره معزواً إلى ابن أبي حاتم: قال عمر أى جمع يهزم ؟ أى جمع يَنْقُصُ ؟ قال ضمر فلما كان يوم بدر رآه رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١٤) ﴿ [الأنعام] فدرست ثوبها يومئذ .

سُورَةُ الْحَقِّ

٦٧٨٩

حماية نفسه. ثم تأتي عزوة بدر ' ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله ﷺ .

ومن العجيب أنه ﷺ حطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين^(١)، بل وأماكن إصابتهم، وجاء ذلك قرآنًا يُتلى على مر العصور، مثل قوله الحق ﴿مَسْمُومٌ عَلَىٰ أَخْرَافِهِمْ^(٢)﴾ [القم]

وهكذا شاء الحق - سبحانه - أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، كما شاء - سبحانه - أن ينزل على الرسول لقطات من قصص الرمن الذين سبقوه لشدة أرره ، ولثبتت فتواده ، وبذكر المؤمنين فيزدادوا إيمانًا.

ثم يختتم الحق - سبحانه - سورة هود بقوله الكريم

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِمُعِذٍ لِّعَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [١٢٧]

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٧٢) من أس بن مالك قال كنا مع عمر بن مكة والمدينة، وأنشأ يمشي من أمم بدر فقال إن رسول الله ﷺ كان يريها مصرع أهل بدر بالأرض. يقول: «هنا مصرع فلان» أو شاء الله فلا عمر فقال الذي بعثه بالحق ما أخطأوا الصلوة إلى حد رسول الله ﷺ. وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ٣١٩، ٢٨٨) وفيه أن رسول الله ﷺ كان يضع يده على الأرض حيناً وهذا. لم أمانه أنهم عن موضع يد رسول الله ﷺ (٢) الخرطوم الأنف أو مقدم الأنف والأنف رمز العزة عند العرب. ويقال: «بشم الأنوف أي لمراء والرسم على الأنف بإذلال وإهانة قال تعالى ﴿مَسْمُومٌ عَلَىٰ أَخْرَافِهِمْ﴾ [القم] أي مسئلة بهيمة الإذلال قبل إلى هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقد ضرب على كتفه بالسيف يوم بدر ، قبل مقتله ، فصعدت عليه الآية ، وأجبرت بما سيحدث له قبل حركه. وقد أسلم من أهلكه القاتل، لندهما سبحانه حاله بين الوليد سيف الله وفاتح العراق وقاهر الروم. [القاموس اللويزم. ١١٩/١]

(٣) غيب الشيء يغيبه يغيبه استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المصطفى والسبب مصدر. ويصغر به ما غلب واستتر قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة] والغيب هو ما صاب عن العيون كالجنة والنار والملك والجن وجميعه غير. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة] [القاموس للويزم ١٤/٢]

أى - أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم، يخبركم به الله - سبحانه - من خلال ما ينزله على رسوله ﷺ

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يحفظ هذا الذكر الحكيم ، ثقةً منه - سبحانه - أنه إذا أخبرنا في القرآن بشيء لم يجرى أوانه ، فلنفهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجرى فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يزول إليه أمر المُنْخَدِر من انكاثات - مؤمنهم وكافرهم - فإذن حدثنا القرآن بشيء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدْرَكَات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زمنٍ ، فإذا أخبر الله - تعالى - عن أمر لم نشهده من قديم قد أوْغَلَ^(١) في الزمن، ولم يقرأه النبي ﷺ في كتاب ولم يسمعه من معلِّم^(٢) ، فهذا كُشِفَ لحجاب الماضي.

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء «ماكُنات القرآن»

(١) وَقَدْ فِي السَّمَاءِ دُخَانٌ يَنْزِلُ بِهِ رُسُلٌ وَابْعَدُ وَتَوَلَّى فِي الْأَرْضِ لُجُجٌ فَلْيَبْصُرْ فِئَاجُهَا وَكَذَلِكَ كُوْغَلٌ فِي الْعِلْمِ [لسان العرب - مادة كوغل].

(٢) وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَا كُنْتَ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا نُظْمٍ يَمِينًا إِنَّا لَأَرْثَبُ الْغَاظُونَ﴾ [العنكبوت] قال مجاهد كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يعط ولا يقرأ فخرت هذه الآية. فقال المصنف نبيلاً على نبوته لقريش: لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يمشي أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فبما هم ينشرون الأنبياء والأسماء وزالت القرية والشك. [انظر تفسير القرطبي - ٢/٢٤١].

مثل قوله الحق. ﴿ وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاحُهُمْ ﴾^(١) أَنَّهُمْ يَكْفُلُونَ^(٢) مَرْيَمَ وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ^(٣) ﴿ [آل عمران]

وغير ذلك من آيات^(٤) التي تبدأ بقوله الحق ﴿ مَا كُنْتُ ﴾

وقد كان هناك أناس في ذلك الماضي يدركون ما صار ضياعاً عن لرسول ومن معه، لكن الحق - سبحانه - أظهر هذا الغيب للرسول

(١) الأفلاح جمع ظلم، وهو الصهم أو خيبة تطبها بكتب عليه روم يدل على مقدار يفسد لمن يمرج باسمه وكانوا يستعملونه في القردة ومن استعمله في القرعة قوله ﴿ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاحُهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُونَ مَرْيَمَ ﴾^(١) [آل عمران] ، فالأفلاح هنا سهام الاقتراع، وقد أجمعت القرعة لفلان سهم زكريا فكان مريم. [القاموس القويم. ١٣٢/٢].

(٢) كفله بكفله كفلاً وكفلاً أوامه ورعاه ورثته. وكفله اليتيم، وكفله اليتيم أسند إليه كحالته ورعايته. كقول ﴿ وَكُنْهَآ زَكْرًى ﴾^(١) [آل عمران] جعله كائناً لها. وقال تعالى ﴿ قَالَ اكْتُمِيهِ وَعَزِّيْ فِي الْقَمَرِ ﴾^(٢) [ص] أي قال اجعلي كائناً لها راعياً فستره مائلاً لها [القاموس القويم ١٦٧/٢]

(٣) هي تسع آيات في القرآن الكريم . منها آية آل عمران التي ذكرها الشيخ منه ومنها - ﴿ تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الَّتِي كُنْتَ تُظَاهِرُ فِيهَا وَمَا كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُكْفَرُونَ ﴾^(١) [هود] - ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الَّتِي كُنْتَ تُظَاهِرُ فِيهَا وَمَا كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُكْفَرُونَ ﴾^(٢) [يوسف] - ﴿ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قُبِلَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرُ وَمَا كُنْتُ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾^(٣) [القصص] - ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَهَرُوا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ النَّخْرُ وَمَا كُنْتُ لَارِئاً فِي أَعْمَلٍ مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِي وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾^(٤) [القصص]

- ﴿ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَىٰ وَلَكِنْ رُحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تُنَادِي قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٥) [القصص] - ﴿ وَمَا كُنْتُ بِرَجْمٍ إِذْ تَلَقَّى إِلَٰهَ الْكَافِرِينَ إِلَّا رُحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ هَبِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾^(٦) [القصص]

- ﴿ وَمَا كُنْتُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَا تَحْطَ بِسَمِيكَ إِذَا أَرَادَ الْمَطْرُونَ ﴾^(٧) [الأنبياء] - ﴿ مَا كُنْتُ نَذِيْرًا لِّلْإِنْسَانِ لَكِنِّي جَعَلْتُهُ نَذِيْرًا لِّهْدًى بِهِ مِنْ نِّشْءٍ مِنْ عِبَادِنَا ﴾^(٨) [الشورى]

الذى لم يجلس إلى مُعَلِّم بشهادة أفعاله ، وكذلك كشف الحق - سبحانه - لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان

ومن ينكشف له حجاب الزمان وحجاب المكان؛ إنما ينكشف له حجاب المستقبل أيضاً ، والذي كشف هذا هو الحق - سبحانه - الذى قدّر مجيء هذا العالم، وما سوف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة.

وقد طمّر^(١) الحق - سبحانه - فى القرآن أموراً لو كُشف عنها فى زمن بعثة الرسول - لكان الحديث عنها فرق مستوى العقول والإدراك ؛ وتحدث - سبحانه - عن وقائع مستقبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لم يكن أحد يتوقعها.

وكانت هناك معركة بين أرقى حضارتين معاصرتين للإسلام ؛ حضارة فارس وحضارة الروم ، وكانت الحضارتان تتنازعان السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ وهزمت فارس - التى لا تؤمن بإله - امبراطورية الروم التى تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة

لذلك حزن رسول الله ﷺ لهزيمة الذين يؤمنون بإله فى السماء؛ فَيُسْرَى^(٢) الله - سبحانه - الأمر على رسوله، ويُنزل الحق - سبحانه -

(١) طمّر الشيء خفيه. والمطمرة حفيرة تحت الأرض و مكان تحت الأرض تدفنه فيها طعام والمال، أى. يخفي. [لسان العرب - مادة طمّر]

(٢) أى فى حزن رسول الله ﷺ على هزيمة الروم ، وهم أهل كتاب لدليل على أن الإسلام هو جراح الأديان السماوية ، وأن الأديان جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر الجسد بالسهر والحمى - الحديث إن إحسان رسول الله ﷺ بالهزيمة وهربه عليها لدليل على رحمة الإسلام وعالميته محبلاً لقوله تعالى ﴿ فَرَّغْتُكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا رَحِمْتُ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْتُ إِلَيْكَ وَمَا رَحِمْتُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَهْمُوا الَّذِينَ وَلَا تَهْزَنْ لَهُ ﴾ [الشورى]

(٣) يسرو يكفب من فؤاده الألم ويذيبه. وسرى عنه: كفى تخفيف عنه الخوف. وقد تكرر ذكر هذه اللفظة فى الحديث، وخاصة فى ذكر نزول الوحى عليه. وكلها بمعنى التكلف والإزالة [لسان العرب - مادة سرو].

سُورَةُ رُومٍ

﴿٦٧٩٢﴾

قَرَأْنَا يُتْلَى عَلَى سَرِّ العَصُورِ وَكُلَّ الأَرْمَانِ يَحْمِلُ نَمُوَّةُ انتصارِ الرومِ
بعدَ هزيمَتِهِم مِنَ الفُرسِ

ويقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا رُومَ﴾ (٦) ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِرُونَ﴾ (٧) ﴿فِي بَطْحِ سَيْنٍ﴾ (٨) ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَفْضَحْ وَيُؤْمَرْ يَفْزَحْ
الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٩) ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠) [الروم]

هكذا تأتي النَمُوَّةُ فِي القرآنِ نَحْمِلُ التَّحَدُّدَ لِمَعْنَادِ نَصْرِ الرومِ فِي
بَطْحِ سَيْنٍ ' وَ 'البَطْحُ' يَقْصِدُ بِهِ مِنْ ثَلَاثِ لَتَسَعِ سَبْعَاتِ

(١) أَدْنَى الْأَرْضِ أَقْرَبُهَا. لَأَنْ مِنْ عَطِيَّةٍ إِنْ كَانَتْ الْوَلَقَةُ بِالْأَرْمَانِ - بَيْنَ بِلَادِ الْعَرَبِ وَالشَّامِ -
فَهِيَ مِنْ أَدْنَى الْأَرْضِ بِالنِّقَاسِ إِلَى مَكَّةَ. وَبَيْنَ كَانَتْ قَوْلُهُ بِالْجَرِيدَةِ - مَوْضِعٌ بَيْنَ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ - فَهِيَ أَدْنَى الْأَرْضِ بِالنِّقَاسِ إِلَى أَرْضِ كَسْرٍ.

وَأِنْ كَانَتْ بِالْأَرْضِ فَهِيَ أَدْنَى إِلَى أَرْضِ الرُّومِ، [نَقْلُهُ الْقُرطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧/ ٢٦٦)]
(٢) البَطْحُ هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسَعِ. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي سَمْعِهِ (٢٦٩١) عَنْ يُونُسَ بْنِ
مُكْرَمٍ الْإِسْلَمِيِّ قَالَ لَمَّا دُرِيَ ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا رُومَ﴾ (٦) فِي ذِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَافِرُونَ (٧) فِي بَطْحِ سَيْنٍ (٨) [الرُّومِ] فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ تَرَلَتْ عَنْهُ الْآيَةُ قَاهِرِينَ الرُّومِ،
وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْمِلُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ وَلِيَاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ رَفَى بِلَاكُ قَوْلِ اللَّهِ
تَعَالَى ﴿وَيُؤْمِنُ بِفِرَاحِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠) [الرُّومِ]
فَكَانَتْ لَوَيْشُ تُصِيبُ ظُهُورَ فَارِسٍ لِأَنَّهُمْ وَلِيَاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيمَانٍ بِهِمْ، فَمَا أَرَادَ
اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصْبِغُ فِي بَوْلِهِ مَكَّةَ ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا رُومَ﴾ (٦)
فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِرُونَ (٧) فِي بَطْحِ سَيْنٍ (٨) [الرُّومِ]
قَالَ بَابُ مِنْ قَرِيشٍ لِأَبِي بَكْرٍ فَذَلِكَ بَيْتٌ وَبَيْنَكُمْ رَحِمٌ سَاحِبُكُمْ أَنْ الرُّومَ سَتَقْلِبُ فَارِسًا فِي
بَطْحِ سَيْنٍ، أَعْلَا مَرَاهُكُ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ بَلَى. وَذَلِكَ قِيلَ تَصْرِيمُ الْوَهْلِ، فَارْتَقَى أَبُو بَكْرٍ
وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَضَّعُوا الرُّعَالُ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ كَمْ تَجْعَلُ؟ البَطْحُ ثَلَاثُ سَعِينَ إِلَى تَمَعِ
سَعِينَ، نَعَمٌ بَيْنَمَا وَبَيْنَكَ رَسَطًا تَمَعِي إِلَيْهَا قَالَ فَسَمِعُوا بَيْنَهُمْ سَعَتِ سَعِينَ قَالَ فَصَحَّتِ السَّعَتُ
سَعِينَ قِيلَ لَنْ يَنْظُرُوا فَاحِدَ الْمَشْرُكِينَ رَضَى أَبِي بَكْرٍ، ظَنَّمَا دَخَلَتْ السَّعَةُ السَّيْئَةُ ظَهَرَتْ
الرُّومُ عَلَى فَارِسٍ فَصَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةً سَعَتِ سَعِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي
بَطْحِ سَعِينَ قَالَ وَأَسْلَمَ عَنْ ذَلِكَ بَابُ كَثِيرٍ قَالَ التِّرْمِذِيُّ. هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَأَنْ قِيلَ تِلْكَ بَيِّنَةٌ مِّنْ مَّوَدَّةِ الْإِنسَانِ . يَقُولُ مَا عَلِمَ مُحَمَّدٌ بِأَخْبَارِ
الْمُعْصِرِينَ وَلَا بِأَسْرَارِ السِّيَاسَةِ الدَّخْلِيَّةِ لِهَمَّا؟

وَقَدْ جَاءَ نَصْرُ الرُّومِ كَمَا حَدَّدَ الْقُرْآنُ . وَكَانَ هَذَا هَتُكًا لِلْحَجَبِ ،
حِجَابِ الزَّمَانِ ، وَحِجَابِ الْمَكَانِ ، وَحِجَابِ النَّفْسِ ، وَأَوْحَى بِهِ الْحَقُّ
سُبْحَانَهُ عَالِمُ الْغَيْبِ الْمُطْلَقُ لِرَسُولِهِ ﷺ .

وَالْغَيْبُ الْمُطْلَقُ هُوَ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَيْسَ
لَهُ مَقْدِمَاتٌ ، وَيُكَشِّفُهُ اللَّهُ لِمَنْ يَرْضِيهِ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ ﴿عَالِمُ
الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]

وَهَذَا الْغَيْبُ^(١) الْمُطْلَقُ يَخْتَلِفُ عَنِ الْغَيْبِ الْمُقَيَّدِ الَّذِي لَهُ مَقْدِمَاتٌ ،
مَا إِنْ يَأْخُذُ بِهَا الْإِنْسَانُ وَيَرْتَبِعُهَا حَتَّى يَصِلَ إِلَى اكْتِشَافِ سِرٍّ مِنْ
أَسْرَارِ الْكَوْنِ

وَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - هُوَ الْغَائِلُ

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ..﴾ (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وَهَكَذَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْمَكْتَشَفَاتِ كَانَتْ مُوجُودَةً فِي الْكَوْنِ وَمُطْمَوْرَةً
فِيهِ ، وَجَعَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - لِكُلِّ مُسْتَوْرٍ مِنْهَا مِيلَادًا ، نَالِيخَارَ
وِاسْتِخْدَامِهِ فِي الْحَرَكَاتِ كَانَ لَهُ مِيلَادٌ ؛ وَالْكَهْرِبَاءُ كَانَ لَهَا مِيلَادٌ ؛
وَإِكْتِشَافُ الذَّرَّةِ كَقُوَّةٍ وَمَوْجِدٍ لِلطَّاقَةِ كَانَ لَهُ مِيلَادٌ ، وَكُلُّ مُكْتَشَفٍ
وَمُخْتَرَعٍ لَهُ مِيلَادٌ ، وَتَتَوَالَى مَوَالِيدُ الْغَيْبِ مُسْتَقْبَلًا ، وَفِي مِيلَادِهَا

(١) الْغَيْبُ مُصَدَّرٌ وَيُسَمَّى بِهِ مَا غَابَ وَاسْتَوْرَ ، قَالَ الْحَقُّ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٢٤)﴾ [البقرة]

وَالْغَيْبُ هُوَ مَا غَابَ عَنِ الْمَعْيُونِ كَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجَنِّ ، وَجَمَعَهُ غَيْبٌ . قَالَ تَعَالَى

﴿إِنَّكَ لَتَظُنُّهُمْ أَغْيَابًا﴾ (١٥٨)﴾ [المائدة] [القاموس القديم ج ٢ / ٦٦] .

إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره وهو الله الحكيم

وقد يأتي هذا الميلاد بكشف وبحث : وقد يُظهره الله بدون بحث أو يُظهره صدفة؛ مثلما أظهر قانون الطفو النافع من قاعدة «أرشميدس» ومثلما أظهر الحق - سبحانه - قانون الجاذبية صدفة ؛ أي أنه سبب من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث في شيء، فيظهر له شيء لم يكن يبحث عنه ؛ ولذلك نسب الحق - سبحانه - الإحاطة له - سبحانه وهما يقول الحق - سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (١٧٣) ﴿

والم يقل : إليه يرجع الأمر كله ، لأنه سبحانه ضابط كل مخلوق على قدر

والله المثل الأعلى : كم تضبط أنت المنه على ميقات معين ، وكما يضبط المساقط القنبلة لتفجر في توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب على هذا الترتيب

والله - سبحانه - القائل :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) ﴿ [يس]

فكل شيء إنما يرجع إلى الله في التوقيت الذي شاءه الله

أو : ان الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حي ، لان الحق - سبحانه - قد خلق في الكون أشياء وترك ملكيتها له - سبحانه - والحق - سبحانه - لا ينتفع بها أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها ولا يملكها، مثل الشمس التي ترمس أشعتها، ويستفيد الإنسان بضوئها^(١) وحرارتها ، وهي لا تدخل في ملكية الإنسان ، لأنها من

(١) وصف الله تعالى الشمس في قرانه، فقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ (٢٠) ﴿ [يونس] وقال عنها : ﴿... وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (٥٥) ﴿ [نوح] والسراج المصباح يملئ شوقاً ويبحث حرارة

أساسيات الحياة • لنذك لم يجعل للإنسان الذي خَصَّهُ الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها • حتى لا يعثر بها.

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق - سبحانه - في سلطته وحده ، ولم يأمن أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء وابهاء حتى لا يعيث أحد بالفساد للهواء لأحد آخر.

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات هي يده دون أن يملكها لأحد ، رحمةً منه بنا ، ذلك أنه - سبحانه - عِلم أن الإنسان بما تميزه من أفعال قد يسيء استخدام تلك الأساسيات.

وسَخَّرَ اللهُ هذهَ لآسَاسِيَّاتٍ لخدمَةِ كُلِّ المَخْلُوقَاتِ^(١) ، وسَخَّرَ بعضَ المَخْلُوقَاتِ لِيُؤَسِّسَها الإنسانُ ، وبعضَ المَخْلُوقَاتِ الأخرى لم يستطع الإنسانُ تَسْخِيرَها ، وحتى قُوَّةُ الإنسانِ نَفْسُهُ ، شاءَ الحقُّ - سبحانه - أنْ يجعلَهَا أَعْيَارًا ، فالقُوَّةُ يَسِيرُ إلى الضَّعْفِ^(٢) ؛ والفَقِيرُ قد يَصْبِحُ غَنِيًّا.

(١) يقول تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالرُّبَّكَ مِنَ الشَّمَاءِ مَا تَخْرِجُ بِهِ مِنَ النَّوَاصِرِ يَوْمَ
لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ لَيْلَهُمْ فِي الْيَمِّ هَائِلُهُمْ وَنَخَّرَ لَكُمْ الْفَيْحَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَخَّرَ بِهِ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۝ وَخَرَجَ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ
وَسَخَّرَ لَكُمْ الْغُلَّ وَفَنَاءَ ۝﴾ [إبراهيم] وقد جمعت ههنا الآيات الأساسية التي تحدث
عنها فضيلة الشيخ الشعراوي السماوات - الأرض - الماء - الشجرات - الفلك - القمر -
الأنهار - الشمس - الليل - النهار.

(٢) وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ حَبِّ زَيْتٍ ثُمَّ يَجْعَلُ مِنْ

سُورَةُ هُودٍ

١٧٩٧

وهكذا يَكُنَّبت لما أن كل ما نملك موهوباً^(١) لنا من الله - تعالى -
وليس هناك ما هو ذاتي فينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية
الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة رجع كل ما نملك الله - سبحانه وتعالى -

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ولذلك أيضاً تشهد الجورج على لإنسان لأنها تخرج عن التسخير
الذي كانت عليه في الدنيا^(٢)

وإذا كان الحق - سبحانه - يقول هنا:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٧٣) ﴾ [هود]

فهو - سبحانه - يقول في آية أخرى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) ﴾ [طه]

وكأن الحق - سبحانه - ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية
ما تحت الثرى من كنوز يستحق الله - تعالى - بها عبيده أنه يملكها.

(١) يقول الله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا آلَهُمْ جَمِيعًا عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِنْشَاءً أَنْتُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٢١) ﴾ وذلك لما لهم فيها زكواتهم ومنها يأكلون (٢٢) ولهم فيها مفاع ومغرب فلا يشكرون (٢٣) ﴾ [يس]

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبَرِّمُ يَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى الْفِرْقَانِ يُرْضُونَ (١١) ﴾ سئل إذا ما جاءوها ههنا ملهم ستمهم وأبصارهم ويطردهم بما كانوا يعملون (١٢) ولأننا نطردهم لم شهدتم علينا فأمر أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون (١٣) وما كنتم تستعجلون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا بطونكم ولكن ظننم أن الله لا يخفى علينا كثيراً فيما فعلت (١٤) ﴾ [فصلت]

(٣) الثرى: القرباب القندى أو التراب مطلقاً قال تعالى: ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٢٥) ﴾ [طه] أي:

ما تحت جميع طبقات الأرض. [القاموس المفيد - ١/ ١٠٧]

ونحن نعيش الآن باستخراج المعنوز الذي تحت الثرى.

وحين يقول الحق - سبحانه - هي الآية التي نحن بصدده
خاطرتنا عنها - ﴿وَأَنَّهُ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ ۖ﴾ [١٢٣] [مود]

فعى ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُستهدفاً النجاة حين لا يكون
لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة.

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق
الاعلى الذى أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته - سبحانه - وأعطاه
غنى من باطن غناه - سبحانه - وأعطاه حكمة من باطن حكمته
- سبحانه - وأعطاه قبضاً^(١) وبسطاً من باطن قدرته - سبحانه -
وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من قبضها ، ثم تظل
الفيضات للحق - سبحانه وتعالى

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن
الأمر كله له سبحانه.

فإنْ حَدَّثْتَ فِي الْقُرْآنِ بِأَمْرِ تَغْيِيبٍ عَنْكَ مَقْدَمَاتُهُ، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ
هَذَا الْكِتَابَ لَا يَعْزِبُ^(٢) عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ.

(١) يستعمل القبض كناية عن شيق العيش، والبسط كناية عن سعة كفوته تعالى ﴿وَاللَّهُ يَفْقَهُ وَيَسْطُو وَأَنَّهُ يُرْجَعُونَ﴾ [البقرة] أى يذهب الودق ويوسعه على من يشاء، [القاموس القويم ١٦/٢] بشعره وبسط اليد يُكفى به عن الكرم والسخاء أو من الإسراف وكثرة انفاق المال، ويقول تعالى عن نفسه ﴿يَلْهَاهُ مَبْشُوطَانِ يُفَقُّ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة] كناية عن الكرم والسخاء [القاموس القويم ١٦/١].

(٢) عزب الأمر يعزب بعد وغاب وصنف مطلبه، قال تعالى ﴿رَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَأْيِكَ مِنْ فُتَالٍ بَرَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا لِمَصْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَثَرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُهْمُ﴾ [يونس] ، أى لا يغيب ولا يبعد عنه أى شيء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء [القاموس القويم ١٨/٢].

ولذلك كان الرسول ﷺ على ثقة أن الحق - سبحانه - حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو مطمئن أنه المرجع في كل الأمور إليه - سبحانه.

واطمأن الرسول ﷺ والذين معه أن أعداء الدين إن لم يُجازَوْا في الدنيا، ففدًا ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد ملكهم أشياء، فسيسلبهم هذه الملكية في الآخرة ، وإن كان قد أعطاهم الحِيار^(١) في الدنيا ، حِيار أن يؤمنوا ويطيعوا ، أو أن يكفروا ويعصوا^(٢) ، فهذا الاختيار سيزول عنهم في الآخرة ، وكل مالك لملك يصير ملكه بعده إلى الله.

ومادام الأمر كذلك فلعمد الله وحده - سبحانه - لأنه صاحب الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتي

وهو - سبحانه - الذي شاء، فجعل للإنسان ثلاثة أزمان زمان سبق وجود آدم ، وزمان من بعد آدم إلى وجود أيّ منا ، ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ، وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ ، وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور في فلك الأحداث^(٣).

(١) الحِيار اسم من الاختيار وحيزته بين الشيئين أي قرئت إليه الحِيار وتخير الشيء اختاره والاختيار الاصطفاة وكذلك التخيير [لسان العرب - مادة ، خير] بتم صرف.

(٢) وقد جاء هذا في آيات كثيرة منها:

﴿وَقُلِ الْبَعْثُ مِنْ رَبِّكُمْ لَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ..﴾ (٢٥) ﴿[الأنعام]

- ﴿إِنَّا مَهَيَّاهُ السَّبِيلَ إِذَا شَاءَ كُفُرًا أَوْ إِيمَانًا﴾ (٢٦) ﴿[الأنعام]

وعبدًا للإسلام العام أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ (٢٧) ﴿[البقرة]

(٢) الحديث من أحداث النهر النزالة وحنكأن النهر وجوانله، قُوَيَّة ومصائبه. [اللسان - مادة

حدث].

ومن المنطقي بعد أن تستمتع بوجودك في الحياة ، وتنضج عقلياً
أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشري

وأنت - في هذه الحالة - تكون رهماً بنقطة المصداق - هل يقول
الصدق أم يقول الكذب ، خصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل
آدم ، ولا بد أن تقول لنفسك لا يمكن أن يصدّقني عن ذلك ، لا من
خلقني^(١) .

وساعة يُبلّغُك رسول الله ﷺ عن مداية الخلق قائلاً «كان الله ،
ولم يكن شيء غيره»^(٢) .

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذي يمكن أن نقبل منه كلاماً عما
فدّ قبل آدم هو الله - سبحانه وتعالى-

وإن سالت ، لماذا وُجدت في زمنى هذا ، ولم أوجد في زمن
آخر؟ هنا ستقول لنفسك إن كنت مؤمناً « إن مشيئة وإرادة من
أوجدنى هي التي رجعت وجودى في هذا الزمن عن أى زمن آخر »

ولا بد أن تسأل نفسك ، وما المطلوب منى ؟

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٥٦) [الكهف] ، وقال تعالى عن خلق الملائكة ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا لَا أَشْهَرُ
عَلَيْهِمْ مَكْتُبُ شَهَادَتِهِمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (٥٥) [الرحرف]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٢٦)، والبخارى في صحيحه (٢١٩١) من حديث عمر بن
حمص. وثامه «كان الله ولم يكن شيء غيره» وكان عرفة على الماء وكتب في الفكر كل
شيء، وخلق السموات والأرض.

الله وترك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها
فى الحركة الثانية من حركات الإنسان

ولذلك يقول الحق - سبحانه - بعد هذا:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْهَرُوا ^(١) فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

[الجمعة]

ولذلك يقول الحق - سبحانه - فى هذه الآية التى نحن بصدد
خوامطرتنا عنها

﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِرٍ عَمَّا تَكْفُلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

[هود]

أى : أطع الله فى أمره - لأنه - سبحانه - الأعلى منك ، بأن
تؤدى المطلوب العبادى من : صلاة ، وركاة ، وصيام ، وحج إن
استطعت لذلك سبيلاً ، لتأخذ من العدد الأعلى ما يعينك فى حركتك
الثانية لتى تتحركها فى الكون

ومن العجيب أن حركتك فى الكون الأدنى تُعينك على حركتك
لاستمداد الطاقة من مَكُون الكون - سبحانه .

فأنت حين تصلى تحتاج لِسَقَر عورتك بشوب ، وحين تأنى
بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح فى الزراعة ، وحركة

(١) انتفروا الناس. تفرقوا وتمشقوا فى ملابسهم. قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا كُنتُمْ بِشُرُوفِهِمْ

﴿ (الزوم) أَيْ تَتَصَرَّفُونَ فِي مَخَابِكُمْ وَتَسْمُونَ فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ ﴿ فَإِذَا طَعْنْتُمْ

فَانْهَرُوا .. ﴿ (الاحزاب) انصرفوا كل إلى حال سبيله [القاموس القويم ٢/٢٦٦].

العامل في النسيج ، وحركة التاجر في البيع ، وحركتك في عملك الذي يتيح لك أجراً تشتري منه الثوب.

وبذلك تكون قد أخذت كل علوم الحياة ، لكي تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى.

وهكذا تجد أنك في حركة دائرية ، تأخذ المدد من الأعلى لتعطي الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدي صاحب المدد الأعلى.

وبهذا يثبت لك أن الحركة في الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره في الحياة، هي استقبال^(١) من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ، لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تتطلم حركة حياتك على ضربه منهجه - سبحانه.

واعلم أنه سذصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله .
وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذي تأخذ منه لمدد.

ولذلك «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة»^(٢)

(١) فمن طريق عبادتك يكون العون من المدد الأعلى يقول الحق ﴿إِنَّكَ تَعْدُو إِلَيْكَ تُسَعِّرُ﴾ (الفاتحة) فحينما العبادة الخالصة لتقرر بعون المدد الأعلى، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام عندما أودع ملجأ وإسماعيل عند البيت الحرام . قال في دعائه: ﴿رَبِّنا لَهَبِصْوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْتَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّعْرَاءِ﴾ (إبراهيم) من مفهوم ما تورات الإمام.

(٢) من حديثه رضي الله عنه قال «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٣١٩)

ومعنى حزبه^(١) أى خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإن عبدت الله وتوكلت عليه ؛ فهو يعينك ؛ لأنه - سبحانه لا يفعل عما نعمل.

وهذه الآية تدلُّ على السعادة فى الحاضر والمستقبل ؛ لأنك إن كنت ترضى الله فسبحانه يكتب لك الحسنات بعشر أمثالها ، وقد يخضع عن ذلك^(٢) ، وتُكتب السيئة بمثلاً.

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة.

يقول الحق - سبحانه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ -

[الأنفال]

﴿٧٧﴾

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السوى يعطى للمؤمن حياة الحياة ، وهى حياة تعيش فى معية الله

(١) حربه أمر أصابه إذا مزل به منهم أن أصابه غمٌ. وأمر حارب بحزبه شديد وجوابه

الخطوب - وهو جمع حلزب - وهو الأمر الشديد. [لسان العرب مادة حزب].

(٢) يقول الحق سبحانه ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام] ويقول أيضاً: ﴿ مِثْلُ الَّذِي يُتَّقُونَ لَوْ أَلْهَمَ فِي سَوَّلِ اللَّهِ كَذِبَ حَيَّةٍ أَبْعَثَ

سَحَابَ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِثْلَ حَيَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِلُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة].

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الزُّمَرُ ١٩٠ آيَاتُ الْكِتَابِ الشِّينُ ١

قد تعرضنا من قبل لقوائم السور^(١) ، من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا إن قوائم يخص من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة ،

• سورة يوسف سورة مكية نزلت بمكة المكرمة قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» ١ / ٤١ : «استكتفي منها ثلاث آيات من أولها حكاية أبر حيين، وهو وبه جداً لا يلتفت إليه، عدد آياتها ١١١ آية وهي سورة جامعة لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والسلافة والشياطين، والجن والإنس، والأفعام والطير ومسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء، وحيلهم ومكرهم وفيها ذكر التوحيد والفقه والسيد وتعبير الرويا، والسياسة والمعصرة وتبجير المعاش، وجمل القوائم التي تصلح للدين والديار ذكره القرطبي في تفسيره (٣/٤١٤١)»

(١) قال الإمام السيوطي : «أظم أن الله افتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء قسماً، الأول: التحميد في خمس سور، وببارك في سورتين، والثاني التمجيد في سبع سور
الثاني : حروف التهجى في تسع وعشرين سورة
الثالث : انتهاء في عشر سور خمس ببدء الرسول ﷺ وخمس ببدء الأمة
الرابع : الجمل الضمنية، نحو ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ (٨٧) [الأنفال]، وذلك في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس : القسم ، في خمس عشرة سورة
السادس : الشرط ، في سبع سور مثل ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (٥) [الواقعة]
السابع : الأمر في ست سور، نحو ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإحلام]
الثامن : الاستفهام في ست سور، نحو ﴿قَدْ يَسْأَلُونَ﴾ (٦) [النبا]
التاسع : الدعاء في ثلاث سور، الهمزة المطلقين، المسند
العشر : التعليل في سورة قريش انتهى باختصار [الإتقان في علوم القرآن

تنطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف

فإن لكل حرف اسماً ومُسَمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها

فإن الأمي إذا سئل أن يثهجي أي كلمة ينطقها ، وإن يفصل حروفها نطقاً ، بما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسَمَّياتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإِنَّكَ إِذَا قَرَأْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَسْمَعَهُ فَيُشَبِّهُهُ عِنْدَكَ حِينَ تَقْرَأُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿أَلَمْ﴾ [البقرة] مثلاً تقرأ في أول سورة الشرح : ﴿أَلَمْ . ﴿١﴾﴾ [الشرح]

أما حين نسمع القرآن فأنبت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل^(١) - عليه السلام - « أ ف لام ميم » ، وتقرأ أول سورة الشرح « أ لم ».

وأقول ذلك لأن القرآن - كما نعلم - ليس كأي كتاب تُقبل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا ، بل هو كتاب تقرأه بعد أن تسمعه وتصحح

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورية من ضرورات سلامة النطق ، وصحة الكلمة ، بذلك يقول الحق ﴿كَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ رِجَالًا فَقَدْ جَاءَكُمْ بِظُهُورٍ﴾ [البقرة] فاتلاوة ابتدء ، والتركيب ارتقاء ، والتعلم صفاء ، ووضح الشيء في مكانه ووضح للمقال في مذهبه ، وفي الشيب علم يثري ، وفي التلاوة إعجاب ، والإعجاب ترديد بتراف ، وتكرير بطهارة ، وتكرير بإخلاص

قراءتك على قارىء ، لتعرف كيف تنطق كل قول كريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفت على كيفية القراءة ؛ لأن كل حرف في الكتاب الكريم موضوع بعيران^(١) . وبقدر

ونحن نعلم أيضاً أن آيات القرآن منها آيات مُحْكَمَات وأُخَر مُتَشَابِهَات^(٢) . والآيات المُحْكَمَاتُ تضم الأحكام التي عليك أن تفعلها لتُتَابَ عليها ، وإن لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما في الآيات المُحْكَمَات واضح

أما الآيات العُتَشَابِهَاتُ إما جاءت مُتَشَابِهَةً^(٣) لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لآخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، واليد .

ووسائل الإدراك هذه : لها قوانين تحكمها

(١) قال ابن الجوزي في كتابه النشر في القراءات العشر (٦/٢١٠) : «لأنك أن هذه الأمة كما هم متفقون بلهم معاني الأفكار وإقامة حدوده متشبهون يتصريح اللفظه وإقامة حروفه على الصفة المتشابهة من لغة القراءة المنصلة بالحصرة النبوية الإصحاحية العربية التي لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها»

(٢) يقول تعالى ﴿وَمَنْ أُولَىٰ عَلَيْكَ الْكِتَابِ مِنْ آيَاتِ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ فَلَمَّا الذِّهْنُ فِي قُلُوبِهِمْ زَبَغَ يَبْغُونَ مَا تُنَادِيهِمْ مِنْهُ فَبُغَاوُا الْفِتْنَةَ وَابْتَغَاءَ فُلُوكَ وَمَا يَكْتُمُونَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المتشابهة هنا أي : ما استأثر الله بطقه ، وضمن معناه على الناس ، أو هو ما احتمل أوجهاً من حيث المعنى والتأويل . وهذا هو معنى الآية السابعة من سورة آل عمران ، أما قول تعالى ﴿اللَّهُ تَزَكَّى أَعْيُنُ الْحَصِيدِ كَمَا مُتَشَابِهَاتُ﴾ ﴿١٢٩﴾ [الزمر] فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في الصفة ، وعدم التماثل والتبديد بعضه لبعض . استأثر الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبى الأنصارى (ص ٦٠) .

فَعَيْنُكَ يَحْكُمُهَا قَانُونُ إِبْصَارِكَ ، الَّذِي يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ تَلْتَقِيَ خُطُوطُ
الْأَشْعَاءِ عِنْدَ بُؤْرَةِ تَمَتُّعِ رُؤْيَيْكَ عَنْدَهَا ، وَلِذَلِكَ تَصْفُرُ الْأَشْيَاءُ تَدْرِيجِيًّا
كَلَّمَا ابْتَعَدْتَ عَنْهَا إِلَى أَنْ تَتَلَاشَى مِنْ حُدُودِ رُؤْيَيْكَ

وَصَوْتُكَ لَهُ قَانُونٌ ؛ تَحْكُمُهُ ذَبْذَبَاتُ الْهَوَاءِ الَّتِي تَصِلُ إِلَى أَدْوَاتِ
السَّمْعِ دَاخِلَ أَذْنِكَ.

وَكَذَلِكَ الشَّمُّ لَهُ حُدُودٌ ، لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ شَمُّ وَرْدَةٍ مُوجُودَةٍ فِي بَلَدٍ
بَعِيدَةٍ

وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ لَهُ حُدُودٌ يُدْرِكُ بِهَا ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ كَيْفَ يَدْرِكُ
الْإِنْسَانُ الْأُمُورَ ، فَلَمْ يَمْنَعْ تَأْمُنَ وَرْدَةٍ جَمِيلَةٍ ، لَكِنَّهُ أَمَرَ بِغَضِّ
الْبَصَرِ^(١) عِنْدَ رُؤْيَا أَمْرَةٍ.

وَهَكَذَا يُحَدِّدُ لَكَ الْحَقُّ الْحَلَالَ الَّذِي تَرَاهُ ، وَيُحَدِّدُ لَكَ الْحَرَامَ الَّذِي
يَجِبُ أَنْ تَمْتَنَعَ عَنْ رُؤْيَيْهِ . وَكَذَلِكَ فِي الْعَقْلِ ؛ قَدْ يَفْهَمُ أَمْرًا وَقَدْ
لَا يَفْهَمُ أَمْرًا آخَرَ ، وَعَدَمَ فَهْمِكَ لِنَظَرِ الْأَمْرِ هُوَ لَوْ أَنَّكَ مِنْ الْفَهْمِ أَيْضًا ،
وَأَنْ تَسَاءَلْتَ كَيْفَ ؟

انْظُرْ إِلَى مَوْقِفِ تَلْمِيزِ فِي الْإِعْدَادِيَّةِ ، وَجَاءَ لَهُ اسْتِثْنَاءُهُ بِتَمَرِينِ

(١) عَضَّ بِسَرِهِ وَعَضَّ مِنْ بَصَرِهِ ، يَفْضُ غَضًّا حَفْضَهُ وَلَمْ يَرْفَعَهُ وَلَمْ يَحْطَلْهُ فَيَبِأُ أَمَامَهُ ، أَوْ
كَفَّ بَصَرَهُ وَلَمْ يَنْظُرْهُ وَلَمْ يَفْضُ لِيَبْصُرْ قَالَ ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ الْغَضُّ مِنْ أَمْصَارِهِمْ﴾ (٥٣) ﴿
[النور] ، وَقَالَ ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ الْغَضُّ مِنْ أَمْصَارِهِمْ﴾ (٥٣) ﴿[النور] وَمِنْهُ عَضُّ مَسْوَتِهِ
حَفْضُهُ ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِغْضُضْ مِنْ مَوْتِكَ﴾ (٥٣) ﴿[الإنسان] [القاموس اللغوي ٥٦/٢]

مهندس^(١) مما يدرسه طلبة الجامعة ، هذا سيقول التلميذ الذكي لاستاذة : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحل مثل هذا التمرين الهندسى . هذا القول يعنى أن التلميذ قد فهم حدوده .

وهكذا يعلمنا الله الادب فى استخدام وسائل الإدراك فهناك أمر لك أن تفهمه ، وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك .

ودائماً أقول هذا المثل : والله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ، وفى كل سُر من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتح كل الأدوار ، ولا يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح .

فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل تلك المفاتيح .

فما بالنا بكتاب الله تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه الحق - تبارك وتعالى :

﴿ مِنْ آيَاتِ مُحْكَمَاتٍ ^(٢) هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ^(٣) وَأُخَرُ مُضَاهِيَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

(١) أصل هذه الكلمة للهنداز وهى كلمة لارسية أصلها إنداز بصيرت الراى شيئاً ، لأنه ليس فى شيء من كلام العرب راي بعد الدال ، والأسم الهندسة . والمهندز هو الذى يُقَلَّر مجازى القنى والابتنج [انظر لسان العرب - مادتي هندز ، هندس] .

(٢) أحكم الأمر انقضاء قال تعالى ﴿ تَمَّ بِكُمْ لَوْلَا آيَاتِهِ ^(٢٩) ﴾ [الحج] أى : بينتها وبيعتها منقذة منقذة محكمة وآيات محكمة مقنة محكمة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل . وقال تعالى ﴿ إِذَا لَزَلْتَ سُورَةُ مُحْكَمَةٍ . ^(٣٠) ﴾ [معدن] أى : منقذة . [القاموس القريم ١/١٦٦] .

(٣) أم الكتاب أصله ، يُرَدُّ إليها كل ما عاها مما يحتل أوجهاً كثيرة قال فى المهديب أم الكتاب كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والأحكام . [نقله ابن منظور فى اللسان - مادة أم] وأم الكتاب : هاتمة ، لأنه يفتد بها فى كل صلاة [اللسان] .

قُلُوبِهِمْ رِيغٌ^(١) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ^(٢) الْفِتْنَةِ رَأَيْتُمْ ثَأْرَهُ وَمَا يَحْتُمُ ثَأْوَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ أَسْحَنُونا فِي الْعَلَمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧٦﴾

[ال عمران]

إن هذا العتاشايه يعتبره اهل الزيغ فرصة لتحقيق مأربهم^(٣) ، وهو إبطال الدين بأي وسيلة وبأي طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله

ولهؤلاء نقول. لقد أراد الله أن يكون بعض من سور الكتاب الكريم مبتدئة بحروف تنطق بأسمائها لا بمسمياتها

وقد أرادها الحق - سبحانه - كذلك ليختبر العقول : فكما أطلق - سبحانه - للعقل البشري التفكير في أمور كثيرة ' هناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التي تفوق حدود عقله.

(١) راغ يريد ريقاً وريغاً مال عن القصد، وأزاله أمله وحزنه عن القصد ﴿ قُلْ مَا زَاورُكُمْ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ [الصف] أي. فلما انصرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجهروهم على الإيمان [القاموس القويم. ٢٩٣/١. ٢٩٤]

(٢) ينشئ الشيء طلبه ابتغاء طلبه، قال تعالى ﴿ يَتَّبِعُكُمْ الْغِيَّةُ .. ﴾ [التوبة] ، أي. يطلبونها لكم. وقال تعالى ﴿ يَتَّبِعُونَ غِيَّاتٍ مِنْ اللَّهِ وَيُخَوِّفُونَ .. ﴾ [الفتح] أي. يطلبون الضلال، وقوله: ﴿ قَدْ اتَّبَعُوا الْغِيَّةَ .. ﴾ [التوبة] أي. طلبوها وسعوا في بلوغها ونشروها. [القاموس القويم. ٧٦/١]

(٣) العارب والآرب والارْب الحاجة والغرض، يقول تعالى عن صاعقوس أن سوس عليه السلام قال منها: ﴿ وَلِي لَهَا مَلُوبٌ لُحْرًا ﴾ [طه] أي. حاجات وأغراض كثيرة أخرى. كالتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم. ١٧/١] بنصرف.

والحق - سبحانه وتعالى - يصنع للإنسان ابتلاءات في وسائل
إبراكه، وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً، وشاء أن يأتي بالعتشابه
ليختبر الإنسان، ويرى: ماذا يفعل المؤمن؟

وقوله الحق - سبحانه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (٧) ﴿[آل عمران]

قد يفهم منه أنه عطف، بمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون
تأويله، وبالتالي سيعلمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتاويل.
ولكن تأويل الراسخين في العلم هو قولهم:

﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ..﴾ (٧) ﴿[آل عمران]

إنن: فتهاية تأويلهم هو من عند ربنا، وقد أمنا به.

وجاء لنا قوله ﷻ لِيَحْلُلَ لَنَا إِشْكَالَ الْمُتَشَابِهِ.

«ما تشابه منه فأمنا به»^(١).

(١) تأويل الكلام: تفسيره وتبيين المراد منه. قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة أول]:
«التاويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد في قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ -
(٧)﴾ [آل عمران]: التاويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذا أي: صغر إليه
قال الجوهري: التاويل تفسير ما يؤول إليه الشيء».

(٢) ربيع يربح بُعُوضاً ثبت فهو راسخ أي: ثابت. الراسخون في العلم المتكثرون فيه
[القاموس القويم: ٣٦١/١].

(٣) تمام هذا الحديث: «إن الفرق لم ينزل لوكتب بعضه بعضاً، فلما عرفت منه فاعملوا به.
وما تشابه منه فأمنا به»، عزاه ابن كثير في تفسيره (٢١٦/١) لابن مردويه من حديث
عبد الله بن عمرو بن العاص.

لان المتشابه من ابتلاءات الإيمان

والمثل الذي أضربه هنا هو أمره ﷺ لما أن نستلم^(١) الحجر الأسود وأن نقبله^(٢)، وأن نرجم الحجر^(٣) الذي يمثل بليس ، وكلاهما حجر، لكننا نمثل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ^(٤) .

وأنت لو أقبلت على كل أمر بحكم عقلك ، وأردت أن تعرف الحكمة وراء كل أمر ، لعبدت عقلك ، والحق - سبحانه - يريد أن تقبل على الأمر بحكمه هو - سبحانه .

وأنت إن قلت لواحد: إن الخمر تهري الكبد ووضعيت على كبده جهاز لموجات فوق الصوتية الذي يكشف صورة الكبد ، ثم نويت الرجل كأس خمر ، فرأى ما يفعل كأس الخمر في الكبد ، ورأه^(٥) ذلك ؛ فقال : والله لن أشربها أبداً.

(١) قال لبيد: استلام الحجر تناوله باليد وبالقُبْلة ومسحه بالكف. وقال الصوفي استلم الحجر لمسه بما بالقُبْلة أو باليد. [نقله ابن منظور في لسان العرب - مادة سلم].
(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه ثم وضع شفتيه عليه بيكي طويلاً، فالتفت إذا هو بعمر بيكي. فقال: يا عمر، هذا تُسكب الصبرات، أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٩٤٥) والحاكم في مستدركه (٤٥٤/١) كلاًهما من طريق محمد بن عون الخراساني قال البيهقي في الزوائد: ضمه ابن معين وأبو حاتم وقتهما، قلت: قد مسح به الحاكمان وألفه الذهبي على تصحيحه.

(٣) وهو ما يُعرف برمي الجمرات في منى في أيام الحج، وهي ثلاث جمرات: الصغرى وهي القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥ مترًا، ثم الجمرة الكبرى، كل جمرة تُرمى - ٢١ حصاة على ثلاثة أيام، ١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجة انظر كتابي «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: والله إلى لأطم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقبلك ما قبلتك، أخرجه البخاري في صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رآه ذلك أمزعه. ولما رآه منه رآه ودوعه فتروغ، أي: تفرغ والوُجج والروُجج: الفرغ [لسان العرب - مادة روج].

هل هو بفعل ذلك لانه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذي نَعُدُّ^(١) تعالىم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن تؤجل تعالىم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها

إذن فحُجَّةُ الْمُتَّصِبِ ، الإيمان به، وقد يكون للعتشابه حكمة ، لكننا لن نُؤْجِّلَ الإيمان حتى نعرف الحكمة

وأقول دائماً يجب أن نعاص الإنسانُ إيمانه بربه معاملته لطبيبه ، فالمرضى يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ، ليصفَ الحبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك عليه أن ينتهى عند عتبة إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطية^(٢)، يُوصِّلُكَ إلى باب اسلطان، لكنه لا يدخل معك.

إذن، فالذى يناقش في عقل الأشياء هو مَنْ يرغب في الحديث مع مُسَاوٍ به في الحكمة، وهل يوجد مُسَاوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك حُذِّ افْتِتَاحِيَّاتُ السُّورِ التي جاءت بالحروف المتقطعة كما جاءت ، واختلافها على معانيها يؤكد على أنها كُتِّبَتْ لا ينفذ من

(١) المطية: الدابة تُمَطَّى أي يُرَكَّبُ عليها والجمع مَطَايَا والمطا: الظهر لامتداده وأصل المَطَا المد وتطلى الرجل تمدد. وكل شيء مددته فقد مطرت. وتطلى النهار امتد وطال [لسان العرب - مادة مطا - بتمصرف].

العتلاء، إلى أن تُحل إن شاء الله - من الله^(١)

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنية على الوصل، ففي آخر
سورة هود نجد قول الحق - سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣)

[هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة
النون، لكنها موصولة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ لذلك جاءت
النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآيات مبنية على الوصل، كان من المفروض أن
تنطق بدء سورة يرسف «الف لام راء» لكن الرسول ﷺ علمنا أن
تقرأها «ألف لام راء» وتنطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف، ودليل على أن الله
- سبحانه - حكيم في هذا وفي ذلك

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع
جبريل - عليه السلام - وراجعته مرتين في رمضان الذي سبق
وفاته ﷺ^(٢).

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢٧/١): «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بخلاف
المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: ال م ص و ك ف ي ع ط س ح ق ن يجمعها
قول: «نص حكيم قاطع له سر».

(٢) من ملاحظة جنت رسول الله ﷺ قالت: «استر إلى النبي ﷺ أن جبريل كل يوم يقرأ القرآن
كل ستة مرة، وإنه يقرأه في العام مرتين: رلاً أوله إلا حشر أجلى» أخرجه البخاري في
صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد في مسنده (٢٨٢/١).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق - سبحانه - على رسوله
الكريم ﷺ

وهذا يقول الحق - ﴿الرَّبُّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١﴾ [يوسف]
و «تلك» إشارة لما بعد (الر) ، وهي آيات الكتاب.
أى. خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ،
وهذا فهم البعض لمعنى . ﴿الر .. ١﴾ [يوسف]
لكنه ليس كل الفهم.

مثل صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من
الخيوط التى تم نسج القماش منها ، ليدلنا على دقة الصنعة.
فكان الله - سبحانه - يُعَيِّنُ لنا أن ﴿الر .. ١﴾ [يوسف]
أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن
تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ،
لا يستطيع البشر - ولو عاونهم الجن - أن يأتوا بمثله^(١).

إذن فالسمع ليس من ناحية الحاسة التى تُكوِّن الكلام ، ولكن
امعجزة أن المتكلم هو الحق - سبحانه - فلا بد أن يكون كلامه
معجزاً ، وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التى نستخدمها نحن
البشر

(١) وليس هذا يقول الحق سبحانه ﴿قُلْ لَّيْسَ بِخَبَرِ الْإِنسِ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ٢٠٠﴾
يأتون بمثله ولو كان بعضهم له ظهراً ﴿٢٠١﴾ [الإسراء].

وهذا معنى آخر فهذا رسول الله ﷺ يطلق أسماء الحروف «ألف لام راء» ، وهو ﷺ الأمي^(١) بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القدر على نطق أسماء الحروف لا بد أن يكون متعلماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمّيات الحروف ولا يعرف أسماءها^(٢) ، وفي هذا النطق شهادة بأن من علّمه ذلك هو ربه الأعلى.

ويقول الحق - سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ آتَى الْكِتَابَ الْأُمِّيَّ (١)﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق لمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم^(٣).

وتجد كلمة «المبين» ، أي الذي يُبين كل شيء تحتاجه حركة الإنساب الحليفة في الأرض ، فإن بأن لك شيء وطلست أن القرآن لم

(١) «قال أبو إسحاق: معنى الأمي المسبوب إلى ما عليه جبلته أمه مكتسباً فكانه نُسباً إلى ما يؤد عليه، أي على ما ولته أمه عليه. نقل ابن منظور في [لسان العرب - مادة أمم] وقال «بعثه الله رسولا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وكانت هذه الحلة إحدى آياته المعجزة لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله متلوفاً، فارة بعد أخرى بالنظم الذي أنزل عليه فلم يُفهمه ولم يُبذل لثقافته، إن الأمي هو ما كان على الفطرة الربانية ، وتلقاه بالإبداعات من العطايا النورية أما الكتاية فهي اكتساب ، وعلم الأمي من الخصوصيات الاصطناعية

(٢) الفرق بين الاسم والمسمى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمي في كلامه (كتبت) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك إن هذا الحرف اسمه (ك) أو هذا اسمه (ت) أو هذا اسمه (ب)، فهو لا يستطيع أن يتجسم الكلمة، ولكنه يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخيف من أفواه الناس هكذا. (من مفهوم الخرافة).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» في القرآن (٢٣٠) مرة، ويقصد بها معاني تغطية القرآن، التوراة، الإنجيل، اللوح المحفوظ ومن معاني الكتاب أيضاً «الرسالة» مثل رسالة سليمان عليه السلام التي أرسلها مع الهدى إلى ملكة اليمن فقال: ﴿ذهب بكتابي هذا فأنك إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون (٢٥)﴾ [النمل] ومن المعاني أيضاً صحيفة الإنسان التي تعرض عليه يوم القيامة ﴿ألم أكتبك كل يوم بقدرك حين أنشأتك﴾ [الإسراء].

يتعرض له ، فلا بد أن تبحث عن مادة أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غابَ عنك.

ويُروى عن الإمام محمد عبده^(١) أنه قابل أحد المستشرقين^(٢) في باريس ، ووجه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال

مادامت هناك آية في القرآن تقول : ﴿ مَا فُرُطْنَا فِي الْكِتَابِ ﴾^(٣) من شيء ؟ (٣٨) ﴿

[الإمام]

فَدَعَانِي أَسْأَلُكُمْ كَمْ رَغِيماً يَنْتَجِهُ أَرْدَبُ الْقَمْحِ؟

فقال الإمام للمستشرق انظر. واستدعى الإمام خبازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن تصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال

هذا قال المستشرق. لقد طيبتُ منك [جبة من القرآن ، لا من الخباز.

(١) هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركمانى مفتى الديار المصرية ولد في شبرا (من قرى الغربية بمصر) عام ١٨٤٩م ونشأ في مجلة مصر (بالبحيرة) تعلم بالجامع الاحمدى بطنطا ثم بالأزهر، أجد القوسية بعد الاربعين، أصدر في باريس جريدة «المروة الوثقى» مع جمال الدين الأفغانى توفي عام ١٩٠٥م بالإسكندرية، ودفن في القاهرة [الأعلام للزركلى ٢٥٢/٦]

(٢) المستشرقون، جمع مستشرق وهم علماء الغرب المهتمون بعلوم الطرق وآداب ودياناته وفلسفاته، وهم يتفحصون في هذا دراسة بحثاً وتقنية، وهم المنصعون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسعون دراستهم للطعن في الإسلام.

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٢/٢٥٠٥) «أى من اللوح المحفوظ، فإنه ثبت فيه ما يقع من العودت، وقيل: أى من القرآن أى ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد نطقت عليه في القرآن إما دلالة سببية مفروجة، وإما مجلة يلقى بيانه من الرسول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القيس الذى ثبت بنص الكتاب»

فرد الإمام : إذا كان القرآن قد قال:

[الأنعام]

﴿ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۖ ﴾ (٢٨)

فالقرآن قال أيضاً

[النحل]

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣)

لقد فطن الإمام^(١) محمد عبده إلى أن العقل لبشرى أضيق من أن
يسع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة ، لذلك شاء الحق - سبحانه -
أن يورع المواهب بين البشر ، ليصبح كل متفوق في مجال ما ، هو
من أهل الذكر في مجاله

ونحن - على سبيل المثال - عندما نتعرض لمسألة ميراث ، فنحن
نلجأ إلى مَنْ نخصص في المواريث ، لنبذلنا على دقة توزيع الأنصبة
هذا الميراث.

وحين يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج ، فيكفيه أن يعلم أن
الحج فريضة ويبحث عند بدء الحج عمَّن يُعلمه خطوات الحج كما
أناها ﷺ

(١) الإمام محمد عبده من الأئمة الإسلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته
الإصلاحية ، عاصر جمال الدين الأفغاني وكان للأمام محمد عبده اتجاهاته في تربية
الأنوار والشعوب ، بحيث تبعوا القويمة والفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً وهذا التدرج التربوي
انفرد به الإمام عن جمال الدين الأفغاني ، وإن كان بينهما عموم وعصوم.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما استدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع في بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانيات اللازمة لذلك . وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ، ولذلك وزع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملاً الاحتياج ، لا تكامل التفضل ، ويصير كل منهم ملتجئاً بالآخرين غصباً عنه

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

وبالنسبة للقرآن نجد الحق - سبحانه - يقول ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ (١٦٦)

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله ﷺ .

ومرة يقول ﴿ نَزَّلَهُ .. ﴾ (٢)

والنزول في هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة

أما قول الحق - سبحانه - ﴿ أَنْزَلَهُ .. ﴾ (٩١)

فهو القول الذي يعني أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنُونًا في اللوح المحفوظ ليياشر مهمته في الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

(١) «الروح الأمين» هو جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف. ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية الموفى والسدي والفسحاك والزهري وابن جريج، وهذا مع لا تراعى فيه، قاله ابن كثير في تفسيره (٣/٣٤٧).

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا^(١)، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً^(٢) منفردة ، ليعالج كل المسائل التي تعرض لها المسلمون

وهكذا يؤمر الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق - سبحانه - يقول

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ بَرَكْنَا (٥٠)﴾ [الإسراء]

أي أن الحق - سبحانه - أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله معزجاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته في الوجود الواقعي^(٣)

(١) ذكر أبو شامة في المرشد الوجيز أن «السور هي إدراته جملة إلى السماء لتحييم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الوسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لنزله عليهم ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنْجِماً بحسب الرقائق لهُبط به إلى لارض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله يبين بينه وبينها سيجل له الأمرين إنزاله جملة، ثم إنزاله مُفْرَقاً، تشريراً للمؤمنين عليه نُقْلُهُ السيموطي في [الإتقان في علوم القرآن ١/١٦٦]

(٢) نجوماً مُنْجِماً، أي: أن القرآن أنزل مفزقاً نجماً بعد نجم، أية بعد أية ، على حسب الأحداث والأحوال، ونظراً كان علم، لسبب النزول، وذلك أدعى إلى قبوله بحالاف ما أن نزل جملة واحدة، فيه كان يفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمعاملات فنظر [لسان العرب مادة نجوم]، [الإتقان للسيموطي ١/١٢٣].

(٣) من أمثلة هذا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَافِلٍ إِنَّهُ يُكْرَهُ بِذَا ضَعِيفٍ فَاذْخُلُوا فَإِنَّا طَعِمْنَا مَا أَنشَرُوا وَلَا ضَافِينَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَمَنْ حَتَّى يَكُنْ رَأْيُهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ . (٥٣)﴾ [الأحزاب]

قال الواسطي عن أسباب نزول هذه الآية : لما بعى رسول الله ﷺ بريسب بنت جحش أولم عليها بثمر وسويق رديح شاة قال أسى وبعثت إليه أمى أم سليم يعيس في فور من حجارة، فأمرنى النبي ﷺ أن أدعو أصحاب إلى الطعام، ليحمل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ثم مجيء القوم ويأكلون ويخرجون فقلت يا نبي الله قد ذهب حتى ما أجد أحداً أسمره فقال ارمعوا طماكم، غرتموا وجرج القوم وبقي ثلاثة أنظار يتحدثون في البيت، فاطأوا المكث، فتلقى منهم رسول الله ﷺ وكس شديد الحياء، فبرله هذه الآية [أسباب النزول ص ٢٠٠].

وفي هذه الآية يقول - سبحانه -

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٢)﴾ [يوسف]

وفي الآية السابقة قال ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (٦)﴾ [يوسف]

فمرة يصفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرة يصفه بأنه كتاب ،
لأنه مسطور ، وهذه من معجزات لقسمية

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمع^(١) ليكتب كان ككتب القرآن
لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه الذين من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثبتة
لا لبسَ فيها

وهو قرآن عربي؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة في أمة عربية،
وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

(١) قال الحاكم في المستدرک جمع القرآن ثلاث مرات.

أولها : بحضرة أبي بكر رضى الله عنه

الثانية : بحضرة أبي بكر رضى الله عنه.

الثالثة : في زمن عثمان رضى الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثاني للقرآن والذي قام به زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر رضى الله عنه. إنك شاب عاقل، لا تنهك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فنتبع القرآن فجميعه قال زيد فتبعت القرآن أجمعه من السُّبِّ والحلف وعبود الرجال وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان. قال السيوطي: وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتب بمجردة وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كثر زيد كان يحفظ فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط. [انظر الإنقاذ في علوم القرآن ١/ ١٦٤ - ١٦٧] يختصراً

معاً نبيغ^(١) فيه العرب ، لأن المعجزة مشروطة بالتحدي ، ولا يمكن أن يتحداهم في أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة حتى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلم هذا ؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه

وكان العرب أهل بيان وأدب وبيوغ في الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون في الأسواق^(٢) ، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المفروق^(٣) ، وكانت العباريات الأناثية تُقام ، وكانت القصديات تجري في هذا المجال ، ويُنصب لها الحكام

أي : أن الدربة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة . معكوم عليها من الناس في الأسواق ، فهم أمة بيان^(٤) وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق - سبحانه - أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبيغ فيه العرب ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن

(١) نبيغ الشراء - ظهر نبيغ منهم شاعر فخرج والذهبة: الشاعر المعروف، سُمي بذلك لظهوره. [لسان العرب - مادة نبيغ]

(٢) كانت للعرب أسواق يجتمعون فيها، مثل عكاظ، ردى المهاز، فكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها، يستمرها الصمراء يتناشدون ما أحدثوا من الشعر

(٣) المفروق: حسن الكلام بليغ المتسق فهو قلبي من الكلام الجيد في بساطة وسلاسة واجع بعض هذا في [لسان العرب - مادة فوه].

(٤) البين، إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم ودكاء الطلب مع اللبس، وأهمه الكشف والظهور [اللسان - مادة بين] والبيان الكشف والإيضاح والكلام البليغ. قال تعالى ﴿هَذَا يَدُ الْفَاتِي﴾ [ال عمران] أي كشف وإيضاح أو هذا كلام بليغ، وقوله ﴿عَلِمَهُ الْيَاقُوتُ﴾ [الرحمن] أي المطلق المعبر عما في النفس من معاني وأفكار [القاموس المبرور - مادة بين]

هؤلاء لن يكونوا التحدي بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادئ التي تعلقت على مبادئ الفرس والروم

وهي مبادئ قد مزلت في أمة هبندية^(١)، ليس لها قانون يجمعها، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له - بل كل قبيلة لها فاتون - وكلهم يتنوّون يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن علم أهل فارس والروم أن تلك الأمة
المُتَّبِعِيَّةُ قد امتلكت ما ينبغي حضارة ليس لها مثيل من قَبْلُ ، رغم أن
النبي أُمِّيٌّ وأن الأمة التي نزل فيها القرآن كانت أُمِّيَّة.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذي نزل في تلك الأمة نجدهم بما نبهوا فيه، وما أستاذع واحد منهم أن يقوم أمام استحدى . ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضاري من نوع لم يعرفوه.

ویشاء الحق - سبحانه - أن يزل القرآن عربياً ، لأن الحق لم يكن
ليرسل رسولا إلا بلسان قومه ، فهو القائل

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ^(١٧) قَوْمَهُ لِيَتَنَّبَهُمْ .. (٤٤) ﴿

(١) مقبولة نسبة إلى البادية يقال تيدى الرجل أقام بالبادية. والبادية - قلاب الحضر - وسُميت بادية بيرونها وشهورها عن أماكن تجمع الناس في الحضر حول الماء ويعبره بقصره من [لسان العرب - مادة يدو].

(٢) اللسان. إحدى حواس الذوق والخطق، قال تعالى ﴿ثُمَّ يَصِلُ لَهُ عَيْنِي (٤) وَبِئْسَ مَا تَشْتَبِي (٥)﴾ [الفيلد] فانه يعقُرُ على الإنسان بدعة فبصر والخطق واللسان اللغة والكلام، قال تعالى ﴿وَإِخْرَجُوهُمْ مِنْ هَٰذَا فَذَرُوا لَهُمْ لَٰسَانَ (٦٦)﴾ [الصافات] أي: أخرجهم عن هذا الكلام الفصيح وقال تعالى ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ خَلَقُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَالْجِبَالِ السَّيِّئَاتِ (٦٧)﴾ [الروم] السَّيِّئَاتِ، أي: لئلا تفسد ولهاجناكم [القاموس القويم - مادة لسان]

وأرسلَ محمدٌ ﷺ بالقرآن ، الذي تميّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ، بأنه كتاب ومعجزة في آن واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه ﷺ منفصلة عن كتب الأحكام التي أنزلت إليهم.

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أن تقوم الساعة ، ومادام قد آمن به الأوائل وأنساحوا^(١) في العالم، فتمتقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل من لم يؤمن به إلى الاسهر بما فيه من أحكام.

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام في تلك المدة الوجيزة، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة من آمنوا به ، بل بقوة من اجتذبوا إليه مشدوهين^(٢) بما فيه من نظم تحلّصهم من متاعبهم

ففي القرآن قواصين تُسعد الإنسان حقاً ، وفيه من الاستنباطات بما سوف يحدث في الكون ، ما يجعل للمؤمنين به يذكرون بالخطويع أن الكتاب الذي أنزله الله على رسولهم لم يفرط في شيء.

وإذا قال قائل من المستشرقين كيف تقولون ، إن القرآن قد نزل

(١) العبيحة الذهب في الأرض لأغراض مختلفة منها العبادة والدعوة والتجارة. وأصله من

سبح الماء الجارى على وجه الأرض. [لسان العرب - مادة: سبح] بتشريف

(٢) خيم الرجل شدها: تحير والدَّمَش أيضاً التحير رهش تحير، أو ذهب عقله من ذل أو

وَلَمْ يَهْدِ سُبُوحاً وأدغمه غيره [اللسان - مادتا: شده، بهش]

لسان عربى عيىن رغم وجود الفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى
تؤمنون^(١) بها على دعاء الإمام ، كما توجد ألفاظ رومية^(٢) ، وأخرى
فارسية^(٣) ؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل ألفاظاً
مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارت هذه
الألفاظ على لسانه وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا
الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، ويدخل فى لغتنا أى لفظ نستعمله

(١) التأمين قول آمين و آمين كلمة تُقال فى إثر الدعاء قال الفرسى فى جملة مذكرة من
فعل واسم، معناه التهم استجب لى [لما من العرب - صدة: آمين] وعن أمير هريزة - رضى
الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إنا أمم الإمام قائمونه» فإنه من واقع تأمينة تأميين
الملائكة فخر له ما تقدم من ذنبه أخرجه الإمام مالك فى موطنه (٨٧/١) واحمد فى
مسنده (٢٣٨/٢ ، ٢٢١) والبطرى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠)

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم
- (الرقيم) فى قوله تعالى ﴿وإم حميت أن يسحاب فكهف والرقيم كانوا من آيتك عجبا﴾ (٦)
[الكهف] قال السيوطى فى الإتقان (١١٢/٢) أنه قد قيل ليهما ثلاثة أموال اللوح
الكتاب، الدواة

(الصراط) حكى النقاش وابن الجوزى أنه الضريق بلدة الروم.
(سفا) فى قوله تعالى ﴿وطفقا يخلصنا عنها من ورق الجنة﴾ (٤٣) [الأعراف] معناه
تصددا بالرومية

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم
- (أياريق) حكى الثعالبى فى فقه اللغة أنها فارسية وقال الجوالقى الأيريق فارسي
مُغرب، ومعناه طريق الماء، أو صيب الماء على فينة.
(ديمار) فى قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَدْعُو بِهِمْ يُؤَدُّ إِلَيْكَ مَا صَدَّقُوا عَلَيْهِ فَأَتَمَّا﴾
(٧٢) [آل عمران] ، ذكر الجوالقى وغيره أنه فارسي
(سجيل) عن مجاهد قال سجيل بالفارسية، أولها مجهزة، وآخرها طين.

ويدور على ألسنتنا ، ما دُمنا نفهم المقصود به^(١) .

ويُنِيلُ الحق - سبحانه - الآية الكريمة بقوله

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

[يوسف]

ليستنهض همه العقل ، ليفكر في الامر ، والمتنصف بالحق يُهم أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس^(٣) الذي يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفذ من وراء العقل.

وفي حياتنا اليومية حين ينهبك انتاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك مآنتها ومحاسنها ، فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته

أما لو كانت الصنعة غير جيدة ، فهو من يدعوك للتفكير بعقلك ، لأنك حين تتدبر بعقلك الامر تكتشف المدلس وغير المدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

(١) ذكر السيوطي في كتابه الإتقان (١٠٥/٢ - ١٠٨) اختلاف العلماء في عربية هذه الألفاظ وفي أعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندى مذهب فيه تسييق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أمولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعربتها بألسنتها وحولتها عن لفظ المعجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم رول القرآن وقد احتاطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن كان إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق» ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وأخرون»

(٢) التَّنِيلُ: إخفاء العيب. والمَدْلَسَةُ: المجامعة. والتدليس: نسي البيع. كلما عيب السلعة عن المشتري، والمدلس الشيء: إذا خفى [سائر العرب - مادة: دلس].

ويقول الحق - سبحانه - من بعد ذلك

﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢)

حين يتحدث الحق - سبحانه - عن فعل من أفعاله ، ويأتى بضمير الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجود صفات متعددة ، يتطلب : علماً ، حكمة ، قدرة ، إمكانات

ومن غيره - سبحانه - له كل الصفات التى تفعل ما تشاء وقت أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ، لأن - سبحانه - وحده صاحب الصفات التى تقوم بكل مطلوب فى الحياة ومُقدّر.

لكى حين يتكلم - سبحانه - عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تاتى بصيغة الجمع ، يقول تعالى . ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

(١) قسم الكلام لو الأخير بنفسها لساناً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ رَقِيٌّ عَلَيْهِ الْقَمْعُ قَالَ لَا تَخَفْ . (٢٠٠) ﴾ [القصص] أى قصر عليه أحباره وحديثه بها والنقص: مصدر يُطلق على ما يُدرى من الأخبار قال تعالى ﴿ قَدْ كَانُوا فِي لَحْمِهِمْ عِزَّةً لَأَزَى الْأَلْبَابِ . (٣٣) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم (٢/ ١٢٠)]

وَأَقِمِ^(١) الصَّلَاةَ لِذِكْرِي^(٢) ﴿١٤﴾

[طه]

وهنا يتكلم - سبحانه - بأسلوب يعبر عن أفعال لا يقدر عليها غيره؛ بالدقة التي شاءها هو - سبحانه - فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..﴾ ﴿١٥﴾

[يوسف]

وحدد - سبحانه - أنه هو الذي يقصُّ، وإذا وُجد فعل لله ، فمنه نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ، ولا نحاول أن نشق منه اسماً مطلقه على الله ، إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته اتى علمناها في أسمائه الحسنی ، لأنه الذات الأقدس.

والى كل ما يتعلق به ذاتاً وصفات وأفعالاً إنما نلتزم الأدب ؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشق منه اسماً لله ، لأنه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنی بذلك.

(١) قام الصلاة أيها كاملة وقوله تعالى ﴿رَأَيْتُمَا رَجُلَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنْ مَدْيَنَ وَكُلٌّ فِيهِمَا كَاهِنٌ مُذْنَبٌ يُرِيدُ الْمَدْيَنَ وَيَرْفُقَانِ بِحِلْيَةٍ مَعَهُمَا قُلُوبُ بَنَاتٍ حَامِلَاتٌ فِي الْأَرْحَامِ لَمَّا هَبَ دُحَانٌ أُولَاهُمُ الرَّجُلَانِ تَوَلَّوْا وَكُنَّ لَهُنَّ آيَاتٌ لَهُمَا فَيَرَفُقَانِ يُرِيدُ الْمَدْيَنَ وَيَرِثُهَا يُوحْيَى﴾ [الأعراف] أي أخلصوا قلوبكم لله، وعملوا رجوعكم واجتهدوا تتجه له في المساجد في الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى ﴿فَأْتِمُوا وَجْهَكُمْ لِلدِّينِ حَيْثُ كُنْتُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَمْرَ الرَّسُولِ وَأُولَئِكَ يَرْجَوْنَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة] أي أخلصوا وجهكم لله، وأطيعوا أمر الله وأمر الرسول. وإتمام اسم مصدر من أقام بمعنى إقامه وحته ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [النور] أي إقامه الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاموس القويم ٢/ ١٤٠-١٤١، ١٤٢] تنصرف واحتصل شديدين.

(٢) الذكر الاستحضار بالقلب مع التأمل، والذكر الحديث والقصة. والذكر القرآني والكتب المنزلة كلها. قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَإِنَّا لَهُ لَحَافُوتُونَ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم وقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح] أي شرفك وحديث الناس عنك بالخير.

والواجب أن ما أطلق - سبحانه - اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهذا يقول - سبحانه

﴿يَحْيُ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ ..﴾ (٣)

[يوسف]

ومعلم أن كلمة «قص» تعني الإتياع ، وقال بعض العلماء إن القصة تُسمى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، وماخوذة من قص الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير من يتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذي سار فيه من يبحث عنه.

واقراً قول الحق - سبحانه - ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهْ فَبَصُرَتْ^(١) بِهِ عَنْ جُنْبٍ^(٢) رَهِمَ لَا يَشْعُرُونَ^(٣)﴾

[الفصص]

و ﴿قُصِّيهْ ..﴾ (٦)

[الفصص]

أي: تتبعي أثره.

إذن فالقص ليس هو الكلمة التي تتبع كلمة، نعم القص هو تتبع ما حدث بالفعل.

(١) بصُرَ به رآه بصره فهو بصير وبصُرَ بالأمر عليه كانه رآه ببصره وفوله ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ (٦) [الفصص] أي: رآته من أحد جوانب البيت وهي متحفية وفوله تعالى عن السامري ﴿فَبَصُرَتْ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ..﴾ (١٥) [طه] أي: علمت بما لم يعلموا وهو رؤية أثر الرسول أو سره [القاموس القويم ٦/ ٦٩]

(٢) الجنب قد يراد به البعد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ..﴾ [الفصص] أي: من بُعد ، أو رآته من جانب من جوانب القصر أو من بعيد.

[القاموس القويم ٦/ ١٣]

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه
﴿فَالْأَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ^(١) وَمَا أَمْسَايَهُ إِلَّا
الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ مِثْلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا^(٢)﴾ [٦٣] قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ^(٣)
فَارْتَدُّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا [٦٤]

أى تَابَعَا الحظوظ.

وهكذا نعلم أن القصص هو تَقَسُّعُ ما حدث بالفعل، فتكون كل كلمة
مُصَوَّرَةً لواقع لا لَبْس^(٤) فيه أو خيال . ولا تَزِيدُ ، وليس كما يحدث

(١) الخوت السمكة، كبرت أو صغرت، والجمع خيتان قال تعالى عن موسى قوله ﴿فَإِنِّي
نَسِيتُ الْخُوتَ . [الكهف | اى السمكة. وقال ﴿إِذْ نَكَّرَهُمْ حِينَئِذٍ يَوْمَ مَنَعَهُمْ شُرْعَا .
[٦٣] [الأعراف كانت تظهر بهم الخيتان في الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم
[القاسوس القويم ١/٦٧] قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة: خوت] والمخاوت المزاوغة
وهو يُخالط أي يزد ويقترب وجات الطائر على الشجر يخرت اى حام حوله.

(٢) العجيب روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استجماع شيء خفى سره أو استعظامه وأعجب
الأمر سره أو حمله على العجب منه. وأمر عجيب وحُجَابٌ وَهَجَابٌ بشديد الجيم السبالة
قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ [٦٢] [س] [القاسوس القويم ٢/٧]

(٣) يعنى الشئ، عليه وارتفعام عليه قال تعالى ﴿يُفْضِلُكُمْ الْفِتْنَةَ . [٦٤] [التوبة] اى
يطلبونها لكم. وقال تعالى ﴿يَتَعَرَّبُ لَهْلًا مِنَ اللَّهِ . [٦٥] [الفتح] وقوله ﴿فَقَدْ أَهْبَاوا الْفِتْنَةَ .

[٦٦] [التوبة] اى طأيرها وسعوا من سنها وبشرها. والافتداء الطلبه قال تعالى . ﴿وَلَا
يَهْرُ فِي أَبْنَاءِ الْقَوْمِ . [٦٧] [النساء] في طلبهم لقتالهم. وقال ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا بِهَذَا وَجْهًا وَجْهًا
[٦٨] [الرعد] اى طلباً لرضاء تعالى عنهم [القاسوس القويم ١/٧٧، ٧٧ .

(٤) اللَّبْسُ والتبس اختلاط الأمر، ليس عليه الأمر يلبيسه ليساً قاتلهم [لا خلطه عليه حتى
لا يعرف حوته والتبس عليه الأمر اى اختلط واشتبك والتبس بين الأمر اختلط وتعلق.
[لسان العرب - مادة: لبس]

في القصص الفني الحديث ، حيث يضيف القصص لقطاتٍ خيالية من أجل الحبكة^(١) الفنية والإثارة وجذب الانتباه.

أما قصص القرآن فوضعت مختلف تماماً ، فكل قصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لناخذ منها العبرة^(٢)، لأن القصة نوع من التاريخ

والقصة في القرآن مرة تكون للحدث، ومرة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فم تأت قصة رسول في القرآن كاملة، إلا قصة يوسف - عليه السلام.

أما بقية الرسل فقصصهم جاءت لقطاتٍ في مناسبات لتثبيت فؤاد^(٣) الرسول محمد ﷺ ، فتأتي لقطة من حياة رسوله ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا

ولا يقول أحد إن القرآن لم يستطع أن يأتي بقصة كاملة

(١) السبك: القيد. والحبكة: الحيل يُشدُّ به على الوسط والتمويه التوشيق وجاء ما حكه إذا أجاد تسجّه وحكه الثوب يحكه حيكاً أجاد تسجّه ومحرّ أثر الصمعة فيه [لسان العرب - ملحة حيك] ويستعار اللفظ ليستخدم في الحبكة القصصية كأنها ثوب يجاد تسجّه وصنعه فلا يكون منهلاً

(٢) وذلك في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١) والعبرة اسم للنسب الذي يمتد به الإنسان والعبرة المظة قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٦) وقال ﴿فَاذْكُرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الأنعام: ١١٠) [المعبر] أي لتعلموا [الأمموس القديم ١/٢]

(٣) يقول الحق سبحانه ﴿وَكَلَّا تَقْرُءَ حَنَكُ مِنْ أَمَلِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ نَسِيبٌ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٥) [هود] أي: نثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. [تفسير القرطبي ٢/٢٤٢٩]

مستوفية! فقد شاء الحق - سبحانه - أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُستوفية، ففيها الحدث الذي دارت حوله أشخاص، وفيها شخص دارت حوله الأحداث.

فقصة يوسف - عليه السلام - في القرآن لا تتميز بالحبكة فقط؛ بل جمعت نوعي القصة، بالحدث الذي تدور حوله لشخصيات، وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث.

جاءت قصة يوسف بيوسف، وما سرُّ عليه من أحداث، بدءاً من الرؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة اغواية^(١) له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولي السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن نقول الحق - سبحانه -

﴿وَمَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..﴾ (٣) [يوسف]

يبين لنا أن الحسن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف لكن أحبار^(٢) اليهود حين قرأوا القصة كما جاءت بالقرآن ترك

(١) اللواط: الخلل والانهيار في القِي والفساد. غوى يقوى، انهك في الجسد. وهو ضد الرشد. قال تعالى ﴿لَا تَتَّبِعُوا فِي الدِّينِ قَدَ ثُبُورَ الرُّشْدِ مِنَ النِّفَى﴾ (٢٥٦) [البقرة]. [القاموس القديم ٦٤/٢]

(٢) الأحبار جمع حبر، وهو العالم، قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٣٧) [التوبة] وأصل الكلمة الحبر الذي يكتب به وهو السداد. وكل ما حسن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حبر حبراً وحبر [لسان العرب - مادة حبر].

معصم كتابه ، واعتمد على القرآن في روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ، وتلمّسات المواجهيد النفسية ، وإبراز المواقف المطوّية في النفس البشرية : وتحقيق الرؤى الغيبية كلّ ذلك جاء في حبكة ذات أداء بليّ مِعْجَز جعلها أحسن القصص

أر . هي أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعددة . عبر في الطفولة في مواجهة الشيفوخة ، والحقد الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، والفتنة في الحب والكيد له . ووضع سحينا بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الفقر الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمّ به النصر والتمكين

وكيف ألقى الله على يوسف - عليه السلام - مصبة منه ؛ ليحفل كل من يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرث النبوة ، بما فيه من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة ؛ فعفا عن إخوته بما روثه المسورة : ﴿ قَالَ لَا تُغْرِيبَ ^(١) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْرِئُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^(٢) ﴾ [يوسف]

وقلنا سيد البشر محمد ﷺ لأمله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ^(٣)

(١) ثوبه لانه رعب عليه وثوبه بالتصعيب أكثر لو أنه - وغيره يندبه ، وأنه على سوء فعله ذال تعالى ﴿ لَا تُغْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْرِئُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف] أي لا يوم ولا تائب [القاموس القديم ١/٦١]

(٢) قال ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام في خطابه على باب الكعبة فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، وبصر وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال ما ترون أمي فاملنكم ؛ قالوا خيراً ، ح كريم ، وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء [راجع السيرة النبوية لأبي هشام ٤/٤١٢]

هكذا تمتلئ سورة يوسف بعبرٍ مقناهية ، يتجلى بعضُ منها في قصية دخوله السجنَ مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ، لذلك فهي أحسنُ القصص : إما لأنها جمعتُ حادثةً ومَن دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو ، أنها أحسنُ القصص في أنها أدتُ المتحد والمتفق عليه في كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأُمي ، الذي لا حمرة له بتلك الكتب ، لكن جاء عَرَضُ الموضوع بأسلوب جذاب مُستميل مُقنع مُمتع.

أو أنها أحسنُ القصص ، لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطاتٍ متعددةٍ تساير : العمر الرمنى : والعمر العقلي ، والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره : ضعيفاً ، مغلوباً على أمره ، وقويّاً مسيطراً ، مُمكنًا من كل شيء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزعة كآيات ضمن سور أخرى ؛ وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها.

إن فالحُسْنُ البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله.

يقول الحق سبحانه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الدَّالِيلِينَ ﴾ (٢١) [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أُمياً، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل

مَزُولِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ خَطِيبٌ أَوْ شَاعِرٌ ، وَكُلُّ مَا عُرِفَ عَنْهُ فَقَطُّ هُوَ الصِّفَاتُ
الْخُلُقِيَّةُ الْعَالِيَةُ مِنْ حَسَنَاتٍ وَأَمَانَةٍ ، وَهِيَ صِفَاتٌ مَطْلُوبَةٌ فِي الْمُبْلَغِ عَنْ
اللَّهِ ، فَمَا دَامَ لَمْ يَكْذِبْ مِنْ قَبْلِ عَلَى بَشَرٍ فَكَيْفَ يَكْذِبُ وَهُوَ يُبْلَغُ عَنْ
السَّمَاءِ رِسَالَتَهَا لِأَهْلِ الْأَرْضِ ؟

إِنَّ الْكَذِبَ أَمْرٌ مُسْتَبْعِدٌ تَمَامًا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ
وَبَعْدَهَا

وَالْمِثَالُ عَلَى تَصْدِيقِ الْعَبْدِ لِرَسُولِ اللَّهِ هُوَ تَصْدِيقُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ لَهُ حِينَ أَبْغَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ الْوَحْيُ قَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَقُلْ
لَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
صَدَقْتَ .

وَحِينَ حَدَّثَتْ رَحْلَهُ الْإِسْرَاءُ ، وَكَذَّبَهَا الْبَعْضُ مَتَسَاتِلِينَ كَيْفَ
مَضْرُوبٍ إِلَيْهَا أَكْبَادُ الْإِبِلِ شَهْرًا وَيَقُولُ مُحَمَّدٌ إِنَّهُ قَطَعَهَا فِي لَيْلَةٍ ؟
فَسَأَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ أَفَأَلِ تِلْكَ ؟ قَالُوا نَعَمْ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا دَامَ قَدْ
قَالَ فَقَدْ صَدَقَ^(١)

(١) ذَكَرَ ابْنُ عَسَامٍ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ (٢٦٨/١) بِإِخْتِصَارٍ طَوِيلٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَصَبَّحَ بَعْدَ
عُودِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ غَدَا عَلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبْرَ فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ ، وَاقْتَصَدُوا بِأَبِي بَكْرٍ
وَعَرَضُوا عَلَيْهِ هَذَا الْأَمْرَ فِي إِنْكَارٍ ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ : إِنْكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ فَقَالُوا بَلَى .
هَذَا ذَلِكَ فِي الْمَسْجِدِ يَهْدُثُ بِهِ النَّاسُ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لَنْ كُنْتُ قَالَهُ لَقَدْ صَدَقَ ، فَمَا يُحْجِبُكُمْ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ يُبَسِّرُنِي أَنَّ
الْخَبْرَ لِيَأْتِيَنِي مِنَ اللَّهِ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فِي مِلْعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَاَصْدَقَ ، فَبِذَا أَهْبَدَ
مِمَّا تَعْبَهُونَ مِنْهُ .

وهكذا نجد أن حبيثة الصدق قتل الرسالة هي التي نلت على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحى.

مثال ذلك تصديق خديجة رضى الله عنها وأرضاها له ، حين أبلغها بنزل الوحي ، فقالت له . والله لا يخرين الله أبداً ، إنك لتصلين أرحم ، وتحملين الكل^(١) ، وتكسبين المقنوم^(٢) ، وتقرين^(٣) الضيف . وتعين على نوائب^(٤) الحق^(٥) .

وكان في صدق بصيرتها ، وعميق حساسية بطولها أسدب^(٦) تؤيد تصديقتها له ﷺ في نبوته^(٧)

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطق المقدمات وانتائج ، والأسباب والمسببات ، كانت يعض العقول المعاصرة

(١) الكل هو من لا يستقل بامرء قال تعالى ﴿وَمَرَّ كُلُّهُ عَلَى مَرْأَتِهِ﴾ [النمل] والكل هو العاجز الضعيف لا خير فيه [القاموس القويم ١٦٩/٢] باحتمار

(٢) المقنوم . كالميت الذي لا تصرف له والمعنى أنك تعطى الناس ما لا يحبونه عند غيرك ، [فتح الباري ٧٤/٦]

(٣) قرى الضيف أماله والقرى طعام الأضياف [لسان العرب - مادة قرى]

(٤) النوائب جمع نائبة ، وهي ما يدوب الإنسان أي ينزل به من الملمات والحوادث والنائبة المعصية من مصائب الدهر تنزل بالإنسان [لسان العرب - مادة نوب] بتصرف.

(٥) حديث بدء الوحي أخرجه البخاري في صحيحه (٢) وكذا مسلم في صحيحه (١٦) من حديث عائشة رضى الله عنها

(٦) قال رسول الله ﷺ : « آتت بي يد كافر الناس ، وهدقتني إن كذبني الناس ، وواستني بحالها إن عرمني الناس ، وورقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٦) من حديث عائشة

لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله » .

سؤال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - متسائلاً - ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح - ألسنا على الحق ؟ علام نعطي الدنيا^(١) في ديننا ؟ ويرد عليه أبو بكر - رضي الله عنه - استمعك بقرره^(٢) يا عمر ، إنه رسول الله^(٣) .

أي انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله ﷺ . وليس في ذلك اصباح أعمى ، بل هي طاعة عن بصيرة مؤمنة .
والحق سبحانه يقول هنا .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ ﴾ (٣)

[يرسف]

والعافى هو الذي لا يعلم - لا عن جهل ، أو قصور عقل - ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله .

(١) الدنيا العملة المسمومة ورجل ديني من قوم أسياه هو الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة رد] باختصار

(٢) القرر ركب الرجل ، وكل ما كل مساكاً للرجلين من المركب قرر والغرر للناقة مثل الحرام للغرس ، وبمثل المركب للبقر ومنه حديث أبي بكر أنه قال لعمر ، اسسك بقرره ، أي اعتلق به وأمسكه واتبع قوله ونقطه ولا تحالفه ، فاستعار له الغرر كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيوره . [لسان العرب - مادة قرر]

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٦٢ - ٣٦٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهري وعروان ابن الحكم وثمامة ، أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أن ليس برسول الله ؟ أو بسدا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ، قال فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم عمره حيث كان الحديث .

أَوْ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ

﴿لَمَنْ الْفَاطِنُ (٢٠)﴾

[يوسف]

أَي : أَنْكَ يَا مُحَمَّدَ لَمْ تَكُنْ مَعْنُ يَعْرِفُونَ قِصَّةَ يُوسُفَ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ فَتَقْرَأَهَا مِنْ كِتَابٍ ، وَلَمْ تَجْلِسْ إِلَى مُعَلِّمٍ يَرُوي لَكَ تِلْكَ الْقِصَّةَ ، وَلَمْ تَجْمَعْ بَعْضًا مِنْ أَطْرَافِ الْقِصَّةِ مِنْ هَذَا أَوْ هُنَاكَ

بَلْ أَنتَ لَمْ تَتَلَقَّ الْوَحْيَ بِهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَالَ بَعْضُ مَنْ أَهْلُ لِكِتَابٍ بَعْضُ مَنْ أَهْلُ مَكَّةَ : أَسْأَلُوهُ عَنْ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ وَإِخْوَةِ يُوسُفَ ؛ لَمَّا ذَخَرُوا مِنَ الشَّامِ وَذَهَبُوا إِلَى مِصْرَ^(١) ؟

وَكَانَ ضَرْبًا^(٢) مِنَ الْإِعْجَازِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْبَيِّنُ الْعَالِي بِكُلِّ تَفَاصِيلِ الْقِصَّةِ ، كَذَلِكَ عَلَى أَنْ مُعَلِّمُ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ اللَّهُ ، وَأَنَّهُ سَبَّحَنَهُ هُوَ مَنْ أَوْحَى بِهَا إِلَيْهِ .

وَالْوَحْيُ - كَمَا نَعْلَمُ - هُوَ الْإِسْلَامُ بِخَفَاءٍ ، وَسَبَّحَنَهُ يُوْحَى لِلْمَلَائِكَةِ فَيَقُولُ

﴿إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِبْرَاهِيمَ الْمَلَائِكَةُ أُنْبِئُكَ عَنْكَ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا... (٢١)﴾

[الأنفال]

(١) نَكَّرَ الْفَرَطِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ قَوْلِ النَّحَّاسِ (١ / ٣٤٤) : يُرْوَى أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا : سَمِعَهُ لَمْ يَنْتَقِلْ إِلَى يَعْقُوبَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ ؟ وَمِنْ خَيْرِ يُوسُفَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ وَجْهِ هَذَا يَكُونُ مُوَافِقًا لِمَا فِي الْقُرْآنِ ، وَفِيهِ رِيلَةٌ لَيْسَتْ مَعَهُمْ ،

(٢) الضَّرْبُ السَّنَفُ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْإِنِّالِ هَذَا مِنْ ضَرْبِ ذَلِكَ أَيَّ مِنْ مَعْرَةٍ وَصَفَتْهُ وَالْجَمْعُ ضُرُوبٌ وَضَرْبُ اللَّهِ مَثَلُ أَيِّ وَصَفٍ وَبَيِّنٍ - وَقَوْلُهُمْ ضَرْبٌ لَهُ الْعَمَلُ يَكُونُ ، (تَعْمًا مَعْنَاهُ بَيِّنٌ لَهُ ضَرْبًا مِنْ الْأَمْثَالِ أَيَّ صَنَفًا مِنْهَا [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ ، ضَرْبٌ] ،

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من المشر إلى صفوتهم .
مصدافاً لقوله سبحانه .

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ^(١) أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دفعاً له
مثل الوحي لام موسى بأن تلقى طفها الرضيع موسى في اليم^(٢) .
﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى^(٣) (٣٨) أَدِّ الْقُدْبَةَ فِي الثَّابُوتِ^(٤) فَالْقُدْبَةُ فِي
الْيَمِّ فَلْيَتَّقِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ^(٥) يَا حَذَّةَ عَدُوِّي وَعَدُوَّ لَهْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي
وَلُصِّعَ عَلَى عَيْنِي^(٦)﴾ [ث]

ويوحى سبحانه إلى الأرض وهي الجماء ، مثل قوله الحق .

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

(١) الحواريون جمع حواري . وهو للمسلم النقي من كل شيء . وشاع استعماله في
الخلافاء والأصفية للأنبياء . قال تعالى . ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ .. ﴾ (٣٧) [آل
عمران] . [القاموس للزويم ١٧٧/١]

(٢) اليم البحر أو النهر العذب . قال تعالى ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي يَمِّمْ ﴾ (٣٧) [الأعراف] وهو
خليج السويس وملؤه مبح . وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى ﴿ فَالْقُدْبَةُ فِي الْيَمِّ
فَلْيَتَّقِ الْيَمُّ .. ﴾ (٣٨) [طه] هو نهر النيل العذب [القاموس للزويم ٣٧٢/٢]

(٣) الثابوت المصدق . قال تعالى ﴿ مِنْ آيَةٍ طُكَّ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الثَّابُوتُ فِيهِ مَكِينٌ مِّنْ رَبِّكُمْ رَافِعَةٌ مَّا
تَرَدُّ أَنْ تُرْسِنَ وَالْهَارُونَ تَحْمِلُهُ السَّلَاحُ ﴾ (٣٨) [البقرة] والثابوت أيضاً الإصلاح
وما تحويه كالحب والكبد وغيرهما . تشبيهاً بالصندوق الذي يُخزَّن فيه المئاع [القاموس
الزويم ١٦/١] . [لسان العرب - عادة ثبت]

(٤) سحله قشره ربحته والرياح تسحل الأرض فكشفت ما عليها من تراب والسبحر
شاطيء البحر . لأن الموج يأكل منها ويحترق ويسحله . قال تعالى ﴿ فَلَْيَتَّقِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ
يَا حَذَّةَ عَدُوِّي وَعَدُوَّ لَهْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلُصِّعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أي بشاطيء
النهر [القاموس للزويم ٣٠٦/١]

وَأَوْحَىٰ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ النُّحْلِ ، فَقَالَ الْحَقُّ

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النُّحْلِ أَبَا نُحْدٍ مِنْ أُنْجَالٍ بَيُّوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ^(١)﴾ (٦٨) ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا^(٢) .. ﴿٦٩﴾
[النحل]

والحق سبحانه يوحى لمن شاء بما شاء ، قالكل ، جماد ونبات
وحيون وإنسان ، من خلقه ، وهو سبحانه يحاطبهم بيسر خلقه لهم ،
واختلاف وسائل استيعابهم لذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا^(١)
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾﴾

(١) عرش البيت سقف قال تعالى ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلُكُنَا وَمِنْ عَالِمَةٍ لَهَا عَادَةُ عِلْنِ
عَرْشِهَا﴾ (١٥) [العن] [لسان العرب مادة عرش]

(٢) ذل لأن وانقاد من غير قهر بعد تصعب ، فهو ذلول وجمعه ذلول ، وهذه مطالبا للآر
خرق ذلل سهولة مبهدة ، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاسْهَرُوا فِيهَا وَكُلُوا
مِنْ رَزَقِهِ وَارْتَبِعُوا صُلُوبَكُمْ﴾ [الملك] ، وقوله ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ..﴾ (٦٩) [النحل] أي
ممهدة للنهر يجمع فاعل بها [القاموس القويم ٧٤٥/١ باختصار]

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٣٠٤١/٤) « مثل لير الحسن الأقطع - وكان حكيماً - عن
« يوسف » فقال الأسقف في اللغة المبرور ، والأسيف العبد ، وقد اجتمعا في يوسف !
فذلك سُمِّيَ يوسف »

(٤) الكوكب في تعبير القرآن يشمل الكوكب البارد التابع المسجود لوجه من غيره ويضم
العجم الملقب كانه كرة كبيرة من المهرن ، قال تعالى ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ (٢٥) [النور]
أي نجم ساطع الضياء ، [القاموس القويم ١٧٧/٢ باختصار]

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لأبيه يعقوب عليهما السلام
 « يا أبت ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات
 « أبى » و « أبت » و « أبتاً » و « أبة » وكلها تؤدى معنى الأبوة ،
 وإن كان لكل منها مَلْحَظ لغوى .

وبسمر يوسف فى قومه .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي
 سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ فى وقت ظهوره ، لكن حُلْم
 يوسف يُبَيِّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا لكواكب متناثرة فى السماء
 آلافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميّزتهم عن غيرهم من الكواكب
 الأخرى ، وأنه قام بعدهم

ورؤيا يوسف عليه السلام تبين أنه رآهم شمساً وقمرًا واحد عشر
 كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى نرى بها الشمس والقمر
 والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ، بعلامح الخضوع
 لأمر من الله . ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل
 لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف]

وهى جمع مذكر سالم ، ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان

المقرد عاقلاً ، ولعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ، والعقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين ، وأسعى ما في الخضوع للدين هو السجود لله

وَمَنْ سَجَدَ لِيُوسُفَ إِنَّا سَجَدُوا لِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ ، فَهُمْ إِنِّي يَعْقِلُونَ أَمْرَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١) .

مثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذِنَتْ ^(٢) لِرَبِّهَا وَحُطَّتْ ^(٣) ﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربها الذي يَنقَّاهَا

وَقَالَ عَلَيْهَا أَمَّا بَلَا تُرْجَعِ^(٤)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٤٣/٤) : القول عند التحليل وسبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطلوع والسجود وهما من العقل من يعقل أخير عنهما كما يخبر عن يعقل ، ويؤخذ من مفهوم حواطر الإمام أن الآية بيّنت منزلة يوسف بين الأسرة وميراته عند ربه وأنه في نهاية المطاف سيمتثلون بفعله وعظمته ، وهذا دليل الانتصار بعد العصار ولتعلم أن الرؤيا المذهبية لها قواطين تحثف عن الرؤية البصرية ، وأن رموزيات الرؤيا المذهبية فيها من الأسرار ما يعطي المطلوب ، لأنها تعمل إشارات توشيعية للمراد منها مثل رؤيا يوسف في حلة سجونهم له ، وأنه رأى الجميع في وقت واحد مع حذف الزمن السموت بها

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته استمع إليه بأذنه وأصوت معجباً به سَمِعاً له ، وتُسَرُّ بهذا المعنى قوله تعالى ﴿ وَلَدَتْ لَهَا وَحُطَّتْ ^(٣) ﴾ [الانشقاق] أي استمعته لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية [القاموس اللوهم ١٦/١ باختصار]

(٣) الفروج جمع فرج ، وهو الخلل بين الشيئين والفرج الشق ، قال تعالى في وصف السماء ﴿ رَمَاهَا مِنْ فُجُوجٍ ^(٤) ﴾ [ق] أي شقوق فهي متعاسكة لا حبل فيها ولكنها يوم القيامة تتشقق قال تعالى ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ^(٥) ﴾ [المرسلات] [القاموس اللوهم

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ لِسْمَاءَ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُدِّلَتْ وَزَيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ
فُرُوجٍ ۝ (١) ﴾ [ق]

وهي أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه .

﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ۝ (٢) ﴾ [الاشفاق]

أى : أنها امتلكت حاسة السمع ، لأن «أذنت» من الأذن : وكانها
بمجرد سماعها لأمر الله : تنقل وتنشق^(١) .

وهكذا نجد أن كل عَالَم من عوالم الكون أمم مثل أمة البشر^(٢) ،
ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر معن يشتركون معه فى اللغة ،
وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من
خلال مُترجم ، أو من خلال تعلّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النباتات ، أو لغة
الحيوان ، إلا إذا أُنعم الله على عبد ما يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم
الجماد عنه .

والمثل ، هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُسكّل تسبيحه مع تسبيحها
«جَوْقة»^(٣) من الانسجام مُكوّن من إنسان مُسَبِّح ، هو أعلى الكائنات ،
والمُردّد للتسبيح هي الجبال ، وهي من الجماد أدنى الكائنات .

(١) ومثال هذا قول تعالى ﴿ ثُمَّ اسْمِعُوا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ لِّقَالِ لَهَا وَبِالْأَرْضِ أَلَمْ يَأْمُرْ أَنْ تَكُونَا
فَالَا أَتَيْنَا مَا لَكُنْ ۝ (١١) ﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ۝ (٢٠) ﴾ [الأنعام]
(٣) الجَوْقُ فى اللغة كل خليط من الرعاء أمرهم واحد . وقال الليث الجوق كل لطيع من
الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً الجماعة من الناس [لسان العرب - مادة جوق] .

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسَبِّحُ ، لكننا لا نفقه تسبيحها^(١) ،
ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعَلِّمُهُ مَنَطقَ الكائنات
الأخرى ، مثله قال سبحانه عن سليمان .

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَبَاهُ أَلَيْسَ عَلَيْنَا مَنَظِقُ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾

[المل]

وهكذا علمنا أن للطير منطقاً وعلم الحق سبحانه سليمان لغة
التمل ، لأننا نقرأ قول الحق

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ بِنْتُهُ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمُكُمْ^(٢) سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٧)﴾ فتبسم ضاحكاً من
قولها وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي^(٣) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٨)﴾

[التمل]

إذن فنكّل أمة من الكائنات لغة ، وهي تفهم عن خالقها ، أو مَنْ
أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس
والقمر والنجوم حين سجدت بأمر ربها ليوسف في رؤياه ، إنما
فهمت عن أمر ربها

(١) قال تعالى ، ﴿إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيقًا عَفِيفًا
(١١)﴾ [الإسراء]

(٢) خطبه يجمعه كسره ينفق . وأصل النجم كسر الشيء النجاف ، ويُطلق على أي كسر ،
قال تعالى ﴿لَا يَحْطِمُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ (١٧)﴾ [التمل] والحطام ما تكسر من
اللباس ، قال تعالى ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَاهُ خَطْمًا (١٠٠)﴾ [الزلزلة]

(٣) أوزعه أن يفعل كذا دفعه وحجّه وأمره ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (١٧)﴾ [المل] أي ألهمني شكرك وأدعني إليه وحجّب إليّ [القاموس اللويز]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رَأْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥ ﴾

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بَنِي ﴾ وهو خطابٌ تحنيئٍ ، ويدل على القرب من القلب^(١) ، و « بَنِي » تصغير : ابن ، أما حين يأتي لقرآن يحدث أب عن امه فهو يقول « ابنتي » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [مرد]

وكلمة « يا بني » بما فيها من حنان وعطف ، ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتي من مواقف يوسف ، ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بني » يفهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلىء بالحدثن على الفرع ، وفي نفس الوقت نجد أي أب يقول « من ياكل لقمتي عليه أن يسمع كلمتي » .

(١) كان فلاناً يكره كيداً : حذره ومكر به واحتمال لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الرسالة التي يتذرع بها الكاذب ليتقلب على خصمه [القاموس التويمي ١٨ / ٢] .

(٢) ورد هذا الخطب في القرآن ٦ مرات في سورة هود ويوسف والسمان في ثلاث آيات والصفات

وليعلم أن الكون وما فيه ومن فيه وظيفته أمام الله الطولية والسيود استجابة لمراد الله فهو من الوردات

وقول الأب يا بني ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب وحين يفرع يوسف مما يُزعجه أو يُسيء إليه ؛ أو أي أمر مُفضل^(١) فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ، وهو الأب ، لأن الأب هو - لا قدر في نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ . . (٥) ﴾ [يوسف]

وفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ، لأن الشمس واقصر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هي « رأى » قد يختلف المعنى بها باختلاف ما رُؤي ؛ ورؤيتك وأنت يقظان يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتَّفَق عليه من الجميع ، فأنت ترى ما يراه غيرك ، وأما « الرؤيا » فهي تأتي للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء في « رأى » والاختلاف في الحالة ؛ هل هي حالة النوم أو حالة اليقظة وفي الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إم-

(١) الأمر المفضل الصعب الشديد الضيق . عضل عليه في أمره شعفياً . شيق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظمناً . وعضل بهم المكان ضائق . وعضل الأرض ياملها إذا ضاقت بهم أكثرتهم [سنان العرب - مادة عضل]

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة »^(١) .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة « التاء » وهي عمدة
التأنيث أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يفتح^(٢) في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة هي القرآن
حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عرج^(٣) به ﷺ ، مقال ،

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً^(٤) لِلنَّاسِ .. ﴾ [الإسراء]

ويكن من يقوون « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا
القول ، فالمعنى هو إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ،
ولكنه حدث في الواقع ، بدليل أنه قال عنها ، أنها « فتنة للناس »

(١) علامات التأنيث اللفظية ثلاث هي

تاء التأنيث ، عمل على الفعل والاسم مثل جالسة وماطة ولديها تدخل للفتحة بين
المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل حليفتي ، مريض
ثيب .

- ألف التأنيث المقصورة وهي ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق بحر الكلمة المؤنثة .
ألف التأنيث الممدودة وهي متطوع مكون من مرة تسبقها ألف من مفتوح ما قبلها ،
وهي تلحق الأسماء ، نوب الأفعال مثل حساء صحران كبريه عنقوراء راجع
للقواعد الصرفية - الدكتور طه أبو المكارم - طبعة ١٩٧٩ ص ٦٢ - ٦٥ .

(٢) يفتح أثر يقان قدح الشيء في صدرى أثر وفي حديث علي كرم الله وجهه يفتح
الشك في قلعه بأول حارضة من قبيلة [لسان العرب - مادة قدح]

(٣) عرج يعرج مروجاً معد وعلا وارثع والمعراج كل ما ساعدك على الصعود والجمع
معارج ، قال تعالى ﴿ومعارج عليها يقفرون﴾ (٣٩) [الزحرف] أي يركبونها ويصعدون فيها
إلى أعلى [القاموس القويم باختصار ١٢/٢]

(٤) قال الأزهري وشهره جمع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار [انظر لسان
العرب - مادة مت]

فالرسول ﷺ هو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذّبه أحد فيما قال ،
 لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ، لذلك عبّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس
 وهنا يقول يعقوب عليه السلام -

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رَأْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ۖ ۝٥ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كتاب مأمون على ابنه يوسف ؛ أم إخوة
 يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقص يوسف رؤياه على أبيه ، فهو
 سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلّ عليه^(١) .

أما إن قصّ الرؤيا على إخوته ، فقد تجعلهم الاغيار البشرية يحسدون
 أخاهم ، وقد كان .

وإن شاعل أحد ولماذا يصدر عنه على رؤيا منامية ، رأى فيها
 الشمس والقمر واحد عشر كوكبا يسجدون له ؟

نقول ، لا بد أن يعقوب عليه السلام قد علم تأويل الرؤيا ، وأنها نبوءة
 لأحداث سوف تقع ؛ ولا بد أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضا قدرة
 إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لفهموا
 المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيذا يحسبه مكروه

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلا ، فما باله
 بضيقهم إن عكروا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم مع
 الإخوة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٤٧/٤) : هذه الآية أصل من ألا تقص الرؤيا على غير
 شقيق ولا ماصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ، فهم الأسباط^(١) ، وما يصيبهم من ضيق بسبب علو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التى تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسليقة^(٢) ، لأن الشرير بالسليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخير فتتزلّ عنه حوادثُ السوء .

والمثل على ذلك أنك قد تجد الشرير يرغب فى أن يصفع إنساناً آخر صفعه على الخد ؛ لكنه بعد قليل يفكر فى تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفتين بدلاً من صفة واحدة ، ثم يرى أن الصفتين لا تكفيان ، فيرغب أن يزيد العدوان بأن يصوب عليه سدساً ، وهكذا يصعد الشرير تفكيره الإجرامى .

أما الخير فهو قد يفكر فى ضرب إنسان أساء إليه « علقه » لكنه يُقلل من التفكير فى ردّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير فى ضرب صفتين بدلاً من « العلقه » ، ثم يهدأ قليلاً ويعنو عن أساء إليه

وإخوة يوسف - وهم الأسباط^(٣) - بدعوا فى التفكير بانتقام كبير من يوسف فقالوا لبعضهم

(١) الأسباط جمع سبط ، والسبط الشجرة ذات أصل واحد ، ولها الفصائل كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب فالسبط القبيلة المنفردة من أصل واحد والأسباط هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام . وهذا اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الالتي عشر « ونضاهم اثني عشرة أسباطاً أمّا » (٣٥) [الأعراف] [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] .
(٢) السليقة : الطبيعة المسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا يتعلم وقيل بالسليقة ، أى بطبعه الذى نشأ عليه قال أبو زيد إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب - مادة سلق] .
(٣) تكررت كلمة الأسباط فى القرآن ٥ مرات عنها ٤ مرات يعنى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبايل بني إسرائيل ، وكل من كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذلك .

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ٩ ﴾

[يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المؤلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا

﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ ^(١) أَرْضًا يَخُلُ ^(٢) لَكُمْ رَجُلٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩)

[يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً تردوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه في الجُب ^(٣) لعل أن يلتقطه بعض للسيارة ^(٤) فقالوا

﴿ وَأَنْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ^(٥) الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ﴾ (١٠)

[يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ، بل إنهم فكروا في نجاته

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق سبحانه

(١) طرح الشيء طرَحاً طرَحاً هذه وإلقاه ، قال تعالى ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ (٩) [يوسف]
أي القوه في أرض بعيدة [القاموس القويم ١/ ٣٩٩]

(٢) خلا فلان إلى فلان لم يح له ولم يشغل عنه بغيره قال تعالى على لسان إخوة يوسف ﴿ يَخُلُ لَكُمْ رَجُلٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف] أي يفرح لكم والنكم ، ويوجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشغل عنكم بأحد غيركم [القاموس القويم ١/ ٦٠٦]

(٣) الجب البئر التي لم تُبن بالحجارة قال الليث الجب البئر غير البعيدة ، وقال الفراء بئر مُجَنَّبَةٌ الجوف إذا كان وسطها أوسع شراً منها مَقْبِيَّةٌ وهو أيضاً البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر [لسان العرب - مادة جيب]

(٤) سيار كثير السير سيرة سبالقة وسيارة سيفة سبالقة للموت والسيارة الجماعة السائرة المسافرة قال تعالى ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴾ (١٠) [يوسف] أي جملة مسافرة ، وقوله ﴿ فَتَأْتِيكُمْ بِالسَّيَّارَةِ .. ﴾ (١١) [العائدة] للمسافرين [القاموس القويم ١/ ٧١٠]

(٥) غاب الخسر يغيب غيباً استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعصية والغيب مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يُلَاقُونَ فِي النَّارِ ﴾ (٢٤) [البقرة] -
[القاموس القويم ٢/ ٦٤ ، ٦٥ بلحتمار]

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءُوسَهُمْ عَلَى الْخَوَلَاءِ فَكَفَرُوا بِكَ كَيْدًا ۝ ﴾ [يوسف]

والكيد . احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابته ، ولا يكيد إلا الضعيف ؛ لأن القوي يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقال إن كيد النساء عظيم ، لأن ضعفهن أعظم .

ويُذَكِّر الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ ﴾ [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأننا خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذي قبل الله ثوبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله ليُفَرِّقَ الكُلَّ ، واستثنى عباد الله المخلصين^(١)

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم »^(٢) .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوة مُبِينَةٌ^(٣) .

أي معيطة وحسين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها بقطعة

﴿ لَا تَنِيهِمْ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۝ ﴾

[١٧٠] ﴿ [الأعراف]

(١) حكى رب المزة هذا عن إِبْرَاهِيمَ التَّائِيهِ أَنَّهُ قَالَ : « فَهَؤُلَاءِ لَأَعْرَبُهُمْ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (١٧١) » [ص]

(٢) عن عبد الله بن مسعود قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ رَكِبَ مِنْ قَرِينَةٍ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَإِيَّايَ وَرَكِبَ اللَّهُ أَهْلِي عَلَى فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِحَقٍّ » أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٥/١)

(٣) بأن الشيء بين بين ظاهر ولتصح فهو بين وفي مِثْلَةِ أَيْ ظاهر وظاهره ويستعمل البَيْنَ والمِثْلَةَ بمعنى المظهر والمظاهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفَسَّرُ . وبين الشيء وإبائى وبين واستبائى لم يُعْمَدْ خافياً ، وتوله ﴿ إِنَّكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٧٢) ﴾ [البقرة]

[التفسير القديم ٩١/١ ، ٩٢ بنصرف]

وَمَ يَأْتِ ذِكْرَ الْعَجَبِ مِنَ الْفَوْقِيَةِ أَوْ مِنَ التَّجَنُّبِيَةِ ، لِأَن مَّنْ يَحْيَا
فِي عِبَادِيَةِ تَحْتِيَّةٍ : وَعِبَادِيَةِ فَوْقِيَّةٍ : لَا يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ أَبَدًا

وَنَلِظْ أَنَّ الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ جَاءَ بِقَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَخَاطِبًا
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

﴿فَيَكْبِتُوا إِلَيْكَ كَيْدًا ۖ ۝٥٠﴾ [يوسف]

وَمَ يَقُلْ ، فَيَكْبِدُوكَ ، وَمِمَّا مِنْ نَضْجٍ^(١) نَبْوَةٍ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عَلَى لِسَانِهِ ، لِأَن هُنَاكَ فَارَقًا بَيْنَ الْعِبَارَتَيْنِ ، فَقَوْلُ « يَكْبِدُوكَ » يَعْنِي
أَنَّ الشَّرَّ الْمُسْتَوْرَ الَّذِي يَدْبِرُونَهُ خُدْعَكَ سَوْفَ يَصِيبُكَ بِأَذَى.

أَمَّا ﴿فَيَكْبِتُوا^(٢) إِلَيْكَ ۖ ۝٥٠﴾ [يوسف]

فَتَعْنِي أَنَّ كَيْدَهُمُ الَّذِي أَرَادُوا بِهِ إِلْحَاقَ الشَّرِّ بِكَ سَيَكُونُ لِحَسَابِكَ ،
وَيَأْتِي بِالْخَيْرِ لَكَ

وَلِذَلِكَ نَجِدُ قَوْلَهُ الْحَقَّ فِي مَوْقِعٍ آخَرَ بِنَفْسِ السُّورَةِ .

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ ۝٥١﴾ [يوسف]

أَي - كُنَّا لِمُسَالِحِهِ

وَيَقُولُ لِحَقِّ سَبِّحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ

(١) أصح النسخ الرشح يقلل نضج الرجل بالعرق نضجاً فصح به ، وبضحت العين
فارت بالدمع وصيانه تنضج وتضعت الحابية والجرة تنضج ، (إذا كانت رقيقة يخرج الماء
من الخرق ويضمت [لسان العرب] مادة نضج يتصرف)

(٢) كَادَ قَالُوا يَكْبِدُهُ كَيْدًا خُدْعُهُ وَمَكَرُهُ وَلِسْتَالَ لِلْإِلْحَاقِ الْمُرَادُ بِهِ ، وَالْكَيدُ مَصْدَرٌ وَيُطْلَقُ
عَنِ الْعَمَلِ أَوْ الرِّسَالَةِ الَّتِي يُلْتَوَخُ بِهَا الْكَلَامُ يُخْتَلَبُ عَلَى خُصْمِهِ [اللاموس القويم

وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ^(٦)
وَيُفَرِّغُ نِعْمَةً عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْنَاءِكَ
مِنْ قَبْلُ أَتَرَاهُمْ إِسْمَعَىٰ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٧﴾

أى كما أتسك الله بهذه الرؤى المقرحة المنبئة بأنه سيكون
لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجزيك
ربك ، لا بأن يحفظك فقط ، ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ،
ويُعلمك من تأويل الأحاديث ما يجهر أصحاب الجاه والنفوذ يلتفتون
إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن
الرؤى تاتى كطلامم ، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلها إلا مَنْ وهب
الله قدرة على ذلك ، فهى ليست علماً له قواعد وأصول : لأنها إلهامات
من الله سبحانه وتعالى .

(٦) اجتنى فلاناً اختاره واستخسسه واسطفاه قال تعالى ﴿ يَخَيِّرُ اللَّهُ مِنَ بَيْنِ رِيحَيْهِ إِلَهُهُ
مَنْ يَرْبُ ﴾ (الشورى) ٢٩ أى يصطفى ويختار من يشاء من خلقه [القاموس اللطيف
١١٧/٨]

(٧) الحديث . الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أحداث ، وهى للحديث العجيب
والحديث قد يُطلق على الرؤى والاحلام ، قال تعالى ﴿ رُسُلُكَ مِنْ قَبْلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (٢٩)
[يوسف] وأما قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ (المؤمنون) فهو كتابة عن العوت
والهلاكة . أى بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يقصّت الناس عنهم [القاموس اللطيف
١٤٥/٦]

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خراش الأرض ، حين يُوجد
الجذب^(١) ، ويعم المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر

ويتابع الحق سبحانه

﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

فكل ما تمتع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن
الله اجتباه رسولا

أو أن ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففي حياة يوسف منصب مهم ،
هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم آخر^(٢)

ويتابع الحق سبحانه .

﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦) [يوسف]

يذكر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب
أن يحوِّله إلى عداوة ، لأن النعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم
اليعقوب ؛ هم وأبنائهم حقة يعقوب ، وسينالهم بعض من عز

(١) الجذب - التحد وهو تقيس النسب والأرض الجديدة التي ليس بها قلين ولا كثير ولا
مرتفع ولا كلاً والأرض المهادب التي لا تكاد تُفصَّب [لسان العرب - مادة جذب]

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٥٠) : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ﴾ (٦) [يوسف] أي

بالنمرة وقيل بإخراج إخوتك إليك ، وقيل بإتمامك من كل مكروه .

يوسف وجاهه وماله ، كما أتمها من قبل على إبراهيم أبجد الاول
ليوسف باتخاذ خليلاً^(١) له ، وأتم سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة
وهو سبحانه أعلم بمن يستحق حمل الرسالة ، وهو الحكيم
الذي لا يترك شيئاً للعبث ، فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً
للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّائِلِينَ﴾^(٢)

أي أن يوسف صار ظرفاً للأحداث ، لأن « في » تدل على
الظرفية^(٣) ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظرف فيه شيء آخر ،
فكان يوسف صار ظرفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشركين
فيها

و « يوسف » اسم أعجمي ، لذلك فهو « ممنوع من الصرف »
أي ممنوع من التثنية فلا نقول في يوسف
و ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّائِلِينَ﴾^(٢) [يوسف]

وهذا يعني أن ما حدث إنما يُلقت لقدرة الله سبحانه فقد ألقى
في الجُبِّ وأُنقذ ليتربى في أرقى بيوت مصر

(١) قال تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١٢٥) [النساء] وسمي إبراهيم عليه السلام خليل
الله لشدة محبته له ورجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها ، [ابن كثير
١٦٠/١]

(٢) قال ابن هشام الأنصاري في معنى الكليب (١/١٤٤) : « في » حرف جر به عطية معان
مها الظرفية وهي إما مكانية أو زمانية ، وقد اجتمعا في قوله تعالى ﴿وَالْتَمَّ﴾^(١) غلبت
الزوم^(٢) في آتية لأرضي رُفاه من بعد عليهم سيقون^(٣) في بضع سن ، (١٤) [الروم] ،

ونعلم أن كلمة آية تطبق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهي
تُرد بالقرآن بثلاثة معانٍ

آية كوسية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات
الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ،
فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة العتامية : لا بُدَّ أن تفكر في
ضرورة وجود خالق لهذا الكون

والآيات العجيبة الثمانية هي المعجزات الخارقة للنواميس التي يأتي
بها الرسل : لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل لُفاز التي صارت
برقاً^(١) وسلاماً على إبراهيم ، ومثل السماء الذي انطلق وصار كالطود^(٢)
العظيم أمام عصا موسى

ومناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن
الكريم .

وفي قول الحق سبحانه .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (٧) [يوسف]

(١) وذلك في قوله تعالى ﴿ قَالُوا حَوْلُوا آلَهُمْ وَاتَّصَرُّوا إِلَهُكُمْ إِنْ تَعْلَمُونَ عَلَيْنَا ﴾ (٢٥) قلنا يا دار كُوبِي برقاً
وسلاماً على إبراهيم (٢٦) [الأنبياء] والبرق ضد الحر والبرودة تليق بالحرارة ، قال علي
ابن أبي طالب أي لا تضرب به قال ابن عباس وأبو العاتكة قولا أن الله عز وجل قال
﴿ وسلاماً ﴾ [الأنبياء] لأذي إبراهيم برهما . وقال جرير عن الضمك ﴿ كُوبِي برقاً
وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء] قالوا ضحوا له حليلة من حطب جبل وأشعلوا فيه النار
من كل جانب فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أحمرها الله ، [أنظر تفسير ابن كثير
١٨١/٣] .

(٢) الطود الجبل الشايت للعالي قال تعالى ﴿ فَاَنْعَلْ لَكَ كَلٌّ فَرَى كَالطُّودِ الْعَلِيمِ ﴾ (٢٧)
[الشعراء]

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذي كاذ له إخوته ليتخلصوا منه ، لكن كيدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سكوى^(١) لرسول الله ﷺ : لتثبيت لؤاه : فلا يُعير بالآ لاصطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم فى نفيه إلى الشام . ومحاولتهم قتله ، ومحاولتهم مفاطعته ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون فى ظلال كنفه .

إذن . فلا تياس يا محمد ، لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته . ولا تستبطىء نصر الله ، أنت ومن معك ، كما جاء فى القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ^(٢) وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَعَىٰ نَصْرِ اللَّهِ أَلَا بِإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ لَئِيمٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سمحانه ما حدث ليوسف بعد الفهر الذى أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير لى وأها يوسف عليه السلام

ويقال إن رؤيا يوسف تحققت فى فترة زمنية تتراوح بين

(١) سألنى من معنى تسلية وآسالى أى كسبه على راسلى على الهم وتسلنى بمعنى أى تكفف [سأل العرب مائة سلا]

(٢) البأساء الفقر والضدة ، قال تعالى ﴿ وَالضَّالِّينَ إِلَى الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ۝٢١٧﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة . والضراء طول العرس أو أى شدة أو نقص الاموال والآنفس ، وذلك مؤلم معروى وهو ضد السراء [اللاموس القويم ٥٢/١ ، ٢١٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً^(١) .

ولذلك نجد رؤيا الخير يطول أمد تصديقها ؛ ورؤيا الشر تكون سريعة ، لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهى ، لأنها لو ظلت سون وقوع لآمد طويل ، لوقع الإنسان فريسة تخيل الشر بكل صورته .

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ، فيجعلك الله متخيلاً لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتآويل شتى

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ^(١) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

(١) قال أبو عثمان المهدي عن سليمان كان بين رؤيا يوسف وتآويلها أربعين سنة وقال الحسن كأي مدة مارق يوسف يعقوب إلى أن اتفقا ثمانين سنة لم يلاق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه ، وهذا يوافق ما قاله ابن كثير في تفسيره (٤١/٢)

(٢) طمس الشيء : غيرت صورته أو أدمى أثره وطمسه غيره : شوهه أو محله وأزاله ، وطمس عينه : أعماه وطمس على عيت : أعماه فطمست معنى عطي وغشى عليها ، قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا لَطْمِسًا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ (٣٥) [يس] . [الذاموس القويم ٤٠٦/١ باختصار]

(٣) شدت قرأه : شد العبل ربطه ربطاً متكاملاً وشد أسره : قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أي أحكم السيطرة عليه ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ (٦٥) [الإنسان] أي أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم وقوله ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ (٧٢) [ص] أي قوينا [الذاموس القويم ٢٤٢/١ ، ٢٤٤ بتصرف]

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العبر من الأمم السابقة ، وجاء الوحي لينزل على الرسول الأمامي ب تلك السورة بالأداء الرفيع المعجز الذي لا يقوى عليه بشر

وأنت حين تقرأ السورة ، قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة ، هات أنت أي إنسان ليتكلم ثلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله ، لن تجد أحداً يفعل ذلك ، لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ

﴿ سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ (٦)

[الاعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أنزل إليه من ربه ، ويعليه على صحابته ويصلى بهم : ويلتزم في الصلاة ما أنزل عليه ، ورغم أن في القرآن آيات متشابهات ، إلا أنه ﷺ لم يخطئ مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق .

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٧)

[لقمان]

ومرة أخرى يقول

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٨)

[الصوري]

وكذلك قول الحق سبحانه .

(١) عزم الأمر من الجوار أي تعدد بهيمة قوية من صاحبه قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ اللَّهُمُّ عَزَمَ الْأُمُورِ ﴾ (١٨) . [محمد] فعل لازم أي نفذ ونقرر وثبت بهيمة قوية منكم ، وقال تعالى ﴿ وَإِنَّا عَزَمْنَا الطَّلَاقَ ﴾ (١٧) [البقرة] أي عقدوا النية على إتمامه وقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٨) [آل عمران] أي من الأمور الجادة الرشيدة التي لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التي يلزمها أصحاب العزم القوي [القاموس القويم ٢ / ٦] .

[العبور]

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾

وفي موقع آخر يقول الحق .

[الطوبى]

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَيَعِيمٍ ۝١٦﴾

فكيف يتأتى لبشر أمة أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذى أنزل عليه الرحي قد شاء له ذلك

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحِبُّ إِلَيْنَا مِثْلَ نَحْنُ عُصْبَةٌ ۝١٧﴾
 ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٨﴾

ولا بُد لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة ببوعياتها : فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً ، وقد تكون من ناحية الأب دون الأم ، أو من ناحية الأم دون أب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنتا^(١)

(١) المصنف الجملة المترابطة قال تعالى عن إخوة يوسف لربهم ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۝١٧﴾ [يوسف] عصبة ربطة ربطاً شديداً وقوله ﴿ مِنْهَا يَوْمَ عَصِيَّبٍ ۝١٧﴾ [هود] أى شديد العصب يعصب الناس ويضيق عليهم أو شديد الحر ، شديد الهول [التماموس القويم ٢٢/٢]

(٢) الضلال التسيير والضباع ولد يطلق الضلال على عمل خلاف الأولى كقوله فى قصة يوسف ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٨﴾ [يوسف] أى شدة تعلقك بيوسف وحرارك عليه فهو فى نظرهم ضلال [التماموس القويم ٣٩٥/١]

(٣) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٥١/٤) . اسمائهم روبيل وهو أكبرهم . وشمعون ولاوى ويهوذا ورياحون ويعسخر . وأهم ليا بنت لى . وهى بنت خال يعقوب . وولد له من سريتين أربعة نفر . دان وبنامين وجاد وأشر . ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل . فولدت له يوسف وبنيامين . فكان بين يعقوب اثنى عشر رجلاً قال السهيلي أم يعقوب اسمها راحيل . وراحيل ماتت فى فلبس بنيامين . وقيل فى اسم الأمتين ليا ولاقا . كانتا إحداهما لراحيل والأخرى لأختها لى .

عشر : سبعة من واحدة ، وأربعة من اثنين ، زلفى وبلهه ، واثنين من راحيل هما يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها .

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ بَنَاتِنَا ۖ ﴾ (٨) [يوسف]

وحرف اللام الذي سبق اسم يوسف جاء لتوكيد ، وكانهم قالوا والله إن أماننا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبِّه لنا والتوكيد لا يأتي إلا بصدد إنكار

وهذا يدل على أنهم مختلفون في أمر يوسف عليه السلام ، فأحدكم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه في البئر^(١) ، ثم انتهوا إلى أن يوسف أحب إلى أبيهم منهم

وفي قولهم لَمَحَّة من إنصاف ؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعض من غلظة لبشر ، لأنهم كان يجب أن يلتزموا سبب زيادة حب أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صغاراً وماتت أمهما^(٢) ، ولم يقدِّ لهم إلا الأب الذي أحسَّ بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنان الأب وحنان الأم ؛ ولأنهما صغاراً يجد الأب يهنؤ عليهما بما أودعه الله في قلبه من قدرة على الرعاية

وهذا أمر لا يدخل ليعقوب فيه ، بل هي مسألة إلهية أودعها الله

(١) الجبر البئر التي لم تكن مالحجارة قال قتيل في البئر غير البعيد وقال الفراء بئر مَجْبِيَّة الجوف إذا كان وسطها أوسع شبر منها مَجْبِيَّة [سان العرب - مادة جيب]

(٢) ماتت أمهما راحيل في نفس بنيامين ذكره القرطبي في تفسيره

في القلوب بدون اختيار ، ويودعها سبحانه حتى في قلوب
الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل احسان على قدر الحاجة ؛ فالقطة -
على سبيل المثال - إن اقترب أحد من صغارها المولودين حديثاً ،
تهجم على هذا الذي اقترب من صغارها

ولذلك نجد العربي القديم قد أجاب على من سأله « أي أبنائك
أحب إليك ؟ » فقال « الصغير حتى يكبر » والفأثب حتى يعود ،
والمرضى حتى يشفى » .

وهذه مسألة دراما في حياتنا اليومية فنجد امرأة لها ولدان ،
واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورهما واحتياجاتهما ؛ والآخر
يعيش على الكفاف^(١) أو على مساعدة أخيه له ، ونجد قلبها دائماً مع
الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ،
ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه
يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية^(٢) ، فأحب من شئت
وأبغض من شئت ، ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ، أو تظلم
من أبغضت

(١) الكفاف أي ليس في نفقة فضل إنما عنده ما يكفيه من الناس قال الجوهري كفاف
الشيء بالفتح مثله وقبسه ، والكفاف أيضاً من الرزق القوت وهو ما كف عن الناس أي

غنى فهو لا يفصل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه ، [لسان العرب - مادة كف]
(٢) الطبع والطبيعة الخلقة والسجية التي جبل عليها الإنسان والطباع كالتبيعة ، مؤنثه

[لسان العرب - مادة طبع]

اقرأ قول الحق سبحانه

﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ^(١) شَأَنُ^(٢) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (A) ﴿

[المائدة]

فاحبب من شئت ، وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل ولكن الرسول ﷺ قال : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه .

نقول اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث ، فقد قال عمر رضي الله عنه - بوضوحه وصراحته وجوهرته - دون تقاطع - أحبك يا رسول الله عن مالي وعن ولدي أصا عن نفسي ، فلا . فكرر النبي ﷺ قوله .

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »^(٣) .

(١) جرم الشيء جرماً قمعه وغلب على فعل الظفر . يقال جرم - آذى وجنى جناية وجرم المال كسبه من أي وجه وجرمه عمله على فعل شر أو ذنب وجُرم قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَأَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (A) ﴿ [المائدة] أي لا يصلحكم بغض قوم على عدم العدل ، أي التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم أي اعدلوا دائماً فاعمل أقرب للتقوى [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) شأن وشئته شئاً وشئته وشئاناً بخصه ذكره قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَأَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (A) ﴿ [المائدة] وشأني اسم فاعل قال تعالى ﴿وَأَن تَعْدِلُوا هُوَ الْأَقْرَبُ﴾ (B) ﴿ [الأنعام] أي عيفتك وكرامك [القاموس القويم ١/٢٥٧]

(٣) عن جد رهرة بن سعيد قال كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال والله يا رسول الله لا أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال الذين ﷺ : والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، قال فانت الآن والله أحب إلي من نفسي فقال رسول الله ﷺ : الآن يا عمر ، أخرجك أحمد من مصنفه (٢٢٦/٤)

لفطنَ عمر رضي الله عنه إلى أن الأمر هو الترام عتدي^١ وتكليفى ؛
وقهم أن المطلوب هو حبُّ العقل ، لا حب العاطفة .

وحب العقل - كما نعلم - هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ، مثلما
تأخذ لدواء المرء ، وأنت تفعل ذلك بحبِّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن
يأذن الحق بالشقاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ، لأنه يعلم أنه لولا مجيء
رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى^(١) المسلم فى حبِّ
رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاصفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أضح لنا
الخطوط الفاصلة بين مبادئ الحب العقلى والحب العاطفى

والمثال الآخر من سيرة عمر رضي الله عنه فى نفس المسألة ،
حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مرَّ عليه قاتل أخيه ، فقال واحد ممن
يجلسون معه ، هذا قاتل أخيك فقال عمر : وماذا أقعل به وقد هداه
الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً
لماذا تزرى وجهك عني ؟ قال عمر : لأنى لا أحببك ، فأنت قاتلُ
أحى ، فقال لرجل : أو يمنعنى عدم حبك لى من أى حق من
حقوقى ؟ قال عمر : لا . فقال الرجل : لك أن تحب من تريد ،
وتكره من تريد ، ولا يبيكى على الحب إلا النساء .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

(١) السمو الارتفاع والعلو سبباً لعلو ، وسمو سمو ارتفع وتساموا تباروا
وتساميها تباريها وتفاضلها والتسامى الرفعة والارتقاء [لعلو العرب - ملحة
سما] يتصوره

وأخيه هو افعال طبيعي لا يؤاخذ به الأب : لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب

وتستمر القصة بم فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر :
ولسائل أن يسأل ولماذا انصب غضبهم على يوسف وحده ؟

ويقال إنهم لم يرغبوا أن يفجعوا^(١) أباهم في الاثنين - يوسف وأخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾^(٢) [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ، والعصبة أيضاً هم المتكاتفون المتعصبون لبعضهم البعض ، وهم الذين يقومون بالمصالح ويتضون الحاجات ، وقد تقاعد أبوهم : وترك لهم إدارة أعمال العائلة

وقالوا : « ما دُمنا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يخصنا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبَةٌ ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مريداً من الرعاية ، وبكنهم سددوا^(٣) في غيهم^(٤) ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم

(١) الفجعة - الرزية المرجعة فجعة المصيبة أوجمت والقواجج المسائب المؤلمة التي تلحق الإنسان بما يجر عليه من مال أو حميم ، الواحدة فجعة [لسان العرب مادة جمع]

(٢) النصارى المتخير ، وهو اسم الذي لا يهتم بشيء ولا يُبالي ما صنع [لسان العرب - مادة سبر]

(٣) الغي الضلال والخيبة غوى غلّ والنواية الانهالك في الغي والقوى شديد الضلالة والغواية ، والغواء كضله ولوقده في الغي والضلال [القاموس اللغوي ٦٤/٢]

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨)

[يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تتسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهم ، ولا بد أن يعطف عليهم الأب ، وحبّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم

وحين يقولون

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨)

[يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها نقول لا ، لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم وهناك ضلال غير مقصود ، مثل ضلال رجل يمشي فيسلك طريقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ، ومثل من يتسنى شيئاً من الحق وسبحانه القائل .

﴿ أَنْ تَضِلُّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .. ﴾ (٢٨٢)

[البقرة]

وسبحانه القائل أيضاً

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٧)

[الضحى]

إذن فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حبّ أبيهم ليوسف

وأخيه ، ووصلوا إلى نتيجة ضارة ، لأن المقدمات التي أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة : ولو أنهم مَحْصُوا المقدمات تحصيلاً دقيقاً لَمَّا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التي قالوا

﴿ إِنَّ أَهَانَ لِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ ﴾ (٨) [يوسف]

ويقول لحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على السنة إحوة يوسف .

﴿ أَقْبِلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِي قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩)

والقتل هو لمة ما فكروا فيه من شر : ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل ، فقالوا : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٩) [يوسف]

فكأنهم خافوا من إثم القتل ، وظنوا بذلك أنهم سينقردون بحب أبيهم ، لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

والوجه هو الذي تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود بـ . ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

(١) طرح الشراء ودرج به رعاة والطرح بالتحريك البعد والمكان البعيد قال تعالى ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٩) [يوسف] أي القوه في أرض بعيدة [القاموس القديم ٢٩٩/١]

(٢) خلا فلاں إلى فلاں مرغ له ولم يشغل عنه بغيره قال تعالى على لسان إحوة يوسف ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف] أي يفرح لكم والدكم ويثبته إليكم بكل عنايته ولا يشغل عنكم بأحد غيركم [القاموس القديم ٢٠٩/١]

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم

وقولهم . ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أى أنهم يُقدِّرون الصلاح : ويعرفون أن الذى فكروا فيه غير مقبول بموازين الصلاح ، بذلك قالوا : إنهم سينوبون من بعد ذلك .

ولكن ما الذى أدرهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا خسروا أن أمر الموت قد أبهم حتى لا يرتكب أحد المعاصي والكبائر .

أو أن يكون المقصود بـ . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنغيص^(١) علاقتهم بأبيهم . حين يخلو بهم وجهه ، سيرتاحون إلى أن أياهم سيعدل بينهم ، ويببهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءاً من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً ، فسيرتاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح منوط بمراداتهم فى الحياة

بحسب مفهومهم للصلاح والحياة

(١) التمس كسر العيش وقد نفس عليه عبثه تنغيصاً أى . كثره . ونفس عليه أى . قطع عليه ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الارتداد منه فهو متأنص .

[لسان العرب - مادة نفس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي عِيَابَةِ الْجُبِّ ^(١)
يَنْقُطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ^(٢) ﴾

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ
القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القاتل حتى يعصمهم جميعاً من
سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى ^(٣) ، ونحن نعلم أن الناس حين تحفر
بئراً ، قمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتي الردم ليجسد البئر ،
ولذلك يبنون حول فؤمة البئر بعضاً من الطوب لجماعته من الردم ،
ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه في البئر
في حالة استطراق .

(١) عِيَابَةُ الْجُبِّ : ما عاب من جرانبه عن النظر ويستتر ما احتبأ فيه . قال تعالى ﴿ وَالْقَوْهَ فِي عِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ [يوسف] ١٧ . وقري : عِيَابَاتٍ بِالْجَمْعِ [القاموس القديم ٦ / ٢٥٠] وعِيَابَةُ كل شيء : كثره ، ووقعوا في عِيَابَةِ من الأرض ، أي في منبسط منها [لسان العرب - مادة خيب]

(٢) السَّيَّارَةُ الكثير السير والسيارة الجعدة السائرة المسافرة . قال تعالى ﴿ وَجَاءَهُمْ سَآءَةٌ ﴾ [يوسف] وقوله ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَالسَّيَّارَةَ ﴾ [العنكبوت] ١١٠ أي للمسافرين [القاموس القديم ٦ / ٢١]

(٣) المطوى البئر المطوية بالحجارة يقال طوى الركية طياً عرشها بالحجارة والآخر [لسان العرب - مادة طوى]

وكلمة : ﴿ عَيْبَةُ الْجَبِّ (١٠) ﴾ [يوسف]

أى المنطقة المخفية فى البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ، وما فيها يكون غائياً عن العيون

ولسائل أن يقول وكيف يتأتى إلقاءه فى مكان مخفى مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ (١٠) ﴾ [يوسف]

ونقول إن فى مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التى كانت متوقّدة فى اقتراح بعضهم بقتل يوسف ، وفى هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطرح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القاتل^(١) لحالته العادية ، وصحّت فيه عاطفة الاخوة وقال

﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تمت تصفية هذه المسألة فلم يقف صاحب هذا رأى بالنعيف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طرحه فى الأرض ، بل أخذ يستلزمهم ليستلّ منهم ثورة انقضب فلم يقلّ لهم : لا تقتلوه « ، وبكنه قال : لا تقتلوا يوسف « .

وفى نُطقه للاسم تحنين لهم

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٥٧/٤) : القاتل هو يهوذا . وهو أكبر ولد يعقوب . قاله

ابن عباس . وقيل روبين . وهو ابن خالته . وقيل شمعون .

ويضيف .

﴿وَالْقُوَّةَ فِي غِيَابِهِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ^(١) بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ١١﴾

[يوسف]

وكانه يامل في أن يتراجعوا عن مخططهم

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿فَالْوَايَاتُ أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصِاحُونَ ١١﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذي خفف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء في الجب ، بدأوا التفتيح ، فقال واحد منهم موجهاً الكلام لأبيه ، وفي حضور كل الإخوة

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ .. ١١﴾ [يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ، فاعلم أن واحداً منهم هو الذي قال ، وأمن الباقون على كلامه ؛ إما سكوناً أو بالإشارة

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

(١) التقط الشيء ولقطه أخذه ليصوره أو ليعرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعا ، قال تعالى ﴿وَلَا تَلْقَاهُ إِلَّا لَوْعُونَ .. (٨)﴾ [القصاص] فاحذروا هنا منهم أنه مفيد نافع لهم وكذلك قوله ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١١)﴾ [يوسف] يأخذ به على السافريين لينتقموا به وليصوره [القاموس المبرمج ١٩٨٧/٢]

قال موسى عليه السلام

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ^(١) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِرُوا حَتَّى يَرْوُ
الْعَذَابَ لِأَنَّهُمْ^(٣)﴾ [يونس]

ورَدَّ الحق سبحانه على دعاء موسى .

﴿ قَدْ أَجِيتَ دُعَوْتُكُمْ ، ، (٨٩) ﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى آمن على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال

﴿ يَا أَيُّهَا مَا لَكَ لَا تَأْمِنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصَحُونَ^(٤) ﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردت فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ،
هو واحد من إخوة يوسف ، وأمن بقية الإخوة على كلامه

وقولهم . ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمِنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصَحُونَ^(٥) ﴾ [يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يرافقهم

الآب

(١) طمس الشيء تحييت صورته أو انمحي أثره وطمسه غيره شوهه أو مضاء وإزاله
وطمس فيه أضمها ، وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، ، (٨٩) ﴾ [يونس] أى ازل
عليها ما يمحوها ويهلكها [القاموس القديم ١/١٠٦]

(٢) شد العبل وبله ربطا محكما وشد أسرته قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبدا
أى أحكم السيطرة عليه ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ، (٩٥) ﴾ [الإنسان] ، أى ، أحكمنا وثاقهم
وسيطرنا عليهم وقوله ﴿ وَشَدَدْنَا مَلَكُوتَهُ ، (٩٦) ﴾ [ص] أى ، قوىناه وقوله ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى
قُلُوبِهِمْ ، (٩٧) ﴾ [يونس] أى ، أحكم اللقضاء واربطة بالقوة على قلوبهم وهو دمه طوبهم
[القاموس القديم ١/٣٤٤]

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١) [يوسف]

يعنى أبهم سوف ينتبهون له ، ولن يصحب له ضرر أو شر ،
وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب

ويستمر عرص ما جاء على لسان إخوة يوسف

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا خَدًّا يَرْتَعُ ^(١) وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢)

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا
بعده ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف هو أوان
الطفولة ، واللعب بالنسبة له أمر مُحِبٌّ ومسموح به ؛ لأنه ما زال
تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل لمباح لقصد نشرح النفس

ويُفَضَّلُ الشرع أن يكون للعب فى مجال قد يطلب الجِدُّ مستقبلاً ،
كأن يتعلم الطفل السباحة ، أو لمصارعة ، أو إصابة الهدف ، وهى
الرماية ^(٢) وهكذا نفهم معنى اللعب . إنه شغل لا يُلْهِى عن واجب ، أما
اللغو ^(٣) فهو شغل يُلْهِى عن واجب ،

(١) رتَع يَرْتَعُ أَكَلَ وَشَرِبَ كَمَا يَشَاءُ فِي خَصْبٍ وَسَعَةٍ . وَأَمَلَهُ أَكَلَ الْبَهَائِمِ وَيَسْتَبَارِ
لِلْإِنْسَانِ إِذَا أَطْلَقَ لَشَهَوَاتِ طَبْعِهِ الْمَتَنِ [القاموس القويم ٢٥٤/١]

(٢) عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما قال : « من السبي ^(٤) منقر يرمون فقال رعباً بهي
إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » أخرجه أحمد فى مسند (٣٦٤/١) وأخرجه البخارى فى
سميعه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بجملة

(٣) لها يلغو يلغو تَلَوَّى وَشَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا فِيهِ لَذَّتْهَا وَسُرُورُهَا أَوْ تَسَلَّى بِمَا لَا يَفِيدُهُ . قَالَ
تَعَالَى ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْغَيْرِ وَمِنَ النَّجَاسَةِ .. ﴾ [الصحة] وللغو هنا الغناء والتمثيل
والزمن الذى كان يصاحب حركة التجار وقت المسألة [القاموس القويم ٣٠٥/٢]

وهناك بعض من الألعاب يمارسها الناس ، ويحسبون معاً ، ثم يؤثرون المؤمنين ، ويأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقلمة الصلاة في معانها ، وهكذا يأخذهم اللهو عن الصلوة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لمسار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ قَدْ هَجَبُوا إِلَيَّ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣)

وكلام الأب هنا لا بد أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يحاف فيها من فراق يوسف لقلة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهي :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٤) [يوسف]

وقال بعض الناس^(١) : قد علمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكنبوها

ونلاحظ أن يعقوب جعل بالاخوة لحظاً ؛ فلم يقل « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٤) [يوسف]

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤٧٠ / ٢) : « أخذوا من لغة هذه الكلمة وجعلوها عندهم فيما يطلونه ، وقد أورد السيوطي في « الدر المنثور » ، ٥١٠ / ٤ (آثاراً في هذا الشأن ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في المنبوتات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقوا الناس فيكذبوا ، فبئس بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقهم أبومهم كذبوا ففلقوا أكله الذئب »

وهذا ليُربِّيَ فيهم مواجيد الأضوة التي تفترض ألا يتصرفوا مع
أخيهم بشرًّا ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرًّا إلا إذا غفلوا عن
أخيهم .

ونلاحظ في ردِّهم عجزهم عن أن يردوا على قوله .

﴿ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ .. ﴾ (١٦) [يوسف]

فهذا احب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على
يوسف . وردوا فقط على خوفه من أن يأكله الذئب . وجاء القرآن بما
قالوه .

﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِدَا
لَخَاسِرُونَ ﴾ (١٧)

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم . كي ياذن
في خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يكله الذئب وهم
مُحِيطُونَ به كعُصْبَةٍ ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون
كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا
الهُوان^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٦٢/٤) : قوله ﴿ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [يوسف] أي : إننا
لخاسرون في حفظ أماننا ، أي : إن كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أحيانا فمن أعجز أن
نُدفعه عن أبنائنا .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ لَتُنَادِيَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴾ (١٥)

[يوسف]

يبدلنا على أن تلك العسالة أخذت منهم مناقشة ، فيها أخذ ورد ،
إلى أن استقروا عليها .

والهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ،
والرحى كما نعلم هو إعلام بخفاء

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الولاية
فى مصر وبنحوا عليه أمسك بقدح ونقر عليه بأصبعه ، وقال لهم ،
اسمعوا ما يقوله القدح ، إنه يقول : إن لكم أحاً وقد فعلتم به كذا وكذا^(١) .

(١) جمع أمره عزم عليه أو حكمه . قال تعالى ﴿ فَوَلَّى وَرُغُونَ فَبِئْسَ كُفَّةً لَّهُمْ ﴾ [١٥] ﴿ [١٦] ﴾ [١٧] .
أى عزم عليه راحكمه وأجمع القوم على أمر الكفوا عليه . وأجمع الأمر عزم عليه
واحكمه ، قال تعالى ﴿ فَاجْتَمِعْ كُفَّتُهُمْ ثُمَّ تَقَرَّأُوا سُبْحًا ﴾ [١٥] ﴿ [١٦] ﴾ وقال تعالى ﴿ وَأَجْمَعُوا
لَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ [١٥] ﴿ [يوسف] أى اتفقوا [القاموس اللغوي ١ / ١٢٧]

(٢) ذكر القرطبي فى هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أحد هليهم ميثاقاً غليظاً
ليستقبلته، وسلمه إلى روبييل وقال يا روبييل إنه سفير، وتعلم يا بنى شفتى عليه . فإن
جاء لأطعمه وإن عطش فأسقه ، وإن أعيا فاعمله ، ثم فجّل برئه إلى قال ، فبأخذه
يفعلونه على أكتافهم لا يضعه واحد إلا رفقه آخر [انظر تفسير القرطبي ٤ / ٢٤٦٢] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما دخل إخوة
يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون . جرى بالصواع فوضعه على يده ، ثم نثره
فطن فقال إني ليحيوسى هذا الجم . ثم كان لكم أخ من ليكم يقال له يوسف ، يدعى ليبيكم
وانكم انطلقتم به فاقبضتموه فى عيابة الحب . فلتيتكم أباكم فقلت إن القتب أكله وجثتم على
قميصه يدكم ككتبي فقال بعضهم لبعض إن هذا الجام ليخبره خيركم » (أورده السيوطي
فى الدر المنثور ٤ / ٥١١)

والوارد الإلهي لا يجد له معارضة في النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤسِّسُ وحشته^(١) حين لقاه إخوته في الجُبِّ الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقة لبلده التي درج^(٢) فيها وأذسه بالبيئة التي اعتاد عليها .

فكان لا بدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جفوة لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهم من الذي كنت فيه ؛ وأن غُرماءك - وهم إخوتك - سوف يُضطَّرون لنقِّ بابك ذات يوم يطلبون عونك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ، وجهة الجُبِّ الذي القوه فيه ، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿وَجَاءَ آبَاؤَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾

هنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداءً دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية ، فيها هم إخوة حسعوا آياهم ومكروا

(١) ومما ورد من هذا ما نقله القرطبي في تفسيره (٣١٦٥/٤) ، قال الضحاك : ذلَّ جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجب فقال له : ألا أعطاك كلمات إذا كنت قاتلاً عجل الله لك خبرك من هذا الجب . فقال : نعم . فقال له : ذلَّ يا حسيح كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شافع كل مجور ، ويا حافس كل ملا ، ويا مفزع كل كربة ، ويا صاحب كل شريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، ليتني بالفرج والرجاء ، ولقداف رجاءك في ليلي حتى لا أرجو أحداً سواك .

فردنها يوسف في ليته مراراً ، فأخرجته الله في صبيحة يومه ذلك من الجب .

(٢) يقال للصبي إذا نبَّ وأخذ في الحركة درج . ودرج الصبي يدرج فهو يدرج مشياً متعباً صعباً ونَبَّاً [من العرب - بابة درج]

بأخيهم ، وأخذوه بالقوة في الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباء يحيه ،
وكان ضئيلاً^(١) أن يأتهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال انفسى الذى لا تستطيع فجرة أن تثبت فقالوا :
نؤخر اللقاء لأبيننا إلى العشاء والعشاء محلُّ الظلمة ، وهو ستر
للالفساعات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة
كذب السنتهم ، لأنهم لم يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ، بل بحديث
مُخْتَلَق^(٢) .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضهم تلججهم ، وتكشف سيعاهم
الكاذبة أمام أبيهم فقالوا الليل أخفى للوجه من النهار ، وأستر
للفضائح ، وحين ندخل على أبينا عشاء ، فلن تكشفوا أفعالنا .

وبذلك اختاروا الطرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم

﴿ وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَكُونُ ﴾ (١٦)

[يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى عريزى سطرئ ، ليس للإنسان فيه مجال
اختيار ، ومن يريد أن يقتله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُكَ عينيه أو يأتى
ببعض ريقه ويُقَرِّبه من عينيه ، ولا يستتر ذلك إلا أن يكون الضوء

(١) ضمنت بالشيء أخيراً بنيت به وهو ضئيل به ورجل ضئيل بغير والضئنة
والضئ الأسسك والبشر وقال تعالى ﴿ وما هو على القلب بضئ (١٦) ﴾ [التكوير] فهو
لا يكتم شيئاً عن رسول الله . بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من غير السوء [راجع لسان
العرب ، والقلموس القويم]

(٢) خلق الكذب والإفك يخلف وتخلق واختلقه واعتراه ابتدعه الاختلاق الكذب وهو انفعال
من الخلق والإبداع كان الكاتب تخلق قوله [لسان العرب - مادة خلق]

حافئاً : لذلك جاءوا أباهم عشاءً يُمتثلون البكاء^(١) .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التي أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذى يميت ويحيى ، وهو الذى يضحك ويُبكي .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم]

ولا يوجد فرق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزي وآخر عربي ، ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صيني وآخر عربي أو فرسي ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك ، فهو يتضحك ، وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى . يفتعل الضحك أو البكاء ، والذى يفضح كل ذلك هو النهار

والفريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتحاد الليل كستار للمواقف ، وامثل في سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ، ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دعوه ليبايعوه ، ولم يبقَ معه إلا قلة ؛ وهزّتْ عليه

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢/٤٦٦) . قال عطاء : هذه الآية دليل على أن بكاء

المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً . فمن الخلق من يقدّر على ذلك ،

ومنهم من لا يقدّر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يغلى . كما قال جهم

إذا اشتبكت دموع من خلود تبين من يكى ممن فيلكى .

نفسه وعزاً عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتهم أن تفروا عنى نهاراً فالليل جاء وقد ستركهم ، فمن شاء فليذهب وانركونى »^(١) .

يقصر الحق سبحانه ما بدر منهم فؤد أن دخلوا على أبيهم

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْكَلْهُ الذَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا

صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ .. ﴿١٧﴾ [يوسف]

تعبير عن بيان تفوق ذات على ذات في حركة صا ، لنرى من

(١) ذكر ابن كثير في كتبه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن يصرف إلى الله في ثباته هذه فقد نذرت له فإن القوم إنما يريدوننى ، هذا قليل قد غشيتكم فانتفخوا صولاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتى ثم انصبروا في بسط الأرض في سواد هذا الليل إلى بلائكم ومناياكم فإن القوم إنما يريدوننى ، فلو قد أصابوني لهرأ من طلب عيرى ، فأنصبروا حتى يفرج الله عز وجل »

(٢) استقبلاً ثابراً ليسبق كل منهما الآخر واستيق النسيء مجري في الجرى نحوه للوصول إليه ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ (١٧) [يوسف] أى فتبارى في الجرى والسبق . ﴿ وَاسْتَعِذَّ الْآبُ ﴾ (٢٢) [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر ويقرب تعالى ﴿ فَاسْتَعِذَّ الْخَيْرَاتِ ﴾ (٢٣) [البقرة] تباروا في الوصول إليها أو لخطها قبل غيركم

سيسبق الآخر ، فحين يتسابق اثنان في الجرى ترى مَنْ فيهما سبق الآخر : وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق في حركة بركة ، كأن يمسك إنسان ببندقية ويصوبها إلى الهدف ، ويأتي آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ، ومَنْ يسبق منهما في إصابة الهدف يكون هو المتفوق في هذا المجال

وقد يكون الاستباق في لرمي بالسهم ، ونحن نعرف شكل السهم : فهو عبارة عن عُصْن مَرْدَن ، يلتوى دون أن ينفكسر ؛ ومُعْتَبَر عليه رتر ، ويوضع السهم في منتصف الرتر ، ليثبته الرامي فينطلق السهم إلى الهدف

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمي ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف»

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التي يقطعها السهم : فهذا لقياس قوة الرامي

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ، وكل ذلك حلال ، فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لعبة لا تُكْهِيه عن واجبه ، وقد تنفعه فيها بجد من أمور ؛ فإذا التقى بعدو تنفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب^(١) الذي لا يَنْهَى عن طاعة ، وينفع وقت الجِد هو لعب حلال .

(١) اللعب قد يكون مضموناً إذا لم يتعارض مع التكليم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يبهى الإنسان عن الرجايات فهو مضموم ، والله لا يكره إلا مضموناً

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول ، قد يوجد عدوان ، وبينهما قبلة موقوفة ، ويحاول كل طرف أن يبعده عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهِى لعب الكرة عن واجب ، فمثلاً حين يؤتى المؤمن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وابناء يعقوب قالوا .

﴿ رَقَوْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ^(١) .. ﴾ (١٧)

[يوسف]

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذي أذنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا .

﴿ أَرْسَلْهُ مَعَا غَدًا يَبْتَاعَ وَيَلْعَبَ .. ﴾ (١٨)

[يوسف]

وقالوا

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١٩)

[يوسف]

وقالوا

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِفُونَ ﴾ (٢٠)

[يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليبتاع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ، وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون

(١) المتاع يطلق على الكثير والقليل باعتباره مفسداً ويجمع على أمتعة باعتباره ما ينتفع به وبما يتمتع به قال تعالى : ﴿ ابْتَاعُوا حَيَاتِهِمْ مَتَاعِ ﴾ (١٧) [الرعد] وبيع أشياء ينتفع بها . وقال تعالى ﴿ رَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفْلَحُونَ عَنْ أَسْلَحَتِكُمْ وَأَمْسَكْتُمْ ﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام ولبوس لحرب ومال ونحو ذلك . القاموس التوحيدي

وهذا أول الكذب الذي كذبوه ؛ وهذه أول مخالفة لشروط إذن والده له بالخروج معكم ، ولأن «المريب يكاد يقول خذوني ، نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١٧) [يوسف]

أو أنهم قللوا ذلك لأنهم يعلمون أن والدهم لن يُصدقهم مهما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل « آمنه الله من الجوع » ، أو قوبه الحق

﴿ وَأَمَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) [فريش]

أو تجيء بالباء ويُقال « آمن به » أي صدق واعتقد

أو يُقال « آمن له » أي صدقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتحدِّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبيهم

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ

عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١) القيسى ما يحيط باليد وقد يُسمَّى شعاراً وما قوبه دثار ، وقد يُسمَّى كل ثوب قيسياً والجمع القمص والقمص وقمص [القاموس القويم ١٢٢/٢]

(٢) قال مجاهد كان دم سلة أو جدى ديموه وقال قتادة كان دم ظبية ، أي جاءوا على قيسيه بدم مكروب فيه وقرا الحسن وعائشة : « بدم كذب » بالذال غير المعجمة ، أي : دم حري وحكى أنه المقتير قاله الشعبي ، (تفسير القرطبي ٤/٣٤٧٦)

(٣) سولت مدسه له أمراً ذيلك له يقطعه وسول له الشيطان أغواه والتسويل تحسين الشيء وتزيين وتحبيبه إلى الإنسان يقطعه أو يقوبه ، [لسان العرب - مادة سول]

كَانَ قَمِيصَ يَوْسُفَ كَانَ مَعَهُمْ وَيُقَالُ يَنْ يَعْقُوبَ عَلَّقَ عَلَى
مَجِيءِ الْقَمِيصِ وَعَلَيْهِ الدَّمُ الْكَذِبُ بِأَنَّ الذَّنْبَ كُنْ رَحِيماً ، فَأَكَلَ لَحْمُ
يَوْسُفَ وَلَمْ يُعْزَقْ قَمِيصُهُ ، وَكَانَ قَدْ عَرَفَ أَنَّ هُنَاكَ مَوَاسِمَةً
سَيَكْشِفُهَا اللَّهُ لَهُ ^(١) .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص .

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفي أواسط السورة ^(٢) تأتي مسألة قميص يوسف بن كان قد شقَّ
من دُبُرٍ لحظةً أَنْ جَذِبَتْهُ امْرَأَةٌ الْعَزِيزُ لِنَرَاوَهُ ^(٣) عَنْ نَفْسِهِ

وفي آخر السورة ^(٤) يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد
بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء ؛
والمثل هو قول النحاس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٧٦/٤) ، أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا تَأَمَّلَ الْقَمِيصَ فَلَمْ
يَجِدْ فِيهِ حَرَقًا وَلَا أَثَرًا اسْتَعْلَلَ بِذَلِكَ عَلَى كَذِبِهِمْ ، وَقَالَ لَهُمْ : مَتَى كَانَ هَذَا الذَّنْبُ حَكِيمًا
يَأْكُلُ يَوْسُفَ وَلَا يَحْرِقُ الْقَمِيصَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ :

(٢) وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي رَجَعْتُ رَجْعًا شَاعِدٌ مِّنْ أَمَلِي إِذْ كَانَ قَمِيصُهُ فُدًى مِّنْ قَبْلِ
لَعْنَتِي رَجَعْتُ رَجْعًا مِّنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٥) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ فُدًى مِّنْ دُبُرٍ فَكَيْفَ رَجَعْتُ رَجْعًا مِّنَ الْمُنَادِلِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

(٣) رَاوَدَهُ عَلَى الشَّيْءِ : رَاوَدَتْهُ طَلَبَتْهُ مِنْهُ بِجَهْدٍ وَحِيلَةٍ وَمَسْلُومَةٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَرَاوَدَتْهُ
الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا مِنْ نَفْسِهِ ﴾ (٢٦) [يوسف] أَيْ : طَلَبَتْ مِنْهُ نَفْسُهُ فِي مُحَاوَلَةٍ وَمُضَايَعَةٍ .
[القاموس القريم ٢٨١/١ بتصرف]

(٤) وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِإِخْوَتِهِ ﴿ أَتُخَذُّونَ الْقَمِيصَ مِنَّا فَآتُونَا
عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. ﴾ (٢٧) [يوسف]

رضى الله عنه أن معاوية أمسك قميص عثمان بن عفان طالباً للخيار من على ، فقيل «قميص عثمان ، رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من عبي بن أبي طالب رضى الله عنهم أجمعين

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ^(١)﴾ . (١٨) [يوسف]

وكان القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب من جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصنوع للمبالغة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ، مثلما تقول « فلان عادل ، ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عدل ، أى كان العدل تجسّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شر » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يوصف الدم بأنه دم حقيق ؟

نقول نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ، وتلوّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول : أنا كذاب .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ، كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارج ، ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

(١) هذا أسلوب الإيجاز البلاغى ، وفيه إشارة إلى قضية ملغلة .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكن أنيابه قد مرقت لقميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم : أشار أحدهم خفية للباقيين وقال لهم همساً - قولوا لأبيكم إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ نسمع يعقوب الهمس فقال - اللصوص أحوج لقميصه من دمه^(١) ، وهذا ما تقوله كتب السير.

وهذا ما يؤكد دراسة يعقوب ، هذه الدراسة^(٢) التي يتحلى بها أي محقق في قضية قتل ، حين يُقَبِّب أسئلته للمتهم ولشهود ، لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

وبذلك يقال . « إن كنت كدوباً فكُنْ ذكُوراً »^(٣)

ويأتي هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨)

« والسَّوَّلُ » هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

(١) بكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٤٧٢) محاولات أبناء يعقوب تبرير ما حدث واستكشاف أمرهم أمام أبيهم بفراسته فقال « روى عنهم قالوا له بل اللصوص قتلوه ، فختلف قولهم فأنههم ، فقال لهم يعقوب ترعسون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وترعسون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه هل يريدون إلا ثيابه » .

(٢) الدراسة في النظر والتثبت والتأمّن للشيء والبصر به ولها معنيان فالهما بين الأثير أبعدهما ما يؤتمنه الله تعالى في قلب أوليائه فيطمئن أحوال بعض الناس بدور من الكرامات وصابة الطار والحدس

التامس : نوع يُعْطَم بالدلائل والنجارب والمُطَلَق والاخلاق ، فتُعرف به أحوال الناس ، نظمه ابن بطرير في [لسان العرب - مادة - فرس]

(٣) الذكر الحفظ للشيء تذكره ويدخل ذكره جيد الذكر والحفظ والذكر والتذكر ، نقيض النسيين والتذكر تذكر ما أشيئه [لسان العرب - مادة - ذكر]

مشددة : ثم يحب أن يسترحى ، ليستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد في نفسه شيئاً من اليسر في بدنه وتبضعه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

هذه بمعنى يسَّرت وسهَّلت ، وما دامت قد سَوَّلَتْ لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف استقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر

﴿ لَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطیاد خطأ في القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون اصبر جميلاً ؟ » .

نقول هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه « اصبر عن كذا » إذا كان الأمر عن شهوة قد ثورت إيلاماً ، كان يُقال « اصبر عن الحمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الريا » .

ويقال « اصبر على كذا » إذا كان الصبر فيه إيلام لك ، والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَأَصْحَابُكُمْ هُمْ^(١) هَجَرًا جَمِيلًا (٦٩) ﴾ [الزمر]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب في القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله وفهمه ؛ وقد بين لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [يوسف]

(١) هجرة يهجرة هجراً وهجراناً تركه مع سخط ونفور قال تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٢) ﴾ [المدثر] أي اترك الرجز كله بافراً منه كلها له ، وهذا الأمر بالنسبة للرسول ﷺ معناه شئت على هجرة لأنه لم يفعل رجراً . وقوله تعالى ﴿ وَأَصْحَابُكُمْ هُمْ هَجَرًا جَمِيلًا (٦٩) ﴾ [الزمر] أي اتركهم وابعد عنهم في سمحة بغير إيذاء [القاموس القويم ٢/ ٢٩٨]

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للرب ؛ وشكوى من قدر الرب .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ لَصِيرٌ جَمِيلٌ ^(١) .. (١٨) ﴾ [يوسف]

ويتبعها .

﴿ وَاللَّهُ الْمُتَعَمِّدُ عَلَى مَا نَعْبُدُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

كان الصبر الجميل أمر شاق على النفس البشرية ، ولم يكن محبوب قادراً على أن يُصدق ما قاله أبناؤه به ، فكيف بُصدق الكذب ؟ كيف يمكن أن يواجه أبناؤه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه ، لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال

أقولُ لنفسي تأساء وتعزيةً إحدى يدي أصابتنِي ولم تُردِ
كلاهُمَا خلفَ عَنْ فَقْدِ صاحِبِهِ هذا أخى حين ادعوه ودأ ولدي
ومثل هذه العواطف تكون صعبة وتتطلب لشفقة لأن من يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعرُّ من خلق الله ، ولا بد أن يفرع فيها الإنسان إلى الله ، ولذلك علمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ^(٢) ؛ وحزبه أمر

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ، والتفويض لمن بيده الأمر من مفهوم حواطر الإمام .

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

ما يعنى . أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى
المُسَبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام .

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعنى : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون
شيئاً لا يصادف الواقع . مثل قوله تعالى

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ ^(١) أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هُنَا حَلَالٌ وَهُنَا حَرَامٌ .. ﴾
(١١٦) [التحل]

أى : أن ألسنتكم نفسها تصفُ الكلام أنه كذب .
والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) [الصافات]

وتعنى أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما
قالوا ؛ وكان مصير كتبهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبِّرْ جَمِيلًا ^(٢) وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨١) [يوسف]

وهكذا عَبر يعقوب عليه السلام عن نفسه ' قالجوارح قد تكون
ساکنة ' لكن القلب قد يزعم بالهجوم ويفتقد السكون ' لذلك لا بد
من الاستعانة بالله .

(١) وصف الامر تذكره وعرفه وتحدث به قال تعالى ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ (١١٦) [التحل] أى تذكره وتقلوه وقال تعالى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) [الصافات] أى من الوصف الذى يصعبه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو خيم لك .
وقال تعالى ﴿ سَجِّلْ لَهُمْ وَصْنَهُمْ ﴾ (١٧٩) [الانعام] أى جزاء وصفهم وعقابهم
[القاموس اللزيم ٢٢٩/٢]

(٢) الجمال البهاء والحسن بوصف به الحسن والمعنى . قال تعالى ﴿ فَصَبِّرْ جَمِيلًا .. ﴾ (١٨١) [يوسف] وهو جمال معنوى . وقوله ﴿ لاصْبِرْ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ﴾ (٨٥) [الحجر] الذى لا لوم
معه ولا عتاب والسراج الجميل الطلاق المصحب بالإحسان إلى المطلقة وصحتها حقوقها
كاملة وبشير بئانه وقوله ﴿ وَاصْبِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (١٠) [الزمل] لا إلهاء فيه بقول أو عمل
[القاموس اللزيم ١٢٨, ١]

وقد علمنا الحق سبحانه أن نقول في ناتحة الكتاب :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) [الفتحة]

بأنت نقف بعبادة الله وبين يديه ، لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة
أنفء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بحاقتك لتخلص في عبادتك .

ويعبد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده . نأتي
لموقف يوسف عليه السلام في الحب .

يقول سبحانه

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ
يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِمَا يَمْشَرُونَ﴾ (١١)

(١) السيار : الجماعة المسافرة المسافرة . قال تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف] أي
جماعة مسافرة . وقوله تعالى ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [الملك] للمسافرين [القاموس
القيوم ١/ ٣٤٠]

(٢) ورد الماء إذا حضوته لغشوب . وورد الماء الذي تروى عليه والوردة ورواد الماء
والورد الورود وهم الذين يروون الماء . لسان العرب - مادة ورد [ورد الماء
قصده ويلقه ويصل إليه

(٣) الدلو الوعاء الذي يخرج الماء من البئر ومصوبه . قال تعالى ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾
[٥١] [يوسف] أي أرسل في البئر ليجري منه ماء [القاموس القويم ١/ ٢٢٩]

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٧٥/١) : في معناه هؤلاء
أسماء اسم الغلام

الثاني يا أيها البشري هذا حينك وارثك قال قتادة بشر أسماء بكه وجد عينا
قال العسدي نادى رجلا اسمه بشري قال النحاس قول قتادة أولى ، لأن لم يأت في
القرآن تسمية أحد إلا يسيرا قال القرطبي وهذا أصح لأنه لو كان اسما لعلم لم يكن
مضافا إلى ضمير المتكلم .

(٥) أسروا الأمر والعيش أجفوت . وأسر إليه الحديث . التاء إليه سرا ولم يطلع عليه أحد
حمة وقوله ﴿وَأَسْرُوا النِّدْمَةَ﴾ [٤٥] [يوسف] أسروها من سدرهم ومن سراتهم
وقوله في قصة يوسف ﴿وَأَسْرُهُ بِضَاعَهُ﴾ [٥٥] [يوسف] أسره وقوله ﴿نَسْرُونَ
إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ [١٣٦] [المتحنة] أي يسرون إليهم أبناء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة
بينكم . وهو تكييف وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تحضرن المودة لهم ، أي تجعلون مودتهم
لهم سرا ، وتحفونهم عن المسلمين ثقلا وجعلا [القاموس القويم ١/ ٢١٠]

ولم يَنْقُرِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسيير ، مثل مَنْ كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف ، بهدف التجارة وحُكِّب البضائع

وكانت السيارة لا تنقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد منهم إلى البئر ، يأتى لهم بالعمياء ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى نَلْوه في البئر ، ويسمى حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف في الحبل : فاحسُّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ، وجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى

﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ .. ﴾ (١٥)

[يوسف]

أي أنه يقول يا بشرى هذا أوائك ، وكأنه يبشر قومه بشيء طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً

ويقول الحق سبحانه

﴿ وَأَمْرُهُمْ بَعْضَةٌ .. ﴾ (١٦)

[يوسف]

أي أنهم أحفره وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشى بجانبهم؛

خشية أن يكون عبداً أبقاً^(١) ويبحث عنه سيده ، وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.. (١٦)﴾ [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسروه بصاعة ، وهم الذين عرصوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا

فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ، ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أى . أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى : بثمن رهيد ، وكانت العبيد أيامها مقومة بالنقود .

والبخس أى : النقص ، وهو إما فى الكم أو فى الكيف ؛ فهو يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد فى عمر يوسف يُقوّم بالنقد ، وهم باعوه بالبخس ، وبثمن أقل قيمة إما كمّاً وإما كيفاً .

(١) أبق يابق : عذب من ماله ، قال تعالى ﴿إِذْ لَبِىَّ إِلَى اللَّهِ فَمُضِنٌّ (١٦)﴾ [الصافات] جعل تراه يوتس عليه السلام قومه إباحاً لأنه ممنون لله وللرسالة التى كلله الله أن يقدم بها [القاموس القويم ٤/١] .

(٢) بخصه حقه بخصاً : نقصه حقه ولم يؤدّه ، قال تعالى ﴿وَلَا تُخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (٢٠)﴾ [الأعراف] والثمن البخص : القليل التناقص عن مثله ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ (٢٠)﴾ [يوسف] وقوله ﴿وَلَا يَخَافُ يَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٧)﴾ [النجم] أى : لا يخاف نقصاً ولا ظمناً [القاموس القويم ٦/١]

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال .

﴿ ذُرَاهِمٌ مَّعْدُودَةٌ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠) [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية النفس البخس : فهم قد خافوا أن يبيح عنه أبوه أو صاحبه ، وكانهم قالوا لأنفسهم ، أى شيء يأتى من ورائه فهو فائدة لنا^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّأَتِي وَأَكْرَمِي
مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ مَوْلًى وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٧٩/٤) ، قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف] فيه الصراط [خوته وقيل العيلة] وقيل الواردة وعلى أى تفسير فلم يكن عندهم شيئاً أى أن يوسف لم يكن مصدر سرور لأحد منهم ، لا عند الإخوة ، لأن المقصد رواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السبارة لقول الإخوة إنه عبد أبى ما - والزهد فى الرغبة - ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أمساجهم معهم ، ودأوا أن القليل من شيء على الانفراد أولى ،

(٢) نوى المكان ، ونوى به يتنوى حظه وإقام فيه واستقر به ، فهو متعدد ولازم واستعمل فى القرن اللازم فقال ﴿ وَمَا كُنْتُ تَابِعاً لِي أَهْلِ مَثْوَى ﴾ [التيسير] أى مقبلاً عندهم والمثوى اسم مكان أو مصدر ميمي - قال تعالى ﴿ أَكْرَمَى مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف] أى إقامته أى أكرمى يوسف وعبر باسم المكان عن الحال فيه مجازاً منسلاً من علاقة المسبية [الناموس القرين ١١٢/١]

وكان للشراء علة ، فهو قد اشتراه لامراته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، ويقول أغلب السير إن من اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا العسار الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعود أن تحمله ربة البيت وتقبله ، وتفقد عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تستغ عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسياقاً ، فقد يقع المحذور ويدخل في متاهة الخطيئة

ويقول لحق سبحانه

﴿ وَقَالَ الْبَنَى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَا أَوْ تَخْذُهُ وُلْدًا ۖ ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهذا يعنى أن يعنى بالمكان الذي سيقم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضى أن تعتنى بالولد نفسه ، على رجاء أن ينتفع به الرجل ورجته

واسائل أن يقول كيف يسفع به الرجل ، وهو عرير مصر ، والكُلُّ في خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفع الموصول بعاطفة من ينفع : وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عرير مصر ، عندما ينشأ يوسف كأمين لرجل وزوجه ، وكإسنان تربى في بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحَمَّلاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل

[يوسف]

﴿ أَوْ تَتَّخِذْهُ وَلَدًا ۖ ۞٢٦ ﴾

وقد علمنا من السِّيرِ أنهما لم يُدْرَقَا بارِلاد^١ .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞٢٦ ﴾

[يوسف]

وقد بدأ التمكين في الأدهم من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ، وليعلمه الله تأويل الحديث ، بأن يهبه القدرة على تفسير الرؤى والأحلام : وليقلب الله على أمره

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام قسيِّعَرفون أن مرادهم قد خاب ، وأن مراد الله قد غلب ، بإكرام يوسف ، وهم لو علموا ذلك لَضُصُّوا عليه بالإلقاء في الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .
ولذلك نقول - إن الظالم لو عَلمَ ما أعدَّه الله للمظلوم لَضُصَّ عليه بالظلم

وساعة يقول الحق سبحانه .

[يوسف]

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ۖ ۞٢٧ ﴾

فهذا قول نافذ ، لأنه وحده القادر على أن يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليورد على مراده .

(١) « قال ابن عباس : كان حصوراً لا يؤلد له ، وكذا قال ابن إسحاق : كان قنطير لا ياتى النساء ولا يؤلد له . فليس قيل كيف قال (أَوْ تَتَّخِذْهُ وَلَدًا) . وهو ملكة ، والوردية مع العبدية تناقض ؛ قيل له : يعتقه ثم يتخذ ولدًا بالتمس ، وكان الثبني في الأمم مطوما عنهم ، وكذلك كل في أول الإسلام » ذكره القوطبي في تفسيره (٢/٢٤٨٢)

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو^(١) ، وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ، فهو وحده الذي له اسمك ، وهو وحده القادر على كل شيء

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يُحططوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قُيُوم^(٢) ، لا تأخذه سنة^(٣) ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لعلموا أن الله يملك بحق من يُظلم فريق الذي ظلمه .

ورأسنا في حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس ، وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ، وأشد هولاً من مصيرهم لو تحكم فيهم من ظلمهم

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

(١) وذلك قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قلنا يا آدم اسبغْ لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (آل عمران)

(٢) القُيُوم والقيام من صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه في إنسانهم وورثهم وطمه بامتثالهم وقال قتادة الغيوم القائم على خلقه بأجلالهم وأعمالهم وأزاقهم [لسان العرب مادة قوم]

(٣) ومن يؤنس سنة ، نام نومة خفيفة ، السنة لفعلته قال تعالى ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ (البقرة) أي لا تأخذه نومة خفيفة ولا أي نوم ، أو لا تأخذه غفلة عن أي شيء ولا نوم من أي نوع فكل أو خف كثر أو قل [القاموس القريم ٢/٢٢٨]

(٤) قال القرطبي في التفسيره (٢٤٨١/٤) : معناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد وقال مجاهد وقاعدة الأشد ثلاث وثلاثون سنة قال ربيعة ورید بن اسم ومالك بن أنس الأشد بلوغ النعم .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى

﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ۝٢٢ ﴾

[يوسف]

أى وصل إلى غايته في النضج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ » أخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ قَوْراً أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ؛ وَيَصِيرُ فِي قَدْرَةِ أَنْ يَنْجِبَ إِنْسَاناً مِثْلَهُ .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش في بيت ممثلي بالخيرات ، فهذا البلوغ إن لم يَكُنْ محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة^(١) ، ولهذا فقد حرصه الحق بالحكمة والعلم

والحكم هو الفاصل بين قصيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ، وما دام قد أعطاه الله الحكم ، فهو قادر على أن يفصل بين انصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذي يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذي سيكون منه تاويل الرؤى^(٢) ، وغير ذلك من العلم الذي سوف يظهر حين يؤلى على خزانة مصر

إذن ، فهنا بلغ يوسف أشده وحرصه الحق بالحكمة والعلم

ويُذِيلُ الحق سبحانه هذه الآية بقوله .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٢٣ ﴾

[يوسف]

وكل إنسان يُحْسِنُ الإقَامَةَ لِمَا هُوَ فِيهِ ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

(١) الرعونة الجمع والاسترخاء والأرض الأفواج في منطقه [لسان العرب - مادة رعن]

(٢) الرؤى جمع رؤيا وهي ما تراه في منامك رؤى بمعنى اعتقد وبمعنى عرف ورأى في منامه رؤيا حكم والرؤيا العلم في المنام [القاموس القويم ٢٥٠/٦]

الحُسْنُ ، والمثل . حين لا يَنَامِي فليُفِرْ على قَدَرِ الله أن جعله قَتِيرًا ،
ويحاول أن يُحَسِّنَ وَيُتَقَنَ ما يعمل ، فيوضح الله بِحُسْنِ الجِراءِ أنت
قبلت قدرِي ، وأحسنتَ عَمَلَك ؛ فَخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء
الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

لا يطبق على يوسف وحده ، بل على كل من يحسن استقبال قدر
الله ؛ لأنه سبحانه ساعته يَأْتِي بِحُكْمٍ من الأحكام ، وبعد ذلك يعمم
الحكم ، فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام .

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها فإنه يقرر
بعدها أن كل مُحْسِنٍ يعطيه الله الحُكْمَ والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة^(١) ،
وهنا بدأت متاعبه فى القصر ، ففى طفولته نظرت إليه امرأة العزيز
كطفل جميل ، فم يَكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها

أما بعد البلوغ فتجد حالها قد تغيّر ، فقد بدأت تدرك مفاتنه ؛
وأخذ خيائها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب لوجدان

(١) الفتاء الشباب والفتى والفتية : الشباب والشابة قال الفتيبي ليس الفتى بمعنى الشاب

والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجَزء من الرجال قال الشاعر

بِأَ الْفَتَى حَمَلُ كُلِّ كَمَّةٍ لَيْسَ الْفَتَى بِمَنْعَمِ الشُّبَّارِ

[لسان العرب - مادة فتا]

بالعاطفة المشبوبة^(١) ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتي النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ، لما حدثت العواية بالإدراك والوجدان

وهذا يعطينا على غرض لبصر عن المثيرات الجنسية ، لأنك إن لم تغض البصر أدركت ، وإن أدركت وجدت ، وإن وجدت نزعت إلى الزواج أو التعديف بالكث في النفس ، ومعيش اضطراب القلب والتوتر ، وإن لم تتعفف عريت^(٢) في أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدى النساء زينتهن إلا للناس حدهم الحق سبحانه في قوله تعالى .

﴿ وَلَا يَبْدِي زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ^(٣) أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ^(٤) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الصِّبْيِ الْمَدِينِ لَمْ يَضَاهُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٥٦) ﴾ [النور]

(١) شبه النار والحرب أرقها وشبه النار اشتعالها قال أبو حنيفة حكى عن أبي عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شبهت النار وشبهت في نفسها ، قال ولا يقال : شأباً ، وبكى مطبوعة [لسان العرب - مادة : شيب]

(٢) رجل عريء وعرييد ومعريد : شزير مضارٌ ويقال للمعريد عرييد ككلمة شبه بالحية [لسان العرب - مادة : عريد]

(٣) البعل الزوج والزوج هو مصدر سمي به بلفظه ملا يؤمن ، ويجمع البعل بعور قال تعالى في قرآنه ﴿ وَهَذَا بِأَيِّ شَيْءٍ ﴾ (٥٦) [عبد] وقال ﴿ رِبْعُوهِنَّ أَهْلُ بَرْدِهِنَّ ﴾ [البقرة] أي : وأروجهن أحمق بردهن بعد الطلاق الرجعي - وبعد طلاق بائنة لو طلقن بائنتين بعد جديد [القاموس القويم ٧٦/١]

(٤) الأرب : الحاجة التي تلتزم الاحتياج لها ، وكذلك الأربة والعارب ، قال تعالى ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الصِّبْيِ الْمَدِينِ لَمْ يَضَاهُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، أَي : ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو مسهرهم - [القاموس القويم ١٧/١]

أى الذى بلغ من العمر والشيخوخة حدا لا يحطه يفكر فى
الرجبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى
فتوته ، بعد أن بلغ أشده نظرة مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى
قوله

﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ بِئْرِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّتِ الْأُتْرَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوًى
إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣)

وساعة تسمع «رود» فافهم أن الأمر فيه حنازة مثل : « فاعل »
أو « تفاعل » ومثل : « شارك محمد عليا » أى . أن عليا شارك محمداً ؛
ومحمد شارك عليا ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمرأودة مطالبية يرفق ولين بسقر ما تريده ممن تريده ، فإن
كان الأمر مسهلاً . فالمرأودة تنتهى إلى شيء ما ، وإن تأبى الطرف

(١) خلق الباب يخلق فلان ، أو سيد مثل امرأة . وقلفه بالضعيف العبالفة فى إغلاق الأبواب
وإحكامها . كقوله تعالى ﴿ وَغُلَّتِ الْأَبْوَابُ .. ﴾ (٢٢) [يوسف] أى أحكمت إغلاقاتها لتأمين
على نفسها من الداخلين . [القاموس القويم ٢/ ١٩]

(٢) حياة النفس أعد وجهه ريسه . قال تعالى ﴿ وَتَمَنَّى لَهَا مِنْ ثَمَرَاتِهَا ﴾ [الكهف] أى
يسر بها من أمرنا طريق الرشاد والحق رفعت للأمر أعيدت نفسى له ، وقرئ فى
سورة يوسف عليه السلام (وهت لك) أى أعيدت نفسى لك و (هيت) اسم فعل
أمر بمعنى أقبل وتعال ، قال تعالى ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. ﴾ [يوسف]
والمعنى أقبل واللام للتعجب ، أى أدعوك لتقبل أو الدعاء لك [القاموس القويم
٢/ ٢٦١ ، ٢٦٢]

الثاني بعد أن عرف المراد ؛ فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كنت تصبو^(١) إليه .

وهكذا راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أي : طالبت برفق ولين في أسلوب يخدعه ليُخرجه عما هو فيه إلى ما تطلبه

ومن قبل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشده فقد اختلف الأمر ، وانفرض أنها طالبت أن يحضر لها شيئاً ، وحين يقدمه لها تقول له : لماذا تقف بعيداً ؟ ، وتدعوه ليحلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع انفكاك ، لأنه في بيتها ، وهي مُمكنة منه : فهي سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات : فهو قد قربى في بيتها ؛ وهي التي تتلطف وترقى معه ، وقهم هو مرادها .
وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بادب راقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ رَغَلَتْ الْأَبْوَابَ .. ﴾ [يوسف] [٢٣]
وكلمة ﴿ رَغَلَتْ الْأَبْوَابَ .. ﴾ [٢٣]

توضح المبالغة في لحدث ، أو لتكرار الحدث ، فهي قد أغلقت أكثر من باب ، ونحن حين نحرك المزلاج^(٢) لنزك غلق باب ، وبحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غلق الباب

(١) صبا يصبو مال واحب قال يوسف عليه السلام ﴿ وَالْأَصْرَفُ نَبِيٌّ كَذِبٌ أَحْبَبَ إِلَيْهِ وَأَمْرٌ مِنَ الرُّطَلِ ﴾ [يوسف] أي : أمر البهيم والفعل ما يُخرِجنِي به ، وصبا إلى الفجر حن واشتاق إليه وصحب . [القاموس القويم ٢٦٨/١]

(٢) غزلج والمزلاج مفلاق الباب ، سمي بذلك لسرعة انزلاجه ، وقد أزلجت الباب أي أغلقتها والمزلاج المفلاق إلا أنه يفتح باليد ، والمفلاق لا يفتح إلا بالمفتاح [لسان العرب - مادة زلج]

فهذه عملية أكبر من غلق الباب ، وإذا أصفنا مزلاجاً جيداً نكون قد أكثرنا لإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نصف ما فعلنا أنه غلقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فقصص العظماء بها أكثر من باب . وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليكفي لعظيم الذي جاء ليقابله

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبيع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق

هذا القصر الذي سبق أن رآه عمر بن الخطاب ، ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب^(١) أنها أبهة^(٢) ضرورية لإبراز مكانة الحرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكت عنها عمر^(٣) .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقي معاوية قوفاً للدخول ، لكن الحرس اصطعبه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينقل قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضن عليه بمناداته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال .

(١) الأريب العاقل ، والإريب والارب الدهاء والبصر بالأسور ، وهو من العقول وصل الإريب الدهاء والمكر [لسائر العرب - مائة أريب]

(٢) الأبهة العظمة والبهاء والأبهة العظمة والكبر . ورجل ذو أبهة أى ذو كبر ومظنة [سائر العرب - مائة أبهة]

(٣) تذكر أبو علي القاسم في أماليه (١٣٦/٢) . قال الحميري بن شعبة كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول هذا كسرى العرب .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

نظمت مغاوية إلى أن الرجل يرضى مبايعته

ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها ؛ فنجد أن امرأة العزيز قد علقت الأبواب ؛ لأن من يفعل الأمر القبيح يعم قبح ما يفعل ، ويحاول أن يستتر لعله ، وهي قد حاولت ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في التصر ، وحدثت المراودة وأخذت وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يستجب لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ . . (٢٣) ﴾ [يوسف]

أي ، أنها انتقلت من مرحلة المُرَاوِدَة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل ؛ بأن قالت : هياتُ لك ، وكان ردّه

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ . (٢٣) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيز به ، وأنت لا تستعيز إلا إذا خارت أسبايك أمام الحدث الذي تمرُّ به علَّك تجد مَنْ ينجيك ؛ فكان المسألة قد عزّت عليه ؛ فلم يجد معاذاً إلا الله

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبي ﷺ عقد على ابنة ملك^(١) ، كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت
بعض من ساء النبي بالعيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة
رضي الله عنها إن تزوجها ودخل بها قد يفضلها عناً . وقالت
للعروس إن النبي يحب كلمة ما ، ويحب من يقولها^(٢) فسالت الفتاة
عن الكلمة ، فقالت لها عائشة إن اقترب منك قولي : أعود بك
منك . .

فنادى رسول الله ﷺ وقال : تدعونني بمعاذ ،^(٣) وسرحها
السراح^(٤) الجميل .

وهناك في قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت
لحظة أن تمثل بها الملاك بشراً سوياً^(٥) :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴾ (٦٨) [مريم]
فهي استعاضت بمن يقدر على إنقاذها .

(١) جاء في الطبري أنها ملكة بنت داود القليشية (١٢٢/٢) أو شاطمة بنت السمعك الكلابية (١٢٩/٢).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٢٥٩/٩) : وقع عند ابن سعد (في الطبقات) أن عائشة
وحفصة دخلتا عليها أول ما قدمت فمضطهما وخضبتاهما وقالت لها إحداهما إن النبي ﷺ
يعجب من المرأة إذا دخل عليها أن تقول أعود بك منك .

(٣) أخرجه البيهقي في صحيحه (٥٢٥٤) كتاب الطلاق من حديث أبي أسيد رضي الله عنه

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق ﴿ فَتَحَاتَيْنِ أُنْفُسُكُنَّ وَأَمْرُكُمْ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴾
(٦٨) [الأحزاب] أي طلاقاً حسناً ليس فيه كبر ولا إيذاء [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

(٥) السوى من الرجال - من ليس في خلقه عيب وليس في يده عرض ولا آفة ، فقله ﴿ فَلَمَّا

رَبَّاهُمْ لِي آيَةً قَالَ لَيْتَكَ أَتُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ أَيَّامٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم] أي حاله كونه كامل

الخلق لا خدس بك ولا يكسر ولا أي عجز . وقوله ﴿ لَمَجْمَلٌ لَهَا بِشَرًّا سَوِيًّا ﴾ (٦٩) [مريم]

مستوى الخلق في صورة إنسان كامل جميل وخير [القاموس القويم ٢٢٩/١] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مَقْرَئِي ^(١) إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ (٢٢) ﴾

[يوسف]

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين .

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحت ما تريد

والمعنى الثاني : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أَنْجَاهُ مِنْ كَيْدِ إِخْوَتِهِ ، وَنَجَّاهُ مِنَ الْجُبِّ ، وَهَبَا لَهُ أَفْضَلَ مَكَانٍ فِي مِصْرَ ، لِيَحْيَا فِيهِ وَمِنْهُ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ مَعَ بُلُوغِهِ لِأَشَدُّهُ .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا

أو أنه قال . ﴿ أَحْسَنُ مَقْرَئِي .. (٢٣) ﴾

[يوسف]

لِيُذَكِّرَ امْرَأَةَ الْعَرِيدِ بِأَن لَهَا زَوْجًا ، وَأَنَّ هَذَا الزَّوْجَ قَدْ أَحْسَنَ لِيُوسُفَ حِينَ قَالَ لَهَا :

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢٤) ﴾

[يوسف]

فالصعوبة لا تأتي فقط من أنها تدعوه لنفسها ، بل الصعوبة تزداد سوءاً لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكْرِمَ يوسُفَ ، وتُخْذِرَ له مكاناً إقامةً يليقَ بابن ، ولا يمكن أن يُسْتَقْبَلَ ذلك بالجهود والخيانة

وهكذا يصبح قول يوسف . ﴿ إِنَّهُ رَبِّي .. (٢٥) ﴾

[يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر

(١) المشرى اسم مكان أو مصدر ميمي ، قال تعالى ﴿ وَبَيْنَ مَقْرَى الظَّالِمِينَ (١٦) ﴾ [ال

صافات] اسم مكان فصب به النار ، وقال تعالى ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢٤) ﴾ [يوسف] أي

اقامته أي أكرم يوسُفَ وهدى باسم المكان من الحال فيه مجازاً مرسلًا علاقته

المجارية ، [القاموس القويم ١/ ١١٢]

وذلك مِيزَةُ أسلوب القرآن : فهو يأتي بحارة تتسع لكل مناطات
الفهم ، فما دام الله هو الذي يُجَازِي على الإحسان ، وهو مَنْ قال في
نفس الموقف

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢١) [يوسف]

فمعنى ذلك أن مَنْ يمسى يأتى الله بالصد : فلا يَفْجَح ، لأن
القضيتين متقابلتان

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢) [يوسف]

و ﴿ لَا يَفْجَحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ،

﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهَا ^(١) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا ^(٢) أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ^(٣) ^E

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ^(٤) ﴿٢٤﴾

(١) هم بالفعل بهم به معاً : قصده واتجه إليه بنية ولم يفعل ، قال تعالى ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّنْ سَاطِرًا ﴾ [يوسف] ﴿ ٢١ ﴾ [المائدة] أى : عرسوا واتجهت نيتهم إلى حركهم والتعدى عليكم ولولاكم فكفهم الله ، وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهَا ﴾ [يوسف] ﴿ ٢١ ﴾ معتم به : هم غزم ونصميم وهم بها هم ترك وعراض ومقلوبة أى : هم بمقلوبها والله أعلم [القاموس القويم ٣٠٧/٢ بتصرف]

(٢) البرهان : الحجة البينة الفاصلة ، قال تعالى ﴿ قُلْ عَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة] ولوله ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف] [يوسف] أى : لولا أن رأى حجة ربه التي ثبتته على الحق وحسنه عما هم به - أو لولا أن رأى برهانه ربه ، أى الدليل على قنوم سيده وحضوره . وقدر الله مجيء سيده إلى البيت في هذا الوقت لينصرف عنه السوء

[القاموس القويم ٦٥/١]

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً ذليلاً طاهراً وأسم المفعول : مخلص ، بفتح اللام . قال تعالى ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف] [يوسف] أى : الأصفاء الاتقياء المطهرين [القاموس القويم ٧٧/١]



والهم هو حديث النفس بالشئ ، إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه .
ومن رحمة ربنا خلقه أن مَنْ هم بسيئة وحدثته نفسه أن يفعلها :
ولم يفعلها كتبت له حسنة^(١) .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المرادة التي كانت منها ،
والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُقابلة بين اثنين
يصطارعان في شئ

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . (٢٤)﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين
قالت « هيت لك » وكذلك بين موقف يوسف عليه السلام حين قال
يوسف « معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً : وثساوى في حديث
النفس : لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه

ويكون فهمنا للعبارة « ولولا أن رأى برهان ربه لهُمَّ بها » ، لأننا
نعلم أن « لولا » حرف امتناع لوجود ، معطفاً نقول ، لولا زيد عندك
لايتيك

ولقائل أن يقول ، كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع
عن الاثنين يقولون إن الهم قد وُجد منه ؟

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بسيئة فلم يفعلها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة لم يفعلها كتبت له عسراً إلى سبعمائة ضعف » ومن هم بسيئة فلم يفعلها لم تكتب ، وإن فعلها كتبت ، أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٠) كتاب الإيمان (حديث ٢٠٦)

ولماذا لم يَقُلْ الحق . لقد هَمَّتْ به ولم يهتم بها ، حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول . لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطة المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازح للعمل ، وإن لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عَنِين^(١) أو خَصَاه موقف أنها سيديته فخارت قواه

إذن . لو قال الحق سبحانه إنه لم يهتم بها ، لكان المانع من الهمِّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر صارى لأنها سيديته فقد يمنعه لحياء عن الهمِّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً . وهو قد بلغ أشده ونُضجُه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لتقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضيَّعت رجولته بغته^(٢) ، مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف حين لا يستطيع أن يقرب عروسه ، وتعر أيام إلى أن يستعيد توازنه ويقرب عروسه

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهمِّ على الإطلاق ، ومن غير شيء . لَقَالَ . ولقد هَمَّتْ به ولم يهتم بها .

(١) العنين الذي لا يلقى النساء ولا يبرهن بين الحانة وعش عن امرأته إذا حكم القاضي عليه بذلك أو منع عنها بالمعسر . وامرأة هينة كذلك لا تريد الرجال ولا تهتويهم وسعى عينا لأنه يعز ذكره لقبل المرأة من عن يمنة وشمال فلا يقصده . [لسان العرب - مادة عن]

(٢) يفتة بفتة ويفتة فاجاء على غرة وغلة . قال تعالى ﴿ فَأَخَذْتُمُ بَغْضًا وَمِمَّا لَا يُغْنُون ﴾ [الأعراف] والبخاضة المفاجأة والبغتة الفجأة . وهو أن يلبسك الشيء . [لسان العرب - مادة بفت]

ولكن مثل هذا القبول هو نقى للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، بجواز أن يكون عدم الهمّ راجعاً إلى نقص ما ، وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجعيلات للأسرة التي يعمل عندها ، ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات

ومن لطيف الله بالخلق أنه يُوجد الالتقاءات التفاعلية في العتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده ، وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أى شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

وبجوز أن الخادم قد فكر في أنه لو همّ براحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها ؛ فقد تطرّف الأسرة من العمل ، بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يورع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها قال الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤)﴾

[يوسف]

إذن فبرهان ربه سابق على الهمّ ، فواحد همّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من ابداية .

وبذلك تنتهي المسألة ، ولذلك فلا داعي أن يدخل الناس في مناهات أنه همّ وجلس بين شعبتيها^(١) ، ولم يرتعد إلا عندما تمثل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل^(٢) : فانسقُ القساق ولو تمثل له أبوه وهو في مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء

وحين تعالّش من رأى هذا الرأي ، يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة^(٣) يوسف ! لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ويقول لصاحب هذا الرأي : أتكلّم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرت إلى أبطال القصة تجدهم : امرأة العزيز ، ويوسف والعزیز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكّك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتي ذهبن أمراً العزيز ليُشاهدوا جماله ، والله قد كتب له العصمة .

فكلّ هؤلاء تضاعفوا^(٤) على أن يوسف لم يحدث منه شيء .

(١) في الحديث : « إذا تعد الرجل من المرأة ما بين شعبتيها الأربع وجب عليه الفسل » شعبتي الأربع : يداها ورجلاها . وقيل : رجلاها وشقرا لرجلي ، كنى بذلك من تعييبه العنقة في لرجلي [لسان العرب - مادة : شعب]

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والخسّك وسعيد بن جبیر : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنفثته يتوعده فسكن ، وخرجت شهرته من أنامله [فكه القوطي في تفسيره ٣٤٩٢/٤]

(٣) رجل ضحل . فعل^٦ : وإنه ليبيد الفحولة . غير ضحى بل هو ضحج [لسان العرب - مادة : فعل]

(٤) تضاعف القوم على فلان وتضاعفوا عليه وتضاعفوا بمعنى واحد كذا إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتآلبوا وتصابروا حمله . قال ابن سيده : تضاعف القوم على الأمر نظامياً وتعاونوا عليه [لسان العرب - مادة : ضمير]

وقال يوسف نفسه .

﴿ هِيَ رَأَوْدَتُنِي عَنْ نَفْسِي .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصَدِّقَةً لِمَا قَالِ

﴿ وَقَدْ رَأَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ^(١) .. ﴾ (٢٧) [يوسف]

وقالت . ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ ^(٢) الْحَقُّ أَنَا رَأَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الضَّالِّينَ (٥٦) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ^(٣) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .. ﴾ (٥٧) [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف . ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ

رَبِّي بِكَذِبِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٥٨) [يوسف]

وقال يوسف لحفظتها

﴿ وَإِنِّي نَصْرَفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]

والصَّبِيُّوَةُ هي حديث النفس بالشيء . وهو ما يثبت قدرة يوسف

عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبورة ؛ لأن الحق سبحانه

قد قال .

(١) استعصم . طلب لنفسه العصمة وتسلط بها . قال تعالى ﴿ وَقَدْ رَأَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ

(٢٧) ﴾ [يوسف] أي . خلست متسلطاً بعصمته وحفظ نفسه ويحفظها من السوء . [الفاموس

القديم ٢ / ٢٤]

(٢) حَصْحَصَ الحق . وضح وتبين بعد خفاؤه . قال تعالى ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ

الْحَقُّ (٥٦) ﴾ [يوسف] قال ابن منظور في لسان العرب : الحَصْحَصَةُ : ميل الحق بعد

كتمانها . [مادة حصر]

(٣) في قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها أنه يوسف ، ومنها أنها امرأة

العزيز قال ابن كثير في تفسيره (٤٨١/٢) : هذا القول هو الأشهر والألحق والأسبغ

بسياق القصة ومعاني الكلام . وقد حكاها الطبري في تفسيره والتدبر لتفسيره الإمام أبو

العباس ابن تيمية رحمه الله فالتزمه بتصنيف علي حدة .

[يوسف]

﴿ تَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۖ ۝٣٤ ﴾

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتي تهايمن بالفسقة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يَقلَّنْ

[يوسف]

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ ۝٣٥ ﴾

أحين دخل عليهن اجهات العيون له ، والعيون لغات ؛ وللافعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف ،

[يوسف]

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ۖ ۝٣٦ ﴾

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مَقَدِّمات تدل على أن النسوة قَوَّيْنَّ له مثل ما نَوَّته امرأة العزيز ، وظننَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقنه هُنَّ ، وهذا دأب^(١) السيئات الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه ؛ فيقدم العزيز على الحكاية ، ويقول

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۖ ۝٣٧ ﴾

[يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال ،

وحين سأل الشاهد النسوة ، لماذا أجبن ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قَلَّنَّ .

(١) دأب على الأمر اعتاده ، والتأب والدأب العادة والشأن قال تعالى ﴿ مَثَلُ ذَابٍ لِّوَمِ تَوَجَّ ۖ ۝٣٨ ﴾ [غافر] أي عادتهم وشأنهم وقال تعالى ﴿ قَالَ تَزَوَّجُونَ بَيْنَكُمْ فَهَٰذَا ۖ ۝٣٩ ﴾ [يوسف] أي متزوجين متجهدين ذوى دأب ، وقال تعالى ﴿ وَسَطَّرَ لَكُمْ الْفُتُوسَ وَالْقَمَرَ ۖ ۝٤٠ ﴾ [إبراهيم] أي مستمرين في الحركة دائرين فيها بلا انقطاع فشيءا لهما بالإتسار المجتهد [القاموس الفريسي ٢١٩/١] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ﴿٥٩﴾

[پیسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائماً بالغواية ، وهو لا يدخل أبداً في معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خلق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه

﴿قَالَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ لَأَغْوِيَهُمْ﴾ (٨٧) أَجْمَعِينَ (٨٨) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ (٨٩) ﴿

فالشيطان نفسه يَقْرَأُ مَنْ يَسْتَخْلَصُهُ اللهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْعِبَادِ إِنَّمَا
يَعْمَلُ - هُوَ كَشَيْطَانٍ - عَنْ غَوَايِهِ ، وَلَا يَجْرُو عَلَى الْإِقْتِرَابِ مِنْهُ
وَالشَّاهِدُ الَّذِي مِنْ أَهْلِ أَمْرَاءِ الْعَزِيزِ . وَاسْتَدْعَاهُ الْعَزِيزُ لِيَتَعَرَفَ
عَلَى الْحَقِيقَةِ قَالَ

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا^(٢٦) مِنْ دَبِيرٍ^(٢٧) فَكَذَبْتَ وَهُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾
[يوسف]

(١) لقواء أضله وأوتاه في الشئ والضللال قال تعالى ﴿أَهْرَيْتَهُمْ كَمَا غَوَيْتَ﴾ (١٢٧) ﴿القصص﴾ أي أضلناهم كما ضللتنا وغيري يفوي غيا فواية انهم في الجهل وهو ضد الترشد . قال تعالى ﴿لَا إِتْرَاهُ فِي النَّهْرِ لَدَّ تَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ﴾ (١٥٦) ﴿البقرة﴾ وغيري بمعنى ضل لأنه انهم في الجهل . والناوي اسم فاعل . قال تعالى ﴿وَبُورَتْ لَهْجِيمُ الْبُورَيْنِ﴾ (١٥٨) ﴿الشعراء﴾ أي الضللين المبهكين في أعمال الجهل [للقاسوس الفريسي ٦٤ / ٢]

(٢) قد الثوب ، شقّه قال تعالى ﴿ وَذُنُوبُهُمْ مِنْ طَبَرٍ ﴾ [يوسف] . والقصة القصيدة المقصودة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الاما كانها قُتِلَتْ وقُتِلَتْ منها . قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ طَرِيقًا ﴾ [الجن] أي جماعات مختلفة الرأي جمع قِلة [الامس القويم ١٠٢/٢]

[illegible]

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حق أحد أن يتساءل : هل هم يوسف بامرأة العزيز ، أم لم بهم ؟

وفي الآية التي نحن بصدد خوارق عنها ، يقول الحق سبحانه .

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . (٢٤)﴾ [يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبَيَّنَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه .

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥)﴾ [النساء]

أى . لا بد أن يبعث الحق رسولاً للناس مؤيماً بمعجزة تجعلهم يصدقون المنهج الذي يسبرون عليه ؛ كي يعيشوا حياتهم بانسجام إيماني ، ولا يعذبهم الله في الآخرة .

ويُكَيِّلُ الحق سبحانه الآية بقوله

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ^(١) عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عَادِنَا الْمُحْضِينَ (٢٤)﴾ [يوسف]

والفحشاء هي الزنا والإتيان ؛ والسوء هي فكرة الهم ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودته عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

(١) الصرف رد الشيء من حال إلى حال . وصرف القلوب تغييرها أو إفراقها . وصرف التسيير على سبيله . وصرف القلوب يصرفها . جعلها من الهدى إلى الضلال . قال تعالى ﴿صرف الله قلوبهم (٣٧)﴾ [التوبة] [القاموس القويم ١/ ٣٧١] .

مرحلة السُّعَار^(١) لحظة أن سبقها إلى الباب ، فَكَّرْتُ في أن تقتله ، وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجازى كقتل^(٢).

فصرف الحق عنه فكرة القتل ، وعنى بها هذا قوله الحق « السوء » ، ولكنني أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهم ، وهي مُقَدِّمَات الفعل.

ويقرر الحق سبحانه أن يوسف عليه السلام من عباده الْمُخْلِصِينَ ، وفي هذا رد على الشيطان ، لأن الشيطان قال :

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٨٣) [مر]

وقوله الحق هنا

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٧٤) [يوسف]

يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرُب عبد الله المخلصين . وهناك «مُخْلِصِينَ» و «مُخْلِصِينَ» والمخلص هو مَنْ جاهد فكسب طاعة الله ، وَالْمُخْلَص هو مَنْ كَسَبَ فُجَاءَهُ وَأَخْلَصَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ^(٣).

وهناك أناس يَصِلُونَ بِطَاعَةِ اللهِ إِلَى كَرَامَةِ اللهِ ، وهناك أناس

(١) السُّعَار شدة الجوع يقال سَعِرَ الرجل ، فهو مسعور ، إذا اشتد جوعه وعطشه والسفر شهوة مع جوع والسُّعْر الجوع وسعار العطش القهقهة والسحير والسحرة النار وقيل لوبها والسُّعَار والسُّعْر جرها [لسان العرب - مادة سحر]

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره أن من بين تأويلات هم يوسف عليه السلام بأمرأة العزيز أنه هم بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان على ذلك عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قدردا بالحرام فامتعت بضربها . [راجع تفسير القرطبي ٣/٤٨٨]

(٣) أخلصه الله جعله حلالاً نقياً مطهراً ، واسم المفعول « مُخْلَص » بفتح اللام قال تعالى ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٧٤) [يوسف] أي الأسبقاء ، الانتهاء المطهرين وأخلص دينه طهره وخصاه من شوائب الشرك والرياء قال تعالى ﴿ لَا تَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢٠) [الزمر] [القاموس المفرد ٢/٢٠٢]

يكرمهم الله فيطهرهم الله - والله المثل الاعلى منزه عن كل تشبيه ،
أنت قد يطرق بابك واحد يسالك من فضل الله عليك ، فتستضيفه
وتكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى فى الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من
فضل الله عليك ، أى ان هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه
أنت لتعطيه

وبعد الحديث عن المراوغة بما فيها من لين وأخذ ورد ؛ ينتقل بنا
الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا^(١)
لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٢)﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ، وتسابقا
فى هذا الاستباق ، ونلاحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ،
وكانت امرأة العزيز قد غلقت من قبل أكثر من باب .
لكن قول الحق سبحانه .

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ... (٢٥)﴾ [يوسف]

- (١) ألفى الشيء : وجده ، قال تعالى ﴿وَلَهُمْ أَهْلُهَا أَهْلُهُمْ حَالِينَ (٢٥)﴾ [المائدة] . وقال
﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ (٢٥)﴾ [يوسف] أى : وجده [القاموس القويم ١٩٧/٢]
(٢) سيد قومه يسرهم سيادة شرف عليهم ورئسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سادة
﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ (٢٥)﴾ [يوسف] سيدها زوجها ، وقال تعالى ﴿وَأَسْبَا وَحَصُورًا
(٢٥)﴾ [ال عمران] سيداً أى : سريفاً ورئيساً فى الدين والعلم . وقال ﴿وَأَلْفَيَا سَادَتَا
وَكِبْرَاهِمَا (٢٦)﴾ [الاحزاب] أى : رؤسائهما من الملوك والامراء [القاموس القويم

يدلنا على أنها لحقت بيوسف عند الباب الأخير ، وهي قد استبقت مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف القائل فهي تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدت قميصه من دبر

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشذته من قميصه من الخلف ، وتمزق القميص في يده ، وقد حص الشاهد الذي هو من أهلها^(١) - تلك المسألة ليستبطن من الأحداث حقيقة ما حدث .
وقوله تعالى .

﴿وَأَلْقَا سِدَّهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾

[يوسف]

أي . حدثت لهما المفاجأة ، وهي ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً . امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من بعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا .. (٢٥)﴾

[يوسف]

ثم حددت العقاب .

﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾

[يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام .

(١) وذلك هو قوله تعالى ﴿وَشَهِدَ نَاجِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَلِّتْ وَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ

(٢) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرِكَ فَكَلْبِتْ وَهُوَ مِنَ الْمُفْلِسِينَ (٢٥)﴾ [يوسف]

﴿قَالَ هِيَ رَأَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ^(١) شَاهِدًا مِنْ أَهْلِهَا^(٢)﴾ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ
قَدْ^(٣) مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولين مختلفين : قولها هي
باتهام يوسف : وقوله هو باتهامها ، ولا بد أن يأتي بمن يفصل بين
القولين ، وأن يكون له دقة استقبال وفهم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿قَالَ هِيَ رَأَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ شَاهِدًا مِنْ
أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتُ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٢٦﴾

وباتي كلمة « شاهد » في القرآن بمعانٍ متعددة

(١) شهد : دَنَ بقول أو فعل ، وقال تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٢٥) [يوسف]
[القاموس القويم ٢٥٨/١ | وقال القرطبي في تفسيره (٢/٤٤٩٤) : شهد شاهد من
أهلها ، أي حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة .
(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٩١ ، ٣٤٩٥)
: اختلف في هذا الشاهد علي أقوال

منها أنه طفل في العهد تكلم ، قال السهيلي وهو الصحيح الحديث الولد فيه عن
الذي ^{عليه} وهو قوله لم يتكلم في العهد إلا ثلاثة ، وذكر فيهم شاعر يوسف ومنها أنه
رجل حكيم لو عقل كل الورير يستشير في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، يتصرف
(٣) قد الثوب شقه ، قال تعالى ﴿وَلَبِثْتَ قَمِيصًا مِنْ نَهْمٍ﴾ [يوسف] والثنية القطعة
المقنودة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع جموع الأمة كأنها قُتِلَتْ ونطعت
منها ، قال تعالى ﴿كُنَّا طَرَايَ لَدُنَّا﴾ [الجن] أي جماعات مختلفة الآراء جمع قدة
[القاموس القويم ١٠٢/٢]

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قد من الخلف ؛
فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلاحظ أن الشاهد هنا قال هذا الراى قبل أن يشاهد القميص ، بل
وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الامر ، وهو إطار دليل
الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه .

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدِمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى .

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ ۖ ۝٢٨﴾ [يوسف]

يدل على انه رتب الحكم قبل أن يرى لقميص ، وقرر العبدأ أولاً
فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدما ، وهكذا جعل الحثية الثابتة
هى احكم فى القضية المناقشة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء مخفاه ، ويقوم به

(١) الكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتخد بها الكاذب ليهتلب على ضميمه ،

ومن ذلك قوله ﴿ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا ۝٢٩﴾ [هـ] أى اجتمعوا الوسائل التى تكيدون

بها [القاموس القديم ٢ / ١٨]

مَنْ لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمَوَاجَهَةِ ، وَكَيْدُ الْمَرَاةِ عَظِيمٌ ؛ لَأَنْ ضَعْفُهَا
أَعْظَمُ

وتعود آيات اسورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق
سبحانه ما جاء على لسان الزوج :

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ
كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ^(١)

وبهذا القول من الزوج أنهى الحق سبحانه هذا الموقف الرابع
عند هذا الحد ، الذي جعل عزيز مصر يُقرُّ أن امرأته قد أخطأت ،
ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتفه .

وهذا يبين لنا سياسة بعض من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر
نشاهد في عصرنا أيضاً ، فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأني أن يرى
أهله في خطيئة ، ويتأني أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغير أهله في
مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه ، فيكفيه ما حدث له
من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمت به خصومه أو أعداؤه .

وهنا ملحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي

(١) امرئ عن الهى - ولما منصرفاً عنه غير رغب فيه ، قال تعالى ﴿ أَعْرِضْ وَتَأْنِي بِهِ ﴾ [الإسراء] [القاموس القويم ١٦/٢] قال القرطبي : أى لا تذكره لأحد
واكتفه . [تفسير القرطبي ٤/٢٤٩٧]

(٢) الخطأ والخطأ ضد الصواب وقد حمله خطأ أذهب مطلقاً أو تعدد الذنب قال
تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ لَنَا ذُنُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف] أى ملئيين

لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين والمتسترين على المتصرفين ،
لعزیز مصر يقول ليوسف .

﴿ اعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ ۞ ﴾ [يوسف]

ويقول لزوجته

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۞ ﴾ [يوسف]

وهو في قوله هذا يَقْرُءُ بَيِّنَ دَنِبَا قَدْ وَفَع . وهو لن يَقْرُءَ بذلك إلا
إذا كان قد عرف عن الله منهاجاً سموياً ، وهو في موقف لا يسعه فيه
إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً فيه يوسف ، وامرأة العزيز ،
والعزیز نفسه ، ثم الشاهد الذي نحس القصية وحكم فيها ، ينتقل بنا
الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعت فيه
القصية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور
عيوناً تتعسس^(١) عليها ، والسنة تتكلم بها ، حتى لا يظن ظان أنه
يستطيع أن يحصى نفسه من الجريمة ، لأن هناك من سوف يكشفها
مهما بلغت قدرة صاحبها على التستر والتكتم .

وقد تلصص البعض من خدام القصور ، إلى أن صارت الحكاية على
أسنة النسوة .

(١) أصل التعسس الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه كل من يصر بالمدينة أي
يطوف بالليل ويحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والمعسس اسم منه كالطلب . وقد يكون
جمعاً لعاس كمارس وحرس . [راجع لسان العرب - مادة عسس]

ويحكى القرآن العوقف قائلاً :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ^(١)
فَدَشَفَهَا حُبًّا ^(٢) إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة لكن مفرد كلٍّ منهما ساقط في اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ، ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » ، له مثق هو « امرأتان » ، لكن في صيغة الجمع لا توجد « امرأتان » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة .

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ .. (٣) ﴾ [يوسف]

وما ثلثه هو الحق ؛ لكنهن لم يقلن ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً

للقضية

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٩٨/٤) : قيل امرأة سالى العزيز ، وامرأة خيلاره ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب بيته وقيل امرأة الساجد عن ابن عباس وغيره .

(٢) شغف أصاب شغاف قلبه أى غلافه ، أو أصاب ياطنه ومميم قلبه قال تعالى : ﴿ فَدَشَفَهَا حُبًّا ﴾ (٣) [يوسف] أى أصاب شغف قلبها بحب قوى ففقد كالسهم [الأماموس

ورشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهم ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول في الآية التالية حين قال

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ خُرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ ﴿٣٧﴾ ﴾

[يوسف]

والعكر هو ستر شيء خلف شيء ، وكان الحق يُخبئها إلى أن قول النسوة لم يكن غضبة للحق ، ولا تعصيا للفضيلة ، ولكنه الرعية للذكاة^(١) بامرأة العزيز ، وقضحا للضلال الذي أقامت فيه امرأة العزيز .

وأرسلن - أيضا - شيئا آخر : أن يُنزلن امرأة العزيز عن كبرياتها ، وينشرن فضيلتها ، فأتين بنقيصين ، لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز^(٢) ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد مزلت عن كبرياتها كزوجة لرجل يُوصف بأنه الغالب الذى لا يُغيب ، لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى العسية .

(١) نكى المبر ذكاة - أصاب منه - وقد نكبت فى العود أنكى ذكاة أى هزمته وغلظته ، فنكى ينكى نكئ ، [لسان العرب - مادة نكى]

(٢) تدور معانى العزيز حول من بيده السطان والقوة ويده مقاليد الحكم لا يراجمه أحد شيئا ، بل هو يملك سلطة الامر والنهى [راجع لسان العرب - مادة : عزز] .

فيُقال : « لأرض العَرَاز » ^(١) أى : الأرض الصخرية التى يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحد أن يطأها ، ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بأمرأة العزيز حين تصير مُضْطَّة ^(٢) فى الأقراء : لأنها راوتت ثيابها وخاضعها من نفسه ، وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية ^(٣) مشينة ^(٤) .

وقالت النسوة أيضاً

[يوسف]

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ ﴾ (٢٠)

والحب منازل ، وأول هذه المنازل : الهوى ، مثل : شغف شقة ^(٥) الثياب ، ويُقال : « رأى شيئاً فهو به » .

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة عرز] : العَرَاز والعَرَازُ المكان الصلب السريع السيل . وقال ابن شميل : العراز ما غلط من الأرض وإنما يكون فى أطرافها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن قبول فى العراز لئلا يترشخ عليه .

(٢) مضغ يمضغ لآك ومضغ الطعام يمضغه مضغاً والمضغة القطعة من اللحم [ومضغ التمر] حين أن يُعضع ويعد فوضغته صلب متين يُعضع كثيراً ومُضغ الأمر صغاراً [لسان العرب - مادة مضغ] والمضغ تشبيهها بقلعة اللحم التى يوكها الناس فى ألوانهم .

(٣) الإزراء التهوين بالشدة وإزديته أى حقرته ، والإزراء الاستقار والانتقاص والعيب وهو التعلل من زديت عنه بزيادة إذا عيت [لسان العرب - مادة زدى]

(٤) الشئون العيب . وهو خلاف الزين . قال الفراء : العين والضُّعُف والضُّعْر أى العيب ، والمضامين المعيب والمقايح [لسان العرب - مادة ضعين] .

(٥) شق الثياب يشق شقراً ، وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض وشق ثاب الصبي يشق شقراً فى أول ما يظهر [لسان العرب - مادة شقق]

وقد ينتهى هذا الهوى بلحظة الرؤية ، فإذا تطلق الإنسان بما رأى ، انتقل من الهوى إلى العلاقة^(١) .

وبعد ذلك يأتى الكلف^(٢) : أى : تكلف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها استقاء وهى (العشق)^(٣) ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعطى كل طرف كلفه ، ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التذلييه »^(٤) أى : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هزال ويقال « تيلت »^(٥) الفؤاد « أى : تاه الإنسان فى الأمر .

ثم تاتى بعد ذلك مرحلة الهيام^(٦) ، أى : يهيم الإنسان على

(١) علق الشمره علنا رعلق به علاقة وغلوقا لرمه . والعلاقة الهوى والحب اللازم للقلب ، وقد علقها علنا وعلق بها غلوقا وتعلق بها أحبها . وقال الحياضى العلق الهوى يكون للرجل فى المرأة [لسان العرب - مادة : علق]

(٢) الكلف : الورع بفحشيه مع غفر قلب ومشفقة . وكلف بالشمره كلفا وكلفت لهج به . وكلف بها أشد الكلف أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء [لسان العرب - مادة : كلف]

(٣) العشق : شدة الحب . وسمى العشاق عاشقا لأنهم يتول من شدة الهوى كما تقول العشقة إذا طمعت والعشقة : شجرة مقعر ثم تدب وتضمحل عن الرجاء [لسان العرب - مادة : عشق] .

(٤) قال ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٥٩) : « وأما التذلييه فى الصحيح : التذلييه ذهب الحبل من الهوى ، يقال : ذل به الحب ، أى : حبره وأدغشه . »

(٥) قال فى روضة المحبين (ص ١٩) : « أما التباله فهى إسهاله من تنك إذا انشأه . قال الجوهري : تبالهم الدهر وأتبالهم إذا انتاهم . وتباله للحب وأتباله ، أى : أسقمه وأفسده . »

(٦) الهيام : كالتخوض . وقد عيجه الحب . والاسم الهيم . ورجل هيم : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهيم : مسترهم يهيم عيماً . وعبسانا إذا لعب المرأة . والهيام العشاق والهوىم : أن يذهب على وجهه [لسان العرب - مادة : هيم]

وجهه : فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جوم صار اسمه
« جوى »^(١) .

تلك هي مراحل الحب التي تمر بالقلب^(٢) ، والقلب - كما نعلم -
هو الجهاز الصنوبري ، ويسمونه مقرّ العقائد المنتهية ، والتي بحثها
الإنسان واعتقدها بالفعل

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشم ويسمع
ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور : فهو يعرضها على
العقل ليرازن بينها ، ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك
الأمور المقبولة إلى القلب : لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية : فقد تأتي مسائل أخرى تزحزحها ؛ ولذلك
يقال للأمور التي استقرت في القلب « عقائد » ، أي : شيء معقود
لا يحل أبداً

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره في إخضاع سلوك حركة
الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ في نفس الإنسان : فهو يجعل كل
حركته في ظل هذا المبدأ الذي اعتقده .

وهكذا نعرف ، كيف تمر العقيدة بعدة مراحل قبل أن تستقر في
النفس ، فالإبراهيم^(٣) يحدث أولاً ، ثم التعقل ثانياً ، وبعد ذلك يعتقد

(١) الجوى : الحرقنة وشدّة الوجد من عشق أو حزن [لسان العرب - مادة جوى] .

(٢) ذكر بين القيم في روضة المحبين (ص ٢٥) نحواً من ستين اسماً للمحبة ، لكل اسم
مقام أو درجة في الحب

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء ، فلا بد من الإدراك ،
ثم الانتحال ، ثم النزوع ، أي : الاختيار

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وفقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (٢٥) [يوسف]

تعني أن المشاعر انتقلت من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ،
والشغاف هو الغشاء الرقيق الذي يسبق القلب : أي أن الحب تمكّن
تماماً من قلبها

وقولهن .

﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٠) [يوسف]

هو قول حق أريد به باطل

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفصح مقصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكٰٓفًا
وَمَاتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَيِّئًا وَقَالَتْ خْرِجْ أَيْتُنَّ فَلَمَّارَاتُهُ
أَكْبَرُ لِمَ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣١)

(١) تكبره يتكبره . جلس متمكناً ، أصل ارتكأ . قال تعالى ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهِنَّ يَتَّقُونَ ﴾ (٣١)

[الرحمن] وقال أيضاً ﴿ تَتَكَبَّرُ فِيهَا عَلَى الْأَرْضِ ﴾ (٣١) [الكهف] والمتكأ اسم مكن .

قال تعالى ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكٰٓفًا ﴾ (٣١) [يوسف] أي مكاناً مريحاً يجلس فيه متمكناً

متمكناً والمتكأ ما يتكبر عليه الإنسان من مخدة أو أريكة [القاموس القويم ٢ / ٣٥٢]

(٢) أكبر الشيء عده كبيراً . أو عظم شأنه . قوله كبيراً . قال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ أُنْكِرَتْ ﴾ .

(٣) [يوسف] [القاموس القويم ٢ / ١٥]

(٤) حاشى هـ ، أي برأه هـ ومسللاً هـ . قال ابن الأنباري معنى حاشى في كلام العرب

اعزل فلاناً من وصف القوم بالحشى وأعزله بتأخيه . ولا أدخله في جماعتهم [لسان

العرب - مادة حش]

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لهُنَّ الكلام عن الذي حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر : وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامراته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر : إسماء له علاقتان ، علاقة بالقصر نسمع ورأى وأدرك ، ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر.

ويبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتي ثرشن بالأمر ، وقال العلماء^(١) هُنَّ خمسة نساء : امرأة السالى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أى : سائس الخيل) ، وامرأة السجان .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن : فَمَنْ الذى نقل لهُنَّ أسرار القصر ؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسَلِّي أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ، ثم نقلت زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر : وكيف يمكن بها ، أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعَدْتُ لَهُنَّ مَكًّا وَآتَيْتُ كُلَّ رَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا ۖ ﴾ [يوسف]

والمكّا هو الشيء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مكلٌّ

(١) انظر تفسير القرطبي (٣/٤٩٨) ، ذكره من لهن عهس وغيره

من كيفية جلسته ، والمقصود بالتول هو أن الجلسة سيطول وقتها ،
وقد خطمت لتكشف وقع رؤية يوسف عليهن ، فقدمت لكل منهن
سكيناً ، وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

وبتبع الحق سبحانه

﴿ وَقَالَتِ اخْرِجْ عَلَيْنِ فَمَا رَأَيْنَهُ أَكْبَرَهُ .. ﴾ [٢٦]

[يوسف]

ويقال : أكبرت الشيء . كأنك قد تخيلته قبل أن تراه على
حقيقته ، وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين
ترى الشيء واقعاً ، تكبر العرائى عن التخيل

والمثل أن إنساناً قد يُحذثك بخير من آخر ، ولكك حين ترى هذا
الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعت عنه

والشاعر يقول

كَادَتْ مُسَاهَلَةُ الدُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ حَبِيبٍ لَصِيقِ الْقِيمِ
حَتَّى التَّحْيِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَذْنِي بِأَطِيبٍ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي
ويقولون في المقابل : سماعك بالمعبدى خير من أن تراه^(١) . أى :
يا ليتك قد ظنلتَ تسمع عنه دون أن تراه ، لأن رؤيتك له ستُقص من
قدر ما سمعت

(١) هذا مثل يُضرب لمن خبره خير من مرآته . يُضرب للرجل الذي له صيت ويكره ، فإذا
رأته أرميت مرآته ومُتَّحَتْ حَيٌّ أو اسم للقبيلة . فاستلزم في العتل تسمع بالمعبدى
لا أن تراه ، لمحض من القياس اللازم في هذا الضرب [لسان العرب - مادة سمع]

وهن حين اذین امرأة العزیز بتداول خبر مرادتها له عن نفسه ،
تخیلن له صورة ما من الحسَن ، لكنهن حين رأیته فافت حقیقته
المرئیة کل صورة تخیلنها عنه ؛ فحدث لهن ابهار

وأول مراحل الابهار هی الذهول الذی یجعل الشیء الذی طرأ
علیک ینعک عما تكون بصدده ، فإن کان فی یدک شیء قد یقع منک .

وقد قطعت کل من یدها بالسکین التی أعطتها لها امرأة العزیز
لتقطیع الفاکهة ، أو الطعام المقدم لهن .

وقال الحق سبحانه فی ذلك

﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْثَرَتْهُ وَقَطَّعْنَ أَیْدِيَهُنَّ ۖ ﴾ (٢٦) [یوسف]

وهل هناك تصویر یوضح ما حدث لهن من ذهول أدق من هذا
القول ^(١) ؟

ویتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ اللَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٧) [یوسف]

(١) ذكر القرطبی فی تفسیره (٢/٤ ٢٥) : قال مجاهد قطعن حتی ألیها وقیل
خدعنها وروى ابن أبی مجیح قال حَزَّ بالسکین قال النحاس یرید مجاهد أنه لیعن
قطعا تبین من لید إما هو شدش وحز ، وذلك معروف فی اللغة أن یقال إنا خدش
الإنسان ید صاحبه قطع یده .

(٢) قال ابن کثیر فی تفسیره (٤/٤٧٦) : ذکر غیر واحد أنها قالت لهن - بعد أن کت کل
واحدة منهن سکینا - هل لکن فی العذر إلى یوسف ؟ قلن نعم فبطلت إلیه ثامره أن
أخرج إلیهن ، فلما رأیه جعلن یقطعن أیدیهن ، ثم أمرن أن یرجع . فخرج وهن یحزون فی
أیدیهن ، فلما لمسسن بالأم بعض یولدن ففالت لکن من نظرة واحدة فطعن هذا
فکیف الأم لنا ؟ .

وكلمة ﴿ حاش .. (٦) ﴾

[يوسف]

هي تنزيهه قد سبحانه عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالي ،
أو . أنهم قد فرهن صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة
بينه وبين امرأة العزيز ، أو . أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون
قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التي يعرفونها^(١) : فقلن
لا بد أنه ملك كريم .

وصورة الملك كما نعلم هي صورة مُتَخَيِّلة ، والإنسان يحكم على
الأشياء المُتَخَيِّلة بما يناسب صورتها في خياله ، مثلما نتخيل للشيطان
كأبشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر : فما تراه بشعاً قد
لا يراه غيرك كذلك ، لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى
أخرى .

فالمرأة الجميلة في أراسطو إفريقيا في نظر الرجل هي ذات الشفاه
الغليظة جداً ، أو صاحبة الشعر المُجعد والمتعرج

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لوزن من الجمال ينجذب إليه
الرجل في بعض الحالات : بدليل أن بعضاً من السيقات لبوات الشعر
القاعم للغاية يذهبُن إلى مُصَفِّفة الشعر ، ويطلين منها تجعيد
شعورهن .

(١) قال القشيري لمصر وذكر في النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر . بل
هو في صورة حنك وقال الله تعالى ﴿ أَفَلَمْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين]
والجمع بين الآيتين أن قولن (حاش ..) تبرز يوسف ممّا رمته به امرأة العزيز من
العفورة ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٣٥٠٥)

إنّ جمال يُقاس بالأنواع ، هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذلك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال في النفس الإنسانية على قدر مقوّمات الالتقاء في الاتسجام .

ولذلك يُقال في الريف المصري هذا المثل لكل قولة ولها كيال.

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب في الزواج منها ، وما أن يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع في هواها ، ويتعجل الزواج منها . وهذا يعني أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثاني.

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحد يقاوم على أن يمنع القبول من كل طرف لطرف الآخر وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا يعرفه سوى ، لأنه سبحانه الذي يكتب القبول ؛ ويظهر في المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث في نفسية المرأة

إنّ فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ، قلن

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في اجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر^(١) .

(١) عن أبي رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : أعطي يوسف وأمه شطر الحسن ، أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٣) والحاكم في مستدركه (٥٧٠/٢) .

وأورد السيوطي في كتابه (الدر المنثور) (٥٢٢/٤) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا قفت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تشتمن به . وعزاه للحكيم القرويني في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الشيخ والطبراني

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً
عليهن

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا عَاثَرُهُ لَسَجَسَتْ
وَلَيْكُرُنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (٢٢)

وكانها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ،
فيوسف باعترائهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها ﴿ فَذَلِكُنَّ .. ﴾ (٢٢)

مكرر من « ذا » إشارة ليوسف و « ذالكُن » خطاب لنفسه ،
والإشارة تختلف عن الخطاب .

(١) لأنه يلزم لو ما عدله على عمل لا ينبغي ولا ياتى بهو لائم وتلاوم الرجلان لأم كل
منهما الآخر ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ صِدْقَ ﴾ [التيم] ، والام جر على نفسه اليوم
يفعل ما لا ينبغي فهو ملوم مستحق للوم قال تعالى ﴿ فَانظُرْ أَفَمَوْلُودُ وَمَوْلَاكُمْ ﴾ (٢٢)
[الصافات] أى مذنب مستحق للرم - [القاموس القديم ٢ ، ٢٠٨] ينصرف

(٢) عصمه يحصمه منعه ووقاه ، قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَضَمُّكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٢٦) [المائدة] يظنك
ربيك . وقوله ﴿ مَا أَوْى إِلَٰهَ جِبِلٍّ يَضْمُنُ مِنَ الْمَاءِ ﴾ (٢٦) [هود] يظننى . واعتصم تمسك
بقوة قال تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ (٢٣٦) [آل عمران] أى تمسكوا بحبله
راستصم . طلب لنفسه العصمة وتمسك بها ، قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٤٧)
[يوسف] أى فامتنع متمسكاً بعصمته وعفة نفسه وحفظها من الموه [القاموس
القديم ٢/٢٢ ، ٢٤]

(٣) الصَّغِيرُ يكون سادياً في الحجم ويكون مصحوباً في اللبس والمزلة وهو عند الكبير
وصغير في حجه أو في قدره ومزلة . فمن المادى قوله ﴿ وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكُونُوا كَصَغِيرِ
لُؤْلُؤٍ ﴾ (٢٤٧) [البقرة] ، ومن المعنوى قوله ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ (٢٢) [الاعراف]
[القاموس القديم ١/٢٧٧]



وهنا موقف أسلوبى ، لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب
ليُقرأ ؛ له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية^(١) ؛
وقد يكون نثراً مسجوعاً^(٢) أو مُرسلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً
محكوماً بوزن وقافية

والمثل على الفخر المسجوع هو قول الحق سبحانه

﴿وَأَنظُرْ^(٣)﴾ ① وَبَحَابِ مَسْطُورِ ② فِي رَقٍّ^(٤) مَنشُورِ ③ وَالْبَهْتِ
الْمَعْمُورِ ④﴾
[الطور]

وهنا نثر مسجوع بلا تكلف ، وأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً ؛
فإنك تأخذ منه على قدر سُمُو أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب
إلى أسلوب ، فإنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين

والمثل نجده في الرسالة التي كتبها ابن زيدون^(٥) مُستعظفاً ابن جهور

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تقع البيت . وقال الأحمش : القافية آخر كلمة في البيت .
(٢) المسجع : الكلام المقفى . وسجع يسجع سجعاً تسجيماً . تكلم بكلام له فواصل كفواصل
الشعر من غير وزن ، وصاحبه سجعانة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل
كلمة تحية صاحبتها قال ابن جني : معنى سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب مواضعه
[لسان العرب - مادة سجع]

(٣) الطور : جبل ببيتاء نزل عليه موسى عليه السلام بعد خروجه مع لونه من مصر ، قال
تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَعُنُهُمُ الْطُورَ ④﴾ [النساء] ، ويُسمى أيضاً ﴿طُورِ سِيناءَ ⑤﴾ .
[المؤمنون] و ﴿وَوُحِّىَ سُبْحَنَ ⑥﴾ [التين] [القاموس القويم ٨/١] .

(٤) الرق : الجد الرقيق يكتب عليه ، وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها [القاموس
القويم ١٧٢/١]

(٥) هو أحمد بن عبد الله بن زيدون العمري الأندلسي ، أبو الوليد وزير كاتب شعير ،
من أهل قرطبة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انتقل إلى ابن جهور ، من طلبة الطوائف بالأندلس ، فكان
السفير بينه وبين الأندلس ، توفي بأشبيلية عام (٤٦٣هـ) في أيام المستنصر على أنه ابن
المحتشد [لأعلام بلزركي ١٥٨/١] . يتصرف .

« هذا العُتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ الْقَمَرَةُ مُبَوَّةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي ، وَلَنْ يَرِيْبَنِي مِنْ سَيِّدِي إِنْ أَبْطَأَ سَبِيْبُهُ أَوْ تَأَخَّرَ ، غَيْرَ ضَنْبَيْنِ ضَمَاهُ ، فَاِبْطَأَ الدَّلَاءُ قُبُضًا أَمْلَوْهَا ، وَانْقَلَبَ السَّحَابُ مَشِيًّا أَعْقَلَهَا ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ . وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . لَهُ الْحَمْدُ عَلَى امْتِنَانِهِ ، وَلَا عُتْبٌ عَلَيْهِ فِي اخْتِلَالِهِ . فَإِنْ يَكُنْ الْفَعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَافْضَعْلَهُ الْبَلَاتِ سَرَرَزْنَ الْوُفْ وَهَكَذَا تَشْعُرُ انْتِقَالَ ابْنِ زَيْدُونَ مِنَ الْفَعْرِ إِلَى الشَّعْرِ ، وَلَكِنَّكَ وَأَنْتِ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، تَنْتَقِلُ مِنَ الْفَعْرِ الْمُرْسَلِ إِلَى الْفَعْرِ الْمَسْجُوعِ إِلَى النِّظْمِ الشَّعْرِيِّ عَلَى وَزْنِ بَحْرِ الشَّعْرِ ، فَلَا تَكَادُ تَفْرُقُ بَيْنَ الْأَسْلُوبِ بَيْنَ شَعْرِ أَوْ نَثْرٍ .

والمثل نجد في الآية التي نحن بصدد خواتمها .

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ . (٤٢) ﴾ [يوسف]

فهو موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور]

وأيضاً قوله الحق :

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ (١٩) ﴾ [الحجر]

(١) قال الأزهرى قرأ ابن كثير وثالث وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي أمنا صراط المستقيم ، بالصاء ، وقرأ يعقوب والفسين ، قال وأصل صانه سين قلت مع طاء صاناً للرب مخرجها قال الجوهري الصراط والسرط الطريق [لسان العرب مادة صراط]

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نثراً ، معا يدل على أن النغم الذى قاله الله تَظْماً أو شعراً أو نثراً لا نشان^(١) فيه . ويكاد أن يكون سَيْلاً واحداً .

وهذا لا يتأتى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى . وأنت لن تشعر بهذا الامر لو لم يُنبِّهك أحد لِمَا فى بعض الآيات من وزن شعري .

أما كلام البشير : فأنت إن قرأت الموزون : ثم انتقلت إلى المنثور : أحسَّتْ أذنك بهذا الانتقال ، ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور . ثم تنتقل إلى الموزون : وستشعر أنذك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فاستعصم . . (٣٧) ﴾ [يوسف]

قالت تلك بجراءة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه استعصم . ، وهذا يعنى أنه قد تكلف المشقة فى حجر نفسه عن الفعل . وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَقِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لِيُسْجَنَ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها من أكبرن يوسف لحظة رؤيته ، تعلن له أنَّهُ إن لم يطعها فيما

(١) نشز الشيء ينشز نشوزاً : ارتفع . وتل ظاهر . مرتفع . ينظر فى مجلسه ينشز : يرتفع إليها . (النشز الشيء : رفعه عن مكانه . [لسان العرب - مادة : نشز]

تريد ، فلسوف تسجنه وتُصَفِّرُ من شأنه لإِذْلَالِهِ وإِمانته

أما النُّسُوءُ ابلاقي سَمِعْتُهَا : فقد طمعتُ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تطرد أي منهن به

ولذلك يُورِدُ لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ^(١)
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ النَّاسِ وَأَكْرَمُ مِنَ الْعَالَمِينَ^(٢) ﴾ (٢٢)

ولسائل أن يقول ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال .

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٢٢) [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هي التي قالت

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجُنَنَّ^(٣) .. ﴾ (٢٢) [يوسف]

(١) الصِّرفُ رَدُّ الشيء من حال إلى حال . وصرف السجين ، خفى سبيله . وصرف القلوب يصرفها حولها من الهدى إلى الضلال . ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (١٢٢) [التوبة] أي حولها [القاموس القويم ٢٧٤/١]

(٢) صبا يصير مال وأحب ، قال تعالى ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ النَّاسِ وَأَكْرَمُ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) [يوسف] أي أكمل إليهن وأفضل ما يغريني به . وصبا إلى اللور . حُرٌّ واشتاق إليه . [القاموس القويم ٣٦٨/١] .

(٣) الجهول الطيش والسفاه والتعدي بخير من ، والجهول ضد العلم وهو السفلو من المعرفة واسم اللعان ، جاهل ، وصيغة المبالغة ، جهول ، . ويؤتى معنى الجليل بما يناسب المقام . قال تعالى ﴿وَلَنَكْرِ أَخْرَجْنَاهُم مِّنْهَا وَهَارُونَ﴾ (١٢٢) [الأنعام] [القاموس القويم ١٣٥/١] بتصرف

ونقول لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحى له بالألماء يعرض نفسه لتلك الورطة التي ستؤدي به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام في قوله المفرد - امرأة العزيز - في جمع النسوة اللاتي جمعتهن امرأة العزيز ، وهن اللاتي طلبن منه غمزا أو إشارة أن يخرج نفسه من هذا الموقف

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه في محاولة لاستمالته^(١) ، وللعيون والانفعالات وقسمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عيونهن قد دلت يوسف على لعواد الذي تطلبه كل واحدة منهن ، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دورا هاما .

وما هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس في مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهورا بقدرة كبيرة على الهجاء^(٢) ، وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له عزمت عليك إلا هجوت واحدا منا .

ودارت عيون في المجلس ، وأشار به كل من حضر المجلس خفية بأنه سيُجزل^(٣) له العطاء إن امتنع أبو دلامة عن هجائه ، ولأن أبا دلامة معروف بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أي شيء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٥٠٧/٤) ، أن كل وحدة طلبت أن تفلح به للتصديحة في امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعدل (تلوم) في حقها ، وتأمره بمسلحتها فلعله يهيب ، فصارت كل واحدة تطلو به على حدة فتقول له يا يوسف اتق الله لي حلفتني فانا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ، فقال يا رب كانت واحدة قصرت جماعة .

(٢) هجاء يهجو هجاء شمس بالشعر وهو خلاف العج قال الليث هو الوضيعة في الأشعر [لسان العرب - مادة هجر]

(٣) الجزل العليم وأجزلت له من العطاء أي أكثر وعطاه جزل وجزيل إذا كان كثيرا وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [لسان العرب - مادة جزل] .

ألا يبلغ لذيكَ أباً دَلامة فليسَ مِنَ الكِرامِ ولا كِرامه
إذا لَيسَ العِمامَةُ كلنَ قِرداً وخِزيرِياً إذا خَلَعَ العِمامَ
وهكذا خرج من قسم الأمير : وكسب العطايا التي وعده بها من
حصروا المجلس .

وهذا هي الآية التي نحن بصددها خواتمنا عنها نجد يوسف عليه
السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة : فقال .

﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٤٣) [يوسف]

أي - أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل
الفحشاء ، أو يوافق النسوة على دعوتهن له أن يُحرر نفسه من
السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال

﴿ وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْحَابُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤٤) [يوسف]

ولما قل أن يقول ولماذا لم يقل يوسف « يا إلهي ، وهو يعلم
أن مناط التكليف في الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول أراد يوسف أن يدع ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله
سبحانه ، لأنه هو جلٌ وعلا من ربه وتعهده : وهو هنا يدعو باسم
الربوبية ألا يتخلي عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر : وإن لم يصرف الله
عنه كيدهن : لاستجاب لغوايتهن ، ولا يصيح من الجاهلين الذين
لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعسى الرغم من أن السجن أمر كره ، إلا أنه قد فصله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى الربى الأول ، لثأرى الاستجابة منه سبحانه .
يقول الحق :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٤﴾

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٤﴾

وهكذا تفضل عليه الله الذى خلقه وتولى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهن الذى نعتل فى دعوتهن به أن يستسلم لعا دعتة إليه امرأة العزيز ، ثم غوايتهن له بالتلميح دون التصريح تلك الغواية التى تمثلت فى قول الملك من بعد ذلك

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ۚ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۖ ۝٥١﴾ [يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكر النمرة ، وهو جَلْ وعلا له مطلق السمع ومطلق العلم ، ولا يخفى عليه شيء ، ويستجيب لأهل الصدق فى الدعاء .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ۖ

لَيْسَ جُنُودُهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمْ ۝٢٥﴾

- (١) الخطب الشأن الذى تقع فيه المخاطبة والمساءلة قال تعالى ﴿ قَالَ فَمَا خُبَّكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٢٥﴾ [الحجر] أى ما شأنكم الهام [القاموس القويم ١/١٩٨] وقال فى اللسان : الخطب الشأن أو الأمر مستقر لمعظم ومنه قولهم جَلْ فخطب أى عظم الأمر والشأن .
(٢) قال ابن عباس : لقميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات وقطع الأيدي من الآيات ، وعظام النساء لهن من الآيات ، ذكره القرطبي فى التفسيره (٤/٣٥٠٨)

وبعد أن ظهرت العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم احشاف امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقع بيوسف في الفعل الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الغضبية

بذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يوضع يوسف عليه السلام في السجن ؛ ليكون في ذلك فصل بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الغضبية ، وليظهر بلفاس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز .

كما أن كلمة ﴿ لَهَجْتَهُ ۖ ۞ ﴾ (٣٥)

[يوسف]

فيها نوع من استنقاء الحب الذي يَكُنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نفيه بعيداً بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المصرة على الخيانة ، وعن المجتمع الذي يُلوك تلك الوقائع

والسجن - كما نعلم - هو حبس المسجون لتقييد حركته في الوجود ، وهو إجراء يتخذه القاضي أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إدلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شره

ونعلم أن الإنسان لا يجترئ على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضي أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بسخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سجن ، وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه في العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع وقد يعطى عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعض من اقاربه ، ومعهم المأكولات ، والمطلوبات
ولكن هناك سجن ديني أسسه رسول الله ﷺ ، حين عزل المجتمع
الإيماني عن المسجون ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألا يكلم أحد الثلاثة^(١)
الذين تخفوا عن اخروج معه للقتال بحجج واهية ، بل ونسألي هذا
العزل إلى أن صار عزلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل
بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف في السجن ؟

يقول الحق سبحانه -

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي
أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا كُلُّ الطَّيْرِ مِنْهُ نَبْتٌ إِنَّا فَتَنَّاكَ بِهِمَا وَإِنَّا لَفِتَنَّاكَ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وبراءة بن الزبيبة العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ،
أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة في التلطف من الغزو مع
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٣٠٩١/٤) : قال : فتيان ، لأنهما كانا عبيد ، والحد يسمى
فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره العارضي وقال القشيري : ولعل الفتى كان اسماً للعبد
في مرقم ، ولهذا قال ﴿ تَرَاوَعَا عَن ذُنُوبِهِمَا ﴾ [يوسف] .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذي يغطي العقل ويذهب به ، وهي إما ماحولة من جمرت
الشيء ، سترته لأنها تستر العقل أو من خبرت العجين ، وضعت فيه الحمير لقتلها به
فاحتقر ، والخمر في صفتها يوضع الحمير على العصيد ويترك حتى يحمز فتؤخذ منه
الخمر ، قال تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَسْكِرَاتِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ (٥٥) [البقرة] ولوله
تعالى ﴿ إِنَّمَا أَرَأَيْتُ أَفْعُرْ خُمْرًا ﴾ (٣٧) [يوسف] أي : أعصير غنماً ليصير خمرًا فهو سجاز
مرسل علاقته ما سيترك إليه [القاموس المبرمج ٢٠٩/٦] بتصرف

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٣٠٩٢/٤) : إحصائه ما كان يعود المرضى ويدأويهم ، رُبْعِي
الحرائي قال المسالك : كان إنا مرمى الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ساق وسع
عليه ، وإذا احتاج جمع له ، ومثل له .

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هي معية ذات ، وقيل ، إنهما الخبّار والساقى ، وقيل ، إن سبب دخولهما هو رغبة بطانة عزيز مصر في التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هي فضيحة مروونة امرأة العزيز ليوسف ، ورفض يوسف لذلك

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى والخبّاز قد تم ضغطهما بمحاولة وضع السمّ للعزيز^(١)

وبعد فترة من حياة الاثنتين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية به تكشف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حلمًا ، فقررا أن يطلبتا منه تأويل هذين الحلمين ، والنسجين غالباً ما يكون كثير الوسوس ، غير آمن على غيره ، ولذلك اتجها إليه في الأمر الذي يهمهم

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا تَأْوِيلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حلمين ، فواحد منهما رأى في منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثاني أنه يحمل خُبْرًا فوق رأسه تاكل منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كلُّ مسهما على حدة - يطلبان - تأويل الرؤيتين المناميتين ، أو أنهما قد طلبتا نهما تأويل هذا الأمر الذي رأياه .

(١) مما ذكر في هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عثر لهما مملوءة فندسوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يستأه جميعاً فاجلب الخبّار رأى صاحب الشراب - فانتقل صاحب الشراب فباشر الملك بذلك ، فامر الملك بحبسهما ،

فامتناسا بيوسف . [تفسير القرطبي ٢/١١١] باختصار

وحديثة لجوشهما إليه هو قولهما .

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المتحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عمله مقاييس الإحسان في ذهن من يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتمرككين في الكون ، ونظروا إلى أي أمر يتعلق بالخير كما يتعلق بهم ، لعرفوا أن الإحسان قدر مشترك بين الجميع .

وجد النص - على سبيل المثال - لا يسته أن يسرق أحداً ، لكن سيفه لو أن أحداً قام بسرقة ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ، ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إن . إن أردت أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس النضائل والأحلاق ، فافهم الأمر بالمسبة لك إيجاباً وسلباً .

وامثال الذي أضربه نالماً هو : قبل أن تمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءاً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْنِ إنْ نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ، حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك بلامور - وقد اعتدل . وإذا أردت
اعتدال الميزان في كل فعل ، فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ،
وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك
من الأمرين ستجد قلب الميزان منصبطاً

وأقول دائماً إلى الحق سبحانه حين حرم عليك أن تسرق غيرك ،
لم يضيق حرمتك ، بل ضيق حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا
مكسب لك

بن قالذي يعرف مقام الإحسان ، لا ينسب الفعل الصادر منه
على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه . بل ينظر إليهما معاً ، فما
استقبحه من الغير عليه ، فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلم يوسف
عليه السلام من حكمهما عليه أن مغاييس الإحسان موجودة عندهما ،
ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءه من أجله ، واستقل هذه المسألة ، لا
لقضاء حاجتهما منه ، ولكن لقضاء حاجته منهما

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ، والإيمان بالمحسنين ،
فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ، قبل أن يعطيهما
حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما ماذا رأيتم من إحساني ؟ هل رأيتم حسن
معاملتى لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دفعة احتياري للحسن من
القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي - بفضل الله - ما هو أكثر ،
وهو ما يقوه الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأٌ كُذِّبَ
بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مَعَ عَلَمٍ رَّبِّي
إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٧)

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ،
ولكن هناك أمور مخفية ، وكأنه ينمى فيهما شعورهما بمنزلة
ويلحسنه وبقدرته على أن يحيرهما بأوصاف ونوع أي طعام يُرْزَقَانِيهِ
قبل أن يأتى هذا الطعام^(١)

وهذه ليست خصوصية في يوسف أو من عندياته ، ولكنها من
علم تلقاه عن الله ، وهو أمر يُعلمه الله لعباده المحسنين ، فيكشف الله
لهم بعضاً من الأسرار

وهما - السجينان - يستطيعان أن يكونا مثله إن أحسنا لإيمان بالله
ولذلك يتابع الحق سببانه .

﴿ذَٰلِكُمَا مَعًا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٧)

[يوسف]

(١) الملة الدين ، هذا كان أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى ﴿رَمِىَ رُوحَهُ مِنْ مَلَأَ بِهِمْ﴾ [الأعراف] ١٧
سورة البقرة . ﴿[البقرة] ١٧﴾ وهي الدين الحق ومن الباطل قوله ﴿[البقرة] ١٧﴾ [البقرة] ١٧
يُرْجَمُونَ أَوْ يَحْبِسُونَ فِي مَلَأَهُمْ . ﴿[البقرة] ١٧﴾ [البقرة] ١٧ [البقرة] ١٧
[٢٣٦/٧]

(٢) بكر القرطبي في تفسيره (٢٥١٢/١) قوله ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ [يوسف] ٢٧
يعنى لا يجهلكما غذا طعام من منزلكما ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ [يوسف] ٢٧
أعلم تناول رؤياكم وكان هذا من علم الغيب يخص به يوسف وبه أن الله يحسنه بهذا
العلم ، لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك ،

وكانه بذلك يهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هبات الخير ، فيعمون أشياء تخفى على غيرهم

وهذا يدلنا على أن المؤمن إذا رأى في إنسان ما مخيلة^(١) خير فليدعي هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ، وبذلك لا يحتجز الخصومية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ، ولكي يطبع لعباد في تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه . ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً في النار

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
مَا كَانُوا لَنَا أَنْ تَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨)

(١) إنه لمخيلة للخير أي خلق له ، وأخال فيه حالاً من الخير وتحيل عليه تحيلاً ، كلاماً اختاره وتفرس فيه الحير وتحولت فيه حالاً من الخير وأخلت فيه حالاً من الخير أي رأيت مزيلك ومزيل الشره له تضيئه وتحيل له أنه كما أي تشبه وتحايل ، يقال تحيلته فتحيّل لي ، كما تقول تصوره فتصوره ، وتبيته فتبينه ، وتحلقه فتعلق - [بس العرب - مادة حيل]

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، أخرجه الترمذي في سننه (٢١١٦) وأحمد في مسنده (٢٢٢/٢ ، ١١٦) ، والحاكم في مستدركه (٢٤٦/٢)

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملة القوم الذين لا يعبدون الله حقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم من أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار

وبذلك من فضل الله بآثاره العنبر الهادي ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لمن يعرف ذلك أن يشرك بالله ، فالتشرك بالله يعني الجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَى لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْفُونَ ﴾ (٢١)

[المؤمنون]

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كل إله شيئاً لا يقدر على صنعه الإله الآخر ولاصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله - هكذا أوضح يوسف عليه السلام - أن أنزل منهجه على الأنبياء ، ومنهم آباء إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ليكنوا منهجه إلى خلقه . وهم لم يصبوا هذا الفضل القادم من الله ، بل يبلغوه للناس

﴿ وَلَنَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

اعلم أن الأمر الذي أنت بصدده هو في مقاييس العقل والفطرة

السلامة يستحق الشكر ، ولا شكر إلا على المعمة .

ولو قَطَنَ الناس لَشكروا الانبياء والرسل على المنهج الذى يُلْعوه
عن الله ؛ لَأنه يهديهم إلى حُسْنِ إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى
الجنة

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه
للسجينين

يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مِّثْرُوقٌ
خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٦﴾

وكلمة « صاحب » معناها ملازم^(١) ، والجامع بين يوسف
واسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو
« صاحب حج » الشيء الذى يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه
لمكان ، أو تنسبه إلى الطرف الذى جمع بين تلك المجموعة من
الصحبة .

(١) الرب هو الله عز وجل ، وهو رب كل شيء أى ماله . وبه الربوبية على جميع الخلق ،
لا شريك له . وهو ربّ الارباب ورب كل شيء ماله ومستطه . والرب يطلق من اللفه
على املاك والحميد والمديّر والمربيّ والصاحب والقيّم والمنعم [لسان العرب - مادة
رب] بتصرف

(٢) قهبره يقهبره قهبراً غلبه رادله . قال تعالى ﴿ قُلْنَا الْجَبَرُ قَهْرٌ ﴾ [التيسر] .
والظاهر اسم فاعل ، قال تعالى ﴿ وَرَهْوَ الْقَاهِرُ فَرْقٌ عِبَادِهِ ﴾ [الانعام] أى المسيطر
عليهم [لقاموس القويم ٢، ١٢٦] بتصرف

(٣) الصاحب يقال لمن كثرت ملازمته صحبه يصحبه وصاحبه عاشره والصاحب
المعشر [لسان العرب - مادة صاحب] .

وطرح يوسف السؤال .

﴿أَرَأَيْتَ مَتَرَقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٢٩)﴾ [يوسف]

وحين طرح سؤالاً عبر مقابل لك نأت تعلم مقدماً انه يفهم ان أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكان يوسف قد وثق من ان إجلهتهما ان تكون إلا بقوتهم « بل عبادة إله واحد خير »

وهو لم يكن ليسأل إلا إذا عرف أنهما سيُديران كل الاجوبة : فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذي اراده .

فهما قد عبداً الهة متعددة ، وكان الحفروض في مقاييس الأشياء ان تُفنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : في قوى البشر نجد التعدد يُثري ويُضخم العمل ، لكن في الألوهية نجد الشرك يُضعف العمل .

ولذلك نجد الصوفي يقول « عمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه »

ولذلك قال يوسف عليه السلام لساحبي السجن

﴿أَرَأَيْتَ مَتَرَقُونَ خَيْرٌ .. (٢٩)﴾ [يوسف]

ولو كان تفرقهم تفرق ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة . ولو كان تفرقهم تفرق تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرقهم تفرق اختصاصات ، فهذا يعني ان لكل منهم نقطة قوة ونقاط ضعف ، وتفرقهم هذا دليل نقص .

ولذلك رحبنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال

﴿حُزِبَ اللَّهُ مَقْلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ^(١) وَرَجُلًا سَلَمًا^(٢) لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلُ الْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٣)﴾ [الرعد]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ،
وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَشْرًا
وَعَابَاؤَكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٤)﴾

وملاحظ أن يوسف عليه السلام - لم يتكلم حتى الآن مع
السجينين عن مطلوبيهما منه ، وهو تناول الرؤيتين ، وهو لم تكلم في
المطلوب منه أولاً ، لانصرف ذهنه وانتباهه كُلاً من السجينين إلى قضاء

(١) شكس. سمه خلفه وطلب عليه حب النزاع وتشاكس القوم شاربوا واشفق احتلالهم قال
تعالى ﴿حُزِبَ اللَّهُ مَقْلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ^(١)﴾ [الرعد] ذلك مثل السعد المشرك
له الله متحدة وتنازعون فيه [القاموس القويم ٣٠٤/١]

(٢) السَّلَامُ والسَّلَامُ الآمن وعدم الحرب ﴿وَسَلُّوا إِلَى اللَّهِ الْكَلِمَ الْبَرَّةَ﴾ [البقرة] في الصلح
والمهادنة والاستسلام ﴿وَأَقْرَأُوا إِلَيْكُمْ الْكَلِمَ الْبَرَّةَ﴾ [النساء] سالموكم وخضعوا لكم
راستسلموا لكم وقوله تعالى ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الرعد] أي ملكاً خاضعاً له
لا يبارعه فيه أحد [القاموس القويم ٣٢٤/١]

(٣) الْقِيمُ الثابت المستقيم الذي لا يهوج فيه ، أو المقوم الممثل للأمور أو المهيمن المشرف
عليها ومن ذلك قوله ﴿فِيهَا قِيمًا...﴾ [الأنعام] أي مستقيماً أو مقوماً للغيره من
الأميان السابقة [القاموس القويم ١٤٢/٢]

حاجتهما منه ، ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعوا إليه ؛ ولأن الذي يدعوا إليه هو الأمر الأبقى ، وهو الأمر العام الذي يتعلق بكل حركة من حركات الحياة

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهم إلى الأمر الجوهرى قبل أن يتحدث عن الجريئة الصغيرة التى يسألان فيها ، وأراد أن يُصحح نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجريئاتها ، وفى هذا إيثار لا أثره^(١) .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ -- (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى أن ما تعبدونه من آلهة متعددة هو مجرد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ، أسماء ورثتموها عن آبائكم أو انشأتموها أنتم ، فكفركم بإنشاء أسماء لآلهة غير موجوده ، كما كفر آبائكم كفر نسيان التكليف أو إنكار التكليف

وتوضيح الأسماء عادة للدلالة على المسمى ، فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذهن ، ولذلك تسمى المولود بعد ولادته باسم يميزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أطلق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة

(١) أثره عليه فضله وأثرت قلانا على نفسى من الإيثار ، ويقال قد أحذه بلا أثره وبلا أثره وبلا استنثار ، أى لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود [لسان العرب - مادة

وإذا أطلق اسم واحد على متعددين ، فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمثل من الريف المصري ، حين يتفاهل أب باسم « محمد » ، فيسمي كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يميز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير ، و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِع اسم لشيء غير موجود ، فهذا أمر غير مقبول أو معقول . وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ، فصارت هناك أسماء على غير مُسمى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة : ليُسألوا لحظة الحساب

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم يكن يُدْعَو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين ﴿ (٧٤) ﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأن لم تكن هناك آلهة ، بل كان هنا أسماء بلا مُسميات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أُنْثَىٰ وَابْنُ كُفٍّ ﴾ (٦٠) ﴿ [يوسف]

وكان يوسف يتساءل ، ماذا كانت لكم حاجة تطيبرنها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذي لا مُسمى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسَمًى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزل معهم المصحح الذى يوجز على « افعل » و « لا تفعل »

وهم قد سموا أسماء لا مُسَمًى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزل منهاجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتسارع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من وَصَفَ تلك الأسماء التى بلا مُسَمَّيات ، فيقول

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنزِلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سَبْطَانٍ .. ﴾ (٤٠)

[يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتبع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف

﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴾ (٤١)

[يوسف]

أى : إنشى - والكلام ليوسف - إن قلتُ شيئاً فلأنى ذُقل للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندى ، ولا عن هواى ، لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٢)

[يوسف]

أى أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن لرسول قد بلغتهم بالمصحح ،

وسكتهم لم يُوظّفوا هذا العلم في أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام في تناول المطلوب لهما

يقول الحق سبحانه

﴿يَصْنَعِي السَّجِي أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١)

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسر رؤيا مَنْ يسقى لخمّر ذاته سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فليسوف يُصلبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه ، وهذا يعني أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتناول الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب مَنْ علّمهم تناول الاحاديث ، وهي قدرة على فكّ شفرة الحلم ، ويمطيها الله لمن يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمن قال

﴿إِنِّي أَرَأَيْتُ أَحْصِرُ خَمْرًا ..﴾ (٤١)

[يوسف]

أنه سوف ينال العفو حسب ما أظهرته الرؤيا اتقى قلبه ، وأما

(١) استفتاء طلب منه الفتوى وسأله رآيه من مسألة فائتله ، فاجابه قال تعالى ﴿لَا تَسْأَلُهُمُ الْوَكِيلَ﴾ (النساء) وقال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ فِي امْسَاءٍ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْ هُنَّ﴾

﴿(٥٧)﴾ [النساء]



الأحر فسياكل من رأسه الطير . أي سيُصلب كما أوجت بذلك رموز الرؤيا

ونلاحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذي أوضحت الرؤيا عن الاثنين صاحبي الرؤيتين

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُتصفاً على الحكم ، لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما ، وهو لا يعرف من سينال البراءة ، ومن الذى سوف يُعاقب .

فتزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ، لأن الهوى يُكوّن الحكم ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عطفته ، ولا بد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات

ويُعلمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل بنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام

﴿وَهَلْ أَتَاكَ بِأَلْعَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا^(١) الْمَحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَعْظَمْ خَصَمَانِ بَقِيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَعْطَلْ^(٢) وَهَدَانَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَّهِ تَسْعُ وَتَسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا^(٣) وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قُلْ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَهَبَى

(١) تسور السور تسلف وعلاه قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ بِأَلْعَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ (٢١)﴾ [من] [القاموس القويم ١/٣٣٥]

(٢) العطل الجور وتجارب الحد فى كل شيء قال تعالى ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ إِذَا نَطَلَا (٢١)﴾ [الكهف] أى : قولاً جائزاً مجازاً للحد [القاموس القويم ١/٣٤٩]

(٣) اكفليها أى اجعلنى كشافلاً بها واعياً هتومها مالكا لها عزمى فى الخطاب غلبنى وقهرنى [القاموس القويم ٢/١٨، ١٦٧]

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ
دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٤٤﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نجاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه
السلام لصقته ؛ وكان يريد أن يُصوِّرَ الظلم الذي وقع عليه ، وحكم
داود بأن مَنْ أخذ النعجة لنصمها لنفاجه هو الذي ظلم ، وشعر داود
أنه لم يُوفَّق في الحكم ، لأنه ذكر في حثيثة الحكم نجاج الذي أراد أن
ياخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإبانة الذي أراد الاستيلاء
على ما ليس من حقه ، ولذلك اعتر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق
فيها ، واستغفر الله بالركوع ولقوة

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تاويل الرؤيا
متجرداً من الذاتية ، وأنهى التاويل بالقول
﴿ قُصِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتَانِ ﴾ ﴿٤٥﴾ [يوسف]

أي : أنه لا مجال للرجوع أو العُدول عن حدوث ذلك انذى وصل
إليه من تاويل ؛ فقد جاء التاويل وفقاً لما علَّمه الله له

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل
الجُبِّ وقبل اسجن ، وقيل إن عمته ابنة إسحق ، وهي أكبر أولاده ؛
قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدَّر
محبقتها له

(١) خسر راكمباً ، اسرع إلى الركوع والخضوع لك خاله سقط من علو [القاموس القويم

وتناقت نفس يعقوب إلى ولده ، فذهب إليها وقال لها سلمى إلى يوسف لكنها قالت . والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه . فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدت إلى شيء^(١) من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعه تحت ملاس يوسف

وكان أعرف الجارى أنه إذا سرق أحد شيئا وتم ضبطه ، تحول من حر إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته ، أعطت العمّة فقدان الشيء الذى أعطاه لها والدها إسحق ، وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته والله إنه لسلم - أى عبد - وكان العرف أن من يسرق شيئا يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء

وهكذا بقى يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استردده إلا بعد أن ماتت العمّة

ثم جاءت حادثة الحب ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لفرايته ، ورغم تيقن العزيز من براءته إلا أنه أودع السجن : ويقول الرواة

« إن يوسف عليه السلام قد عُرف فى السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسن السمات^(٢) ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير - أى تأويل الرؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

(١) هذا الشيء هو منطقة إسحاق فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤٨٦/٢] والمنطقة هي كل ما ضد به الإنسان على وسطه وقد ينطق أى شد النطق على وسطه [لسان العرب - مادة نطق]

(٢) السمات حسن القصد والمنهج فى أمور الدين والدنيا قال قتادة بن جثّة السمات اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الأذى [لسان العرب - مادة سميت]

ولما دخل هذان الفتيانِ معه السجن : تألفا به وأحبّاه حبّاً شديداً
وقالا له - والله لقد أحببتك حباً رائداً . قال بارك الله فيكما ؛ إنه
ما من أحدٍ أحبّني إلا دخل على من محبته ضرراً ، أحببتني عمى فدخل
الضرر بسببها ، وأحبتني أبى فاوديت بسببه ، وأحببتني امرأة العزيز
فكذلك

أى أنه دخل السجن وصار معها دون نذب جهّاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك .^(١)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظن أنه سينجو
من السجن -

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ

رَبِّكَ﴾ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَقَلَبَتْ فِي

السَّجْنِ يَضَعُ يَمِينَهُ ﴿٤٤﴾

والمقصود هنا هو السجين الذى رى حُلماً يعصر فيه العنب ،
فهو الذى فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ، ويواصل مهمته فى
صناعة الخمر لسيده .

(١) قال القرطبي فى تفسيره [٢٥١١/٤] ان صاحب السجن احب يوسف فوسع عليه فيه ، ثم
قال يا يوسف لقد احببتك حباً لم احب شيئاً حبك فقال اعوذ بالله من حيك قال ولم
ذلك ؟ فقال احببتى أبى فظلم بى بحرته ما فعلته . واحببتنى سيدتى فظلم بى ما ترى .

(٢) الرب يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى راعى الاسرة ورائعها

[الكلاموس القويم ٢٥١/١] بتصريف

وقوله سبحانه .

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاسِئٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ رَبِّكَ لَأَحْتَمِلُ ۖ﴾ .. (٤٢)

[يوسف]

يعنى أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام .

﴿ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ۖ﴾ .. (٤٢)

[يوسف]

والذكر هو حضور شيء بالبال ، وكان له بالبال صلة استقبال ، مثل أى قضية عرفتها من قبل ثم تركتها ، ونسيته لفترة ، ثم تذكرتها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهى لا تظن فى بؤرة الشعور كل الرقت ، لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشيء واحد ، فإن جاء شيء آخر فهو يزحزح الأمر لأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد فى بؤرة الشعور .

واحتمل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوثر تكبر ويتتابع اتساع أنظارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين مستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتى ما يُذكرك بما فى حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذى كنت قد نسيت وتذكره بكل تفصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُستويين ، فهى تحفظ المعلومات ، وتسترجع المعلومات أيضاً

وقد قال يوسف لمن ظن أنه ناج .

﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. ﴾ (٤٦)

[يوسف]

أي اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك

وقال بعض المفسرين إن يوسف عليه السلام حين نطق بهذا القول ، شاء له الله أن يملك في السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغي له كرسول أن يوسط النير في مسألة ذكره بالخير عند سيد ذلك السجين

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي ، وهو قد قال لذلك السجين وزميله

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا بَأْسُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي .. ﴾ (٤٧)

[يوسف]

وهذا يعني أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يضل موصولا بالمصدر الذي يفيض عليه

ويتبع الحق سبحانه

﴿ فَاسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَقَبِثْ فِي السَّجْنِ بضع سنين ﴾ (٤٨)

[يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحس شيئا من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مُراداته من خلقه

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ، ونعرف
أن البضع من السنين يعنى من ثلاث سنوات إلى عشر سنوات ،
وبعض العلماء حدّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ مِهَانٍ
يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ ^(١) وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ
وَأُحَرٍ ^(٢) يَأْكُلْنَ بِتَأْيِهَا أَلْمَلَأُ قَرْيَتِي فِي رُءْيَايَ إِنْ
كُنْتُ لِلرُّءْيَا نَاعِبْرُوتَ ﴾ ^(٤٢)

والأرض التي وقعت عليها ، وجرت فوقها تلك القصة هي مصر ،
وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّون الفراعنة ، وبعد
أن اكتشف « حجر رشيد » ، وتم فكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية عرفنا

(١) عجاف: هرن فهو أعجاف وهي عجفاء وقوله تعالى ﴿ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ .. (٢١) ﴾

[يوسف] هي الهَرْزَى التي لا لحم عليها ولا شحم هربت مثلاً لسبع سنين لا طار فيها ولا

خشب [أصل العرب - مائة - عجاف]

(٢) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبحر ملكهانة والسياسة والمراغة والسحر وأشرف

قومه [راجع تفسير القرطبي ٤/ ٢٥٢٠]

أن حكم الفراعنة قد اختلفى لفترة ، حين استعمر مصر ملوك الرعاة ،
وهم الذين يُسمون الهكسوس

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف
وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا للهكسوس ،
وقتلوا من كانوا يرأونهم

وحديث القرآن عن وجود ملك في مصر أثناء قصة يوسف عليه
السلام هو من إعجاز التنوؤ في القرآن
وساعة تقرا .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ۖ ۝٤٣ ﴾
[يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ، فهذا يعنى أنها رؤيا منامية .

وكلمة . ﴿ سِمَانٍ ۝٤٣ ﴾ [يوسف]

أى مُتَلَكِّة اللحم والعافية . وكلمة (عِجَاف) أى ، الهزيلة ، كما
يُقال عند العامة « جلدنا على عصبها » : فكيف تاكل العجاف
السمان ، مع أن العكس قد يكون مقبولا ؟
وأضاف الملك .

﴿ وَسَبْعٌ مُّتَبَلَّاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ ۝٤٤ ﴾ [يوسف]

ولم يصف لملك أى فعل يصدر عن السباع ، ثم سأل من حوله
من أعيان القوم الذين يتصدرون صنور المجالس ويملاون العيون

﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (١١) [يوسف]

وكلمة (تعسرون) مأخوذة من « عبر النهر » أي - انتقل من شاطئ إلى شاطئ ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوَى في الرؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العبرة » ، وهي التجربة التي نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شيء مكتوم في النفس ، وتؤنّيه ، وتظهره بالعبارة .

ومنه « العبرة » ، وهو اندمعة التي تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما - سواء كانت مشاعر حزن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّرُ الرؤيا حين يعبر من خلال رموزها - من الحيل إلى الحقيقة .

ولم يعرف املاً الذين حول الملك تفسيراً لرؤيا النى رأها في منامه

ويقول الحق سبحانه ما جاء على السنتهم

﴿ قَالُوا أَضُفِّتُ أَخْلِمُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (١٢)

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلام أخلام بلا معنى .

(١) الصفح . قبضة من قضبان مفتلة من اللبث وقوله تعالى ﴿ أَفْتُونِي أَخْلَامِ .. ﴾ (١١)

[يوسف] أي أخلام مفتلة مفتلة ملبسة غير مميزة على سبيل الاستعارة ، كالاشبه

المفتلة [القاموس القويم ١/ ٣٩٤]

و « الضُّعْفُ » هي حُرْمَةٌ من المشائش مختلفة الأجناس ، فكان
رُؤْيَا الملك لا تاويلَ لها عندهم ؛ لانهم ليسوا من أهل التمييز في
التاويل

وهذا صدق من البطانة في ألا يحبر أحدهم بشيء ، إلا إذا كان
على علم به ، ولا يخبر أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعنيه .
والذي يعلن جهله بأمر لسانه - ويكون قد علمه - يجعله يسأل
غيره ، أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَنْبُتُ على هذا الجواب .
ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصدق في الفُتْيَا : مَنْ قَالَ
لا أدري فقد أفتى ، لأنه حين يقول « لا أدري » ، سيضطرك إلى
أن تسأل غيره

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مَسْحَاوَاذَكَرَ بَعْدَ أَمْرٍ ﴾

أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَارْسِلُونِ ﴿٥٠﴾

وكان الذي نجا من السجينين يسمع مقالة الملك ورد الملاء ؛
فاسترجع بذاكرته ما مرَّ عليه في السجن ، وكيف رأى الرؤيا ، وكيف
قام يوسف بتأويلها

(١) انكر أصلها ادنكر على وزن افشعل ، قلبت تاء الاستعجال دالا وذاك اللفظ دالا وانضمت

الدالان ﴿ وَقَدْ مَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ [القمر] [القاموس القويم ٢٤٤/١]

(٢) الامة المدك والحين والوقت وفشّر به قومه تعالى ﴿ واذنكر بعد أنك ﴾ [يوسف]

وقرأ ابن عباس « واذنكر بعد آية » بلفظه والامة التبيين والمقالة أي تذكر بعد تسليان

[القاموس القويم ٢٤٤/١]

وقوله ﴿وَاذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ.. (٤٥)﴾ [يوسف]

يعنى أنه أجهد عقله وذهنه ، واعتل التذكر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مرت ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذْ كَانُوا أَهْلَ مَعْدُودَةٍ لِّقَوْلِنَا مَا بِحَيْثُهِ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٥)﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام -

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ۖ لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٥)﴾ [المحل]

أى أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى بيئته السلام ، وبعد أن اعتل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة من بضع سنين ، أيام أن كان سجيناً وراى رؤيا منامية أولها به يوسف ، قال الساقى للملا ولملك عن تلك الرؤيا

﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥)﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى من يؤول له رؤيا املاك .

وقوله ﴿فَأَرْسَلُونِي (٤٥)﴾ [يوسف]

(١) اللقوت الطاعة والدعاء وفنت المؤمن بالله ، أطامه وأقر له بالمعبودية وقتت فى صلاه ، خضع راطعان وقتت دعا وأطال الدعاء [القاموس القويم ١٣٤/٢]

يعنى أن التاويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تاويل
الرؤى

ونلاحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل - إلى من سوف
يذهب ، لأن ذلك معلوم بالتسجئة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة
وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ،
فيقول لحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ
خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْكُلُهَا الْعَالَمُونَ
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

رقوله ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. ﴾ (٤٦)

[يوسف]

يدل على أنه قد جُرب في مسائل متعددة ، وثبت صدقه

و « صديق » لا يقتصر معناها على أنه صادق في كل أقواله ،
وصادق في كل أفعاله ، وصادق في كل أحواله ، ولكن معناها يتسع
ليدلنا على أن الصدق ملازم له دائماً في القول وفي الفعل

(١) الصِّدِّيقُ بكسر الصاد وتشديد الدال. سيفه مبالغة من الصدق ﴿ أَوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ
﴿٥٠﴾ [الحديد] ، وهي صُنْبُلَةٌ ﴿ وَأَمَّا صُنْبُلَةٌ .. ﴾ (٥٠) [المائدة] هي مريم عليها

أما في الأقوال فصدقه واضح : لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدل عليها

وأما صدق الأفعال فهو ألا تُجرب عليه كلاماً ، ثم يأتي فعله مخالفاً لهذا الكلام ، وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صديق » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان في الحياة تنقسم قسمين ، إما قول وإما فعل ، والقول أدوات اللسان ، والفعل أدوات كل الجوارح

إنّ فهناك قول ، وهناك فعل ، وكلاماً عن ، فالقول عمل ، والرؤية بالعين عمل ، والسمع بالأذن عمل ، والمسه باليد عمل

لكن القول يختص باللسان ، وأخذت بقية الجوارح الفعل ، لأن الفعل هو الوسيلة الإسلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ حق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان إما قول ، وإما فعل

والصديق هو الذي يصدق في قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق في فعله بالأقول ما لا يفعل

ولذلك قال الحق سبحانه ،

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ^(١) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى امك كانت له مع يوسف تجربتان .

(١) المقت أشد الإبهاس مقت يبعثه أبغضه ويقول تعالى ﴿ لَمَقْتَ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [غافر] قال يقول لَمَقْتِ اللَّهُ (ياكم حين يهينم إلى الإيمان فلم ترمنوا أكبر من مقتكم لأنفسكم حين رايتم العذاب [لسان العرب - مادة مقت]

التجربة الأولى : تجربة معايشته في السجن هو وزميله الحبز ،
وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُدَوِّلَ لهما الرؤييين
﴿ قَالَ أَخَذَهُمَا إِنِّي أُرَاتِي أُعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أُرَاتِي أُحْمِلُ نَوْحًا
رَأْسِي خَيْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا بَقَاوِيلَهُ ﴾ (٣٧) [يوسف]
والتجربة الثانية : هي مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً
لتقاويله للرؤييين ولذلك يقول له منا

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٦) [يوسف]

أى : أفئتنا في رؤيا سبع بقرات سمان : ياكلهن سبع عجاف
شديدة الهزال ، وسبع سُبُلَاتٍ خُضْرٍ ، وسبع أُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي
أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله . ﴿ أَفْتِنَا .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصصه ، بل هي تخص رائيها لم
يُحدده ، وإن كنا قد عرفنا أنها رؤيا الملك

وقوله ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

هو تحرُّز واحتياط في قضية لا يجزم بها ، وهو احتياط في واقع

قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ، ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده ، ولذلك يُعلمنا الله

﴿ وَلَا تَقُولُوا شَيْءٌ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٤٤) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا سَبَّحْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ (٤٥) [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجت نفسك من دائرة الكذب ، وما دُمْتَ قد ذكرت الله فهو سبحانه قادر على أن يهديك إلى الاختيار المناسب في كل أمر تواجهه فيه الاختيار

فكان الله يُعلم عباده أن يحافظوا على أنفسهم . بأن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم ، لأنك مهما خططت فانت تخطط بعقل موهوب لك من الله ، وحين تُقدم على أي فعل ، فأي فعل مهما صغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة ، لا تملك منها شيئاً ، لذلك فعليك أن ترد كل شيء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال السائل :

﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

وبذلك يُعلمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل

﴿ تَعْلَمُهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٦) [يوسف]

وكان الرجل قد عرف أمه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السلام ؛ ويعود به إلى الناس ، فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التاويل ؟

أستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجة^(١) فيه ؟ أو يستقبلون التاويل بتصديق ، ويعلمون قدرك ومنزلتك يا يوسف ، فيخلصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ۚ ۞ (٤٦) ﴾ [يوسف]

قد يدفع سئلا إلى أن يقول : من الذي كلف الساقى بالذهاب إلى يوسف ، أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد مسحها الساقى إلى الكل : للاحتياط الأدنى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا ۖ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ
فِي سُبُلِهِمْ ۖ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ۞ (٤٧) ﴾

وهذه بداية تاويل رؤيا الملك .

والدَّابُّ معناه المواظبة ، فكان يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدَّابٍ وبدون كسل

(١) تعاجلاً . تعامساً وتنازعاً . كل منهما يحاول أن يثبت أنه الحق . قال تعالى ﴿ وَإِذْ

تصاحفون في النار ۞ (٤٥) ﴾ [طه] أي يتصاحفون [القاموس القويم ١/١٤٢]

(٢) داب على الأمر امتثاله . والدَّابُّ والدَّابُّ العادة والشار . قال تعالى ﴿ عَمَلٌ ذَلِيلٌ لِرَبِّ رُوحٍ

(٣) ﴾ [طه] أي عادتهم وهوانهم . وقال تعالى ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا ۞ (٤٥) ﴾

[يوسف] [القاموس القويم ١/٢١٩]

ويتبع . ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَكُلُونَ ﴾ (٤٧)

[يرسب]

أى ما تحصدوه نتيجة الزرع بعد واجتهاد ، فلكم أن تاكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً في سبيله

والحفظ في السبيل يُعلمنا قدر القرآن ، وقدره من أنزل القرآن سبحانه ، وما أتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا حُرِّن في سبيله ، فذلك حماية ووقاية له من السوس

وبعض العلماء قال في تفسير هذه الآية إن المقصود هو تخزين القمح في سبيله وعيدانه .

وأقول إن المقصود هو ترك القمح في سبيله فقط ، لأن العيدان هي طعام الحيوانات

ونحن نعلم أن حبة القمح لها رعاءان ، وعاء يجمعها ، وهو ينفصل عن القمح أثناء عملية « الخرس » : ثم يطير أثناء عملية « التذرية » منفصلاً عن حبوب القمح

وحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التي تنفصل عن الحبة حين فطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهي نوعان : « ردة خشية » و « ردة ناعمة »

ومن عادة البعض أن يفصلوا الدقيق النقي عن « الردة » ،

وهؤلاء يتجاهلون أو لا يعرفون - الحقيقة العلمية التي أكدت أن تناول الحيز المصنوع من الدقيق الأبيض انخالي من « الردة » يصيب المعدة بالتلبك

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوي على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف في مصر يقومون بتفقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمونه « الدقيق العلامة » ؛ الذي إن وضعت ملعقة منه في فمك ، تشعر بالتلبك ، أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعي الممزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ، فن تشعر بهذا التلبك .

ويمتنن الله على عباده بذلك في قوله الحق .

﴿ وَالْعَبُّ ذُو الْعَصْفِ ^(١) وَالرَّيْحَانُ ^(٢) ﴾ [الرحمن]

وقد اهتمت علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة في طحن القمح ، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن من يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقي للغاية ، يعاني من ارتباك غذائي يُلجئه إلى تناول خبز مصنوع من قشر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السن » ، ليعوض في غذائه ما فقده من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه

(١) العَبُّ ذُو الْعَصْفِ أي ذو اللبن أو ذو الورق الذي يخلقه وَالْعَصْفُ والعصيفة ورق السبل قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية (٢٧١/٤) « يسمى هذا والله أعلم أن العَبَّ كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف وهو ما على السبلة ، ويحار وهو الورق الملقب على ساقها ،

﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَإِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الساقى الذى جاء يطلب منه تاويل رؤيا الملك ، بما يجب ان يفعلوه تحسباً للسنوات اسبع العجاف التى تلى السبع سنوات المزدهرة بالخضرة والعطاء ، فلا يأكلوا من البقول بل يتناولوا من القمح على قدر الكفاف .

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التاويل لحلم الملك .

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ۖ كُنَّ مَاقَدَّ مُمْ
هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ ﴾ (٤٨)

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث فى مصر من جذب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذى يتطلب همه لا تقتر .

وقوله سبحانه فى وصف السبع « سنوات » بأنها .

﴿ شِدَادٌ ﴾ (٤٨) [يوسف]

يعنى ان الجذب فيها سوف يُجهد الناس ، فإن لم تكن هناك

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٥٢٦/٤) : أى ، مما تحبسون لتربوا ، لأن فى استبقاء البذر تحصين القوات . قال ابن عبيدة : تمزيق . وقال قتادة : تحسبون شخرون ، والمعنى واحد .

حَصِيلَةً تَمْ تَحْزِينُهَا مِنْ مَحْصُولِ السَّبْعِ السَّنَوَاتِ السَّابِقَةِ ، فَقَدْ تَحَدَّثَ
الْمَجَاعَةُ ، وَلِيَصْصِمَ انْفَاسُ بَطُونِهِمْ فِي السَّنَوَاتِ السَّبْعِ الْأُولَى ،
وَلِيَأْكُلُوا عَلَى قَدَرِ الْضَّرُورَةِ ، لِيَضْمَعُوا مُوَاجَهَةَ سَنَوَاتِ الْجَدْبِ

وَمَنْ نَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَقْبِلُ حَيَاتَهُ بِالتَّنَفُّسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ،
وَالطَّعَامُ إِنَّمَا يَمَرُّ عَلَى الْإِنْسَانِ ، وَيُعْطِيهِ قُوَّةَ يُوَاجِهُ بِهَا الْحَيَاةَ .

وَلَكِنْ أَغْلِبَ طَعَامُنَا لَا نَهْدَفُ مِنْهُ الْقُوَّةَ فَقَطْ ؛ بَلْ نَبْغِي مِنْهُ الْمَتْعَةَ
أَيْضًا ، وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَبْغِي سَدَّ غَائِلَةٍ^(١) الْجُوعِ فَقَطْ ، لَا كُنْهِي
بِالطَّعَامِ الْمَسْلُوقِ ، أَوْ بِالْحَيِيزِ وَالْإِدَامِ فَقَطْ ، لَكِنَّا نَأْكُلُ لِلْإِسْتِمْتَاعِ

وَيَنْتَكُمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ :

﴿ فَكَلَرُهُ هَنِيئًا^(٢) مُرِيئًا^(٣) ۝٤٤ ۝﴾ [النساء]

أَيْ : بَدُونَ أَنْ يَخْضِرَكَ ، وَدُونَ أَنْ يَكْجِثَكَ هَذَا الطَّعَامُ إِلَى
الْمُهْضِمَاتِ مِنَ الْعَقَاقِيرِ .

وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ﴿ هَنِيئًا . . ۝٤٤ ۝﴾ [النساء]

أَمَّا الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ ﴿ مُرِيئًا ۝٤٤ ۝﴾ [النساء]

(١) الْغَوَائِلُ الْمَهَالِكُ ، وَالْقَوْلُ الْمَشَقَّةُ . [لَعْنَةُ الْمَرْبِ - مَادَّةُ حَوْل]

(٢) هَنِيئٌ يَهْنَأُ هَنَاءً : تَيْسَرُ بِلا عُسْفَةٍ ، وَهَيَّأَ أَمْرَهُ ، وَبَسَّطَ بِهِ سَبَابِيحَهُ وَهُوَ طَعَامٌ هَنِيءٌ أَيْ
سَالِحٌ تَلْعَمُ بِسَعْدٍ بِهِ أَكَلُهُ قَالَ تَعَالَى ﴿ فَكَلَرُهُ هَنِيئًا مُرِيئًا ۝٤٤ ۝﴾ [النساء] أَيْ حَلَالًا طَيِّبًا

لَا حَرَمَةَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي أَكَلِهِ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ٢/٢٠٦]

(٣) مُرِيءٌ الطَّعَامُ : سَيِّئٌ لِيِ الْعَلَقِ وَخُسْفَتِ عَاقِبَتِهِ وَخِلَا مِنْ التَّنْفِيهِسِ [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ]

فهو الطعام الذي يفيد ويمد الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يُستساغ
طعام

وهنا قال الحق سبحانه .

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَبِيعٌ شَدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تُحْصِنُونَ (٤٨)﴾ [يوسف]

وطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هي التي تكلل بل البشر
الذين يعيشون في تلك السنوات هم الذين يأكلون

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أي حدث يحتاج لزمان ومكان ؛
ومرة يُنسب الحدث للزمان ؛ ومرة يُنسب الحدث للمكان

والمثل على نسبة الحدث للمكان هو قول الحق سبحانه .

﴿وَسَأَلَ^(١) الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَانْبَغِر^(٢) .. (٨٧)﴾ [يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التي كانوا فيها ،
وأصحاب القوافل التي كانت معهم

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمتها ؛ نجد الحدث
منسباً للزمان وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن
يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبذور لاستخدامها
كتقاوى في العام التالي لسبع سنوات موصوفة بالجذب .

(١) وهذا الأسلوب يصح في العبارة المجاز بالحذف - ولعل الإعجاز الجرجاني

(٢) انبغر - والعبير - القوم سمعوا نوابهم وأحسنهم من الطعام . قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا

الْمُرُاتِكُمْ لَسَاقُتُونَ (٤٥)﴾ [يوسف] أي أيها القوم الراحلون . [القاموس القويم ١٤/٢]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا تُحْصِنُونَ ﴾ (٤٨)

[يوسف]

نجد من مادة « حصن » ، وتفيد الامتناع ، ويقال « أقاموا في داخل الحصن » أى . أنهم إن هاجمهم الأعداء : يمتنعون عليهم ، ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (٢٤)

[النساء]

أى الممتنعات من عملية الفجور ، ومن الحرائر

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللّٰى أَحْصَتْ رَجْعَهَا .. ﴾ (٤١)

[الأنبياء]

أى . التى أحكمت صيانة عفتها ، وهى لسيدة مريم البتول^(١) عليها السلام . وهكذا نجد مادة « حصن » ، تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (٤٩)

(١) لبيتول مر النساء: العذراء المنقطعة عن الأرواح . ويقال هى المنقطعة إلى الله عز وجل

عن الدنيا [لسان العرب - مادة بثل]

(٢) قال ابن عباس يعصرون الأعذب والذقن . وقال ابن جرير يعصرون العنب ضمراً ، والمسمم نهباً . والزيئون ريتاً . وقيل أراد حلب الالبان لكثرتها . وبدل ذلك على كثرة

الذبات [تفسير القرطبي ٢/٢٧٧]

ونلاحظ أن هذا الأمر الذي قُدمت عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرؤيا ، لأن ما اجتذبه رؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف^(١) يأكلن سبع بقرات سمان ، وسبع سُنبلات خضر وأخر يابسات

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا ، وبعد ذلك حياءً بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخصبُ العادي ليعطيهم مثلاً كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غوث » ، لأننا نقول « أغثُ فلاناً » أى أغثُ فلاناً ، لأنه فى حاجة للمعون ، والغيث^(٢) يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِيَنْهِيَ الْجَدْبَ .

وقوله : ﴿ يَغَاثُ النَّاسُ ۖ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى يُعَاثُونَ بما يأتهم من فضل الله بالضرورى من قوت يعسك عليهم الحياة .

وَيُذِيلُ الْحَقَّ سَحَابُهُ الْآبَةُ بقوله : ﴿ وَلِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى ما يمكن عَصْرُهُ من حبوب أو ثمار ، مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعون .

(١) عجاف هذا لمر أعجف وهو عفاة أى هزيلة والتعصيف سوء الغذاء والهزال
وقوله تعالى ﴿ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَشْرَ ﴾ (٥٠) [يوسف] هى الهَيْكَلُ التى لا لحم عليها ولا
شحم ضريرت مثلاً لسبع سمين لا قطر فيها ولا خصب [لسان العرب مادة عجد]
(٢) الغيث المطر والغيث التكلأ يبيت من ماء السماء والاصل المطر ، ثم سُخِّيَ ما يبيت
ب غيثاً [لسان العرب - مادة غيث]

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزقون بحير يفيض
عن الإعانة ؛ ولهم أن ينخروه . وما سبق في آيات الرؤيا وتاويلها هو
حوار بين يوسف الصديق عليه السلام - وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لفظة عجز الحاشية عن الإمتاء في
أمر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأن يرسلوه كي يُحضر لهم تاويل
الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علم الملك بتاويل الرؤيا ،
فيقول سبحانه

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّي يَكْفِيهِنَّ عِلْمٌ ۖ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له
تاويل الرؤيا ، وأصر الملك أن يأتيه بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب
الاستفادة منه ، وعاد الساقى ليُخرج يوسف من السجن الذي هو فيه

لكنه فُوجيء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله بمن جاء
يُصعبه إلى مجلس الملك .

﴿ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ لِمَا سَأَلَ مَا يَأْلُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۖ ﴾ [يوسف]

وهكذا حرص يوسف على ألا يستجيب لمن جاء يُخلّصه من عذاب
السجن الذي هو فيه ، إلا إذا برئت ساحتها براءة يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَّعنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى لَفْحِشَاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ ﴾ (٥٠)

[يوسف]

ويُحْفى هذا القول في طَيَّانته ما قتالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العبرة التي تخدمنا في واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة

وبراءة ساحة أي إنسان هو أمر مهم كي تزول أي ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أي عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساجته ، حتى لا يَقُولُنَّ قائل في وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمْزاً »^(١) : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول .

« عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه - والله يغفر له - حيث أُرْسِلَ إليه لِيُستَفْتَى في الرؤيا ، وإن كنت أنا بم أفسح حتى أخرج ، وعجبت من

(١) للمر - العيب في الوجه ، راصه الإشارة بالعين واللواص والشفة مع كلام عفى باللهمر
العيب والرقيمة في الناس وذكر عيرهم [لسان العرب - مادتي لمز ، همز]

صبره وكرمه - والله يغفر له - أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم
بعذره ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر^(١) .

رشاء ببينا ﷺ أن يوضح لنا مكانة يوسف من الصبر وحرمة
النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ

« إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن
يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، قال - لو لبثت في السجن ما لبث ، ثم
جاءني الرسول أجبت ثم قرأ ﷻ -

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي
قَطَعْتَ بَيْنَهُنَّ ۖ ﴾ (٥) ، (١)

وهكذا بين لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ،
وخشيته أن يخرج من السجن فيشار إليه هذا من رواد امرأة سيده .
وفي قول الرسول ﷺ إشارة إلى مخالفة يوسف في ذلك الأمر ،
وكان من الاحوط أن يخرج من السجن ، ثم يعمل على كشف براءته

ومعنى ذلك أن لكرم لا يستعمل المواقف استغلالاً أحقق ، بل
ياخذ كل موقف بقدره ويرتب له ؛ وكان يوسف واثقاً من براءته ،
ولكنه أراد ألا يكون العلك لحر من يعلم

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، (١٦٦) ، قال الهيثمي في مجمع الروايات (٧ / ٤) «فيه

إبراهيم بن يزيه القرشي العنكي ومرو مخرؤك ، وقد أوردته السيوطي في تدر المنثور

(٤ / ٥٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٧/٢) ، والترمذي في مسنده (٣١١٦) قال : «حديث حسن»

وكذا أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٤٦/٢) كلهم من حديث أبي هريرة قال الحاكم

« هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السبابة » وسكت عنه الذهبي

وَصَدَّقَ رَسُولَنَا ﷺ حِينَ قَالَ - « نَحْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ ،
فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَائِنَةٌ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيَّةٌ »^(١) ،

وَكَانَ ﷺ يَرَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَقْتَضِي أَلَّا يَقِفَ الْمُؤْمِنُ مَوْقِفَ
الرَّيَّةِ ، لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ حِينَ يَرَوْنَ نَاقِبَهَا ، قَدْ تَطَيَّرَ الْغَيْبَةُ مِنْ نِبَاهَتِ
الْبَعْضِ ، فَيَتَقُولُونَ عَلَيْهِ .

لِذَلِكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَحْتَاطَ لِنَفْسِكَ ، بِأَلَّا تَقِفَ مَوْقِفَ الرَّيَّةِ ، وَالْأَمْرَ
الَّذِي تَأْتِيكَ مِنْهُ الرَّيَّةُ ، عَلَيْكَ أَنْ تَبْتَعدَ عَنْهُ

وَلَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، فَقَدْ حَامَتْ زَوْجَهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ
حُصَيْنٍ تَزْوَرُهُ وَهُوَ مَعْتَكِفٌ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، فَتَحَدَّثَتْ
عِنْدَهُ سَاعَةً مِنْ الْعِشَاءِ ، ثُمَّ قَامَتْ تُنْقَلِبُ - أَيْ تَعُودُ إِلَى حَجَرَتِهَا -
فَقَامَ مَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ الَّذِي عِنْدَ
مَسْكَنِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ
فَمَلَأَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَفَذَا^(٢) ، فَقَالَ لِهَئِمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
« عَلَى رِسْلِكُمَا ، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُصَيْنٍ ، قَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَبَّرَ عَلَيْهِمَا مَا قَالَ . قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانِ يَحْرِي مِنْ ابْنِ
آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْذَفَ فِي قُلُوبِكُمَا »^(٣) .

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (١١٧٨) ، وَكَتَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٠٠/١) ،

وَالْتِّرَمِذِيُّ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٢٥١٨) وَقَالَ : حَدِيثٌ عَنِ صَمِيعٍ ، مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ

(٢) الْقَتَادَةُ الْجَوَازُ وَفِي السُّكْمِ جَوَارُ الشَّيْءِ وَالْمَعْلُومُ بِهِ يَقُولُ نَفَذَتْ أَيْ جُرَتْ

[لِسَانُ الْعَرَبِ حَادَّةٌ نَفَذَ | أَيْ مَرَّ وَجَاوَزَ]

(٣) مُطْلَقٌ عَلَيْهِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ (١٢١٩) ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢١٧٥) مِنْ

حَدِيثِ صَفِيَّةَ بِنْتُ حُصَيْنٍ

وهنا في الموقف الذي نتناوله بالحواطر ، نجد الملك وهو يستدعى النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وراودن يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ مَوِءٍ قَالَتْ أُمَرَاتُ الْعَزِيزِ الْكَذَّابُ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٥١)

ونعلم أن الحراودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز ، واستعصم يوسف ، ثم دعت هي النسوة إلى مجلسها ، وقطعن أيديهن حين فوجئن بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَالْأَعْرَفُ عَنِّي كُنْهْنُ أَحِبُّ إِلَهُنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٢) [يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ .. ﴾ (٥١) [يوسف]

والخطب هو الحدث الجلل ، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس ، فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم ، بل يتكلمون عنه بهديث

(١) حصحص الحق وضح وتبين بعد خلافه والحصحص بيان الحق بعد كتمانته أي ظهر ويرى . [لسان العرب - مادة حصحص]

(٢) صبا يسير حال راحب ﴿ أَحِبُّ إِلَهُنَّ .. ﴾ [يوسف] أي أملك إليهن وأفضل ما يفرقني به وصبا إلى الله حن واشتاق إليه [القاموس المفيد ١/٣٦٨]

يصل إلى درجة نهتز لها المنية : لأن مثل هذا الحدث قد وقع

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢١) تَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ قَوْمَ
مُجْرِمِينَ ﴿ (٢٢) ﴾ [التأريثات]

أي أن الملائكة طمأننت إبراهيم عليه السلام ، فهي في مهمة
لعقاب قوم مجرمين

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامري قد
صنع لهم عجلاً من الذهب الذي أحذوه من قوم فرعون تجده يقول
للسامري :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٢٥) [طه]

وقول امك هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها

﴿ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْدَتُنْ يُونُسَ عَنْ نَفْسِهِ . (٥١) ﴾ [يوسف]

يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها قهقراً لها ، واعتبرها
خطيئاً : مما يوضح لنا أن القيم هي القيم في كل زمان أو مكان
وبدا النسوة الكلام ، فقُلْنَ :

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ . (٥١) ﴾ [يوسف]

ولم يذكُرْنَ مسألة مُراودتهن له ، وكان الأمر المهم هو إبراء
ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن ﴿ حَاشَ لِلَّهِ . (٥١) ﴾ [يوسف]

أي نُرّه يوسف عن هذا ، وتزيتها ليوسف أمراً من الله .

وهنا تمخّلت امرأة العزيز .

﴿ قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اِنَّ هَٰذَا خَصَمٌ بَعْضُ الْحَقِّ ۖ ۝٥١ ﴾ [يوسف]

اى . انها اقرت بأنه لم يعد هناك مجال للستر . ووضح الحق بعد خفاء . وظهرت حصّة الحق من حصّة الباطل . ولا بدّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ اَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَرَنَّهُ لِمَنِ الصّٰدِقِيْنَ ۖ ۝٥٢ ﴾ [يوسف]

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية

﴿ ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنِّىْ لَمْ اَحْنَثْ بِالْغَيْبِ وَاَنَّ اللّٰهَ

لَا يَهْدِىْ كَيْدَ الْخٰٓئِنِيْنَ ۝٥٣ ﴾

قالت ذلك حتى تُعلنّ براءة يوسف عليه السلام . وانها لم تستهز فرصة غياب فى السحر وتنتظم منه . لانه لم يستجب لمرآودتها له . ولم تنسج له اثناء غيابة المؤامرات . والدسائس . والمكائد

وهذا يدلنا على ان شرّة الإنسان قد تتوهج لغرض خاص . وحين يهدأ الغرض ويذهب . يعود الإنسان إلى توازنه الكئاسى فى نفسه . وقد يجعل من لؤلة لاولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف . كى تستر الحسنة السيئة . مصداقا لقول الحق سبحانه .

﴿ اِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ذٰلِكَ ذُكِّرَ لِلذّٰكِرِيْنَ ۖ ۝١١٤ ﴾ [مرد]

ولو ان انسانا عمى سيئة ونضحها آخر عليها : قالقاضى لذلك

للسيئة إنما يجرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استنبروا سيفات المسية ، لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يحمو به سيئاته

ولذلك قالوا : إذا استقرأت تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس لقوية في الأخلاق والقيم ، قد تجد لهم من الضعف هنات وسقطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تذهب عنهم السيئات ، لأن يال الواحد منهم مشغولٌ بصعقه الذي يلهمه ، فيدفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترف امرأة العزيز بما فعلت ، قالت

﴿وَأَنِّى إِلَهُ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٧) [يوسف]

أى أنها أقرت بأنه سبحانه وتعالى لا يُفِذُ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى غيظه

وتواصل امرأة العزيز تقول .

﴿يَا أُمِّى أَبْرِئِ نَفْسِىَ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَا

رَبِّىَ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٨)

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ، وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ، فهي لم تحضر لتبرئ نفسها .

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٥٨) [يوسف]

ومجىء قول الحق سبحانه المؤكّد أن النفس على إطلاقها أمّارة

بالسوء ، يجعلنا نقول إن يوسف أيضاً نفس شريرة

وقد قال بعض العلماء^(١) إن هذا لقول من كلام يوسف ، كردٌ عليها حين قالت

﴿أَنَا رَاودُتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْ بِالنَّعِيبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول ﴿وَمَا أَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا نَفْسًا لَّامِرَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي..﴾ (٥٣) [يوسف] ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كَلَوْنٍ من الحرص على ألا يلعبه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذي صرف كيدهنَّ عنه .

وهذا لَوْنٌ من رحمة الله به ، فهو كبشر مُجَرَّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الفواية ، لكن سبق سبحانه عصبه من الرُّكُل

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس ، إنها أُمارة بالسوء ، وفي هذا توضيح كافٍ لطبيعة عمل النفس ، فهي ليست أُمرة بالسوء بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر ،

لا ، بل انتبه أيها الإنيمان إلى حقيقة عمل النفس ، فهي دائماً أُمرة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكاليفات الإلهية كلها إما أوامر أو نَوَاهٍ .

(١) قال ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والقول الأشهر والاثيق بسياق القصة برماني الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بعشرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك [انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٨٦ بتصرف]

وقد تستقبل الأمر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن التواهي تمنحك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها في ظاهرها محمّدة ، وتلبى مداء فرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ

« حَفَّتُ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحَفَّتُ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »^(١) .

أي : أن المعاصي قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى النذة العارضة لوقتية ، إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي قُصِّدَ إليها تلك اللذة ، لأن شيئاً قد تستلذُّ به لحظة قد تشقى به زمناً طويلاً

ولذلك قلنا : إن الذي يُسرف على نفسه غاف عن ثواب اطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضّر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ، لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبي ﷺ

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »^(٢) .

إنّ فلحظة ارتكاب المعصية يجد الإنسان وهو يستتر إيمانه ، ولا يصعق باله أنه قد يمرت قبل أن يتوب عن معصيته ، أو قبل أن يكفر عنها

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٢/٢ ، ٢٥٤) ، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) .

والترمذي في مسنده (٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم في صحيحه (٥٧) كتاب

الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

ويعطيه الإنسان في حساب عمره ؛ لأن أحدا لا يعلم ميعاد أجله :
أو الوقت الذي يفصل بينه وبين حساب المولى - عز وجل - له على
المعاصي

وكل منّا مُطالب بأن يضع في حُسبانهِ حديث الرسول ﷺ .
« الموتُ القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته » ^(١) .

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهو
الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذي كان إذا وقف على قبر بكى حتى
تبتل لحيته ، فسئل عن ذلك ، وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ،
وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده
أيسر منه ، وإن لم ينجُ منه ، فما بعده أشد » ^(٢) .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية - ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف]
ونعلم أن هناك ما يشغل من الداء ، وهناك ما يُحصَر الإنسان ،
ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه
يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح
الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع في زلة أخرى .

(١) ذكره المجلسي في كشف الغطاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن الحسن بن مالك رضي الله عنه .
وتامره . أخرجوا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه من غير كثرة عليكم ، وإن ذكرتموه في
ضيق وسهولة عليكم ، الحديث

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٣/١) . وابن ماجه في سننه (١٢٦٧) ، والترمذي في سننه
(٢٣٠٨) وقال : حديث حسن عريب . عن حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه

والحق سبحانه هو القائل

﴿ وَفُتِّرَ مِنْ لَقْرَانٍ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ (٤٧) [الإسراء]

فساعة تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً
وتقوى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويُفجّر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك.
وهو رحمة لك حين تتخذ مهباً ، وتطيقه في حياتك ، فيمنحك
مناعة تحميك من المرض فهو طبٌ علاجي وطبٌ وقائي في آنٍ
واحد

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِدِيَارِيَّ مُغْلَبَةً لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ
قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٥٤)

ونلاحظ أن الملك قد قال ﴿ أَتُؤْتِي بِهِ ﴾ (٥٤) [يوسف]

مرتين^(١) ، مرة بعد أن سمع تاويل الرؤيا ، لكن يوسف رفض
الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ، أو أنه خرج وحضر
المواجهة مع النسوة بما فيهن امرأة العزيز

ورأى الملك في يوسف أخلاقاً رفيعة ، وسعة علم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويفكر في صفات هذا الرجل ،

(١) مكر مكانة فهو مكين ثبت واستقر فهو ثابت مستقر قال تعالى ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

(٥٤) [يوسف] أو عظيم عدداً ثابت المنزل [القاموس القويم ٢/ ٢٣٢]

(٢) للمرة الأولى في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِدِيَارِيَّ مُغْلَبَةً لِنَفْسِي فَادْعُ الرُّسُلَ فَلَدَّجَ إِلَى وَتِكَ فَنَسَاكَ ﴾

ما قال النسوة الأثمي قلن أيديهن إن ربي يكيدهن عبيد (٥٣) [يوسف] والمرة الثانية في قوله

تعالى من ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِدِيَارِيَّ مُغْلَبَةً لِنَفْسِي فَادْعُ الرُّسُلَ فَلَدَّجَ إِلَى وَتِكَ فَنَسَاكَ ﴾

[يوسف]

والراحة النفسية التي ملأت نفس الملك ، وكيف دخل هذا الرجل قلبه
والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله
مستشاراً له

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى في قوله
﴿ ائْتُونِي بِهِ اسْتَعْلِفْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
أَمِينٌ ﴾ (٤٤) [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد
أن استشف حفة يوسف على نفسه ؛ وتيقن الملك من بعد الحوار مع
يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ، غريزة الجنس .
وتيقن من أن يوسف تقبل السجن ، وعاش فيه لفترة طالت ، وهو
صاحب علم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرؤيا ، وقد فعل ذلك وهو
سجين، ولم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات
البراءة .

ولكل ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذي أطن الأمر بقوله -
﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٤٤) [يوسف]
وذلك ليستد باب الوشاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين »
هي المكانة التي لا ينال منها أي أحد .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلم عن الوحي من
جبريل عليه السلام قال

﴿ إِنَّهُ نَقُولُ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ ﴿٢٠﴾
[التكوير]

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أهل للثقة عند الحاكم ، وهو
الذي سينفذ الأمور ، وله صلة بالمحكومين ، وإذا كان هو الممكن من
عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين

والمشكلة في مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرْحَحُ لحاكمٍ مَنْ يراهم أهل الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتحصل موازين لعدم . وعلى الحاكم الذكي أن يختار الذين يتمتعون بالأمرين معاً أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا نعتد الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ مَكِينٌ أَمِينٌ ٥١ ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرؤياه ، التي سبق أن أولها يوسف

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ۖ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَإِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ٥٧ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا نَسًا تَخْضَعُونَ ٥٨ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَقْعُرُونَ ٥٩ ﴾ [يوسف]

ومنه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحسن تدبير وحزم وعلم

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتي وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۚ

إِنِّي خَافُطٌ عَلَيْهِ ٥٥ ﴾

(٥١) دأب في معناه دأبا ودأبا جند فيه ولازمه من غير فتور أي مداومين مجسدين لدرى دأب [التاموس القريم ٢١٩/١] بتصرف

(٥٢) الخواش جمع خزانة ، وهو المكان الذي تحفظ فيه الأشياء النفيسة قال ابن كثير في تفسيره (١٨٢/٢) : من الأهرام التي يجمع فيها الثمرات لما يستقبلون من السفين التي أحبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحسن والأصلح والأرشد .

وهذا القول تأكيد لشقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتي في سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلن بهما يوسف عليه السلام وقد يقول قائل اليس في قول يوسف شهرة طلب الولاية ؟ والقاعدة^(١) تقول : إن طالب الولاية لا يؤلى .

ليوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحفيظاً لرسالته ، حيث أنه كان أمراً يستجاب ، ولم يكن مأموراً بالإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق

وقد تأتي ظروف لا تحتل التجربة مع الناس ، فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه

ومثال ذلك ، لفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ، ثم هاجت الرياح وهبت العاصفة ؛ وتعقدت الأمور ، رارتبك القبطان ، وجاء من يحبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ، وبعد أن ينتهي الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يوجه الشكر لهذا الحبير ، ويعود لقيادة سفينته

إذن فمن حق الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعين عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذي خبرة يفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وجه الإصلاح فيه وهذا يكون لتدخل مرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٢٢) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نؤلى على هذا العمل أحداً ساء ولا أحداً حرص عليه »

وفى مثل هذه الحالة يجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين
الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ، بثقته فى إنجاح
المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن ينولى منصباً
لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً

ومذك يظهر وجه الحق ، ويرى سيطرة الباطل

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٥)

[يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكن للسيطر علىها من قيادة الاقتصاد

وقالوا إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ،
لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجُذْب ، وتلك
مسألة تتطلب حكمة وحفظاً وعلماً

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى الميرة الاثمن
من ذهب وفضة ، ومن لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من
الأحجار الكريمة : أو يأتى بالدراب ليأخذ مقابلها طعاماً .

ومن لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أى . يقول
رَبُّ الأسرة الفقير . خذ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية
أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الأمر فى سنوات اجْدَب
ليشد كل إنسان الحزام على البطن . فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء
بل يأكل فى معنى واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف
« المؤمن يأكل فى معنى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »^(١) .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأجرية . من حديث جابر وابن عمر

رضى الله عنهما

وكان التموين في سنوات الجذب يقتضي دقة التخطيط ،
ولا يحتمل أي إسراف

وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع ، بكل إنسان سيأخذ على
قدر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجذب ، وجاءت سنوات البراءة ،
أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سئل ولماذا أخذت منهم ما دمت قد قررت أن ترد لهم
ما أخذته ؟

أجاب : كي يأخذ كل إنسان في أقل الحدود التي تكفيه في
سنوات الجذب

ومثل هذا يحدث عند حين نجد البعض ، وهو يشتري الخبز
المُدعم ليُطعم به الماشية ، وحين يرتفع ثمن الخبز يجد كل إنسان
يشتري في حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألا يُلقي بما
اشترى شيئاً

وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة : لذلك وجب على كل
مرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر وهو يتكرر في حياتنا ، فعين لا يجد أحد
ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن في كبرياء : « إن
معدني لم تَعدُ تتحمل اللحم » .

وقد يعلن الفقير حُبّه للسّمك الصغير ، لأن لحمه طيب ، عكس
السّمك الكبير الذي يكون لحمه « متفلاً » ، أو يعلن إعجابه بالأنجل
الطازج ، لأنه لذيذ الطعم

وتدريجاً في بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش
بعيداً عن بيوت الأهل في سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً
من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفي آخر لقمة في الرغيف ،

أم إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من اطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة وهكذا يتحمل كل واحد على قدر حركته وقدرته .
والشاعر يقول :

والنفسُ راغبةٌ إذا رُقِبَتْها وإذا تُرِدُّ إلى قَلْبٍ مُنْقَعِ
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا^(١)
حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

ومكذا كان تمكن الله ليوسف عليه السلام في الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة ، عابدة ، فلما جاء الجذب ، لم يأتها وحدها ، بل عم البلاد التي حولها .

ببليين أن هناك أناساً من بلاد أخرى لجشوا يطلبون رزقهم منها ؛ والمثل إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولم ينظروهم في بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقعة الشدة كللت شناسمة
ويقول الحق سبحانه

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴾ (٥٦)

[يوسف]

(١) يتبعوا منها حيث يشاء أي يتنقل في أي مكان يريد من أرض مصر ، وهذا كناية عن اتساع جاهه ، [القاموس القويم ١/ ٨٨]

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً في أكثر من مكان ؛ ولا يُطْنُ طَانٌ
أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرف .

لكن . لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة في
بعض البلاد ؛ فما أن يعلموا بوجود بيت للحاكم في منطقة ما ، وقد
يزوره ، فهم يعتنون بكل المنطقة التي يقع فيها هذا البيت

وهذا ما نراه في حياتنا المعاصرة . فحين يزور الحاكم منطقة
ما فهم يُعيدون رَصْفَ الشوارع ؛ ويصلحون المرافق ، وقد يُحضرون
أصص لزرع ليُجملوا المكان .

فما بالك إن علموا بوجود بيت للحاكم في مكان ما ؟ لا بد أنهم
سيؤالون العناية بكل التفاصيل المتعلقة بالمرافق في هذا الموقع
إذن . فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام .

﴿ يَصُورُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴾ (٥٦)

[يوسف]

يعنى . شُيُوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون في هذا
البلد ، فلا تأخذ الأمر على أنه تَرْفٌ وشَرَفٌ ، بل حدُّ هذا القول على
أنه تكليف سيتتبع به المُحيطون . سواء كانوا مقصودين به أو غير
مقصولين

وتلك لفظة توضح أن التبرُّع حيث يشاء ليس رحمة به فقط ،
ولكن رحمةً بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ يُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ .. ﴾ (٥٦)

[يوسف]

فَمَنْ كُنْ يَحْيَا بِلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية ، وَمَنْ
كَانَ يَشْفَى مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعِيشَ فِي مَكَانٍ مُرِيحٍ ستتحول المنطقة التي

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذي يحيا فيه .
فيوسف العُمكن في الأرض له مسكن مجاور له ، وسيجد العناية
من قبل الجهاز الإداري حيثما ذهب . وتفخر العناية الجَميع . رحمة
من الله له ، وللناس من حوله

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله

﴿ وَلَا تُضِعْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦)

[يوسف]

والمُحْسِن هو الذي يصنع شيئاً فوق ما طلب منه .
وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف ، لأنه حين أقام لنفسه بيتاً
في أكثر من مكان ، فقد أحسن إلى أهل الأمكنة التي له فيها بيوت ،
بارتفاع مستوى الخدمة في المرافق وغيرها .
وسبحانه يجازي المحسنين بكمال وقامم الأجر ، وقد كافأ يوسف
عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولى أمرهم .
ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٧)

ويوضح - هنا - سبحانه أنه لا يجزى لمحسنين في الدنيا فقط ،
ولكن يجازيهم بخير أبلى في الآخرة وكلمة « خير » تستعمل
استعمالين .

الأول : هو أن شيئاً خير من شيء آخر : أي . أنهما شركاء في
الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ .

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان ^(١) »

والاستعمال الثاني لكلمة « خير » هو خير مقابل شر ، والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ^(٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٣) ﴾ [الزلزال]

والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ، لن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن يقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب في الآخرة ، لأن المؤمن وحده هو الذي سيصدق ذلك .

أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشري الفساد في الأرض

وبذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاء نوعين جزاء في الدنيا لمن يحسن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً ، وجزاء في الآخرة يحتص به الحق سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ^(٤٧) ﴾ [يوسف]

أي . أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ، لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً .

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢ / ٣٦٦ - ٣٧٠) ، ومسلم في صحيحه (٢٦٦٤)

وابن ماجه في سننه (٧٩) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) الميثاق وذي معلوم أخرجه ويقول تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .. ﴾ [التساء]

أي . يهدى وذن ذرة لا يظلم شيئاً سفر لوكير [القاموس القويم ١/ ١٠٩]

على عكس خير الدنيا الذي قد تفوته أو يفوته ، بحكم أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرِكَ فيها ؛ ولكن لأخرة لها الديمومة التي شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ

وَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعْرُوفُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد القوة في الجب صغيراً ؛ ومرة رحلت في الحياة بعد أن عثر عليه بعض السَّيَّارة ، وباعوه لعزير مصر ، لتعمر به الأحداث المتتالية بما فيها من نُضْجٍ جسديٍّ وحُسنٍ فائق ، ومراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السَّبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على صلاح الإنسان ، فضلاً عن أنهم جاءوه وهو في منصبه العالي بما يفرضه عليه من وجاعة في الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، قد تحدثت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمرُّ عليه عقد من الزمان ، فهذا الزمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كان كبيراً فاضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلاً يغيّر الزمن ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج والذي دفعهم إلى المعجزة هو القحط الذي لم يُؤثِّرْ على مصر وحدها ، بل أثر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذي اختزن الأقوات تحسباً لذلك القحط ، وقد أرسلهم أبوه ليطلبوا منه العيرة^(١) والطعام ، ولم يتحيُّوا

(١) العيرة : الطعام يمتلكه الإنسان لى يطلب من أهله . جلب إليهم الطعام . قال تعالى

﴿وَنَزَّلْنَا مُطَرِّدًا مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مَوَاقِدُهَا مِن مَّاءٍ ذَرِيَّةً ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف] [القاموس القديم ٢/ ٢٤٦]

بأي حال أن يكون من أمامهم هو أخوهم الذي القوه في الجُب
ويقول الحق سبحانه

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُمْنُونِ بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْسِكُمْ
أَلَّا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يَحْكُون له عن
أبيهم وأخيه ، وأنهم قد طلبوا النصرة : وأمر بتجهيزها لهم^(١)
وكلمة « الجهاز » تطلق هنا على ما سبَّب في انتقالهم من
موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للنصرة .
وطلب منهم - من بعد ذلك - أن يأتوا بأخيه « بنيامين » معهم ،
وقال لهم :

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف]

(١) جهاز الخروس والمسافر والجيش هو ما يحتجون إليه وما يلزمهم في قصدهم والمعنى
هنا أنه أوفى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذي جاءوا من أجله [راجع تفسير ابن كثير
٤٨٣/٢ . والقاموس القويم ١/١٣٤]

(٢) وذكر السدي وغيره أن يوسف عليه السلام شوح يخاطبهم فقال لهم كأنتم على
ما أتاكمم بلادى ؟ فقالوا أيها العزيز إنا قدسنا للميرة قال ألمعكم ميرت ؟ قالوا نعم
الله قال معر أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله قال وله أولاد
غيركم ؟ قالوا نعم كنا اثني عشر فذهب أسعربا ملك في البرية ، وكان أحينا إلى أبينا
وبقي شقيقه ، فامتبهه أبوه ليتسلى به عنه ، فأمر بهنزالهم وإكرامهم ، [تفسير ابن كثير
٤٨٣/٢]

(٣) القروى الحول بالمكان ، والتُرْك والتُرْك ما عُيِّن للضيف بما دُرر عليه [لسان العرب -
حاشية من]

وفى هذا تذكير لهم بأنه يُوفى الكيل تماماً ، وبعيما يبسو أنهم طلبوا منه زيادة فى العِيرة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يحضروا أخاهم كى يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ، التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كائمان لما يأخذونه ، وحين يحضرون معهم أخوهم سيأخذون كَيْلَ بعير فرق ما أخذوه هذه المرة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهام معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ، لذلك تقول الآية

﴿ رَزَقْنَاهُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. ﴾ (٦٥)

[يوسف]

وقوله .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥٩)

[يوسف]

يعنى أنه يرحب بالضيوف ، وقد لمسوا ذلك بحسن المكان الذى درلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزِل » فى ظاهر الأمر أنها صِدَّ مُعْنَى ، وحقيقة المعنى هو مُنْزِل من الذى يدرل بالمكان الموجود به كل مطلوبات حياته .

واحق سبحانه يقول عن الجنة .

﴿ تَزُولُ^(١) مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٣٦)

[قصص]

(١) النزول المبرور ، وما يُعدُّ ليدرل فيه الضيف قال تعالى ﴿ نَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ جُلَّادِينَ

فِيهَا تَزُولُ مِنْ عَدَدِ اللَّهِ ﴾ (٣٦) [ال عمران] [القاموس القويم ٢ / ٢٦٠]

أي أنه سبحانه قد أعدّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُحَلِّق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان الصَّوْلَى عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يعدُّ ، فلا بدُّ أن يكون ما أعدّه فوق خيال البشر

وقلت لإخواني الذين بهروا بفندق راقٍ في سنان فرانسيكو إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً راقياً أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقباليين ، تظهر نفسه فيه ؛ فإن كان حقوداً فسيبطل بلاشياء بكرامية وبحقد ، وإن كان مؤمناً يفرح ويقول

هذه النعمة التي أراها تزيد من عشقي في الجنة ، لأن تلك النعمة التي أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فماذا عن صنْعِ الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول ما رأيت نفعاً عند أحد إلا لزيادة إيماني ، بأن الذي أراه من نعمة قد أعدّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرة حقد إلى النعمة عند الغير ، فهو يجرم نفسه من صِباة^(١) النعمة عند الغير ، لأن النعمة لها سبابة عند صاحبها ، وتعلق به ، وإن فرجت بالنعمة عند إنسان ؛ فثق أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرمتها عند غيرك ؛ كرمت النعمة أن تأتي إليك .

فإن أردت الخير الذي عند غيرك ، عليك أن تحب النعمة التي عند هذا الغير ، لتسعى النعمة إليك ، دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتي إليك بقدره الحق سبحانه

وقول يوسف عليه السلام في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها :

(١) الصِباة الطريق سبيط إلى الشيء صِباة ، فانا صِبُّ أي علق مطنق [لسان العرب - مادة صيب] .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥٩)

[يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحسن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يحضرون أخاهم سيجنون نفس الاستقبال

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾

وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

ويوسف يعلم مقدماً صعوبة أن يأمتهم أبوه على أخيه ، لذلك وجه إليهم هذا الإنذار

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي .. ﴾ (٦٠)

[يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المعاد معاد^(١) قحط وجذب ومجاعة

وأضاف يوسف

﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦٠)

[يوسف]

أي . لا تأتوا ناحية هذا البلد الذي أحكمه : ولأنك ستجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك

﴿ يَسْأَلَانِ مِنْهُ مَا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَاطِرُونَ ﴾ (٦١)

[يوسف]

وتلقوا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا .

(١) المعاد المرجع والمصير، أي أن مرجعهم إلى بلاد ذات جنح ولحم وهي الوطن الذي

جاءوا منه والمعاد والمعادة الماتم بعد إليه [لسان العرب - مادة عود]

﴿ قَالُوا اسْتَرْوِدْ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ (٦١)

وقولهم ﴿ استراود^(١) عنه أباه... ﴾ (٦١) [يوسف]

يعنى أن الأمر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، واستراودة تعنى أخذ وردة ، وتحتاج إلى احتيال ، وسبق المعنى فى قول الحق سبحانه .

﴿ وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ لى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٦٢) [يوسف]

واكدوا قولهم

﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ (٦٣) [يوسف]

أى أنهم سيبدلون كل جهودهم : كى يقبل والدهم إرسال أخيه معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلب صعب المزال عسير التحقيق

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَقَالَ لِفَتَاهِهِ أَجْعَلُوا يَضْعَعْتُم^(٢) فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا^(٣) ﴾

إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٤)

(١) استراود على مجيئه إليك بكل ممكن ولا تفر مجهوداً لتعلم حقيقتهما فيما قلنا

[ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٤٨٢]

(٢) الرحال جمع رحل وهو ما يوضع على اليعير للركوب عليه ، ويطلق على ما يحمله

المسافر من أمتعة [القاموس القويم ١/ ٢٥٩]

(٣) انقلب رجع وتعود إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر قال تعالى ﴿ قُلُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنا

مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف] أى راجعون إليه [القاموس القويم ٢/ ١٢٩] . بتصريف

اي . ان يوسف عليه السلام امر مساعديه ان يُعيدوا البضائع التي احضرها هؤلاء معهم ليقايضوا^(١) بها ما اخذوه من قمح وطلع . وكان على مساعدي يوسف عليه السلام ان يُتَقَنُوا امره بوضع هذه البضائع بشكل مُستتر في الرُحال التي اتوا عليها ، وفي هذا تشجيع لهم كي يعودوا مرة اخرى^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أٰبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا اخْنَانًا نَّكَتِلَ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿١٢﴾

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لاسيهم ، فور عودتهم ومعهم الميرة ، وكانهم ارادوا ان يوضحوا للاب انهم منعوا مستقبلاً من ان يذهبوا الى مصر ، ما لم يكن معهم اخوهم .

وحكوا لابيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الاب على ارسال اخيهم « بنيامين » معهم ، فليسوف يكتالون ، وليسوف يحفظون اخاهم الصغير .

(١) قايضه - يقايضة [با أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة - والتقيض العوض - { لسان العرب - مادة يقضي]

(٢) ذكر ابن كثير في هذا الاصل انها ان يوسف حفي ان لا يكون معهم بضاعة اخرى يرجمون للميرة بها، وقيل تنعم ان يأخذ من ابيه وزوجه عوضاً عن الطعام [راجع

تفسير ابن كثير ٤/٢١٨]

وهم في قولهم هذا يحاولون أن يُعِدُوا رِيَّةَ الْآبِ عَمَّا حَدَّثَ
ليوسف من قبل .

ومنا يأتي الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عبي السلام

﴿ قَالَ هَلْ أُمِيتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أُمِيتُكُمْ
عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهْ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤)

ومنا يُذَكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقْتَلُوا من قبل ما يُطْمِئِنُّهُ عَلَى
ذلك : فقد أضعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن القنب قد أكله .

وأضاف : ﴿ فَأَلَّهْ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤) [يوسف]
وهو قول نتنسم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه
يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدا أبناء يعقوب في فتح مناعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .
ويقول الحق سبحانه

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضْعَةٌ نَّارَتْ إِيَّانَا
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَتَحَمَّطَ آخَانَا وَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ
كَيْلَ يَسِيرٍ ﴾ (٦٥)

(٦) نفس كذب وقلم ومعنى الخسر . طلبه . قال القرطبي في تفسيره (٢٥٥٩/٥) والمعنى أي

شره نطلب ربه هذا ؟ وقى لنا الكيل ، ورد علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم .

ومكنا اكتشفوا أن بضائعهم التي حملوها معهم في رحلتهم إلى مصر ليقيضوا بها ويدفعوها ثمنًا لما أرادوا الحصول عليه من طعام وميرة قد ردت إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على اميرة التي يتعلون بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصحبوا أخاهم في المرة القادمة ، وسوف يحفظونه ، وسوف يعودون ومعهم كَيْل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هين على عزيز مصر

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه

هنا

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ^(١)
مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ
مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ^(٢) ﴾

ونلاحظ هنا رقة قلب يعقوب وقرب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرقة التي بنت من قبل في قوله

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ^(١) ﴾ [يوسف]

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين موثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى

(١) الميثاق والميثاق العهد المؤكد قال تعالى ﴿ وَبِغَاةِ الَّذِي وَأَلَّكُمْ بِهِ . (٧) ﴾ [المائدة] .

أي عهده الذي عهدكم عليه ، والزمكم الوفاء به [القاموس القويم ٢ / ٢٦٩]

(٢) الإحاطة بالشئ الإحاط به من جميع جوانبه وقوله ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ . (٧) ﴾

[يوسف] أي لا أن تُحسروا أو تمنعوا سبيل المجازة . [القاموس القويم ١ / ١٧٨]

مصر ، ومعهم أخوهم ، بنيامين ، إذا ما ذهب معهم ، ما لم يُحط بهم
أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كأن يحاصروهم أعداء يُضيقونهم
ويُضيقون بنيامين معهم وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال .

﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴾ (٦٦)

[يوسف]

واقسم أبناء يعقوب على ذلك ، واعطوا أباهم اليمين والعهد على
رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم

قال يعقوب .

﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٦٦)

[يوسف]

أي أنه سبحانه مطلع وراقب ، فإن حُتِمَ فسبحانه المنتقم .

ويوصى يعقوب أولاده الأصباغ .

﴿ وَقَالَ يَبْنَئِ لَكُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ وَأَخَوَاكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
مُتَّفِقَةً وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٦٧)

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك للكلام في المرة الثانية لذهابهم
إلى مصر . بعد أن علم بحسن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم
رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حظوة عند عزيز
مصر

وساعة ترى إنساناً له شأن : فترقب أن يُعادي ، لذلك فوجس يعقوب خيفة أن يُدبر لهم أحد مكيدة : لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديماً لها أبواب : تُفتح وتُغلق في مواهيد محددة ، وحين يدخلون فرأى من ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقد خاف يعقوب على أبنائه من الحسد ، ونعلم أن الحسد موجود .

وقد علمنا سبحانه أن نستعين به سبحانه من الحسد ، لأنه سبحانه قد علم ألا أن الحسد أمر فوق طاقة دفع البشر له . وهو القائل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْمُلُكِ (١) مِنَ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [التلق]

والى أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيد بواحد مُسوي لك ، لأن الحسد يأتي من مجهول غير مُدرك ، فالشعاع الخارج من العين قد يتأرجح بالحد على كل ذي نعمة ، وإذا كان عصرنا ، وهر عصر الارتقاعات العلمية قد توصل إلى استخدام الإشعاع في تفكيك الأشياء

إذن . فمن الممكن أن يكون الحسد مثل تلك الإشعاعات ، والتي

قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه . وتكون النظرة مثل السهم
النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة

والحق سبحانه هو القائل . .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ (٢٦) [المعشر]

وإن قال قائل : ولماذا يُعطي الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك
الخواص ؟

أقول . إنه سبحانه يعطي من الإمكانيات لبعض من خلقه .
فيستخدمونها في غير موعدها ، وكل إنسان بشكل ما عنده إمكانية
النظرة ، ولكن الحق هو الذي يولد الشهادة المؤدية ، ويمكنك أن
تنظر دون حسد إن قلت . ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله . اللهم
بارك^(١) .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجج الشهادة المؤدية ، يمكنك
أن تستعيز بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق
سبحانه .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا
وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّمَاةِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾
[الفلق]

وإن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوذ الحسن والحسين
رضي الله عنهما ، ويقولون -

(١) يقول تعالى ﴿ وَتَوَلَّى إِذْ دَخَلَ جَهَنَّمَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف]

« أَمِيزُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَهَامَةٍ ^(١) ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ ^(٢) ؟ ^(٣) »

وقال ﷺ : « كَانَ أَبُوكُمَا - إِبْرَاهِيمَ - يُعَرِّذُ بِهَا إِسْحَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ »

كما أنه ﷺ : « كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قَامَ وَضَلَّى ^(٤) ، لِأَنَّهُ مَعْنَى حَزَبَ أَمْرٌ لِلرَّسُولِ ﷺ ، أَوْ لِوَاحِدٍ مِنْ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ هَذَا الْأَمْرُ يَخْرُجُ عَنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ .

وهذا على الإنسان أن يَأْوِي إِلَى الْمُسَبِّبِ ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أَخَذْتَ أَنْتَ بِالْأَسْبَابِ الْمَصْنُوعَةِ لَكَ مِنْ يَدِ اللَّهِ ، وبذلك يكون ذهابك إِلَى الْحَقِّ هُوَ ذَهَابُ الْمُضْطَرِّ ، لَا ذَهَابُ الْكَسُولِ عَنِ الْاِخْتِ بِالْأَسْبَابِ

واسحق سبحانه يقول :

﴿وَأَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢)﴾ [النمل]

والمضطر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدْعُ رَبَّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ

(١) الهامة : مفرد هوام وهي الحيات والعقارب ، وكل ذي سم يقتل بسمه ، وأما ما لا يقتل ويسم فهو السَّوَامُ [لصان العرب - مادة هوم]

(٢) اللامة : ما تخافه من من أو فرع واللامعة العين التي تصيب الإنسان [لسائر العرب .. مادة لعم] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠/١) والترمذي في سننه (٢٠٦٠) ، وأبو داود في سننه (٤٧٢٧) من ابن عباس رضي الله عنهما قال الترمذي : « حديث حسن صحيح ،

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود في سننه (١٢١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ
ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها ، نجد يعقوب عليه
السلام وقد أوصى أبنائه ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، بل من
أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من
تسليم لمشيئة الله ، فقال

﴿وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . . (٦٧)﴾ [يوسف]

أي لست أعنى عنكم بحذري هذا من قدر الله ، فهو مجرور
حرص . أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك
قال

﴿إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾

[يوسف]

فكل الخلق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه
يعتمد كل مؤمن

ونفذ أبناء يعقوب ما أمرهم به أبوه ، يقول سبحانه .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ

يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ
قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

أى ، ما كان دخولهم من حيث أمرهم أيرهم يرد عنهم أمراً أراد سبحانه ، فلا شيء يرد قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أن يرد عنهم حسد الحاسدين ، أو أن يرد لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أى شيء من يمنع قضاء الله

ولذلك قال سبحانه

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .. (٦٨) ﴿

[يوسف]

ويعقوب يعلم أن أى شيء لن يرد قدر الله ، وسبحانه لم يعط الاحتياطات الولاية لمنع انفس بها قدر الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ غُلْمٍ لِّمَا عَلَّمَاهُ﴾ .. (٦٨) ﴿

[يوسف]

أى ، أنه يعرف موقع المسبب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالاسباب لا ينافي التوكل على الله ، لأنه سبحانه قد خلق الاسباب رحمة بعباده .

﴿وَلَنَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) ﴿

[يوسف]

أى ، يمزلون الاسباب عن المسبب ، وهذا ما يتعب الدنيا

ويقول سبحانه بعد ذلك :

(١) نفس حلفت أدركها وثالها قال تعالى ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ (٦٨) ﴿

[يوسف] ، أى أدركها وحصلها [القاموس القويم ١٤٢/٢]

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ
أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦)

أي أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم ، وأكرم
وقادتهم^(١) ، بعد أن وُقِّعوا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه
بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتَاقًا لشقيقه بنيامين .
وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف ؛ فهما من أم
واحدة ، أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات

وقول الحق سبحانه عن يوسف

﴿ آوَىٰٓ إِلَىٰ أَخَاهُ .. (٦٦) ﴾

[يوسف]

يدُرُّ على أن يوسف كان مُتَشَوِّقًا لرؤية شقيقه

وقوله .

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٦) [يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استقرروا^(٢) لفترة ببنيامين ، ولم

(١) أوله : شبه إلى رأسه عند أو أمزله في بيت . والمأوى : اسم مكان قال تعالى ﴿فَإِنَّ

الْفَجَّةَ مِنَ الْمَأْوَى﴾ [النارعات] في المنزل والملاجئ [القاموس القويم ٤٥/١]

(٢) ابتأس الرجل : اكتاب وحزن [القاموس القويم ٥٢/١]

(٣) الوفد : الركبان المكرّمون قال الأصمعي : وقد فلان بعد وفاة إذا خرج إلى ملك أو

أمير [لسان العرب - مادة وفد]

(٤) استقرروا فلانًا : انقرب به واستقرروا الشيء : أخرجه من بين أصحابه وانزله جطه

لهربًا [لسان العرب - مادة لمرد]

يُحْسِنُوا معاملته . وحاول يوسف ان يُسرَى عن أخيه ، وأن يُزيل عنه
الكُفْر بسبب ما كان إخوته يفعلونه

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَيْتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧﴾ ﴾

أى أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المَئِيرة لهم كما
سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جهَّزهم فى المرة السابقة ، وأراد أن
يُبقى أخاه معه فى مصر ، ولكن كيف يأخذه من إخوته ليُبقيه معه ؛
وقد أخذ أبوههم ميثاقاً عليهم ألا يصيغوه ، وألا يُقرطوا فيه . كما
فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد
جئد الله له فيها إخوانه الذين كانوا يُعَادونه ، وكانوا يحقدون عليه
وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية سُوءِ الملك ، التى يشرب فيها اعطاك ،
وتُستخدم كمكياج ، وجعلها فى رَحْلِ أَخِيهِ

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذى يُسقى به . وقد كان إناء من الفضة كانوا يكيلون به
الطعام [لسان العرب - مادة سقى]

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقاً متعددة من مادة « سقى » أى
« السين » و « الف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس
والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ .. ﴾ (٩٩)

[التوبة]

فكان معنى اسقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضَع فيه الماء
ليشرب منه الناس .

أو . تُطلق « السقية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإله الذى كان يشرب به
الملك ، ويُستخدم كمكبال ، وهذا دليلٌ على نفاسة المكبل

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التى يُشرب
منها ، أو يُرفع بها الماء من لمكان إلى فَمِ الشارب ، وأيضاً يُقال
بها « وملردها » صاع »

ويقول الحق سبحانه وما عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه

﴿ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ .. ﴾ (٧٠)

[يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعماله أن يَضَعُوا « السقاية » فى رَحْلِ

أخيه ، و « الرَّحْلُ » ، هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافرين كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جملهم استعدوا للعودة إلى الشام : وقعت المفاجأة لهم ، والنبي يقول عنها الحق سبحانه .

﴿ ثُمَّ لَمَّا مَوَدَّ^(١) أَتَتْهَا الْعِيرُ^(٢) إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ^(٣) ﴾ [يوسف]

أي يا أصحاب تلك العير اتقم سارقون ، والسرقه فعل قبيح حينما تترقب عليها جراء يُوقَّع على السارق والمسروق هو شيء ثمين

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمت بموافقة من « بنيامين » ليتمك مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه^(٤) إلى مصر .

ولسائل أن يقول ، وكيف رضى بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزيد من حزن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول اسظروا إلى دقة القرآن ، ولتحسن الفهم عنه ، لنرى أن حزن يعقوب على فقد يوسف قد غلبه ، فلن يؤثر فيه كثيراً فقد بنيامين .

وبلبل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

(١) لأن تأنباً وأناً أعلم بالشر والطعيف يد على الكثرة والتكرار قل تعالى ﴿ ثُمَّ لَمَّا مَوَدَّ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف] أي غادى وأطم وأكثر النداء والإعلام [القاموس القويم ١/ ١٦]

(٢) المفسرود بابوي أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه لأن « راحل » أم يوسف وبنيامين ماتت في نفاس بنيامين [انتظر ، تفسير القرطبي ٥/ ٢٥٩٨]

بحكاية السرقة . واستبقاه بنيامين في مصر قال

﴿ يَا أَسْنَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ۚ ۞ (٨٤) ﴾ [يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهمهم بالسرقة ، فالآية هنا لا تُحدد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم في نظر يوسف قد سرقوه من أبيه ، والقوة في الجنب .

وهنا يأتي الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا أَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (٧١)

أي أن إخوة يوسف أقبلوا على من يتهمونهم بالسرقة متسائلين . ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهمهم

﴿ قَالُوا نَفَقِدُ صُرُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ
حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ (٧٢)

أي . أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم . لقد ضاعت سقاية

(١) الزعيم الكفيل والمنعم والرجيس . زعم بالأسر . تكلم به فهو زعيم أي كفيل

الملك ، ويُقال لها ، صواع ، ، ومن سيُخرجها من المكان المضمّنية به سوف ينال مكافأة فيها وزن حمل بعير : ففعل صُواع الملك قد حُبّت في حمل أحدكم دون قصد .

وأكد رئيس المتأدين أنه الضامن لمن يُخرج صواع الملك ، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهي حمل بعير من الميرة والغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام .

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ

فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴾ ٧٢

وقولهم ﴿ تالله ﴾ هو قسم ، وعادة تدخل « التاء » على لفظ الجلالة عند القسم المقصود به التمجيد ، أي أن إخوة يوسف أقسموا مُدّعيين لاثهامهم بأنهم لم يسرقوا : وأن الكل قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بفرض الإفساد بسرقه أو غير ذلك ، لم يسبق أن اتهمهم أحد بهذا الاتهام

وهنا يأتي الحق سبحانه بما جاء على السنة من أعلّوا عن وجود سرقة ، وأن المسروق هو صُواع الملك .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على سنتهم

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ٧٦

وهذا سؤال من مُساعدى يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة فى شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا يفعل بمن نجد فى رحله صُواع الملك ، وثبت كذبكم بانكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة فى شريعة آل يعقوب أن يُسرق أو يظل فى خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عبة يوسف التى أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ، وحين أراد والده أن يسترده أخفت فى ثياب يوسف شيئاً^(١) عزيزاً ورثته عن أميها إسحاق ، وبذلك استبقت يوسف معها ، ولم يأخذ أبوه إلا بعد أن ماتت همتة

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستمقى أحاد معه ، وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام بحكمهم بأنفسهم الحكم الذى يصير إليه ، وهو بقاء أخيه معه

ويُورد الحق سبحانه قولهم

﴿ قَالُوا حَرِّوْهُم مِّنْ وَّجْدِى رَحْلَهُ فَهُوَ جَزَاءُ

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٧٥)

وهكذا طافوا بالحكم هم انفسهم ، واكثروه بقولهم

[يوسف]

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٧٥)

(١) عن منطقة إسحاق كان ينتقل بها ، أى يشد على وسطه وكانت همتة من أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق لحرمتها على يوسف من تحت ثيابه ، استمقيت معها ولا تسمه لآبيه يعقوب ، وقد كان هذا حتى ماتت [راجع تفسير ابن كثير ٤/١٦٦] .

وهكذا أمانوا هم يوسف لتحقيق مآربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسف بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿قَبَدْ أَبَا وَإِخْوَتَهُمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ
وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

وكان الهدف من البدء بتفتيش أوعيتهم وهم عشرة ، قبل وعاء شقيقه كي ينفي احتمال ظنهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدير هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ' ليستخرج منه صواع ملك ؛ وليطبق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ ليستبقي شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكَمًا لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أي : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه .

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

[يوسف]

أى ما كان يوسف يباخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر :
لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك

ويتابع سبحانه

﴿ رَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكان له ، وحقق له أمله ، وهو
يستحق كل ذلك ، ورفع سبحانه درجات عالية من العلم والحكمة .

ولم يكن الكيد سبب أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل فريد
ليوسف ولاخيه الرُّفعة ، فكان كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم
لا يدرون ما فى المحنة من المِغ .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أى أمر صعب يقع عليه من غير رأى
منه ، لا بد وأن يشعر أن فيه من الله نقعاً للإنسان

بإخوة يوسف سبق أن كانوا له ، فماذا كانت نتيجة كيدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله
سبحانه ذاك علم ، فقال :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

و (ذى علم) أى صاحب علم وكلاهما منقوص ، أى هناك
« صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ، وبعد ذلك يطرأ
عليه العلم ، فيصير صاحب علم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

أى : أن العلم ذاتى فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا يدافعون ، بل يهتفون ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الأخ الذى وجدت السقاية فى رَحْطِهِ : وأخذوا يُؤبِخُونَهُ : لأنه أخرجهم وفضضهم ، ويهتفون عن أسباب عندهم للحفيظة عليه : لا للرفق به

وموقفهم المُسَبِّق منه معروف فى قولهم

﴿ يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَصِيَّةٌ ﴾ (٨) ﴿ [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هي « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لتكلموا به^(١) . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رِجَالِي هو مَنْ جعل البضاعة فى رِجَالِكُمْ

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . قَرَدَ بنيامين - بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم -

ويُورِدُ الحق سبحانه هنا قولهم :

(١) العصبية الجماعية المترابطة والعصبية والعصابية جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب مادة عصب]

(٢) ذكر القرطبي فى تفسيره (٣٥٦٩/٥) أن يهوذا ، لما راوا ذلك تكسروا رؤوسهم ، وأقبلوا عليه قائمين . وذلك يا بنيامين ما رايتك كالقوم قط . ولدت أمك ، راحيل ، أحويت لصين قال لهم أقومهم والله ما سررتك ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى ،

﴿قَالُوا إِنْ سَرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ
فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ
شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

وهكذا ادَّعَوْا أن ناء السرقة في بنيامين قد سبقه إليه شقيق له
من قبل ، وقالوا ذلك في مجال تبرة أنفسهم ، وهكذا رَضَحَتْ ملامح
العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم .

﴿إِنْ سَرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (٧٧) [يوسف]

يُسَمَّى في اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية ، أن
حدثاً يقع بسبب حدث وقع قبله ، فهناك حدث يحدث وحده ، وهناك
حدث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر

مثال هذا هو قولك لتلميذ ، إن تذاكر دروسك تنجح ، وهنا
حدثان ، المذاكرة والنجاح ، فكان حدوث النجاح الشرط فيه حدوث
المذاكرة ، ولا بد أن يحدث الشرط أولاً ، ثم يحدث الحدث الثاني ،
وهو هنا قولهم .

﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (٧٧) [يوسف]

كتعليل سرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً .

﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولُ مِنْ قَبْلِكَ ..﴾ (٧٨) [آل عمران]

فكان الله يوضح للرسل ﷺ . إِنْ كَذَّبُوكَ الْآنَ فِيمَا تَنْقُلُ لَهُمْ مِنْ
أَخْبَارِ السَّمَاءِ ، فَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَبْتَئِسْ ، فِهَذَا التَّكْذِيبُ ظَاهِرَةٌ عَائِي مِنْهَا
كُلُّ الرِّسْلِ لِسَائِقِيكَ ، لِأَنَّهُمْ يَجِئُونَ بِمَا يُكْرَهُ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ أَوَّلًا ،
فَلَا بَدَّ أَنْ يَكْذِبُوا ، وَهَكَذَا يَسْتَقِيمُ الشَّرْطُ . لِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ هَذَا قَدْ
عَدَلَ بِالشَّيْءِ عَنْ سَبَبِهِ ، فَكَانَ جَوَابَ الشَّرْطِ بَعْدَ الزَّمَانِ الَّذِي حَدِثَ
فِيهِ الشَّرْطُ .

وهنا قال الحق سبحانه

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٧٧) [يوسف]

أَي . لَا تَعْجَبْ يَا عَزِيزُ مِصْرَ ، لِأَنَّ هَذِهِ خَصْلَةٌ فِي أَوْلَادِ رَاحِيلَ ،
قَالُوا ذَلِكَ وَهُمْ يَجْهَلُونَ أَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ إِلَى يُوسُفَ ابْنِ رَاحِيلَ !

وَكُلُّ حَدِيثٍ يَحْدُثُ لِلْمَلَائِكَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، لَا مَدَّ أَنْ يُخْرَجَ تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ
عَنْ وَضْعِهَا ، وَنَرَى ذَلِكَ لِحُضَّةِ أَنْ يَتَفَوَّهَ وَاحِدٌ بِكَلِمَةٍ تُخْرِجُ إِنْسَانًا
مُسْتَقِيمًا عَنْ حَالِهِ وَتُفْعِلُ بِهِ ، وَيَدْرُكُ بِهَا الْإِنْسَانُ الْمُسْتَقِيمَ مَا يُؤْلِمُ ،
وَيَنْفَعِلُ انْفِعَالًا يَحْطِئُ يَنْزِعُ ثَلَاثًا

وَلِذَلِكَ يُوصِيْنَا ﷺ : إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ
ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، وَإِلَّا فَلْيُضْطَجِعْ .^(١)

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَسَنَةَ (١٥٢/٥) ، وَابُو بَارْدٍ فِي سَنَتِهِ (١٧٨٢) ، وَابْنُ حِبَّانَ
(١٩٧٣ - مَوَارِدُ الطَّلَعِ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ
(٧١/٨) : رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ ،

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغمضيه ، ولْيُسْرِبْ جزءاً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه

﴿ فَاسْرُهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. ﴾ (٧٧)

[يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عَمَلِهِ التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحتفظ به فى حضانتها من فَرَطِ حُبِّها له لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها

﴿ فَاسْرُهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُنَبِّئْهُمْ .. ﴾ (٧٧)

[يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثر فيه ، ولكنه قال رايه فيهم لنفسه .

﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٧)

[يوسف]

لأنكم أنتم من أخذتمونى طفلاً للعب ، ثم القيتمونى فى الجُبِّ ، وتركتم أبى بلا موانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِيت ، وهكذا سرقتم أبناً من أبيه .

وهو إن قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصير إليهم المعنى ، والقول ليس إلا العاطف يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمِع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف

وقوله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾ [يوسف]

أى أنه سبحانه أعلم بما تمنعون ، وتظهرون الصلوات
والسُّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ لِلْكَذِبِ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ..
(٦٦)﴾ [النحل]

أى أن ما تقولونه يُوحى من تلقاء نفسه أنه كذب وهكذا
نعرف أن كلمة « تصف » وكلمة « تصفون » غلب في استعمالهما
للكلام الذى يحمل معه دليل كذبه .

وبأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك .

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف ،
بقولهم

﴿إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا .. (٧٨)﴾ [يوسف]

ونلاحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقاً متعددة ، إن أردت الكبير
فى السن تكون من « كَبِرَ يَكْبَرُ » ، وإن أردت الكبير فى المقام تقول
« كَبِرَ يَكْبَرُ » .

ولحق سبحانه يقول

﴿ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥ ﴾ [التكوير]

والكِبَرُ واحد من معانى العظمة ، أم الكِبَرُ هي السنُّ فهو مختلف ،
وهنا قالوا

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. ٧٨ ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً باعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ، وحين يُبلّغه أن ابنه
قد احتُجز من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدّر ذلك وأنت
عريض مصر ، وخرجوا أن تحفظ للأب شرفه ومجده وعظمته ، واسترّ
ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده

أو أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهْدَم ، لا يحتفل
الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد نُقِدَ .

ثم يعرضون عَرَضاً آخر ، فيقولون .

﴿ فَحَدُّ أَحَدِنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٧٨ ﴾ [يوسف]

أى أنهم سألوه أن يُتَمَّ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ،
وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المَيرَةَ ، ولم يأخذ بضائعهم
ثمناً لها .

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، لَا يَضُرُّ عَلَيْهِمْ بَأْسُ يَسْتَجِيبُ لِرِجَالِهِمْ ، بَأْسُ
يَأْخُذُ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِدَلٍّ مِنْ أَخِيهِمِ الصَّغِيرِ

كل هذه تزييفات مهم للقلب ، ولكن القاعدة هي ألا يؤاخذ بالذنب
إلا صاحبه ، ولذلك لم يفت هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق
سبحانه بما يوضح ذلك

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا
مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴾ ٧١

ويستعيز يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممن وجد
في متاعه صُواع الملك ، فما دبره في هذا الأمر ، ولا أحد يمكن أن
ينال عقاباً على ذنب ارتكبه غيره
وساعة تقرأ ، إذا ، مؤنثة ، فاعرف أن هناك جملة محذوفة ،
أي أن يوسف قال : إن أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده يكون من
الظالمين .

وجاء ، القنوين ، بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه .

﴿ وَأَنْتُمْ حِينْدَ تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٤) [الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الروح الحلقوم ، وجاء ، اثنوين ، عوضاً
عن الجملة كلها

وهكذا أراد يوسف أن يُذَكِّرهم أنه لا يحقُّ له أن يأخذ أحداً
منهم بدلاً من بنيامين ، لأنه هو مَنْ وجد في متاعه صُواع الملك ،

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة^(١) أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا بُدَّ فيها بسهولة ، لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ
قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَقٍّ يَأْذَنَ لِي
أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ٨٠

ويقال : يشس ، أى : قطع لأمل من الشيء . وهم لم يقطعوا
الأمل فقط ، بل استيسسوا . وهو أمر فوق اليأس

فهم قد أخذوا يُرْقِنُونَ كل ألوان المُرْقَفَات : ولا فائدة : وكلما
أوردوا مُرْقَفًا : يجدون الباب أمامهم موصداً .

وكانهم بذلك يُكَبِّحُونَ على اليأس أن يأتيتهم ، لأن الظروف المحيطة
والجو المحيط لا يحمل أى مارقة أمل ، وكلما تبخرو بارقة أمل

(١) الجريرة : الجنابة والذنب يجره الرجل [لسان العرب - مادة جرد] .

(٢) استيسس : يشس منه بعد جهد ومشقة [القاموس القويم ٢/ ٣٦٦] .

(٣) الميثاق والميثاق العهد المؤكَّد قال قطار : « ومثاقه الذي والكم به » (٥) [المائدة] .

أى : عهد الذى عاهدكم عليه ، والركم الوقاء به [القاموس القويم ٢/ ٣٦٩]

(٤) برح الأرض رل عنها وفارقها يقول كبير إخوة يوسف هنا : أى : سن أفرق أرض

مصر [القاموس القويم ١/ ٦١] بتصريف

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَّداً ، فكانهم يطلبون الياض من أن يأنن
يوسف يسفر أخيه بنيامين معهم في رحلة العودة إلى أبيهم .

ومنا . ﴿ خَلِّصُوا نَجِيًّا ﴾ (٨٠) . [يوسف]

أي : انهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ، العزيز يوسف ،
ومن حوله من المعاونين له ، وأخيه موضح الخلاف ، وانفردوا
بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ، والمناجاة مَسْرُة : والمَسْرُة لا تكون إلا
في أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه

ونلاحظ أن ﴿ خَلِّصُوا ﴾ (٨٠) [يوسف] هي جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ﴾
(٨٠) [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التي يتساءل فيها مَنْ
لا يملكون ملكة عربية ، كيف يأتي القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول راءياً لو أنهم امتلكو اللغة كملكة لعرفوا أن ذلك جائز
جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ هَيَّاءٌ ﴾ (٤) [التهميم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها الفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ،
كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة وحدة

ومثال آخر . هو قول إبراهيم خليل الرحمن

(١) مجاهد بن جبراً كلمة سرا وخصته بالحديث فخلصوا نجياً أي متخلصين تنجي
الرجلان أفصى كل منهما إلى الآخر بحديثه سرا [القاموس القويم ٧/٢٠٥] بتصريف .
(٢) الظهير المعين المساعد كانه يستند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨]
بتصرف

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

أى أن إبراهيم عليه سلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » . وكذلك كلمة « عدل » فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما ، فالقاضى لا يصدر الحكم وحده ، بل يصدره بعد التشاور مع المستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويقال « حكم القضاة عدلاً » . ولا يقال إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك . ﴿ نَجِيًّا .. (٨٠) ﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خطورتنا منها ، فهم حين استياسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليقتاحوا

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يبدى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ لِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ﴾ [يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ، أو هو رئيس الرحلة ، وحين
راهم قد قبلوا فكرة العوبة دون أخيهام الذي احتجّزه عزيز مصر ،
قال لهم رايه الذى حذرهم فيه أن يفعلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم
موثقاً من الله إلا أن يُعَاطَ بهم ، كما يجب ألا يفسوا أن لهم سابقة
حين أخذوا يوسف وضيّعوه

وبناءً على ذلك استقر قراره ألا يبرح المكان ، ولن يعود إلى أبيه
إلا إن أدركه بذلك ، أو أن يحكم الله له بأن يُسلّمه عزيز مصر أخاه ،
أو أن يموت هنا فى نفس البلد

وهذا القول فى ظاهره دفاع عن النفس وحجل من أن يعود إلى
أبيه بدون بنىامين ، ولذلك ترك إخوته يتحملون تلك المواجهة مع
الأب

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ، لأنه فقد فى الرحلة
الأولى يوسف ، وفى الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن
الكبير الذى برأس الرحلة .

وفى هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان الملروض أن تدور
مُداولة بين الإخوة فى تلك المُسْأَاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس
الرحلة حسم الأمر

وحين سألوه ، ماذا تفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذى أوردته الآية

التالية

﴿ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَنَاءُكُمْ
إِنَّا سَرَقْنَا وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا
لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٨١)

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالصبط ، فقد اتهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز سَوَاع الملك في رَحْلِهِ ، ولا تعلم هل نَسَّها أحد له ؟ وهل هي حيلة^(١) ومكيده ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذ العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخيئنا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوت وجود سَوَاع الملك في رَحْلِهِ هو السبب في كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد كُتِبَ أولاده ، لأن هناك سوابق لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم - إن كُذِّبهم - ما جاء به الحق على الصفتهم .

﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٨٢)

(١) الحيلة - الحق في تغيير الأمور وهو تقلب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الواو واحتمال - طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ - ٨٦)

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٥٨٠/٥) : يرينون بالقريه مصر وقيل قرية من قرأها نزلوا بها وامطاروا منها ، وهذا مجاز بالحذف وتقديره - وأسال أهل القرية

أى أنك يا أبانا إن كنت تشك فى أقوالنا ، يمكنك أن تطيب أذنة أخرى من المكان الذى كنا فيه ، لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجة ، وحدث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت معنا شهدت الواقعة ، فقد أذن مؤذن بالحدث ، وتم تفتيش العير علنا .

ماذا أردت أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل لعير التى كانت تسير معنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب .

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (٨٢) [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حدث من الأحداث لا يدُلُّه من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ، ومن سبب يوجبه ، ومن قوة تنهض به

وهى بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيقال

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ ..﴾ (٨٢) [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يسأل أهل القرية ، أو أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو أنك نبي ويوحى لك الله فمسألة أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ..﴾ (٨٦) [يوسف]

ونعلم أن العير هي لمطايا ، سواء أكانت نياتاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البغال التي تحمل البضائع .

وحين يُقال :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ..﴾ (٨٧) [يوسف]

أي أن العير كان لها في الأمر شيء فوق الملابس كلها

ومثال هذا ما كان في موقعة بدر : فقد خرج رسول الله ﷺ ليلقي العير القادمة من الشام وهي مَحْمَلَةٌ بالبضائع ؛ ليصدرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهجرين التي كانت بهمكة ، ولم يكن مع هذه العير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِمُوا من مكة ؛ وصفهم بالنفير ، أي الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان إذن فكل حَـدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يردد الحق سبحانه ما جاء على السنة إخوة يوسف حينما عادوا ليلقُوا آياهم ، وليس معهم أخوهم سيامين ، وكذلك تَخَلَّفَ أحبيهم الكبير أو رئيس الرحلة

يقول الحق سبحانه

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ..﴾ (٨٨) [يوسف]

ويجوز أن تستيشهم قد نَمَّ في مكان بعيد قليلاً عن العُمران .

ولحص جنود أو مساعدين يوسف امتعتهم التي عثروا فيها على صواع الملك

وسمى المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ، نحص فيه البضائع الخارجة أو الدخلة إلى البلد ، فنقولهم -

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى اسأل أهل الموضع الذى حدث فيه التفتيش وكذلك قولهم -

﴿وَالْغَيْرِ الَّتِي أَقْبَلْتُ فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

أى - اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجئنا بصحبيتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكررنا قولهم

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كنيتهم من قبل ذلك ، لذلك أرادوا هنا أن يثبتوا صدقتهم ؛ وحين يسأل أبوههم يعقوب ؛ سيجد أنهم صادقون محلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقتهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن ولدهم قد شك فيهم من قبل حين جاءوا بدم كذب ، وأدعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ
جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٢)

الامور التى تحالف الضمير ؛ ويُستحى منها ، ويُخشى مَفْبِتُهَا^(١) :
هى أمور تستعصى على النفس ، وتحتاج النفس إلى علاج حتى
تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسِّر لها ، ما أن تُقدِّم على فعل الامر
المستهج ، وهذا ما يُقال له : « سَوَّلَ » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ..﴾ (٨٢) [يوسف]

أى يَسَّرَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا يصعب أن تقبله النفوس
المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظة أن جاهدوا له بقميص يوسف
وعليه الدم الكاذب

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا
تَصِفُونَ﴾ (١٨) [يوسف]

(١) الجمال البهاء والحُسن يوصف به الحسن والمعنى قال تعالى ﴿ فَصَبِرْ جَمِيلٌ ﴾ .
(٢) [يوسف] ، وهو جمال معنوى وقوله ﴿ فَاصْبِرْ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر] الذى
لا لوم فيه ولا عتاب . [الفلاسوف القويم ١/ ١٢٨] - والمراد هنا بالصبر الجميل هو
الصبر المؤس الذى يعطى أملاً

(٢) المغيرة العاقبة غلب الامر ومليته عاقبته وأخرى [لسان العرب - مادة صبر] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحد ، بل ستأتي من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر في النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خوطبنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فهبات الفرج قد اقتربت ، فقال

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف]

في هذه الآية طلب الأمل الذي يوحى بالفرج ، وقد كان

وبعض من الذين تأخذهم الغفة يتساءلون

لماذا قل يعقوب :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا . ﴾ [٨٢] [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول ولماذا تفسرون كبير الإخوة الذي رفض أن يبرح مصر ، إلا بعد أن يأتين له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده . يوسف وبنيامين وشمعون ، لذلك قال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴾ [٨٢] [يوسف]

ولم يقل : يأتينى بهما

وَيَذِيلُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةُ لَكْرِيْمَةٌ بِقَوْلِهِ .

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٢) [يوسف]

فإنَّه سبحانه يعلم أين هم ، لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجرّيه علينا من تصرفات

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَنَوَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَآتَيْتُتْ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ، مما جاءوا به هو خير أحزنه ، وخلاً بنفسه ، لأنه ببشريته تحسّر على يوسف فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسف .

وساعة تسمع نداءً لشيء محزن . مثل : « يا حُزْنَاهُ » أو « يا أسفاه » أو « يا مُصِيبَتَاهُ » ؛ فهذا يعنى أن النفس تصيق بالأحداث وتقول « يا هم » هذا أوانك ، فاحضر . أو أنه قال

﴿يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ ..﴾ (٨٤) [يوسف]

لأن أحاده بنيامين كان أشبه الناس به ؛ فكان حُزْنُهُ على يوسف

(١) كظيم أى سكت وصبر على ما فى نفسه من العيظ . ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظفه للفيظ أى كربه وأحمره وأسكته وشق عليه (القاموس القويم

طاقة من الهم نزلت به ، وتبعها طاقة هم أخرى ، هي افتقار بنيامين ،

وقول الحق سبحانه .

﴿وَأَبْيَضُ عَيْنَاهُ .. (٥٤)﴾

[يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثرت حتى بيا الجزء الاسود في العين وكانه أبيض . أو أبيض عيناؤه من قسرت حزنه ، الذي لا يبكي لأحد ويكظمه

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد يقاوم على أن يتحكم فيها

ونجد رسولنا ﷺ يبكي ، وتذرف^(١) عيناؤه حزناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - . أتبكي ؟ أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيت عن صوتين أحسني فاجرين : صوت عند مصيبة . خمش^(٢) وجوه ، وشق جيوب^(٣) ، وربة^(٤) شيطان^(٥) .

وقد قال رسول الله ﷺ .

(١) الذرف . صب لدمع . درفت العين الدمع أسألته [لسان العرب - مادة ذرف] .

(٢) الخرش ، المسوش . وقد خمش وجهه . خمشه [مختار الصحاح]

(٣) الجيوب جمع جيب . والجيب إنما يكون في الثوب موضع الصدر [تفسير القرطبي ٤٧٦٧/٦]

(٤) الربة الصبيحة الصرينة والرتين الصباح عند البكاء قال ابن سيده هي الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء [لسان العرب - مادة ربي] بصرف

(٥) أخرجه الترمذي في سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبد الله ، قال الترمذي : هذا حديث حسن . مكنا ورد الحديث في الترمذي ولكن في فتح الباري (١٧٤/١) رواية « صوت عند نقعة ، ليس ولعب ، ومزامير الشيطان »

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن . ولا نقول إلا ما يرضى ربنا .
وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »^(١) .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون
جسموداً^(٢) أو يكون صخراً لا يتفاعل للأحداث ، بل يريده مُفعلاً
للأحداث ، لأن هذا لَوْزٌ يجب أن يكون في إنسانيته وهذه عاطفة
يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعليها

فسبحان هو لدى خلق العاطفة ، والغريزة في الإنسان ، ولو أراد
الله الإنسان بلا عاطفة أو غريزة لَفَعَلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة
والغريزة في الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مهمتها ، يقول لك
المنهج . لا لأن مهمة المنهج أن يَهْدِيَّ لك لانفعال .

والمثل الذي أصريه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام .
يقول له المنهج . كُلْ ما يقيدك ولا تَكُنْ شَوْهاً^(٣)

والمثل الآخر . غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج عرف
ما يقيدك ، ولا تستخدم هذه الغريزة في التجسس على الناس .

(١) حنظل عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٠٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢١٥)
من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) الجلود والجمود . الصخر . وهي الصخرة التي تكون في الماء القليل [لسان العرب -
مادة جلمد]

(٣) الشَّوْهَ أسوأ الحرم وهو غلبة الحرم والقَّيْرُ السريع الطعام الشَّهْوِ الحرم
عليه [لسان العرب - مادة شوه]

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتي بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كإنطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهج الغرائز والعواطف لتبقى في إطار مهمتها .

والعاطفة - على سبيل المثال - هي التي تجعل الأب يحنو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يعطي غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ هُوَ كَظِيمٌ ٨٤ ﴾

[يوسف]

أي أنه أخذ النزوع على قدره وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القرية » أي أحكمتنا غلق فوهة القرية ، بما يمنع تسرب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ قَالُوا أَنَا لِلَّهِ تَفَتُّوا أَنْذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٨٥ ﴾

ويقابل أن يسأل ومن الذين قالوا ليعقوب ذلك . وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولّى عنهم ؟

(١) نشأ وفتى زال وتحوّل والمفسر عثما أي ماوت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم

علموا باليقين أنه يدوم على ذلك [تفسير القرطبي ٣٥٨٤/٥]

(٢) الحرص الذي أذبه الحزن أو المشق . الذي لا يقدر على النهوض والحرص أيضاً

الذي أحرف على الهلاك [لسان العرب - مادة حرص] بتصرف كثير . قال القرطبي

في تفسيره (٣٥٨٥/٥) : أصل الحرص الضعف في الجسم أو العقل من السهر أو

المشق أو البرم .

نقول لقد عيش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقال في الاثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له : تالله انهضمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سن أبيك إسحاق .

والمعنى أنك صرّت عجوزاً عاجزاً ، مهتماً قال : إنما هشمتني يوسف فعتب عليه الله في هذه القولة وأوصح له : أتشكو ربك لخطئه ؟ فرفع يده وقال خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لي . قل غفرتُها لك^(١) .

وقد نبّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللّٰهِ نَتَنَبَّأُ بِذِكْرِ يُوسُفَ حَتَّىٰ نَكُونَ حَرَضًا أَوْ نَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾
[يوسف]

أي . لا ترال تذكر يوسف وما حدث به ، حتى تُشرف على الهلاك و . الحَرَضُ ، كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده لعل سبحانه :

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢ / ٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيمى وعزاه لأبي جوير الطبري قال طلحة : أتيت ابن يعقوب دخل عليه جاره فقال يا يعقوب ما لي أراك قد انهضمت ومنيت . ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال هشمتي وألتفتني ما ابتليني الله به من هم يوسف ، وذكره . فأوحى الله إليه يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقى ؟ فقال يا رب . خطيئة أخطأتها فاغفرها لي قال فإني قد غفرت لك فكان بعد ذلك إذا سئل قال ﴿ إِنَّمَا أَنُكْوِرُكَ وَيُحْزِنُنِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (٥٦) [يوسف]

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العيادة له ، والبَث : هي العصية التي لا قدرة لأحد على كتمانها ، فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءاً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين ، نوع يتوحد إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستمعيحه ، ونوع آخر يتأبى على الميئلى ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد »

والحق تبارك وتعالى يقول في كتابه

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ (٤٣) [الانعام]

فساعة يأتي البأس وتضرع إلى الله : يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذكر ، وأعادنا إلى الله الذي لن يزيل لبأس إلا هو

أما الذي يتمرد ويستعسى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بعصية ، فهو يلطف بمن يدعو

وتسأل بعضهم ، ولماذا لم يقل يعقوب ما علمنا إياه رسولنا ﷺ
﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴾ (١٥٦) [البقرة]

(١) حقيقة البَث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء السهلة التي لا يتهيأ له أن يفعلها.
قال الحسن بن علي حلفتي وقيل أشد العون [راجع تفسير القرطبي ٣٥٨٦، ٥]

ونقول إن هذا من النعم التي اختص بها الحق سبحانه أمة محمد ﷺ ؛ وحسين نخل بعضهم على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه وأرضاه - وكان يعني من وعكة ، وكان يتأوه ، فقالوا له يا أبا الحسن أنتوجع ؟ قال أنا لا أشجع على الله

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواطرها عنها - يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حزنه وغمه إلا إلى الله ، فهو اللامس على كشف الضر ، لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الدثب المكنوية أن يوسف ما زال حياً ، وأن الرؤيا التي حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأنز الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ
وَلَا تَأْتِسْوَ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ
اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

ونلاحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والآخر

(١) تحسس الشيء، وتحسس منه طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه قال تعالى ﴿يُوسُفُ

أَتَاهُمَا فَحَسُّوْا مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (٨٧) [يوسف] أي اتبعوا أخبارهما راهبوا عنهما

الأكبر الذى أصرَّ على ألا يبرح مصر إلا بعد أن يأنن أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكر يوسف وأخيه ، ولم يأت ذكر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صفاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧) [يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحسُّ ، والحسُّ يُجمع على : حواس ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندها من الأمور المُحسَّنة ، وتتركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنوات المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ، بل اكتشف العلماء أن هناك حواس أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضت لهذا الأمر فى مرات كثيرة سابقة .

وقوله

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧) [يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كي تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أطلقت على مَنْ يقتصت ويرى
ويشم رائحة الأخبار والتحركات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له
« عين » أيضاً

وفي عرفنا انعام نقول لمن يحترف النقاط الأخبار « شم شم لنا
على حكاية الامر الفلاني »

وتابع يعقوب القول

﴿ لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحٍ ^(١) اللَّهُ إِنَّهُ لَا يُؤَسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧)

أي : إياكم أن تقولوا لنا ذهبنا وتعبنا وتحيلنا ؛ ولم نجد حلاً ،
لأن الله موجود ، ولا يزال له رحمة .

والأثر يقول : « لَا كَرْبَ وَأَنْتَ رَبُّ » .

وما يعزُّ عليك بقاتونك الجأ فيه إلى الله

وقد علمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حزبه أمر قام وصلى » ^(٢) .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسببانه فوق كل الأسباب ،
وجربوا ذلك في أي أمر يُفضلكم ، وإن ينتهي الواحد منكم إلى نهاية
الصلاة إلا ويجد حلاً بما أمضاه

(١) الروح الرحمة . معناه روحاً لأن الروح والراحة بها وقوله « لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ » .

(٢) [يوسف] أي لا تفلتوا من روح الله . قاله ابن زيد يريد أن المؤمن يرجو روح
الله [راجع القرطبي في تفسيره ٣٥٨٧/٥] و [لسان العرب حلة روح]

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود في سننه (١٢١٩) من حديث حذيفة
ابن اليمان

وكلمة « رُوح » نحدّها تُنطَق على طريقتين « رُوح » و « رُدح » ،
و « الرُّوح » هي الرائحة التي تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، متلماً
يجلس إنسان في يوم قَيْظ^(١) ، ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول

﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ (٢٩)

[الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسِّنات حين يشتد القَيْظ ، ونجلس
في بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ، فيتقطر الجو بما في البستان من
زهور

والرُّوح^(٢) هي التي ينفخها الحقُّ سبحانه في الجماد فيتحرك

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذي يسير عليه
كل مؤمن ، فيقول

﴿ إِنَّهُ لَا يِيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧)

[يسف]

لأن الذي ليس له ربٌّ هو من ييَّاس ، ولذلك نحد نسبة المعتكرين
بين الخلافة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ، لأنه يعلم أن له رباً
يساعد عبده

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ، فسبحانه يهبُّ ممَّا فوق
الأسباب .

(١) القَيْظ : صميم الصيف واليوم القَيْظ شديد الحر [لسان العرب - مادة قَيْظ]
(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس ، قال تعالى ﴿ ثُمَّ مَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ (٢٦)
[السجدة] أي من سر الحياة التي لا يخلقها إلا الله ، أي يروح من الله لا من غيره ،
يروح لا يملك نفسها في لاسنن إلا الله [القاموس القريم ١ / ٢٨]

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه بعد إلهها قادراً ، يعطى بالأسباب .
وبما فوق الأسباب ، وهو حين يمنح هذا المنع هو عين العطاء ؛
لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

ويتقلبا الحق سبحانه إلى نقلة أخرى ، وهي لحظة أن دخرا على
يوسف عليه السلام في مقره بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا
الْفُرُّ وَحُشْنَا بِضُرِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَأَرْفِ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

ولم يذكر الحق سبحانه اسم من دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ،
والضمير في « عليه » لا تد أن يعود إلى معلوم ، ويدلوه بالتفخيم
ثالثين

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الْفُرُّ .. ﴾ (٨٨) [يوسف]

أي أن الجوع حنبونا إلى قُرَال ، وبدأوا بتروقيق قلب من
يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ، فهو الأعلى وهم الأدنى

ويستمر قولهم

(٦) أي : ومما ثمن الطعام الذي نعتاره وهو ثمن قليل . قاله مجاهد والحسن وغير واحد
[ابن كثير ٤٨٨/٢] وقال القرطبي (٢٥٨٨/٥) : الإرجاء : السؤى بدنه والمصي
أبها بضاعة : تطلع ، ولا يقبلها كل أحد .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

[يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحصسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا صُنْدُقَ التَرْقِيقِ والتَفْخِيمِ كَلَوْنِ مِنَ الْمَكْرِ ، سالتفخيم بنداثة بلفظ العزيز ؛ أى الصالح المُتَمَسِّكُ ، ويعنى هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر فى متناول سلطانه

وانترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى مُزَالٍ ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُرْجَاةٍ ، أى بضاعة تُسْتَحْدَمُ كَأَثْمَانٍ لِمَا سوف يأخذونه من سِلَعٍ

وكلمة ﴿ مُرْجَاةٍ ﴾ . (٨٨)

[يوسف]

أى مدفوعة من الذى يشتري أو يبيع

والحق سبحانه يقول

﴿ أَلَمْ نَرِ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي مَحَابِبَهُ ثُمَّ يُزْكَفُ بِهِ ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ ..

(٤٢)

[الشورى]

وكلمة « يزجى » بمعنى ، يدفع

إذن فما معنى قول الحق سبحانه

﴿ بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ .. ﴾ (٨٨)

[يوسف]

(١) الرُّكْمُ جمعك شيئاً مرقى شمره حتى تجعه رُكَّاماً مركباً مركباً الرمل والسمام والمعو
ذلك من الشيء المركب على بعضه وارتمك الشيء وتراكم إذا اجتمع [لسان العرب -
مادة ركم]

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ، جَرِّبْ هذا الأمر فى نفسك ،
وراقب كيف تدفع ثمن أى شىء تشتريه ، فإن كان معك نقود قديمة
ونقود جديدة ، ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛
وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشتري منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة
التي تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فانت تريد أن تتخلص من النقود
القديمة ، وتعمل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكنك أن تفهم معنى

﴿ بِضَاعَةِ مَرْجَاةٍ .. ﴾ (٨٨)

[يوسف]

على أنها بضاعة رديئة

لكن الضرر الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للميرة
التي سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التي تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسانهم .

﴿ لَأَرْفِكَ الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٩)

[يوسف]

أى أنهم يرجونه أن يؤفى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إن كان ما
جاءوا به من أثمان لا يؤفى ما تساويه الميرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك
الخرقية فى الكيل صدقة .

وبذلك رُدُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة
البشر على الدفع ، لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى

ولقائل أن يسأل - أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟
نقول إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختص به الحق سبحانه آل
محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن
الصدقة لا تنبغي لأهل محمد ، إنما هي أوساخ الناس »^(١) .

وانظر إلى ما فعلته الترفيقات التي قالوها ؛ نظر إليهم يوسف
عليه السلام وتبسم ، ولما تبسم ظهرت ثنياه^(٢) ، وهي ثنايا مميزة
عن ثنايا جميع مَنْ رآوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

ومجرء هذا القول في صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل
والتحقيق ؛ لمعرفة شخصية المتحدث .

ثم يأتي التلطف الجبين منه حين يضيف .

﴿ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [٨٩]

وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العذر بالجهل ، ولم يتحدث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٤) . وسلم في صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بن ربيعة بن ربيعة . لا ين الصدقة لا تنبغي لمحمد ولا آل محمد ، إنما هي أوساخ الناس ،

(٢) ثنايا الإنسان في فمه هي الاسماء الأربع التي في مُقَدِّم فمه . ثقتان من فوق ، وثنتان من أسفل [اسماء العرب - مادة ثنى]

إليهم بعزة الكبرياء ، وغرور المكاة التي وصل إليها ، وهدفه ان يحفف عنهم صدمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم

وهذا معلما يكون أحدهم قد أخطأ في حقك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالته مرارته من سلوكه ، فتذكره بما فعله قديماً وأنت تقول له إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طيشك ، لكنك الآن قد وصلت إلى درجة التعقل ونهم الأمور

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثره بشكواهم ، ثم تبسمه لهم ، وظهور ثنياه دفعهم إلى تذكره^(١) ، ودار بينهم وبسه الحوار الذي جاء في الآية التالية

﴿ قَالُوا لِمَ تَذَكَّرُكَ يَا يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ
وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرفوا عليه ، وقالوا

﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ . ﴾ (٩٠)

[يوسف]

(١) كان يوسف عليه السلام إذا تبسم كان ثنياه للؤلؤ المصقول قال ابن عباس تبسم يوسف ، فتهبوا بيوسف فملأوا له على جهة الاستفهام ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ (٩٠)
[يوسف] وفي هذا رواية أخرى تذكرها القرطبي في تفسيره (٣٥٩١/٥)
(٢) من عليه اسم عليه وأحسن إليه قال القرطبي في تفسيره (٣٥٩١/٥) ، أي قد من الله علينا بالنجاة والملك ، بتصرف

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريري الذي أكنوه به « إن » و
« اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُتَلَتِّة بالفرح والتعجب من نجاحهم في
التحسس الذي أوصاهم به أبوه .
فَرَدُّ عَلَيْهِمْ .

﴿ أَدَّ يَوْسُفُ وَهَذَا أَلَى .. ﴾ (٩٠) [يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكر
يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه في النعمة ، وأن
الحق سبحانه قد أمر الاثنين .

ويجىء شكر يوسف لله على نعمته في قوله

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
(٩٠) [يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذي يعرض القضية العامة التي تنفعهم
كإخوة له ، وتنفع أي سامع لها وكل من يتلوها ، وقد قالها يوسف
عليه السلام بعد بيّنة من واقع أحداث مرّت به نة من الرؤيا إلى هذا
الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع معاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف
وأخيه مما ابتلياً به واجتمعا من بعد الفُرْقَةِ ، وعَلَّ يوسف ذلك
بالقول .

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ .. ﴾ (٩٠) [يوسف]

أي مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تقتُر
هُمَّتَهُ عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصي مهما رُبِّتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضِيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا
بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه في الدنيا والآخرة

وبأى قول الحق سبحانه بعد ذلك يجعل لنا ما قاله إخوة يوسف
في هذا الموقف

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾

و « تالله » قَسَمَ بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴾ (٩١)

[يوسف]

أى خَصَّكَ بشيء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤثِرَكَ
بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من الملْك وعلو الشَّان
والمكانة

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا
بخطيئتهم حين حاولوا أن يكونوا مُقَرَّبِينَ مثله عند أبيهم ، ولكنك
يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدِّماً عند ربِّ أبينا وربِّ
العالمين

والشَّان والخل انتهى كما فيها يؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بدُّ أن
نتنبه إلى الفرق بين « خاطئين » و « محطئين »

والعبر قد قال لزوجته

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٦٩) [يوسف]

ولم يقل لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هي « الحاء » و « الطاء » و « الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو من يعلم منطقة الصواب ويتعداها ، أما المخطئ فهو من لم يذهب إلى الصواب ، لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه ، له .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرروا بالخطأ :

﴿ قَالُوا لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرِبُ ، فحين يديحون ذبيحة ، ويخرجون أمعاءها يجردون جوف الأمعاء دُمناً كثيفاً ، هذا الدهن يُسمى ثَرِبٌ

أما إن كانت مريلة ، ولم تتعد جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ناب من عليه هذا الثَرِبُ

والتثريب يعنى أن اللوم العنيف قد أذاب لشحم من لحمه ، وجعل دمه ينز ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن يثرل به ويسله .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال

« إِذَا زَنَتْ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ فَتَبَيَّنْ ^(١) زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ، وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ، وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ ابْنَاتُهَا فَلْيَجْلِدْهَا ، وَلَوْ بِحَبْلِ مِنْ شَعْرٍ » ^(٢) .

أى لا يقولن لها ، يا مَنْ قَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ، بِنِ فُلَيْحَاقِيهَا بِالْعِقَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ : فَإِنْ لَمْ تَرْتَدِعْ عَنِ الْفِعْلِ فَلْيَجْلِدْهَا ، وَهَكَذَا نَفْهَمُ أَنَّ التَّثْرِيبَ أَوْ اللَّوْمَ الْعَنِيفَ قَدْ يُؤَلِّدُ الْعِنَادَ

وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٧) [يوسف]

وَلَقَائِلُ أَنْ يَتَسَاءَلَ . وَلِمَاذَا قَالَ يُوسُفُ ذَلِكَ : وَقَدْ يَكُونُونَ قَدْ اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ؟

وَنَقُولُ ، إِنْ دَعَا يُوسُفُ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُمْ جَاءَتْ فِي حُدُودِ مَعْرِفَتِهِ ، وَلِتَصْغِيَةِ الْبُغُوسِ مِمَّا شَابَهَا بِهِذِهِ الْفَقَاءُ

وَقَوْلُهُ

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٧) [يوسف]

هُوَ فِهْمٌ لِحَقِيقَةِ أَنَّ أَيْ رَحْمَةً فِي الْعَالَمِ ، أَوْ مِنْ أَيْ أَحَدٍ إِنَّمَا هِيَ مُسْتَقْدَمَةٌ مِنْ رَحْمَتِهِ سَبِيحَانَهُ

(١) قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ لِمُسْلِمَ (٢٧٢/٩١) « مَعْنَى تَبَيَّنَ زِنَاهَا تَحَقُّقُهُ ، إِمَّا بِالْبَيِّنَةِ ، وَإِمَّا بِرُؤْيَا ، كَوَيْلٍ عِنْدَ مَنْ يُجَوِّدُ الْقِسَاءَ بِالْعِلْمِ فِي الْحُدُودِ »

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١٧٠٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر
لهم خطاهم القديم وعفا عنهم ؛ والله أولى منه بالعفو عنهم
ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما
جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو ائذى علم ما حدث لأبيه بعد
فراقه له .

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا وَأُنُوفِ بِأَهْلِكُمْ أَحْمَعِينَ ﴾ (١٣)

وكان يوسف عليه السلام ، قد علم أن أباه يربط عينيه من
الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذي
كان يلبسه إلى أبيه

وتقول كتب لسير أن أخاه الأكبر الذي رفض أن يبرح مصر ،
وقال ،

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴾ (١٤)

[يوسف]

قد قال يوسف ،

د يا أيها العزيز إنسى أنا الذي حملتُ القميص بدم كذب إلى أبي ،
فدعني أحمل هذا القميص لأبي ، كي تمحو هذه تلك ^(١) .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥ / ٢٥٩٣) : حكى السدي أن الذي حمل قميصه يهوذا
قال ليوسف أنا الذي حملتُ إليه قميصك بدم كذب فأمرته ، وأنا الذي أحمله الآن
لأسره ، وأيمود إليه بصره ، فمعه .

وقال يوسف عن فعل انقميص مع الاب

[يوسف] ﴿فَأَنقَرَهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝٩٢﴾

و نلاحظ أنه لم يقل . « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

[يوسف] ﴿وَجِئَ بِهِ إِلَىٰ آبَائِهِ ۖ ۝٩٣﴾

إشارة إلى الحنان الأبوى الذي فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده في الحزن .

و

[يوسف] ﴿يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝٩٢﴾

أى : يرتد إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف

[يوسف] ﴿وَأَتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ۝٩٤﴾

هذا تعبير قرآنى دقيق ، أن يُحْضِرُوا معهم كل من يمُتُّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم^(١) ، ولم يقل يوسف « بلكم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط

ونلاحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل من يمُتُّ لهم بصلة قُرْبَى : لأن فى مثل هذا الأمر - من موقع عزيز مصر - إجباراً للآب على المجيء . وهو يُجِلُّ أباءه عن ذلك

(١) قال مسروق كانوا ثلاثاً وتسمين ما بين رجل وسراة القرطبي في تفسيره

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفِيدُونِ^(١)﴾^(٢)

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلتصقا بشيء آخر وانفصل عنه ، وفصلت العيرُ ، أى . خرجت من المدينة وتجاوزتها ، لتسير فى رحلتها ، ولمقصود خروج لقافلة من حدود مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..﴾^(١) [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدقوا قوله ، فاضاف

﴿لَوْلَا أَنْ تُفِيدُونِ﴾^(٢) [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخرف ، لأن التفيد هو الخرف^(٣) .

(١) ريح يوسف أى ريحا تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الراحة أى رائحة [القاموس القويم ٢٨٠/١]

(٢) يُفِدُ : يصفى رائحة من الهرم ، أو كتب حديثا . وائى بالباطل . وقد رايه لضعفه واسطه . أو بين ما فيه من الخطأ [القاموس القويم ٨٩/٢]

(٣) الخرف : عساد العقل من الكبر ، [لسان العرب - مادة خرف]

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صورَ
المرائي والاصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُقِيل للإنسان
أنها تلاشت .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أي جماعة
كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلت عنه منذ ساعة أو ساعتين . مما
يدل على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة
قبل أن يضيع .

وكذلك الاصوات ! فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛
ويقولون : لا شيء يضيع في الكون ، بل كل ما وُجد فيه محفوظ
بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشمُّ الريح من على
مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر
الكلاب المدربة في المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أي محاولة
لتهرب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من
بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث
الآن في كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء
المحيط بالإنسان ؛ فليتنا أن ندرك أن العبرَ عندما خرجت من أسوار
المدينة ؛ وأخذت طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه
السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يشمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التي
يجعلها قميصه القادم مع القافلة .

ولمّا نزل أن يقول : ولما إذا ارتبط قدسّم يعقوب لرائحة يوسف
بمخرج العير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العير لحظة تواجدها في المدينة تكون رائحة قميص
يوسف مختلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى
داخل أي مدينة ، ويصعب تمييز رائحة يعقوب لتغلب على كل الروائح ؛
ويختلف الأمر في الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشي مبة الرائحة دون أن
يعترضها شيء .

وبذلك تؤمن أن كل شيء في الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً
لقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الأنعام]

وكل ما يصدر منك مسجل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة
لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويرد من بقي من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد ريح يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ (١٢) ﴾

وكانهم قد ملوا حديث عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه فاضل
له ؛ إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنون الضلال^(١) بمعنى
الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي
لا علاقة لها بالتدين من محبة شديدة ليوسف ، وتعلق به ، والتمنى
لصودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقع لقائه ، وهم الذين ظنوا أن
يوسف قد مات .

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحسوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق
مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهْدًى (٦) ﴾ [الضحى]

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ،
فَارْتَدَّ بِصِيرٍ ۚ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَكَلُمُ مِنْ
أَلَدِّ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وحين حضر البشير^(١) ، وهو كما نقول الروايات كبير الإخوة ؛
ويقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن
يأذن له والده ، أو يأتى حلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى
مصر ، بعد اتهام أعوان المزيق له بالسرقة ، طبناً لما أراد يوسف
ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فالتقاء على وجه الأب
تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفرح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه
فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حثته
قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد
ذلك هو بكاء من فرط الشوق لرؤية ابنه .

(١) البشير : الذي يُبشِّرُ القوم بالبشر السار . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا
الذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به سَكَنًا بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدي أنه قال
للإخوة : قد علمتم أنني ذهبت إليه بقميص التُّرَّة (الحزن) فدعوني الذهب إليه بقميص
الفرحة . [تفسير القرطبي ٢٥٩٦/٥]

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحي من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرع له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلّت انتصارات الحق والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٦) [يوسف]

ولم يقل ذلك إدلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبي . وأن الواقع قد أيد الكلام الذي قاله لهم :

﴿ يَا بَنِي إِدْرِيصَ أَقْبِرُوا فِي صُورٍ مِّنْ دُونِ هَٰذَا ۚ إِنَّهُمْ لَا يَأْسَ مِنَ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧) [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مدركات الأشياء على قدرها ، وهناك أشياء فوق مدركات العقول .

وحين يحدثكم معصوم عن ما فوق مدركات عقولكم إياكم أن تكذبوه ؛ سواء فهمتم ما حدثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عما فوق مدركات العقول .

(١) تخصص الشيء وتخصص منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ الْأَمْرَ فَمَا هُوَ مِن يُّوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ (٨٧) [يوسف] . أي : يتبعوا أخبارهما وابتشروا منهما بمغاية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .
راجعته على الأصل وخرج إصابته فضيلة الشيخ محمد المنبري المستشار بالأزهر والاستاذ عادل أبو المعاطي .